الإشراف الفني : زهير الحمو

السيّد والخادم

ليون تولستوي

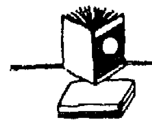
الأعمال الأدبية الكاملة

-١٧-

السيّد والخادم

ترجمة:

صيّاح الجهيّم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتـــاب :

Léon Tolstoï

Maïtre et Serviteur

— 17 —

Editions Rencontre

Lausanne

السيد والخادم = Maître et serviteur/ ليون تولستوي؛
ترجمة صياح الجهيم . — دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ .
٤٥٠ ص ؛ ٢٤ سم . — (الأعمال الأدبية الكاملة ؛ ١٧) .

١ — ٨٩١٫٧٣ ت و ل س ٢ — العنوان ٣ .. العنوان الموازي
٤ — تولستوي ٥ — الجهيم ٦ — السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع — ١٥٢ /٢/١٩٩٥

مقدمة

يتضمّن هذا المجلّد ، إلى جانب قصة « السيد والخادم » التي لعلها أغرب ما كتبه تولستوي في قدرتها الايحائية والتي تشكل وثيقةً حقيقية من وثائق الأدب العالمي الشامل ، مجموعةً من الأقاصيص والحكايات الشعبية التي تتدرّج من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٩(أي قبل موت الكاتب بسنة) والتي تنتمي في معظمها إلى النوع التثقيفي الذي تبنّاه مؤلفُ « آنا كارينين » قبل نحو خمس عشرة سنة . ولْنُبادرْ إلى القول : إننا أضفنا إليها بعض النصوص التي استلهمها أو حاكى بها مباشرةً كُتّاباً آخرين ، ولاسيّما « موباسان » مثل « نُزُل سورات » ، و « بوذا» ، و « كارما » ، و« أربعون عاماً » ،و « مفرط الغلاء » ، والتي من أجل ذلك أُثبتتْ في آخر هذا المجلد ، مع أنها أُلّفتْ في فترةٍ أسبق أحياناً من الحكايات التي تُدعى الحكايات الشعبية . وكذلك الأمر بالنسبة إلى قصة « حياتي» التي ليست من عند تولستوي ، لكنها من عند فلاّحةٍ تُدعى « آنيسيا» كانت تسكن آنئذٍ « كوتشاكي » على مقربة من « إياسنايا بوليانا»، وقد خبرت السرّاء والضراء ، ولحقت بزوجها المنفيّ إلى سيبيريا ، ثم

ترمّلت وانتهت بأن تزوّجت مُستخدم كنيسة القرية . وكانت « آنيسيا» تُحسن القَصّ ، مثل كثير من الفلاحين الروس ، ولذلك فان أخت الكونتيسة تولستوي ، « تاتيانا كوزمنسكي » ، التي كانت تصغي إليها بسرور ، قد جمعت قصتها . قالت ابنةُ تولستوي « لشارل سالومون» في رسالة له : « كتبتْ خالتي هذه القصة كلمة كلمة من إملاء هذه المرأة عليها . وكنتُ أحضر هذه الجلسات . وكانت الفلاحة تتحدث بلغة شعبية جميلة جداً: لغة مقاطعة «تولا» التي يمكن أن تُعَدّ اللغة الشعبية لوسط روسيا . وكان والدي يُعجب كثيراً بآنيسيا هذه . وكان يحضر أحياناً جلسات إملائها . » وأضافت : « لقد صحّحت عمّتي .» « كوزمنسكايا» بناءَ بعض الجمل ، وغيّرت مكان بعض الكلمات . وكانت تصحيحات « ستراكوف » نحويّةً فقط . إن ذاكرتي رديئة جداً؛ ولستُ أذكر إن كان هو أم والدي مَنْ قام بالتصحيحات الأولى . لكني أتذكّر تصحيحات والدي . لقد كانت وافرة جداً . وقد نسختُها أكثر من مرة . وظلّ والدي مشغولاً ، لعدة أيام ، بهذه الحكاية وحدها ، وأثناء هذه الفترة القصيرة ، عكف عكوفاً تاماً وبشغف حقيقي على عمله . » والواقع أن تولستوي أصدر حكماً متحمّساً على هذه الحكاية ، لأنه كان مهيّأً دائماً ، كما يقول « سالومون » أن يرفع عالياً فوق كتاباته الخاصة ما يَصْدر مباشرةً عن الشعب . لكنه كان يرى ، في البداية ، أن هذه القصة إن أمكن لها أن تثير اهتمام طائفة من الجمهور فانها لم تكن موجّهة إلى الشعب . ولقد كتب لامرأته : إنّها مُغرقة في تصويرها الفوتوغرافي ، والمثلُ الأعلى غائبٌ عنها كليّاً . ومع ذلك ظهر

النص في إحدى المجلاّت ، لكن لم يُخرجه تولستوي بشكل طبعة شعبيةإلاّ بعد عشرين سنة ، أي في سنق ١٩٠٢ . بيد أن شعوره إزاء الحكاية تغيّر : لم يعدْ يفكّر بأنها ليست للشعب ، واكتفى بالقول: إنها ليست للأطفال !

لكن لِنعدْ إلى الأزمة الدينية والأخلاقية التي مرّ بها مؤلِّفُ « آنا كارينين » بعد نشر روايته بقليل ، وهو على أبواب الخمسين، وهي الأزمة التي ستوجّه حياته الوجهة التي نعرفها . لقد كان مستاءً من حياته الخاصة بالرغم من نجاحاته – بل بسبب هذه النجاحات ، على ما يبدو – وتأكّله القلقُ لأنه لم يتمكّن من أن يوفّق بين حياته وفكره ، على نحوٍ مُرضٍ ، بين حياته والفكرة التي يحملها عن الحياة الإنسانية الحقيقية الخيِّرة له وللآخرين ، فاقترب حيناً من الكنيسة الارثوذكسية ، ثم نفر منهاوأدار ظهره لها ليُنشيء لنفسه عقيدته الخاصة القائمة على تفسيرٍ شخصي تماماً للكتابات المقدّسة ، ولينتقل من هنا إلى صراع مكشوف، بكتاباته ، ضد جميع قوى هذا العالم ، وليبشر بالمثل الأعلى وهو الفقر . لكن لنكرّرْ قولنا : بكتاباته ، وكتاباته وحدها . وإذا بالمأساة تبرز . أحسّ تولستوي جيداً أنه لكي ينشر عقيدته ويجسّد كفاحه الروحي، فان عليه أن يتجرّد من جميع هذه الخيرات التي يحيا في وسطها . لكنه لا يملك القدرة على ذلك بالذات . فهومقيّدٌ في أعمق أعماقه بقوتين : التعلّق بالملكية التي سيقول عنها ، مع ذلك ، : إنها محور كل شرّ، وقوة الجسد . ونحن نعلم أية علاقة جنسية مُلحّة كانت تربطه بالكونتيسة

تولستوي . ووفقاً لضربٍ ماكر من المنطق ، كان كلما حاول أن يقطع القيود التي تقيّده ،وأن يوزّع أراضيه أو يتنازل عن حقوقه كمؤلف ، وهي حقوق مُجزية ، واجهتْه زوجتُه بالرفض الحاسم ، باسم الأسرة والأولاد . ومع مرّ السنين ، آل بها الأمرإلى استنكار كلّي « لنزعة» ، تولستوي كما كان يُقال آنذاك . ولذلك ، كانت العواصفُ تثور بين الزوجين ، في كل مناسبة ، مُبددةً الكاتب عن ذلك السلام الداخلي الذي كان يتوق إليه . ونستطيع أن نتصوّر ، من محاولات الهرب ، والمشاحنات المنزليّة، والتأمل الحزين للذات ، الألمَ الذاتي الصميمي لدى هذا الرجل ذي الصفاء الذهني الفذّ ، كما نستطيع أن نفهم الحلقة النهائية لهذا العذاب : فهو ككل شخص عاجزٍ عن التغلّب على النزاع الذاتي الصميمي ، يفرّ إلى الأمام نحو الموت في محطة « استابوفو» ... بعيداً عن زوجته وأملاكه .

ومن النادر أن رجلاً تمزّقه مثل هذه التناقضات الحيوية لا يَفْضح نفسه باحدى السمات السخيفة أو المضحكة . إنها الوجه المرئي ، الانساني ، الاجتماعي والأدنى ، لقلق غنيّ إلى أقصى حد ، وهو في الوقت نفسه خصب ورهيبٌ إلى أقصى حد ، وفي مبدئه يكمن ، مع ذلك ، العجزُ. لكنْ ، ألا يوجدُ بالفعل ، في أصل كلّ خلقٍ شعري عظيم ، عجزٌ عن الكينونة ، لدى المؤلف ؟ إن تولستوي ، تولستوي العظيم ، إذ يعجز عن أن يعيش عقيدته ، وأن يحقق مثله الأعلى وهو الفقر ، لَيَنْدفع في جملةٍ من المشاريع يَسْهل كثيراً التشهير بالجانب الهزلي أو المرائي

منها : مثلاً بدلاً من أن يغيّر حياته ويبيع ممتلكاته كما نصح بذلك المسيحُ الشابَّ الغنيَّ في الانجيل ، نراه يلبس كما يلبس الفلاحون ، ويقوم بدور الإسكافيّ ، ويحجّ مرتدياً ثياب الفقراء ، لكنه يصطحب خادماً يحمل حقيبةً ملأى بالملابس البديلة ، وبالثياب الداخلية الفاخرة . وهو يكتب « سوناتا كروتزر » في الوقت نفسه الذي يولد له الولد الثالث عشر . كل ذلك ، من غير شك ، وأشياء أخرى ! لكن بدلاً من أن نتهكم جزافاً ، لنحاولْ فهمَ آلية ذلك الضعف الذي يُقرّبه منا جداً . وإذا كان صحيحاً أن أسوأ عقابٍ للمذنب هو ألا يُدان ، وأن يُسْلَم إلى عذاب الضمير الذي لم يُقتَصّ منه — وقد وصف ذلك دستويفسكي في الجريمة والعقاب — جاز لنا التفكيرُ بأن تولستوي لابد أن يكون قد عانى شيئاً مشابهاً ، لفرط ما كان حبيسَ نجاحاته ، مغموراً بهالاتها السحرية — التي لا تلبث أن تغدو سيئة التأثير — من العافية والغنى والمجد والخصب العائلي ، لكنه يتألم لأنه لم يكن في نهاية الأمر سوى أيوب بلا غضب رباني ، وبلا قروحٍ ولا قمامة . انظروا إليه : إنه يحث على الفقر ويعيش كما نعلم في « اياسنايابوليانا » ؛ وهو ينادي بالعفة ويقضي أكثر من أربعين سنة قرب زوجةٍ كان تفاهمه معها قوياً ؛ وهو يطالب الوحدة ، وفي كل يوم ينهال عليه الزوّارُ من جميع أنحاء العالم ليحملوا إليه تكريمهم وإعجابهم (الذي كان يخجل منه في سره) ، أو ليطلبوا إليه معونةً أو نصيحةً ، وهو لا يألو جهداً في كل ما ليس جوهرياً : أي التخلّي عن ممتلكاته ، والرحيل . ونقطةٌ أخرى : إنه يطرح نفسه على أنه مضطهدٌ بسبب القضية التي يدافع عنها وبسبب الضربات التي لا يني يُهوي بها

على النظام القائم : السلطة والكنيسةوالجيش والمال والعدالة الإنسانية، لكنْ بينما كان جمهورٌ من تلاميذه الذين طبّقوا تعاليمه يعانون الانتقامَ والسجن والنفي ، كان هو شخصياً يُراعَى دائماً — وأضرّ به ذلك ضرراً عظيماً . وقد أبى القيصرُ نفسه أن يُمَسَّ شخصُه ، (وكان الحساب السياسي ، في هذه الحالة ، صائباً جداً) . وها هو ذا ، في سنة ١٩٠١ ، تُلقي عليه الكنيسه حرمها ، على أثر هجماته عليها ، فيجيب بجملته الشهيرة وباعتزاز : « الحقّ أني لا أشارك المجمع الكنسي عقيدته ، لكني أؤمن بالله الذي هو فيَّ الروحُ والمحبّةُ ومبدأُ كل شيء . » وإذا به يثير موجةً من الحماسة في العالم لدى جميع الذين يَسْكنُهم شعورٌ ديني لكنهم لا يمكن أن يرضوا عن الأجوبة التي تسوقها الكنائس رداً على حاجتهم إلى الجواب — أو على غياب الجواب . نحن نرى إذن ضرباً من الحتميّة تو تسم مصحوبةً هنا وهناك بضحك صامت من « الشيطان » ، وهي حتميةٌ دفعت تولستوي أحياناً إلى ذروة القلق وأوحت إليه بأسوأ الشك في نفسه : وهو أن يكون مسكوناً بقوة غامضة تَحْمله، في كل شيء ، على فعل ما لا يريده ، وعلى الإحجام عن فعل ما يريده، حسبما يقول القديس بولس . لكن عندما نعظ بدلاً من أن نعيش ، في الوجهة التي نعتقدها صحيحة ، فان الواقع لا يلبث أن يجيب تماماً بعكس ما كنا نتوقّع . لأن الواقع لا يَعْرض لنا مرآة أقوالنا ، بل مرآة أفعالنا وأيضاً مرآة أمنيّتنا الأكثر استتاراً عنا. وبهذا المعنى ، فالآخرون ليسوا الجحيم ، أو إنهم ليسوا جحيماً إلا بمقدار مايعكسون لنا بردود أفعالهم صورةَ رغباتنا اللاواعية . إن القوى التي تُحيط بتولستوي ، وانتصاراته « اللاإرادية » ألا تتوافق توافقاً غريباً مع تلك القوى التي لا يمكنه السيطرة

عليها في نفسه ، والتي لا يمكن الانفصال عنها (تحت طائلة الدمار وتلك هي المأساة)·لكن كفانا تأويلاً . ومن ذا الذي يمكنه أن يكشف عن سر تولستوي في مواجهته لنفسه وحيداً أثناء سهاده ؟ إن المذكّرات الحميمة ذاتها ليس بوسعها أن تعطي فكرة عن فداحة هذا الخطب ، لفرط ما أن الكتابة ، على هذا المستوى ، تغدو رياءً .

لكننا لا نريد أن نستبقي هنا سوى نقطة خاصة من هذا الامتحان الرهيب: عنيتُ بهاصلةَ تولستوي بالأدب خلال هذه السنوات الطويلة والمؤلمة ، أو بالأحرى إدانته لكل أدب باسم العقيدة التي اصطنعها لنفسه ، بل إدانته للفن عموماً ، لا للأدب وحده ، ومن وراء ذلك لكل ثقافة . حتى لقد يمكن القول : إن هذه الأدانة ، في أقصى حدودها ، إدانةٌ لكل نشاط فكري ، وهو نشاطٌ انتهى به الأمرُ إلى اعتباره مشبوهاً ، مفضلاً عليه النشاط اليدوي على صورة ما يعتقد أنها صورة الشعب الطيّب ! ولقد هوجم كثيراً على هذا السرطان النقدي الذي كان ضحية له ، لكن دون السعي الجاد للنظر إلى أصل هذه المسيرة . ويبدو لي ، في الواقع ، أنه لم يَجرْ التفكيرُ في الظاهرة التالية : وهي أن تولستوي الذي كان عاجزاً طوال سنيه عن أن يُقدِمَ على هذه التضحية بذاته التي كان يراها ضرورية للشروع في حياةٍ دينية حقاً ، يمارس على صعيد الأدب الزهدَ الذي كان ينبغي أن يُلزم به نفسه على صعيد الحياة . كانت ممارسةُ الفن تبدو له ترفاً بالمقدار الذي لم يتوصّلْ فيه إلى انتزاع نفسه من الترف الواقعي المفرط الذي كان يحيا فيه . ولم تكن الموسيقا ، مع بيتهوفن المسكين ، الوحيد ، الأصم ، العفيف ، تبدو له حسّيةً ، على نحوٍ شيطاني ، إلا لأنه لم يفلح أن يُسيطر في نفسه على نداءات الجسد التي كان يدينها بدلاً

من أن يقبل بها . ذلك أنه لو قبلها كما هي ، ولو أنه عاش ، لا أقول في الفقر وحده ، بل في العَوز ، مثل ملايين الناس ، مثل معظم الناس ، لأدرك حينئذٍ إلى أي حدّ يكون الفن والشعر والثقافة والعلم ضرورية للإنسان . لكن تضحيته التي لم تصل إلى التمام ، والتي ظلت نيّةً بغير فعل ، كانت لا تني تؤجّج فيه الطاقات العدوانية التي انتهت بأن تحوّلت إلى اغتيالٍ لكل أدب .

ألا يغدو « الفقرُ » الأدبي في الحكايات المخصّصة للشعب حينئذ تعبيراً شفّافاً ؟ ذلك الفقر هو ما لم يستطع تولستوي أن يفرضه على نفسه. ولا فائدة من إطالة الشرح . ليت القارىء يقبل على تلك الحكايات بهذه الروح دون حكم أخلاقي أو أدبي مُسبق. ذلك أن القارىء إذا لم يَنْسَقْ وراء سخرية سهلة ، وراء دهشة مبسّطة إزاء الفقر المدقع لكثير من هذه النصوص فسوف يسيء تقديرَ حجم المأساة التي كان شيخ إياسنايابوليانا صانعها وضحيتها . وهذا التفكير سيغدو أيسر عليه وأنفع له ولا سيما أنه يمكنه أن يؤكده وهو يقارن الحكايات الشعبية بهذه الرائعة الأدبية المهلوسة : « السيّد والخادم » التي يُستَهَلُّ بها هذا المجلّد . إن العاصفة الثلجية التي أَوْغلت فيها الشخصيتان الرئيسيتان – بريكونوف ونيكيتا العجوز – شيئاً فشيئاً ، تتحول شيئاً فشيئاً وعلى نحوٍ فظ ، لدى بريكونوف ، إلى عاصفة نفسية تنبعث من أعماقها ، حياته الخاصة ، وكأنها تُعْرَض للحُكْم ، لتُفضي إلى الفعل الحيوي الأعظم : وهو أن يمنح غيره حياةً بموته الخاص ، أن يُنقذ الآخرين وهو يموت لأنهم لم يستطيعوا أن يساعدوه أو ينقذوه وهو حي . أفلا نستطيع أن نرى لدى بريكونوف هذا التاجر الغني الذي لم يفكّر إلا في أن « يعيش » وأن

يكدّس المال ، والذي يجد في آخر دقيقة القدرة على القيام بالتضحية القصوى المولّدة للقدرة ، وذلك حين ينقل « البقية الباقية من الدفء » إلى ابن الشعب ، رفيقه الذي لم يكفّ عن احتقاره حتى هذه اللحظة بوعي أو بلا وعي ، وحين يجد السلام في هذا التجلي الكلّي ، أفلا نستطيع أن نرى شيئاً من السر الذي كان تولستوي يتعهّده في نفسه ؟ أهو اعترافٌ يُقدَّم في شكل حكاية هي أشد الحكايات روعةً من الناحية الأدبية ، وهي ، بذلك أشد دلالةً وأبعث على العبرة من مجموع الحكايات الشعبية التي أنتجها مؤلفُ الحرب والسلم ؟ اعتراف تولستوي الذي كان يشعر جيداً ، ويعلم جيّداً ، حتى وهو يتعذّب ، أن الموت وحده هو الذي يمكنه أن يُكره بعض الكائنات على هذا الزهد ، على هذه التضحية بالذات التي كان ينشدها طوال حياته دون أن يعقد العزم عليها .

« جورج هالداس »

السيّد والخادم

- ١٨٩٥ -

كان ذلك في عيد القديس نيقولا الشتوي (١) الذي كان عيد الحورنية ، ولم يكن بوسع فاسيلي (٢) اندريتش بريكونوف ، وهو تاجر الجمعية الثانية (٣) ، أن يتغيّب : كان عليه أن يكون في الكنيسة — كان وكيل أملاك الكنيسة — وكان عليه أيضاً أن يستقبل في بيته الأهل والأصدقاء وأن يُولم لهم . لكن عندما غادره آخرُ ضيوفه ، أخذ من فوره يتهيأ للسفر : كان يستعدّ للسفر إلى منزل ملاّكٍ في الجوار ليشتري منه غابةً ساوم عليها منذ زمن طويل .

كان فاسيلي اندريتش يستعجل لأنه كان يخشى كثيراً أن يأتي تجارُ المدينة المجاورة لينتزعوا منه هذه الصفقة الرابحة . ولم يكن ملاّكُ

---

(١) عيد القديس نيقولا الشتوي : يُعيَّد ، في روسيا ، بعيد القديس نيقولا مرتين في السنة : في ٩ أيار وفي ٦ كانون الأول .

(٢) فاسيلي : الشكل اليوناني الجديد والروسي للاسم « باسيل » .

(٣) الجمعية التجارية الثانية : كان أغنى تجار المدن يشكلون ، بحسب أنظمة بطرس الأكبر لسنة ١٧١٩ ، الجمعية الأولى والجمعية الثانية .

الغابة الشاب يطلب بالغابة سوى عشرة آلاف روبل لهذا السبب الوحيد، وهو أن فاسيلي اندريتش يعرض عليه سبعة آلاف ولم تكن هذه الآلاف السبعة تمثّل سوى ثلث القيمة الحقيقية للغابة . وربما كان سيُفلح أيضاً في الحصول على شيء من التخفيض ، لأن الغابة كانت في منطقته ، وكان من المتفق عليه بين تجار المنطقة أن أحداً لا يجوز له أن يرفع الأسعار في المنطقة المخصّصة للجار ، لكنه علم أن تُجار الخشب في العاصمة كانوا يستعدون للمجيء كي يساوموا على غابة غوريا تشكينو . فصمّم إذن على السفر ، في الحال ، وأن يعقد الصفقة مع الملاّك .

وهكذا ما إن انتهى العيدُ حتّى تناول من صندوقه سبعمئة روبل، وأضاف إليها ألفين وثلاثمئة روبل من صندوق الكنيسة الذي كان في حوزته ، ليكون معه ما مجموعُه ثلاثة آلاف روبل ، وعدّ بعناية هذا المال ، ثم طواه في محفظته واستعدّ للسفر .

وبادر خادمُه في المزرعة ، نيكيتا ، وهو الوحيد بين خُدّام فاسيلي اندريتش الذي لم يسكر هذا اليوم ، إلى ربط الجواد بالعربة .

لم يسكر « نيكيتا» في هذا اليوم لأنه كان سكيراً باع من أجل الشراب حذاءه وثيابه الجديدة ، فعاهَدَ نفسه بعد ذلك ألاّ يشرب ؛ والواقع أنه لم يشرب منذ شهرين ؟ ولقد قاوم إغراءَ يوميْ العيد هذين اللذين كان ماءُ الحياة يتدفق فيهما من حوله .

كان نيكيتا ابن خمسين عاماً ، وهو فلاح من قرية مجاورة قضى معظم حياته عاملاً في بيوت الآخرين وأراضيهم . وكان الناسُ يقولون عنه : « هذا ليس ملاّكاً » . وكانوا يقدّرونه لنشاطه في العمل ، ولمهارته،

ولقوته ، ولاسيما لطيبه ، ولطبعه الأنيس ؛ لكنه لم يكن يستقرّ طويلاً في عمله ، لأنه كان يأخذ في الشراب مرتين أو أكثر في العام ، وعندئذ لم يكن يتخلّى فقط عن كل ما يملكه ليشرب ، لكنه كان يغدو محباً للخصام والصخب . وقد طرده فاسيلي اندريتش هو أيضاً ، أكثر من مرة ؛ لكنه كان يعيده مع ذلك ، بسبب استقامته ورفقه بالحيوانات ، وقبل كل شيء بسبب قلة مطالبه : لم يكن فاسيلي اندريتش يدفع لنيكيتا ثمانين روبلاً ، وهي الأجر العادي لمثل هذا العامل ، بل أربعين روبلاً ، تُدفَع له بشكل دفعات على الحساب ، وفي معظم الوقت بشكل سلع يقدّمها له حانوت فاسيلي اندريتش بأثمانٍ مرتفعة جداً .

وكانت « مارفا » زوجة نيكيتا ربة منزل رشيقة وحاذقة ؛ وكانت جميلةً فيما مضى ؛ وكانت تعمل في المنزل مع ابنها وبنتيها. لم تكن تصر على أن يكون نيكيتا معهم ،لأنها إن كانت تفعل بزوجهاما تشاءعندما لا يشرب ، فانها كانت تخشاه كما تخشى النار عندما يسكر . لقد سكر ذات يوم في البيت ، ولعله أراد أن ينتقم لخضوعه . فحطّم صندوق زوجته ، واستولى على أجمل حلاها ، وتناول فأسه ومزق به ، على قُرمة شجرة ، جميع فساتينها وجُببها .

كان كل المال الذي يكسبه « نيكيتا» يُسلّم مباشرة إلى زوجته ، ولم يكن يحتج قط . وهكذا كان هذه المرة أيضاً : فقبل العيد بيومين ، جاءت « مارفا» إلى حانوت فاسيلي وأخذت طحيناً أبيض وشاياً وسكراً ، ونصف زجاجة من ماء الحياة ، كل ذلك بثلاثة روبلات ، كما أخذت خمسة روبلات نقداً . فشكرت فاسيلي اندريتش على ذلك كله ، وكأنه

أنعمَ عليها نعمةً عظيمة ؛ فلقد كان نيكيتا مديناً له بعشرين روبلا ، إذا حاسبه بأدنى الأسعار .

كان فاسيلي اندريتش يقول لنيكيتا :

— لم نبرم العقد بعد ، أليس كذلك ؟ إن كنتَ بحاجة إلى شيء فخذْه ، وستدفع ثمنه عملا . الخدمة عندي ليست كالخدمة عند الآخرين الذين يؤجلون الدفع ويلجؤون إلى الحسميّات .

كان فاسيلي اندريتش مقتنعاً ، وهو يتكلّم هذا الكلام ، اقتناعاً صادقاً بأنه مُنعم على نيكيتا : فلقد كانت قدرتُه على الإقناع عظيمةً ، وكان جميعُ التابعين له ، بدءاً من نيكيتا ، يثبّتون فيه هذا القناعةَ بأنه لا يخدع الناس بل يغمرهم بنعمه

كان نيكيتا يجيب ، وهو يعلم حقّ العلم أن فاسيلي اندريتش يخدعه ، ويحسّ في الوقت نفسه أنْ لا فائدة من توضيح حساباته معه ، وأن عليه أن يبقى هنا مادام لم يجد مكاناً آخر ، وأن يأخذ ما يُعطيه إياه :

— نعم ، أدركُ ذلك ، ادرك ذلك جيداً . وأنا أعتقد أنني أعمل ، وأبذل وسعي ، وكأنني أعمل لأبي .

الآن ، بعد أن أُمر نيكيتا بربط الجواد إلى العربة ، مضى بمرحٍ ، كعادته دائماً ، مفعماً بحسن النية ، نحو الحظيرة ، بخطاً خفيفة ورشيقة تعوّدها ، مع أنه يمشي كالبطة وقدماه متّجهتان إلى الداخل . رفع من المسمار اللجامَ الثقيل الذي تحف به الشرّاباتُ ، فابتعث الرنين من سلاسل شكيمة اللجام ، ودلف إلى الاصطبل الذي رُبط فيه الجواد الذي أمر فاسيلي اندريتش بأخذه .

قال نيكيتا ردّاً على الصهيل الذي استقبله به مُرحّباً الحصانُ الكميتُ المتوسط الجسم ، المحكم البنية ، ذو الكفل الزلق ، والذي كان وحده في الاصطبل :

— هيّا ! هيّا ! لا تستعجلْ . انتظر حتى أسقيكَ أولاً .

كان يكلّم الحصان كما يُكلِّم الناس تماماً . وبعد أن مسح بطرف سترته ظهر الحصان ، وهو ظهر سمين ، محزّز في وسطه ، أجرد ومغبر ، أدخل رأس الحصان الفتيَّ والجميلَ في اللجام ، وحرّر أذنيه وناصيته ، واقتاده كي يسقيه .

ما إن خرج من الاصطبل المليء بالزبل ، بخطاً حذرة حتى أخذ الكميتُ يثب ويدور على نفسه ، متظاهراً بأنه سيَلْبط نيكيتا الذي كان يصحبه وهو يركض إلى البئر . وكان يقول له :

— العبْ قليلاً لأرى ، العبْ قليلاً ، يا نذل !

كان نيكيتا يقول ذلك وهو يعلم جيداً كم كان الكميتُ حذراً وهو يدفع بقائمته الخلفية ، لا ليرفسه ، بل لكي يلامس فقط فرويّته الملطّخة بالشحم ، على سبيل اللعب ، وهي عادة كان يحبها نيكيتا كثيراً من الحصان .

بعد أن ارتوى الحصانُ من الماء المتجلّد تنفّس ، وحرّك شفتيه الجامدتين ، المبللتين اللتين كانت تتساقط منهما في الحوض قطرات شفافة ؛ ثم أخلد إلى السكون وكأنه مستغرقَ في أفكاره ، وفجأة حمحم بصخب .

قال نيكيتا مفسّراً سلوكه للكميت بجدٍّ بالغ وبالتفصيل :

— ارتويتَ ، لابأس ! طيّب ، لا تطلبْ ماءً بعدُ .

ورجع وهو يجري نحو الحظيرة جاراً بالعنان الحصانَ الفتيَّ الممتلىء فرحاً ، الذي كان يُكدف مالئاً الفناء بالضوضاء .

كان جميعُ الخدم غائبين ؛ ولم يكن في الفناء سوى رجلٍ غريب هو زوج الطاهية الذي جاء للعيد

قال له نيكيتا :

ــ اذهبْ واسأله ، يا عزيزي ، بأية زلاّجة يجب أن أربط الحصان : الكبيرة أم الصغيرة .

دخل زوجُ الطاهية المنزل ذا السقف الحديدي ، المبنيّ على قواعد عالية ، وما لبث أن خرج حاملاً الأمر بربط الحصان بالزلاجة الصغيرة. في أثناء ذلك كان نيكيتا قد وضع اكليل الحصان وثبّت المقعد الخشبي المحفوف بالمسامير . واتّجه نحو الزلاجتين في الحظيرة ، وهو يحمل بيدٍ الطوق الخفيف المدهون ، ويجر بالأخرى الحصان.قال وهو يُدخل في عريش العربة الحيوان الذكي الذي كان يتظاهر طوال الوقت بأنه يُريد عضّه :

ــ حسناً ! فلنربطه اذن إلى الزلاّجة الصغيرة .

ولما انتهى كل شيء ولم يبقَ سوى تثبيت المقود ، طلب نيكيتا إلى زوج الطاهية أن يأتيه بحزمة قشٍ من المخزن وبالجلّ

كان نيكيتا يقول وهو يكدّس حزمة قشّ الشوفان المدروسة حديثاً والتي حملها إليه زوجُ الطاهية :

ــ مشت الحالُ هكذا ! هيّا ، هيّا ، لا تتنفسْ !

والآن سنمدّ الجنفاصة ، وفوق ذلك الجلّ ؛ وهكذا يصبح الجلوس مريحاً .

كان يقول ذلك ويفعل كما يقول ، طاوياً الجل تحت القش المكدس حول المقعد .

وقال نيكيتا لزوج الطاهية :

ــ ها قد انتهينا ! شكراً ، يا عزيزي . العملُ باثنين أسرع .

وبعد أن فكّ نيكيتا المقودين الجلديين اللذين ينتهيان بحلقة ، قفز إلى حافة الزحّافة ، ومضى ، عبر الفناء المغطّى بالزبل المتجمّد ، ومن باب العربات ، ساق الحصان السهل القياد الذي لم يكن يطلب سوى الحبّ .

هتف بصوتٍ نحيل صبيٌّ ابن سبع سنوات ، يرتدي فرويّة سوداء ، وقبّعة من الفرو ، وينتعل حذاء جديداً من اللبّاد الأبيض وقد خرج من البيت وهو يركض ، ويزرّر فرويته القصيرة على عجل . هتف بنيكيتا طالباً :

— عم نيكيتا ! أيها العم العزيز ! أيها العم العزيز ! خذْني معك .

قال نيكيتا وهو يوقف الحصان :

— هيّا ، أسرع ، يا حمامتي الصغيرة !

وأصعد إلى الزلاجة الصبيّ ابن سيّده ، الذي استضاء وجهُه الشاحبُ الهزيلُ فرحاً .

تجاوزت الساعةُ الثانية . وكان الجوُّ بارداً وضبابياً ؛ وكان ثمة ريحٌ. كان نصفُ السماء مغطّى بغمامة منخفضة وقاتمة . وكان الهواءُ في الفناء هادئاً ، أما في الشارع فكانت الريح تهب بقوّة وتكنس الثلج المتكوّم على سطح الحظيرة المجاورة وتثير زوابع في الزاوية ، قرب الحمامات .

ما كاد نيكيتا يتوقف أمام درج المدخل ، بعد مروره من باب العربات ، حتّى خرج فاسيلي اندريتش من البهو ، والسيجارة بين شفتيه ، وهو يرتدي فرويّةً من جلد الخروف المشدودة بقوة تحت الخصر بزنارٍ ، وتحت جزمته اللبادية المغطّاة بالجلد أخذت طبقة الثلج

المتصلّبة على درج المدخل تطقطق. توقّف وسحب آخر سحبة من الدخان ، ورمى بعقب السيجارة ، وداسها بقدمه ، ثم لفظ الدخان من خلال شاربيه ، وهو يفحص الحصان بطرف عينه ، ويُصلح ، من الجانبين المتورّدين لوجهه الذي حُلق كله ماعدا شاربيه ، قبّة فرويته حتى لا يبلّل تنفّسُه الفرو . .

قال وهو يرى ابنه في الزلاّجة :

— يا لهذا العفريت !

كان فاسيلي اندريتش قد اهتاج من ماء الحياة الذي شربه مع أصدقائه ، ولذلك كان يُحس بالرضا ، أكثر من عادته ، عن كل ما يخصّه وما يفعله . وقد أحدث له مرأى ابنه الذي كان يدعوه في نفسه وارثه ، سروراً عظيماً الآن ؛ أخذ يتفرّس فيه ، مغضّناً جفنيه ، كاشفاً عن أسنانه الطويلة .

وقفت زوجة فاسيلي اندريتش شاحبة وهزيلة ، خلفه في البهو ، وقد لفّ رأسها وكتفاها بشال صوفي لا يُري سوى عينيها . ثم قالت وهي تتقدّم بحجل

— في الحقيقة ، من الأفضل لك أن تصطحب نيكيتا .

لم يردّ فاسيلي اندريتش على هذه الكلمات التي ساءته بغير شك . فجهّم وجهه وبصق .

وأردفت زوجته بلهجة متأوّهة :

— فأنت تحمل مالاً ؛ ثم إن الطقس قد يسوء ، بالفعل . أؤكد لك ذلك

قال فاسيلي اندريتش وهو يمدّ شفتيه ، وهي حركةٌ كانت خاصة به عندما يكلّم البائعين أو المشترين ، وهو يوقّع كل مقطع من مقاطع كلماته :

— ما حاجتي إلى الدليل ؟ ألستُ أعرف الطريق ؟

كرّرت المرأةُ وهي تردّ شالها على كتفيها :

— أرجوك ، خذْه معك ، بحقّ السماء!

— إنها تلزق مثل الفار في اليدين ! كيف يمكنني أخذه معي ؟

قال نيكيتا بمرح :

— أنا مستعد ، يا فاسيلي اندريتش ، ما قولُكَ ؟

وأضاف هو يلتفت إلى سيّدته :

— على شرط أن تُطعَم الجيادُ في غيبتي .

قالت المرأة :

— سأتولّى ذلك ، يا صديقي ، نيكيتا . وسوف آمرُ سيميون بذلك .

سأل نيكيتا :

— ما رأيُك ، يا فاسيلي اندريتش . أأسافر ؟

قال فاسيلي اندريتش ، و هو يبتسم من جديد ، ويشير بطرف عينه إلى فرويّة نيكيتا القصيرة الملطّخة بالدهن ، المتنسّلة الحواشي ، والممزّقة في ظهرها وتحت كميّها ، والتي لاشك أنها ذاقت الأمرّين :

— لا بدّ من إرضاء العجوز ! لكن إذا كنتَ ستجيء معي فالبس شيئاً مُدفئاً .

التفت نيكيتا نحو الفناء حيث كان يقف زوجُ الطاهية وناداه:

— هيه ! يا عزيزي ! تعال قليلاً ! امسك بالحصان !

صاح بصوتٍ ثاقب الصبي وهو يخرج من جيبيه يديه الصغيرتين المحمرّتين من البرد :

— أنا ! أنا !

وأمسك بالمقود المتجلد .

صرخ فاسيلي اندريتش ، هازئاً من نيكيتا :

— لكن ، لا تُسرف في التزيّن ، أسرعْ !

قال نيكيتا :

— لن أتوقّف ، يا فاسيلي اندريتش ، يا وليّ نعمتي .

وجرى نحو الكوخ الخشبي المخصص للخدم .

قال نيكيتا وهو يندفع إلى الكوخ ويتناول زنّاره المعلّق بمسمار :

— مارفا ، يا عزيزتي ، أعطيني بسرعة قفطاني الذي يُجفّف قرب المدفأة ، فأنا ذاهبٌ مع المعلم .

كانت الطاهية التي أغفتْ بعد الغداء تُعدّ السماور لزوجها ، فاستقبلت نيكيتا بفرح ، وسَرَتْ إليها عدوى سرعته ، فرفعت بخفّةٍ ، عن المدفأة ، القفطانَ القديم البالي الذي وُضع ليجفّ ، وبسطتْه وأخذت تنفضه . قال نيكيتا لها :

— سيخلو لك الجوُّ الآن لتتسلّي مع زوجك !

كان نيكيتا ، إذا وجد نفسه وحيداً مع أيٍّ كان ، يقول شيئاً ، تأدباً وتلطّفاً .

وبعد أن لفّ زنّاره التصير الملتوي على خصره ء صب بطنه بأقصى قوته فغار وكان من قبلُ هضيماً .

وقال بعد ذلك ، موجّهاً الكلام لا للطاهية بل للزنار الذي ربط طرفيه :

— مشت الحالُ ، هكذا . لن تنحلّ بعد ذلك .

وإذ رفع كتفيه وخفضهما لتظل ذراعاه حرّتين ، لبس قفطانه ، مادّاً ظهره أيضاً ليحافظ على حرية حركاته وتناول قفّازه عن الأرض.

— مشت الحالُ !

قالت الطاهية :

— لابدّ لك من تغيير حذائك ، يا نيكيتا ؛ فهو في حال سيئة.

توقف نيكيتا وكأنه تذكّر شيئاً :

— نعم . . . سيكون ذلك ضرورياً . . . الأمر مقبولٌ هكذا ، فلن نمضي بعيداً .

وخرج وهو يركض

قالت سيّدة المنزل عندما دنا من الزلاّجة :

— ألا تبرد ، يا نيكيتا ؟

أجاب نيكيتا وهو يرفع القش ليغطي به قدميه ، ويدسّ السوط تحته ، مع أن الكميت ، وهو الحصان السهل القياد ، لا يحتاج إليه.

كان فاسيلي اندريتش قد استقرّ في الزلاجة ؛ وكان ظهره العريض تحت فرويّته يشغل المقعد كله .. ضم المقودين وأطلق الحصان . وثب نيكيتا إلى الزلاّجة وهي تمشي ، وقرفص في المقدّمة ، مدلّياً ساقه .

تحركت الزلاّجة وهي تصرّ صريراً خفيفاً من المزلجين ، ودلف الجواد القوي إلى الطريق المغطّاة بطبقة من الثلج المتصلّب .

صاح فاسيلي اندريتش وهو يتأمل بجلاء وارثه الذي تعلّق بمؤخرّة الولاّجة.

— ماذا تفعل هنا ؟ ناولني السوط ، يا نيكيتا ! انتظر قليلاً ! امض إلى أمك !

وثب الصبي إلى الأرض . زاد الكميتُ في سرعته وانتقل من الهملجة إلى الخبّ .

لم تكن قرية « كريستي » التي يقطنها فاسيلي اندريتش تحتوي على أكثر من ستة منازل . وما ان اجتازا آخر منزل خشبي ، منزل الحداد ، حتى لاحظا أن الريح كانت أقوى بكثير ممّا تصوّرا . فلم يكادا يريان الطريق .

كانت آثار المزلجين لا تلبث أن تتغطّى بالثلج الذي تطرده الريح ، ولم يكن من الممكن تمييز الطريق لولا أنها كانت أعلى من السهل الذي تقطعه . وكانت زوابع من الثلج تتراكض على الحقول ولم يعودا يتبيّنان الخط الذي تلتقي فيه السماء والأرض . ولم تكن غابة « تيليانينو » التي كانت تُميّز جيداً ، تُبين عن ذاتها إلا للحظات مثل بقعة مسودّة من خلال الثلج المتطاير كالغبار. وكانت الريح تهب من اليسار ، مُلقيةً إلى اليمين ناصية الكميت وذيله الكثيف الشعر ، المشدود بعقدة ضخمة. وكانت ياقة نيكيتا الطويلة ، وهو يجلس مقابل الريح ، تلتصق بأنفه وخدّه .

قال فاسيلي اندريتش مفتخراً بحصانه :

— ليس بامكانه أن يجري بكل سرعته لكثرة الثلج . ذهبت مرة إلى « باوتشينو » وهو معي ، فأوصلني إليها في نصف ساعة .

قال نيكيتا الذي لم يسمع بسبب ياقته

— ماذا ؟

فصاح فاسيلي اندريتش :

— قلت لك إنه أوصلني إلى « باوتشينو » في نصف ساعة .

قال نيكيتا :

— لامراء في أنه جواد نشيط .

صمتا لحظة . لكن فاسيلي اندريتش كان يشتهي أن يتحدث ، فسأله بصوت عال :

— وهل ستشتري حصاناً في الربيع ؟

أجاب نيكيتا :

— لا مفر من ذلك .

وخفض ياقة قفطانه ومال على فاسيلي اندريتش :

— لقد كبر الولد ، وآن الأوان لكي يحرث بنفسه .

صاح فاسيلي اندريتش وقد أحس بالإثارة ، وكان بسبب ذلك مستعداً للتدليس ، وهو الشاغل الذي كان يفضله على أي شاغل آخر والذي كان يستغرق ذكاءه كله :

— حسناً ! خذ إذن « المعروق » . ولن أبيعك إياه بثمن غال .

أجاب نيكيتا الذي كان يعلم أن المعروق الذي يزيد أن يبيعه إياه

فاسيلي اندريتش لا يساوي على الأكثر سبعة روبلات ، وأن فاسيلي اندريتش سيحسبه عليه بخمسة وعشرين روبلاً ، وبعد ذلك لن يحصل على فلس واحد طوال ستة أشهر :

— لعلك تعطيني نحو خمسة عشر روبلاً ، وسأشتري حصاناً من سوق الخيول .

صاح فاسيلي اندريتش بنفس الصوت الذي كان يصطنعه ليغشّ زبنته :

— إنه حصان نشيط . وأنا أحبّ لك الخير كما أحبه لنفسي . على ذمّتي ! إن « بريكونوف » لم يسيء إلى أحد قط . بل أنا أفضّل أن أخسر فيه . ليس الأمر عندي كما هو عند الآخرين . بالشرف إنه حصان نشيط حقاً .

قال نيكيتا وهو يتنهد :

— كلامك صحيح .

وحين رأى فاسيلي اندريتش يصمت ردّ ياقته فغطّت وجهه وأذنه.

تابعا هكذا طريقهما قرابة نصف ساعة صامتين وكان نيكيتا يحسّ بالريح على يده وذراعه حيث كانت فرويّته ممزّقة . فانكمش على نفسه ونفخ في ياقته التي غطت فمه ، لكنه لم يحس بالبرد في جسمه .

سأله فاسيلي اندريتش :

— ما رأيك ؟ هل نمر بـ « كاراميشيفو » أم نمضي على خط مستقيم ؟

كان مرورهما بكاراميشيفو يقتضيهما أن يسلكا طريقاً زاخراً بالحياة ، معلماً بشواخص على الجانبين ، لكنه أطول . وكانت الطريق

اليمنى أقصر ، لكنها أقل وضوحاً ، فالشواخص كانت نادرة فيها أو مغطاة بالثلج .

فكّر نيكيتا قليلاً وقال :

— الطريق من « كاراميشيفو » أطول لكنها أفضل .

قال فاسيلي اندريتش الذي كان يود أن يسلك الطريق المستقيمة :

— لكننا إن ذهبنا مباشرة لا يمكن أن نضل الطريق . يكفينا أن نقطع المسيل . وبعد المسيل الغابة .

أجاب نيكيتا :

— كما تشاء .

ورفع ياقته من جديد .

فعل فاسيلي اندريتش كما قال . فبعد نصف ساعة انعطف إلى اليسار حيث كان يضطرب في الريح غصنُ سنديان عليه أوراق يابسة .

بدءاً من هذا المنعطف ، هبّت الريحُ معاكسة ، وأخذ الثلج يتساقط . كان فاسيلي اندريتش يقود الزلاجة ؛ كان يملأ وجنتيه بالهواء وينفخ على شاربيه . أما نيكيتا فكان يغفو .

مرّت عشر دقائق هكذا في صمت . وفجأة نطق فاسيلي اندريتش ببضع كلمات فسأله نيكيتا وهو يحدّق فيه :

— ماذا ؟

لم يجب فاسيلي اندريتش . كان ينحني وينظر أمامه وخلفه . كان الحصان يسير الهوينا . وقد تجعّد شعرُه المبلّل بالعرق عند رقبته وبين ساقيه .

كرر نيكيتا :

ـ ماذا ؟ ماذا جرى؟

قلّده فاسيلي اندريتش بلهجة غاضبة :

ماذا ؟ ماذا ؟ لم يعدها هنا شواخص . لقد ضللنا الطريق بالتأكيد.

قال نيكيتا وقد وثب بخفّة من الزلاجة . وبعد أن سحب السوط من تحت القش ، اتّجه إلى اليسار صوب الجهة التي كان جالساً فيها:

ـ انتظر قليلاً ، سأعثر على الطريق

لم يكن الثلج وفيراً هذا العام ، بحيث أنه استطاع أن يتقدّم بلا صعوبة ؛ بيد أنه كان يغوص في بعض المواضع إلى ركبتيه . وما لبث أن امتلأت جزمته بالثلج . ان نيكيتا يجسّ الأرض بقدمه وبطرف سوطه ، لكنه لم يتمكّن من العثور على الطريق .

سأل فاسيلي اندريتش عندما عاد نيكيتا إليه :

ـ ماذا وجدتَ ؟

ـ لم أعثر على شيء في هذه الجهة ؛ يجب أن أفتشَ في الجهة الأخرى .

قال فاسيلي اندريتش :

ـ انظرْ قليلاً إلى تلك البقعة القاتمة أمامنا . اذهبْ وتطلّعْ إليها .

ذهب نيكيتا في الاتّجاه المشار إليه ودنا من البقعة السوداء ؛ كانت حقلاً مُعرّىً بعثّر الهواء ترابه ، وصبغ به الثلج بالسواد . وبعد أن فتّش نيكيتا ، في الجهة اليمنى أيضاً ، نفّض نفسه ليزيل الثلج الذي غطّاه بنثاره ، ونفّض بعد ذلك جزمته وصعد إلى الزلاّجة . وقال بلهجة جازمة :

— يجب أن نذهب إلى اليمين . فالريح كانت على يسارنا ؛ وهي تلسعني الآن في منتصف وجهي .

وأردف آمراً :

— انعطف إلى اليمين .

أطاعه فاسيلي اندريتش وانعطف إلى اليمين . لكنه لم يعثر على الطريق . سارا على هذا المنوال ؛ بعض الوقت ولم تسكن الريحُ ولا انقطع الثلج .

لاحظ نيكيتا فجأة وكأنه سُرَّ بما جرى :

— حسناً ! لقد ضللنا الطريق ، على ما يبدو ، يا فاسيلي اندريتش .

ثم أضاف وهو يشير إلى السوق المسوّدة البارزة من تحت الثلج :

— ماهذا ؟

أوقف فاسيلي اندريتش الحصان المبلّل بالعرق والذي كانت خاصرتاه تنبضان مع انفاسه اللاهثة ، وقال :

— حقاً ! ما هذا ؟

— هذا يعني أننا في حقول « زاخاروف » ، وأننا ضللنا الطريق !

ردّ فاسيلي اندريتش :

— أنت تكذب !

أجاب نيكيتا :

— لا ، لستُ أكذب . لقد قلتُ لك الحقيقة ، يا فاسيلي اندريتش. علمتُ ذلك من صوت الزلاّجة : فنحن نجتاز حقلاً من البطاطا ؛ وهذه على كل حالٍ ، أكوام من الأوراق والسوق . نعم ، هذا هو بعينه حقلُ مزرعة « زاخاروف » .

قال فاسيلي اندريتش

— هذه مشكلة حقاً ! ما العمل ، الآن؟

— لنذهبْ على خط مستقيم أمامنا . هذا كل شيء . وسوف نصل إلى مكانٍ ما . إلى المزرعة أو إلى ملكيّة صاحبنا .

أطاعه فاسيلي اندريتش ووجّه الحصان إلى حيث قال له نيكيتا . سارا هكذا زمناً طويلاً . كان يجتازان حيناً مراعي جرداء ، وكان مزلجا الزلاّجة يطقطقان حينئذٍ على كدر الأرض المتجمّدة . وكانا حيناً آخر يقطعان أراضي حصيدة تُشاهَد فيها سوق يابسة بارزة من تحت الثلج ، والريح تحرّكها . وفي بعض الأحيان ، كانا يغوصان في الثلج العميق ، المتفاوت البياض الذي لا يُميَّز شيءٌ فوقه .

كان الثلج يتساقط من الأعالي ، وكان يرتفع أحياناً من الأرض بشكل زوابع . وكان الحصان متعباً من غير شك . كان شعره المبلّل بالعرق يتجعّد ويتغطى بالجمد ، كان يسير الهوينا فقط . وفجأة زلّت قدمه ، وانزلق إلى حفرة أو مَنْقعٍ . أراد فاسيلي أن يوقفه ، لكن نيكيتا أخذ يصرخ :

— لماذا توقفه ؟ يجب أن يخرج منها !

وصاح بالحصان وهو مرح ، وقد وثب من الزلاجة وغرق بدوره في الثلج :

— حا ، دي ! يا عزيزي ! حا ، دي ! يا صاحبي !

أخذ الحصان عدّته للوثب ، وبلغ بقفزة واحدة الردم المتصلب بسبب الجليد . كانا قد سقطا من غير شك ، في حفرة .

سأله فاسيلي أندريتش :

– وأين نحن ، يا ترى ؟

أجاب نيكيتا :

– سنعلم ذلك . لنتابعْ السير ، وسوف نبلغ مكاناً ما .

قال فاسيلي اندريتش وهو يشير إلى كتلة سوداء كانت تميَّز خلال الثلج :

– أليست هذه غابة « غوريا تشكينو » ؟

قال نيكيتا :

– لنذهبْ إليها . وسنرى حينئذٍ ما هذه الغابة .

رأى نيكيتا أن الريح تحمل من هذا الجانب أوراقاً جافةً من الخنشار فعلم أن هذا المكان ليس غابةً وإنما هو مكان مسكون ؛ بيد أنه لم يشأ أن يقول ذلك .

والواقع أنهما لم يكادا يسيران إلا قليلاً حتى تبيّنا ظلال الأشجار السوداء وسمعا صوتاً جديداً شاكياً . لقد صدق ظنُّ نيكيتا : لم يكن المكان غابةً بل صفّاً من نبت الخنشار ترتعش عليها هنا وهناك أوراق ميتة . كانت الخنشارات مزروعة بمحاذاة حفرةٍ قرب مستودع للحصيد.

وعندما بلغا الخنشارة التي كانت تبعث حفيفها كئيباً ، رفع الحصان فجأة قائمتيه الأماميتين إلى ما فوق الزلاجة وتسلّق الردم وانعطف إلى اليسار . كان هذا هو الطريق .

قال نيكيتا :

– ها قد وصلنا ؛ لكنّا لا نعلم إلى أين .

مضى الحصان دون تردّد على الطريق المغطّاة بالثلج ، ولم يقطعا أكثر من نحو مئة وعشرين ذراعاً حتى ارتسم أمامهما جدار مستودع

للحصيد اختفى سقفه تحت الثلج السميك . وبعد أن دارا حول المستودع ، ألفيا نفسيهما في مواجهة الريح وغرقا في كومة من الثلج .

لكنهما تبيّنا أمامهما زقاقاً ضيقاً بين منزلين : لاشك أن الريح هي التي كومت هذا الثلج على الطريق ، وينبغي أن يمرّا من خلاله . والواقع أنهما ما ان تغلّبا على هذه العقبة حتى دلفا إلى الزقاق . وقرب أحد البيوت ، كان الغسيل المتجمّد والمعلق بحبل يهتزّ بعنف أمام ريح الشمال : قميصان ، أبيض وأحمر ، ألبسة داخلية ، عصائب للأرجل ، وتنّورة. وكان القميص الأبيض ، يضطرب بعنف محرّكاً كميّه .

قال نيكيتا وهو ينظر إلى القميصين :

— انظر إلى هذه الكسلانة التي لم تَكْوِ غسيلها للعيد ؟ لكن لعلها مريضة .

— ٣ —

كان الهواء ما يزال يهبّ عند مدخل القرية ، وكانت الطريق تختفي تحت الثلج ؛ لكنهما كلما تقدما ازداد الجوّ لطفاً ودفئاً وبهجةً . نبح كلب في فناء ، ووقفت امرأة كانت تركض ، وفروتها مُلقاة على رأسها ، عند عتبة منزل خشبي لتتأمل الغريبين . ومن وسط القرية وافتْهما أغنياتُ جوقةٍ من الفتيات .

كان البرد والريح يبدوان أقل قسوة في القرية ؛ كما بدا الثلج أقل وفرةً .

قال فاسيلي اندريتش :

— لكن هذه هي غريشكينو .

أجاب نيكيتا :

— صحيح ما قلتَ .

والواقع أنها كانت غريشكينو . فبعد أن انحرفا كثيراً إلى اليسار ، وقطعا هكذا ثمانية فراسخ في اتجاه لم يكن على الاطلاق الاتجاه الذي ينبغي أن يسيرا فيه ، وجدا نفسيهما مع ذلك أنهما اقتربا من هدفهما ، لأن المسافة بين « غريشكينو »و « غوريا تشكينو » لا تزيد على خمسة فراسخ.

في مركز القرية ، صادفا رجلاً مديد القامة يمشي في منتصف الطريق.

صاح هذا الرجل وهو يوقف الحصان :

— مَنْ القادم ؟

وبعد أن تعرّف من فوره فاسيلي اندريتش أمسك بعريش العربة ، وبلغ ، وهو يتلمّس طريقه ، الزلاجة التي جلس على حافتها :

كان هذا الرجل هو « إيساي (١) » ، وهو تاجر يعرفه جيداً فاسيلي اندريتش ، كان سارق خيول مشهوراً في المنطقة كلها .

قال « إيساي » :

— آه ! فاسيلي اندريتش ، يا للمصادفة السعيدة !

وأحسّ نيكيتا بأنفاسه المشبعة بالخمر .

— نحن ذاهبان إلى « غوريا تشكينو »

— إيه ! إيه ! وجئتما إلى هنا ! كان ينبغي لكما سلوك طريق « مالاكوفو » .

قال فاسيلي اندريتش وهو يوقف حصانه :

---

(١) إيساي : الصيغة الروسية للاسم « اشعيا » .

— كان ينبغي لنا أن نفعل أشياء كثيرة ! ما حيلتنا ؟

قال « إيساي » وهو يتفحص الحصان :

— حصان رائع .

وبحركة معتادة شدّ عقدة الذيل التي انحلّت في الطريق .

— حسناً ! هل تُمضون الليلة هنا ؟

— لا ، يا صاحبي ، علينا أن نذهب .

— إن كان لابدّ من ذلك فلا حيلة لي . لكن مَنْ هذا ؟ آه ! نيكيتا ستيبانيتش .

أجاب نيكيتا :

— ومَنْ يكون إذن ؟ بشرط ألا نضلّ الطريق ، يا صاحبي .

— كيف يمكن أن تضلاّ الطريق ؟ انعطفا وسيرا في الشارع على طوله ، وعندما تخرجان من القرية تابعا سيركما على استقامة واحدة ، ولا تنحرفا إلى اليسار ، فاذا بلغتما الطريقَ الرئيسيّة خذا حينئذٍ يمينكما .

سأل نيكيتا :

— أين ينبغي أن ننعطف إلى اليمين ؟

— ستشاهدان دغلاً ، وفي مواجهة الدغل شاخصة هي غصن سنديان كبير مغطى بالأوراق . هناك تنعطفان .

دار فاسيلي اندريتش بحصانه نصف دورة ، ومضيا في الاتجاه المشار إليه .

صاح « إيساي » بهما :

— لعلكما تبيتان هنا ، مع ذلك .

. لكن فاسيلي اندريتش لم يردّ عليه وحثّ الحصان : بدا له أن من السهل قطع خمسة فراسخ ، فرسخان منهما في الغابة ، على طريق مستوية ، ولاسيّما أن الريح بدتْ أقل عنفاً وأن الثلج انقطع .

انقلبا راجعين من الشارع الذي سلكاه والذي كانت تنقّطه بالسواد ، هنا وهناك أكوامٌ من الزبل الطري ؛ وتجاوزا الفناء الذي عُلّق فيه الغسيلُ — لم يكن القميصُ الأبيض معلّقاً إلا بأحد كميّه — ومرّا من جديد أمام الخشارة التي كان ينبعث منها حفيف حزين ، ثم بلغا السهل. لم تهدأ الريح ؛ على العكس ، كان يبدو أن هبوبها أشدّ ؛ واختفت الطريقُ تحت الثلج الذي غطّاها ، وتعذّرت معرفة الاتجاه الصحيح إلا من الشواخص . لكن كان تمييز الشواخص شديد الصعوبة بسبب الريح المعاكسة

كان فاسيلي اندريتش يطرف بعينيه ، وهو ينحني إلى اليمين وإلى الشمال محاولاً أن يتبيّن الشواخص ، لكنه كان ، على الإجمال ، يترك الحصان وشأنه ، معتمداً عليه أكثر مما يعتمد على عينيه . والواقع أن الحصان لم يكن يخطىء ؛ كان يسير منعطفاً تارةً إلى اليمين وتارةً أخرى إلى الشمال ، مُتابعاً تعرّجات الطريق ، حيث كان يحسّ بالأرض الصلبة تحت قوائمه : بحيث أنهما ظلاّ يتبينان الشواخص إلى اليمين حيناً وإلى اليسار حيناً آخر ، بالرغم من الريح التي اشتدت ، والثلج الذي تعاظم سقوطه :

سارا هكذا نحو عشر دقائق وإذا بهما يريان أمامهما مباشرة كتلةً سوداء تتقدّم عبر شبكة الثلج المنحرفة التي يطردها الريح . كان ذلك

أناساً يسيرون في الاتجاه نفسه . أدركهم الكميتُ وصدم برجله صندوق الزلاّجة :

صاح هؤلاء الناسُ من الزلاّجة :

— انعطفا ! . . . آه ! . . آه ! : تقدّمانا ! . . . :

تجاوزهم فاسيلي اندريتش . كان في الزلاّجة ثلاثة رجال وامرأة. كان واضحاً أنهم يعودون إلى بيوتهم بعد أن مجنوا في المدينة . كان أحد الفلاحين يسوط بغصن جاف كفل الحصان الذي انتشر عليه الثلجُ الناعم. وكان الآخران يصيحان وهما يحرّكان أذرعهما . وجمدت المرأة في موضعها وانكمشت على نفسها في صدر الزلاجة ، وقد لفّت نفسها بفرويتها لفّاً شديداً ، وغطّاها الثلج :

صاح بهم فاسيلي اندريتش :

— من أين أنتم ؟

زعق بكل قواه أحد الفلاحين :

آ : : آ : : آ . . .

لكن لم يتمكن من تمييز كلماته .

صرخ الفلاح الآخر وهو يسوط بكل قوته حصانه المسكين :

— تقدّمْ ! . . : لا تدعهما يمرّان !

— لاشك أنهم يعودون من لهوهم :

— تقدّم ! تقدّمْ ! سيومكا (١) ! اسبقْهما . . . إلى الأمام !

اصطدمت الزلاجتان ، وكادتا تعلقان إحداهما بالأخرى وافترقتا ، وظلت زلاّجةُ الفلاحين في الخلف :

---

(١) سيومكا : اسم الحصان .

بذل الحصان الأشعر ، البطين ، المغطّى بالثلج ، آخر قواه ، لاهثاً بمشقة تحت طوقه المنخفض ، جاهداً بغير جدوى في الخلاص من الضربات التي تنهال عليه ، متقدّماً كيفما اتّفق له ، غائصاً بقوائمه القصيرة في الثلج العميق . أما وجهُه الفتيّ بشفته السفلى المتقدمة كشفة السمك ، ومنخريه المتّسعين ، وأذنيه المبسوطتين من الخوف فقد بقي ، بضع لحظات ، على مستوى كتف نيكيتا ، ثم تراجع شيئاً فشيئاً إلى الوراء .

قال نيكيتا :

— هذا ما تفعله الخمر ! سيقتلون حصانهم المسكين . متوحشون حقيقيون :

وسُمع ، طوال بضع دقائق ، لهاث الحيوان المسكين المُنهك ، وصرخاتُ السكارى : ثم سكتَ اللهاثُ وانطفأت الصرخات أيضاً شيئاً فشيئاً : ثم لم يُسمع بعد ذلك سوى صفير الريح ، وطقطقات خفيفة للمزلجين ، بين الحين والحين ، على الأرض التي عرّاها الريح هنا وهناك.

أبهج هذا اللقاءُ فاسيلي اندريتش ، وزاد من ثقته ، وحثّ الجواد ، دون أن يهتم بالشواخص ، معتمداً على تحسّس الحصان .

لم يكن على نيكيتا أن يفعل شيئاً ، وكان من عادته في مثل هذه الحالة ، أن يغفو معوّضاً بغفوته تعبه : وفجأة وقف الحصان ، وكاد نيكيتا يسقط على وجهه .

قال فاسيلي اندريتش :

— وهذه مشكلة !

— وماهي ؟

— اختفت الشواخصُ . ولاشك أننا ضللنا الطريق مرةً أخرى.

رد نيكيتا بايجاز :

— إن كنا ضللناها فيجب أن نهتدي إليها مرة أخرى :

نهض نيكيتا وأخذ يمشي على الثلج مرة أخرى بخطا خفيفة ، وقدماه متّجهتان إلى الداخل .

مشى طويلاً ، متوارياً حيناً في الضباب ، عائداً إلى الظهور حيناً آخر فجأة ليختفي من جديد . . وأخيراً عاد إلى الزلاجة ، وقال وهو يصعد إليها . :

— لا طريق في هذه الجهة ، ربّما كانت في مكانٍ ما أمامنا.

بدأ الظلام يحلّ . ولم يزد هبوبُ الريح عنفاً لكنه لم يتناقص أيضاً.

سأل فاسيلي اندريتش :

— أين نذهب الآن ؟

— يجب أن نترك الحصان على هواه . سيخرجنا من هنا . أعطني المقود :

أعطاه فاسيلي أندرنيش المقود بسرور ولاسيّما أنه أخذ يحس بالبرد في يديه بالرغم من قفازيه المبطنين بالفرو .

تناول نيكيتا المقود واكتفى بأن أمسكه دون أن يجذبه ، مفتخراً بذكاء حصانه المفضّل : وبالفعل ، نصب الحيوان الرائع أذنه هذه مرةً ، وأذنه تلك مرة أخرى ، وأخذ ينعطف .

قال نيكيتا :

— لا ينقصه سوى الكلام . انظر إلى ما يفعله ! هيّا ، هيّا ، بخفّة ! هكذا ، هكذا !

صارت الريحُ في ظهريهما . فخفّ البردُ عليهما .

قال نيكيتا وهو ممتلىء إعجاباً بالحصان :

– إنه لحيوان ذكي ! الحصان الكرخيزي الصغير قوي ، لكنه أحمق . أما هذا فانظر مايفعله بأذنيه . لا جاجة إلى التلغراف . فهو يسمع كل شيء من دائرةٍ بعدُها فرسخ .

والواقع أنه لم تمضِ نصفُ ساعة حتى تبيّنا أمامهما شيئاً أسود ، غابةً أو قرية ، وشاهدا على اليمين الشواخصَ مرة أخرى . لقد عثرا ، من غير شك ، على الطريق .

قال فاسيلي اندريتش :

– لكنا عُدنا إلى غريشكينو !

بالفعل لقد شاهدا إلى يسارهما نفس المستودع المغطّى بالثلج ؛ وشاهدا بعد ذلك الغسيل المتجمّد ؛ شاهدا القميصين والألبسة الداخلية وهما ما يزالان يضطربان بشدة أمام ريح الشمال .

دلفا مرةً أخرى إلى الزقاق ، وغدا الطقسُ مرةً أخرى أكثر لطفاً ودفئاً وبهجةً ؛ ورأيا مرة أخرى الطريقَ المغطّاة بالزبل ، وسمعا مرة أخرى أصواتاً وأغنيات، ونباح الكلاب . هبط الظلام واتّقدت أنوار في المنازل الخشبية .

أَوقفَ فاسيلي أندريتش الحصان أمام درج مدخل منزل كبير غُطيت جدرانُه بالقرميد .

دنا نيكيتا من النافذة المضاءة التي في ضوئها كانت تتطاير ندفُ الثلج المتلألئة ، وقرع النافذة بمقبض سوطه .

ردّ صوت على قرع نيكيتا :

— مَنْ الطارق ؟

أجاب نيكيتا :

— « بريكونوف » من « كريستي » ، يا صاحبي . هلاّ خرجتَ لحظةً .

ابتعدا عن النافذة ، وفي ظرف دقيقتين سُمع بابُ المدخل يُفتح بجهد ، ثم صرَّ المزلاج ، وظهر فلاح عجوز ممسكاً بالباب الخارجي الذي كانت الريح تدفعه . كان الفلاحُ مديد القامة ، أشهب اللحية ، عليه قميص أبيض جديد وفرويّة قصيرة ، وكان يتبعه فتى بقميص أحمر وجزمة جلدية . سأل العجوز :

— أهذا أنت حقاً ، يا فاسيلي اندريتش ؟

قال فاسيلي اندريتش :

— هذا أنا بالذات ، لقد ضللنا الطريق ، كما ترى كنا نريد أن نذهب إلى غوريا تشكينو فاذا بنا في بيتك . ذهبنا مرة ثانية وضللنا الطريق .

قال العجوز :

— انتظر قليلاً !

ثم أمر الفتى ذا القميص الأحمر :

— بيتروشكا اذهبْ وافتحْ باب العربات .

رد الفتى بصوت بهيج :

— حاضر .

ومضى راكضاً .

أعلن فاسيلي اندريتش :

– لكننا لن نأوي إلى بيتك ، أيها الأخ .

– إلى أين ستذهبان ؟ الوقت ليل . ابقيا .

– أتمنّى ذلك . لكن لابدّ من الذهاب . الأعمال . . . غير ممكن.

– تَدفّأا قليلاً ، على الأقل ؛ لقد وصلتما في وقت السماور بالذات .

أجاب فاسيلي اندريتش :

– أما الشاي فهو مقبول . لن تزداد العتمة ؛ وعندما يطلع القمر ستكون رؤيتنا أفضل . ما رأيكَ ، يا نيكيتا ، هل ندخل لنتدفّأ؟

قال نيكيتا الذي برد كثيراً والذي كان يرغب كثيراً في تدفئة أطرافه المتجمّدة :

– ولمَ لا ؟ هذا الطلبُ لا يُرفض .

دخل فاسيلي اندريتش الكوخ الخشبي مع العجوز . وأدخل نيكيتا الحصانَ من باب العربات بعد أن فتحه بيتروشكا ، إلى الفناء ، وربطه تحت افريز مستودع الحصيد الذي كانت أرضه مغطّاةً بطبقة سميكة من الزبل ، وعُلّق الطوقُ في إحدى العوارض . وأخذت الدجاجات والديك التي باتت ليلتها فيه تنقّ وتضطرب لاستيائهامن هذا الازعاج. وخافت النعاجُ فألقت بنفسها ذات اليمين وذات الشمال ، مثيرة الصخب وهي تضرب بأرجلها الأرض المتجمّدة . وطفقَ الكلب ينبح على الواغلين نباح الخوف والسخط .

كلّم نيكيتا كلّ أولئك : اعتذر للدجاجات وهو يَعِدُها بأنه لن يزعجها بعد الآن . ويلوم النعاج لأن الخوف استولى عليها دونما سبب ، ولم يكفّ عن حث الكلب على الهدوء ، وهو يربط الحصان . وقال وهو ينفض الثلج الذي انتثر عليه:

ــ ها قد مشت الحال الآن .

ثم أضاف وهو يلتفت إلى الكلب :

ــ انظرْ إليه كيف بُحّ من العواء . كفى ! كفى ، يا أحمق ! كفى ! أنت تُتعب نفسك دون جدوى . فلسنا لصوصاً.

قال الفتى وهو يدفع بذراعه القوية الزلاّجة التي ظلت في الخارج ، إلى مستودع الحصيد :

ــ هؤلاء هم المرشدون في المنزل ، كما هو مكتوب .

سأله نيكيتا :

ــ أيّ مرشدين ؟

شرح الفتى ذلك وهو يبتسم :

ــ هذا ما هو مكتوب في كتاب « بولسون » (١) : يقترب السارق خفيةً من البيت ، فينبح الكلبُ ؛ وهذا يعني لا تكن مغفّلاً ، وخُذْ حذرك ! ويصيح الديكُ ؛ وهذا يعني : انهض ! ويغسل الهرّ نفسه بلسانه ، وهذا يعني : هناك ضيف قادم ، فاستعدّ لإطعامه جيداً .

كان بيتروشكا يعرف القراءة والكتابة ويحفظ عن ظهر قلب كتاب « بولسون » ، وهو الكتاب الوحيد الذي يملكه . وكان يحب كثيراً ، ولاسيّما عندما يشرب قليلاً كما فعل اليوم ، أن يستشهد ببعض الحكم التي تبدو له ملائمة للمناسبة .

قال نيكيتا :

ــ صحيح .

---

(١) كتاب يولسون : بولسون (١٨٢٤ ــ ١٨٩٨) مربٍّ روسي مؤلف كتب مدرسية للمدارس الابتدائية ، ومحرر مجلة « المعلم » التي ظهرت بين ١٨٦٢ ــ ١٨٧١ .

أردف بيتروشكا :

— أنت متجمّد ، على ما أظن ، يا عمّ ؟

أجاب نيكيتا :

— نعم ، قليلاً :

اجتازا الفناء ودخلا المنزل الخشبي .

— ٤ —

كان المنزل الذي توقّف فيه فاسيلي اندريتش واحداً من أغنى منازل القرية كلها. فقد كانت الأسرة تملك خمس حصص من الأرض وتستأجر غيرها أيضاً . وكان في الفناء خمسة أحصن ، وثلاث بقرات ، وعجْلتان ، ونحو عشرين نعجة . وكانت الأسرة التي تسكن هذا المنزل تتألف من اثنين وعشرين شخصاً : أربعة أولاد متزوجين ، وستة أحفاد ، منهم بيتروشكا ، المتزوج الوحيد بين الأحفاد ، واثنين من أولاد الأحفاد ، وثلاثة أيتام ، وأربع من نساء الأولاد مع أولادهن . وكانت هذه الأسرة من الأسر النادرة في القرية التي لم تُجر القسمة على أملاكها ؛ لكن الشقاق الذي برز ، كالعادة ، بين النساء كان يفعل فعله سرّاً ، وهو فعل سيقود حتماً إلى اقتسام الأملاك . كان اثنان من الأولاد يعملان سقّاءين في موسكو ؛ وكان الثالث جندياً . وكان يُقيم في البيت الآن : العجوزان، والابن البكر الذي عاد من موسكو بمناسبة عيد القرية ، والابن الثاني الذي يدير المزرعة ، وجميع النساء وأولادهن ، وفوق ذلك ضيف ، جار لهم .

عُلّق فوق المائدة مصباح غُطي بكمّة أضاء بشدّة الأواني المعدّة

للشاي ، وزجاجةٌ من ماء الحياة ، والمقبّلات ، والجدران القرميدية التي ازدانت صدورها بالأيقونات بين صفّين من الصور الملوّنة .

جلس فاسيلي اندريتش على المائدة تحت الايقونات ، وهو يرتدي فرويته السوداء . كان يطوف بعينيه الجاحظتين ، عيني الثعبان ، على الناس والجدران ، وهو يمصّ شاربيه .

جلس إلى المائدة ، فضلاً عن فاسيلي اندريتش ، العجوز الأصلع بلحيته البيضاء ، مرتدياً قميصاً من قماش أبيض ، وابنُه البكر القادم من موسكو ، ورجل عريض الظهر والمنكبين ، يرتدي قميصاً من القطن الناعم ، والابن الآخر الذي يعمل في البيت ، والجار ، وهو فلاحٌ نحيلٌ أصهب .

بعد أن شرب الرجال وأكلوا ، أقبلوا على الشاي . كان السماور يهدر على الأرض قرب المدفأة . وعلى المدفأة ، على الألواح الموضوعة فوقها ، نام أطفالٌ ؛ وجلست امرأة على مقعد ، قرب سرير . وكانت العجوز ، ربة المنزل ، ذات الوجه المخدّد بتجاعيد دقيقة علّمت شفتيها أيضاً ، منشغلةً بفاسيلي اندريتش .

في اللحظة التي دخل فيها نيكيتا المنزل ، كانت تصبُّ ماءَ الحياة بكأسٍ سميكة قدّمتها وهي تقول :

— لا تحتقرْنا ، يا فاسيلي اندريتش . يجب أن تشرب وأن تتمنّى لنا عيداً سعيداً .

إن منظر ماء الحياة ورائحته ، في هذه اللحظة بخاصة ، هذه اللحظة التي كان فيها نيكيتا متجمّداً ومتعباً شوّشاه تشويشاً عميقاً . فتجهّم وجهه . وبعد أن نفض قبّعته وقفطانه ، استدار نحو الأيقونات ، وكأنه

لم ير أحداً ، وحياها برسم الصليب ثلاث مرات ؛ ثم انعطف نحو المائدة فحيّا العجوز أولاً ، ثم جميع الجالسين حولها ، وانتهى بأن انحنى أمام النساء الجالسات قرب الموقد . ثم أخذ ينزع ثيابه بعد أن تمنّى العيد السعيد للجميع .

قال الولد البكر لدى مرأى وجه نيكيتا الذي كانت عيناه ولحيته مغطّاة بنثار الثلج .

ـ أيها العم ، لكم أنت مُثقلٌ بالجليد !

خلع نيكيتا قفطانه ، ونفضه مرةً أخرى ، وعلّقه بمسمار ، ودنا من المائدة . كانت هذه اللحظة شاقةً عليه : كان على وشك أن يمسك با قدح الصغير ويأخذ جرعة من هذا السائل الصافي العطِر ؛ لكنه ألقى نظرة على فاسيلي اندريتش وتذكّر العهد الذي قطعه على نفسه ، وتذكّر الجزمة التي باعها ليشرب بثمنها ، كما تذكر فتاه الذي وعده بأن يشتري له حصاناً في الربيع ، فتنهد وامتنع . وقال وهو يقطّب حاجبيه ويجلس على مقعد قرب النافذة :

ـ إني لا أشرب ؛ أشكركم شكراً جزيلاً .

سأل الابن البكر :

ـ ولمَ لا تشرب ، يا ترى ؟

أجاب نيكيتا دون أن يرفع بصره :

ـ إني لا أشرب ، هذا كلُّ ما في الأمر .

وإذ نظر بمؤخرة عينه إلى شاربيه ولحيته ، أخذ يخلّصها من نثرات الثلج التي رصّعتها .

قال فاسيلي اندريتش وهو يقضم بسكويتةً :

— الخمر لا تناسبه .

قالت العجوز الطيبة :

— إذن سنشرب الشاي . لابدّ أنك متجمّد ، يا عزيزي . هيّا ! يا نساء ! ماذا تنتظرن لتقدّمن السماور ؟

قالت إحدى الكنّات :

— إنه جاهز .

وبعد أن جفّفت بخرقةٍ السماور الذي كان يَنْفث البخار ، رفعته بمشقة ووضعته بتثاقل على المائدة .

روى فاسيلي اندريتش كيف أنهما ضلاّ الطريق وعادا مرتين إلى القرية ؛ وكيف أنهما سارا زمناً طويلاً على غير هدىً ، ولقيا زلاجة تحمل فلاحين سكارى . أبدى العجوز دهشته ، واستفسر أين ولماذا ضلاّ الطريق ، ومن هم السكارى الذين صادفوهم ، والوجهة التي عليهما أن يسيرا فيها :

— الطريق حتى « مولتشانوفكا » بسيطة جداً . لا يغلط فيها طفلٌ صغير : يكفي أن تنعطفا في الوقت المناسب . هناك دغل .

أردف الجار :

— ومع ذلك ، تُهْتُما .

وألحّت العجوز :

— لعلكما تبيتان هنا ؟ ستُعدّ النساء المنامةَ .

وأضاف العجوز :

— وسوف تذهبان في الصباح الباكر ؛ سيكون ذلك ممتازاً

أجاب فاسيلي اندريتش :

— هذا غير ممكن ، أيها الأخ . لدي أعمالٌ ذات شأن .

وأردف وهو يتذكّر الغابة والتجار الذين يريدون أن ينتزعوهامنه:

— ما نضيعه في ساعة لا يمكن أن نردّه في سنة .

ثم قال لنيكيتا :

— وسنصل إلى القرية ، أليس كذلك ؟

لم يُجبْ نيكيتا رأساً ، وكأنه ظلّ مشغولاً بلحيته وشاربيه . وقال أخيراً وهو متجهّم :

— على شرط ألا نضلّ طريقنا مرة أخرى .

كان نيكيتا متجهّماً لأنه اشتهى بقوةٍ ماءَ الحياة ؛ الشاي وحده يمكنه أن يُسكّن هذه الشهوة ، لكنهم لم يقدّموا له الشاي بعد.

— لكن يكفي أن نصل إلى المنعطف ؛ ثم من المستحيل أن نضل طريقنا ، إذ تأتي الغابة.

قال نيكيتا وهو يتناول فنجان الشاي الذي قُدّم إليه :

— هذا شأنك ، يا فاسيلي اندريتش . كما تشاء .

— لنشربْ ، ثم لِنَسِرْ!

لم يقل نيكيتا شيئاً ؛ لكنه هزّ رأسه . وبعد أن صبّ بحذرٍ الشاي في صحيفته أخذ يُدفىء على البخار يديه بأصابعهما التي ورّمها العمل . ثم تناول بفمه قطعةً صغيرة من السكر وحيّا العجوزين قائلاً :

— على صحتكما.

وامتصّ السائل الساخن .

قال فاسيلي :

— ليت أحداً يقودنا إلى المنعطف .

قال الابن البكر :

— ولمَ لا ؟ سيربط بيتروشكا الحصان ويقودكما إلى المنعطف.

— اربطْ إذن ، يا صاحبي . وأنا سأشكرك.

تدخّلت العجوزُ :

— ماذا تقول ، يا عزيزي ؟ إن هذا من كل قلبنا .

قال الابنُ البكر :

— بيتروشكا ، اربط الفرس .

قال بيتروشكا ، وهو يبتسم :

— حاضر .

وإذ تناول قبعته التي تدلّت من مسمار ، جرى ليربط الفرس.

بينما كان الفتى يربط الفرس استؤنف الحديثُ الذي قطعه وصولُ فاسيلي اندريتش . كان العجوز يشكو لجاره من ابنه الثالث الذي لم يرسل إليه شيئاً للعيد ولم يُهد زوجته سوى منديل فرنسي . وكان يقول :

— لم يعد الشبابُ يطيعون .

— بالتأكيد ! ولا حياة لنا معهم ! إنهم مفرطو الذكاء . انظرْ إلى ديوموتشكين ! لقد كسر ذراع أبيه . كل هذا يأتي ، بلا ريب ، من أنهم يعرفون من الأشياء أكثر مما ينبغي .

كان نيكيتا يُصغي بانتباه ، ويفحص الوجوه ، وودّ ، بلا شك أن يشارك في الحديث ، لكنه كان مستغرقاً في تناول الشاي ، واكتفى بأن هزّ رأسه إشارةً إلى موافقته . كان يفرغ الفنجان بعد الفنجان ، فيزداد دفئاً وشعوراً بالتحسّن . وظلّ الحديثُ يدور على الموضوع نفسه ،

على قسمة الأملاك والشر الناجم عن ذلك . وكان واضحاً أن المقصود ليس حالةً مجرّدةً ، ولكن المقصود كان هذا المنزل بالذات ؛ ذلك أن الابن الثاني الذي يجلس قرب والده متجهّماً وصامتاً كان يطلب تلك القسمة. وكان بديهياً أن هذه المسألة مؤلمةٌ وقد شغلت الأسرة بكاملها . على أن العجوز لم يتمكن من أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك ، فأعلن ، والدموعُ في صوته ، أنه مادام حيّاً فلن يقبل القسمة ، وأن كل شيء وافرٌ ، بفضل الله ، وأن القسمة إنْ تمّت فان الأسرة ستنتهي بالتسوّل تحت نوافذ البيوت .

قال الجار :

— ذلك مثل أسرة « ماتفيف » كان عندها كل ما يلزمها ؛ والآن بعد أن تفرقّت لم يعد أحدٌ يملك شيئاً.

قال العجوزُ مخاطباً ابنه :

— هذا ما تريده ، أنتَ.

لم يجب هذا. وأطبق صمتٌ مزعج . قطعه بيتروشكا الذي ربط الفرس وعادمنذ بضع لحظات ؛ كان يصغي ويبتسم . وقال وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً :

— في كتاب « بولسون » حكايةٌ حول ذلك . طلب أبٌ من أولاده أن يكسروا مكنسةً فلم يُفلحوا ، لكنهم عندما فصلوا القش بعضه عن بعض صار الأمرُ سهلاً . هذا صحيح كلياً . لقد تمّ لهم الأمر.

قال فاسيلي اندريتش :

— تمّ لهم الأمرُ . إذن فلنذهبْ . وبالنسبة إلى القسمة ، أيها الجد، لا تتنازلْ . أنت جمعتَ كلّ شيء ؛ وأنت السيد. راجعْ قاضي الصلح . سيقول لك ما ينبغي فعلُه .

تابع العجوزُ بصوتٍ باكٍ :

— إنه يُقيم الكثير من العراقيل ، الكثير من العراقيل ، حتى عجزنا معه فكأن الشيطان قد تلبّسه .

بعد أن أنهى نيكيتا فنجانه الخامس ، لم يقلب فنجان الشاي الفارغ ، وإنما وضعه على جانبه آملاً أن يُصَبَّ له فنجانٌ سادس . لكن السماور فرغ ، ولم تقدّم له العجوزُ شيئاً ؛ ومن جهة أخرى ، أخذ فاسيلي اندريتش يرتدي ثيابه . فلا مناصَ من الذهاب : نهض نيكيتا ، وأعاد إلى السكّرية قطعة السكر الصغيرة التي قرضها من جهاتها كافةً ، ومسح بطرف قفطانه وجهه المتصبّب عرقاً ، وارتدى فرويته .

وعندما تأهّب ، تنهّد بعمق وشكر مضيفيه وودعهم ، ثم خرج من الغرفة المضاءة والدافئة ليدخل المدخل المظلم والبارد ، الممتلىء ثلجاً ، والذي كانت الريح تنفذ إليه وهي تعوي من خلال شقوق الباب والجدران . ثم نزل إلى الفناء .

كان بيتروشكا الذي ارتدى فرويّته ، واقفاً قرب الفرس ، يُلقي ، وهو يبتسم ، أشعاراً من كتاب « بولسون » :

« العاصفة تغشّي السماوات المظلمة إذ تثير زوابع من الثلج ؛ فهي حيناً تعوي كما يعوي الوحش ، وهي حيناً آخر تنوح كما ينوح الطفل » .

كان نيكيتا يهز رأسه موافقاً ويفكّ المقود .

رافق العجوزُ فاسيلي اندريتش وبيده مصباح . أراد أن يضعه في المدخل ليرى ضيوفه بوضوحٍ أكبر ، لكن الريح مالبثت أن أطفأته . وكان

جليّاً ، حتّى في الفناء ، أن العاصفة الثلجية تهبّ بعنفٍ أشد من ذي قبل.

فكّر فاسيلي اندريتش :

— ما أسوأ الطقس ! ربما كان من الأفضل أن نمكث هنا . لكن هذا غير ممكن : الأعمال ! ثم إننا قد تهيّأنا للسفر ، ورُبط فرسُ صاحب البيت . . . سوف نتخلّص من هذا المأزق . وسيُعيننا الله ! »

وكان العجوزُ يقول في نفسه أيضاً أنه قد كان من الأفضل لو باتوا هنا ؛ لكنه قد نصحهم فلم يسمعوا نصحه . ولا جدوى من الإصرار . وفكّر في نفسه : لعلي أصبحت أتخوف لأني كبرتُ ! ربما لم يُصبْهم شيءٌ . ثم إننا ، بهذه الطريقة ، سننام مبكرين دون قلقلة . . . »

أما بيتروشكا فلم يخطر بباله الخطرُ البتّة : كان يعرف جيداً الطريق والضواحي ! ثم إن الأشعار التي ألقاها رفعتْ من عزيمته ، لأنها تعبّر تماماً عمّا يجري أمام عينيه .

وأما نيكيتا ، فلم يرغب في الذهاب ، لكنه تعوّد منذ زمن بعيد أن يتخلّى عن إرادته وأن يكون في خدمة الآخرين ، وإذن فلم يردّ المسافريْن أحدٌ عن سفرهما .

— ٥ —

دنا فاسيلي اندريتش من الزلاّجة وهو يتلمّس طريقه إليها ، إذ لم يكن يُرى شيءٌ ، وصعد إلى داخلها وتناول المقود ، وصاح ببيتروشكا :

— امضِ أمامنا .

أطلق بيتروشكا العنان لفرسه ، وهو راكع في زلاّجته العريضة

المنخفضة . انطلق الكميتُ الذي كان يصهل منذ برهة ، في أثر الفرس التي أحسّ بها أمامه

ساروا في الطريق نفسه التي ساروا فيها قبل حين ؛ ومرّوا مرةً أخرى أمامَ الفناء الذي كان يصطفق فيه بفعل الهواءِ الغسيلُ المتجمّدُ الذي لم يكن يُميّزُ ، وأمام مستودع الحصيد الذي غمره الآن الثلجُ تماماً ، وأمام الخنشارة التي انحنت تحت هبّات الريح وأخذت تئنّ وتصفر صفيراً حزيناً ؛ وغاصوا مرة أخرى في بحرٍ هائجٍ هاجمتهم أمواجه الثلجية من كل جانب . وكانت الريح من القوة بحيث أنها إذا هبّت من هذه الجهة أمالت الزلاّجة ودفعت الجواد إلى الجهة المقابلة.

جرى بيتروشكا بفرسه النشيطة التي كان يحثها بصرخاته الحادة . وكانَ الكميتُ يجهد في إدراكها .

مضوا على هذا المنوال نحواً من عشر دقائق ، وعندها استدار بيتروشكا وصرخ ببضع كلمات لم يفهمها فاسيلي اندريتش ولا نيكيتا بسبب الريح ؛ لكنهما تكهّنا بأنهم بلغوا المنعطف . وبالفعل فان بيتروشكا انعطف إلى اليمين ؛ وأخذت الريح التي تأتيهما من الجانب تهبّ على وجوههم ، وشاهدوا من خلال الثلج إلى اليمين بقعاً سوداء . كان هذا هو الدغل .

— ليكن الله معكم !

— شكراً ، بيتروشكا .

صاح بيتروشكا لآخر مرة :

— العاصفة تغشّي السماوات بالظلمة ؟

قال فاسيلي :

— يا لهذا الهاوي للشعر !

وضرب بالمقود جانبي الحصان ضرباً خفيفاً

قال نيكيتا :

— نعم ، إنه فتى طيّب ، فلاح حقيقي .

وسار بسرعة .

تلفّع نيكيتا بفرويّته وأولج رأسه بين كتفية حتّى إن لحيته القصيرة ضغطت على عنقه . وظل صامتاً ، محاولاً ألاّ يُضيع الحرارة التي تزوّد بها وهو يشرب الشاي . وكان يميّز أمامه خطّيْ العريشين المستقيمين اللذين كانا يخدعانه أبداً ، لأنه كان يظنهما حافتي الطريق ، وردفَ الحصان المتذبذب ، بذيله المعقود الذي كانت تردّه الريح دائماً إلى الجهة نفسها ، وأبعد من ذلك ، في المقدّمة ، رأس الحصان وهو يتمايل تحت طوقه المرتفع ، وعنقه التي انتصب شعرُ ناصيتها . وكان نيكيتا يشاهد الشواخص ، بين حين وآخر ، وحينئذ كان يعلم أنهما يسلكان الطريق ، وأن ليس عليه ، من ثَمَّ ، أن يفعل شيئاً .

كان فاسيلي اندريتش يقود الزلاّجة سامحاً للحصان أن يحافظ هو نفسه على الاتجاه الصحيح . لكن مع أن الكميت استراح إلا أنه كان كأنه يخبّ بالرغم منه ، وكان يبدو عليه أنه يريد الانحراف عن الطريق حتى أن فاسيلي اندريتش اضطرّ أن يجذب مقوده عدة مرات .

كان فاسيلي اندريتش يعد الشواخص : « هذا شاخص إلى اليمين ، وذاك ثانٍ ، وذاك ثالثٌ » ثم قال في نفسه : « وتلك هي الغابة ، هناك» . قال ذلك وهو يسعى إلى تمييز كتلة سوداء لمحها أمامه . لكن ما بداله غابةً لم يكن سوى دغل . وتجاوز الدغل وقطع نحو ستين ذراعاً فلم

يقع لا على شاخص ولا على الغابة . وقال فاسيلي اندريتش في نفسه : « لابدّ أن تكون الغابةُ هنا » . ولما كان ماءُ الحياة والشاي قد حرّكاه، فانه لم يكفّ عن حث الحصان الذي كان مطواعاً وشجاعاً، يجري هرولة حيناً ، وخباً خفيفاً حيناً آخر في الاتجاه الذي يُساق إليه ،مع علمه بأن هذا الاتجاه غير صحيح . مرّت عشر دقائق وظلت الغابةُ غائبة عن النظر .

صاح فاسيلي اندريتش وهو يوقف حصانه :

— ها نحن قد ضللنا الطريقَ مرة أخرى !

نزل نيكيتا من الزلاجة ممسكاً بقفطانه الذي كان يلتصق بجسمه حيناً، وينقلب وينفتح انفتاحاً عريضاً حيناً آخر ، وأخذ يسير خلال الثلج في هذه الجهة وفي تلك. توارى كلّياً ثلاث مرات عن بصر فاسيلي اندريتش. وأخيراً عاد وأخذ المقود من يدي معلمه ، وقال بلهجة قاسية وصارمة :

— يجب أن نذهب إلى اليمين .

وأدار الحصان .

قال فاسيلي وهو يسلمه المقود ويخفي يديه المتجمّدتين في كميّه :

— حسناً فلنذهبْ إلى اليمين .

ولم يجب نيكيتا بشيء ، وصاح بالحصان :

— هيّا ، يا صديقي العزيز ، شدّ حيلك .

لكن الحصان ظل يسير الهوينا ، مع أن نيكيتا أخذ يجذب المقود. في بعض المواضع كان الحصان يغوص في الثلج حتى ركبتيه ، ولدى كل حركة كانت الزلاّجة تسير برجّات قصيرةٍ .

تناول نيكيتا السوط الذي كان معلّقاً في مقدمة الزلاّجة ، وضرب به الحصان . فبذل الحصان المطواع الذي لم يتعود الضرب جهداً عنيفاً، وأخذ يخبّ خباً ، لكنه ما لبث أن عاد مباشرة إلى الهملجة ثم السير البطيء . سارا هكذا نحو خمس دقائق . كان الجو مظلماً جداً وزوابع الثلج كثيفة جداً بحيث تعذّرت أحياناً مشاهدة طوقه . وكان يبدو أحياناً أن الزلاجة لا تتحرك وأن السهل ينزلق إلى الوراء . وفجأة توقف الحصانُ لأنه توجّس ، دون شك ، شيئاً من الخطر .

نزل نيكيتا مرة أخرى وتقدم ليتبيّن سببَ هذا التوقّف ؛ لكنه ما كاد يتجاوز رأس الحصان حتى زلّت قدماه فتدحرج إلى الأسفل .

أخذ يقولُ في نفسه وهو يجهد في الوقوف : « قفْ ! قفْ ! قفْ ! » لكنه لم يتمكن من إيقاف نفسه ولم يتوقف إلا عندما دخلت قدماه في طبقة الثلج السميكة التي كوّمتها الريحُ في قاع الوهدة .

إن الثلج المتكوّم في ذروة الوهدة والذي هزّه سقوط نيكيتا ، انهار عليه حتى بلغ عنقه ، تحت ثيابه ، فقال بلهجة الملامة مخاطباً الوهدة وكومة الثلج :

— آه ! هكذا ، أنتما !

وأخذ ينفض الثلج .

أخذ فاسيلي اندريتش يصرخ من فوق :

— نيكيتا ! يا نيكيتا !

لكن نيكيتا لم يجب .

لم يكن لديه متّسع من الوقت ؛ كان ينفض نفسه ويبحث عن السوط الذي سقط وهو يتدحرج إلى الأسفل . وحين وجده تهيّأ للصعود

من المكان نفسه الذي انزلق منه ، لكنه لم يفلح في ذلك ؛ كان ينزلق إلى الأسفل . حتى إنه في النهاية اضطر أن يسير إلى قاع الوهدة لكي يجد مخرجاً . وعلى تسعة أذرع من الموضع الذي زلّت فيه قدمُه ، أفلح بصعوبة في الصعود مستعيناً بيديه ، وطفق يسير حينئذ بمحاذاة الذروة نحو الموضع الذي لابدّ أن يكون فيه ، باعتقاده ، الحصانُ . بيد أنه لم يشاهد لا الحصان ولا الزلاجة ؛ لكن بما أنه كان يسير بعكس اتجاه الريح سمع صرخات فاسيلي اندريتش وصهيل الكميت الذي يناديه ، قبل أن يراهما ، وقال :

— أنا آتٍ ، أنا آتٍ ! مالك تزعق هكذا ؟

ولم يُبصر الزلاجة وبجنبها فاسيلي اندريتش الذي بدا له ضخماً ، إلا عندما صار قريباً جداً منهما.

قال فاسيلي اندريتش لنيكيتا بلهجة غاضبة :

— أين اختفيتَ ؟ تبّاً لك ! يجب أن نعود أدراجنا . لنعدْ على الأقل إلى « غريشكينو » .

— العودة إلى غريشكينو ؟ لست أطلب خيراً من ذلك . لكن كيف؟ هاهنا وهدةٌ شديدة العمق بحيث لا يخرج منها مَنْ كان فيها . لقد تدحرجتُ إليها ولم أعدْ إلا بجهد جاهد.

قال فاسيلي أندريتش :

— وإذن فإن نبقى هنا ! يجب أن نتقدّم.

لم يجب نيكيتا . جلس في الزلاجة وقد أدار ظهره إلى الريح ، ونزع جزمته وأسقط منها الثلج الذي انسلّ إليها . ثم تناول قبضةً من القش وسدّ بها بعناية ثقب الفردة اليسرى من جزمته .

أخلد فاسيلي اندريتش إلى الصمت وكأنه اطمأن إلى فطنة نيكيتا. وبعد أن احتذى نيكيتا جزمته ، دخل الزلاجة ، ووضع قفّازيه ، وتناول المقود ، وأدار الحصان ، وساقه على محاذاة الوهدة . لكنهما ما كادا يسيران نحو مائة خطوة حتى توقف الحصان مرة أخرى ، فجأة . لقد ألفيا نفسيهما هذه المرة أيضاً أمام وَهْدة .

نزل نيكيتا مرة أخرى وراح يبحث عن ممرّ . دام ذلك زمناً طويلاً وأخيراً برز من الجهة المقابلة للجهة التي انطلق منها . وصاح :

— يا اندريتش ، أما تزال حيّاً ؟

أجاب فاسيلي اندريتش :

— أنا هنا ! ما الخبر ؟

— الخبرُ أن قواي نفدت ، وأن الحصان أيضاً منهك .

— ما العمل إذن ؟

— انتظرْ قليلاً .

وانطلق نيكيتا مرة أخرى ؛ لكنه ما لبث أن عاد هذه المرة بسرعة، وقال وهو يقف أمام الحصان :

— اتبعْني .

كفّ فاسيلي اندريتش عن إلقاء الأوامر ، وكان يفعل ، دون أن يرد ، كل ما يقوله نيكيتا :

صاح نيكيتا مرة أخرى :

— اتبعْني

خطا خطوة إلى اليمين ، وأمسك لجام الكميت بسرعة ودفعه نحو الوهدة ، عبر رُكام الثلج الذي كان يعلو ذروتها .

قاوم الحصان في البدء ، لكنه وثب إلى الأمام بعد ذلك ، وهو يحسب أنه يستطيع المرور من فوق كومة الثلج ، فلم يفلح وغاص في الثلج حتى عنقه .

صاح نيكيتا فاسيلي اندريتش الذي ظلّ في الزلاجة :

— هلاّ خرجتَ ؟

وتناول أحد العريشين وأخذ يدفع الزلاجة التي علَتْ كفل الحصان. وقال للحصان :

— هذا صعبٌ، يا أخي ، لكن ، ما العمل ! شدّ حيلك . هيّا ! هيّا !

اندفع الحصان مرتين فلم يتمكن من الصعود ؛ حينئذ تجمّع على نفسه وبدا كأنه يفكّر . فقال له نيكيتا :

— هيّا ! يا أخي ! لا يمكننا البقاء هكذا . هيّا ، هذه المرة أيضاً !

أمسك نيكيتا مرة أخرى بأحد العريشين ، بينما كان فاسيلي اندريتش يدفع الآخر . هزّ الحصان رأسه وتهيّأ للاندفاع ووثب . فصاح نيكيتا :

— امضِ ! امضِ ! لا تخشَ شيئاً ! فلن تغرق !

وثب الحصان وثبةً ، ثم ثانيةً ، ثم ثالثة ، واستطاع أخيراً الخروجَ من كومة الثلج . حينئذٍ توقّف ، وهو يلهث بمشقة ، وينتفض .

أراد نيكيتا أن يسير أيضاً ، لكن فاسيلي اندريتش كان يلهث لهاثاً شديداً تحت فرويته عجز معه عن المشي ، فتهالك على الزلاّجة ، وقال وهو يفك المنديل الذي ربطه في القرية حول ياقة فرويته :

— دعني اتنفس ،

أجاب نيكيتا :

— ستكون الحال أحسن الآن . ابق هنا . وسأقودك .

وبينما كان فاسيلي اندريتش يستقرّ في الزلاّجة ، أخذ نيكيتا الحصان من لجامه ، وسار به نزولاً نحو عشر خطوات ، ثم قاده إلى موضع أعلى قليلاً وتوقف .

لم يكونا في قاع الوهدة حيث كان يمكن للثلج الذي تطرده الريح أن يغطّيهما كليّاً ؛ لكن الموضع الذي وقف فيه نيكيتا كان أدنى من الذروة فحمتهما ذروة الوهدة من العاصفة. كانت الريح تبدو أنها تخمد ، في بعض اللحظات ؛ لكن هذه الهدآت النسبية لم تكن تدوم . فبعد الهدْأة ، كانت العاصفة تعود إلى الهبوب بأضعاف قوتها وكأنها تريد أن تستدرك الزمن الذي فاتها ، وكانت تكسح الثلج في زوابع ، بهياجٍ أشد شراسةً . وقد انقضّت عليهما إحدى هذه العصفات في اللحظة التي كان فيها فاسيلي اندريتش الذي استردّ أنفاسه ، يخرج من الزلاجة ويقترب من نيكيتا ليسأله عمّا ينوي فعله .

انحنيا كلاهما تلقائياً ، وبقيا في مكانهما ينتظران أن يهدأ غضب الرياح . وأسدل الحصان أذنيه مغتاظاً وحرّك رأسه . وما إن خفّ هبوب الريح حتى خلع نيكيتا قفّازيه ، ودسّهما في زنّاره ، ونفخ في يديه ، وأخذ يفكّ طوق الحصان . فسأله فاسيلي اندريتش :

— وماذا تفعل ؟

أجاب نيكيتا وكأنه يعتذر

ـــ أفكّ الحصان . ماذا يوسعنا أن نفعل غير ذلك ! أنا منهك !

ـــ ألا يمكننا متابعة السير ؟

ـــ وإلى أين نذهب ؟ سنقتل الحصان . انظرْ إليه ، إنه لم يعد يستطيع الحراك .

قال نيكيتا ذلك ، وهو يشير إلى الحصان الذي خفض رأسه ، منصاعاً ، مستعداً لكل شيء ، والذي كانت أنفاسه اللاهثة تحرك خاصرتيه المبلّلتين بالعرق . وأضاف :

ـــ يجب أن نقضي الليل هنا .

وكأن قضاء الليل هنا كقضاء الليل في النزل ، وأخذ يفك السير الذي يثبت الإكليل ، فسقطت الإبزيمات .

قال فاسيلي اندريتش :

ـــ ألا نموت من البرد هنا ؟

أجاب نيكيتا :

ـــ ربما متنا . لكن ماذا بوسعنا أن نفعل ؟

ـــ ٦ ـــ

أحسّ فاسيلي اندريتش بالدفء الشديد تحت فرويته ، ولاسيما بعد أن تخبّط مع الحصان والزلاّجة في كومة الثلج . لكن ظهره يَردَ عندما أدرك أنّ عليهما أن يقضيا الليل في العراء . ولكي يحاول تسكين نفسه جلس في الزلاجة وتناول من جيبه سيجاراته وعلبة الكبريت .

في أثناء ذلك ، كان نيكيتا يفك الحصان . فكّ الحزام والمقعد الخشبي والمقود والمجرّات ، ورفع عقده ، دون أن يكفّ عن مخاطبة الحصان وتشجيعه .

كان يقول له وهو يجرّه خارج العريشين :

— هيّا ، اخرج من هنا . سوف أربطك ، سأعطيك شيئاً من القش وسأنزع لجامك . (وكان يفعل ما يقوله .) فاذا أكلتَ أحسست بسرور أكبر .

كان واضحاً أن كلام نيكيتا لا يفلح في تهدئة الكميت الذي بدا عليه الاضطراب الشديد . كان يضرب الأرض بقدميه ، ويلتصق بالزلاجة ، وظهره للهواء ، ويفرك رأسه بكم نيكيتا .

تناول الحصان بحركة نزقة قليلاً من قش الزلاجة ، وكأنما فعل ذلك لكي لا يحرج نيكيتا ليس غير ؛ لكنه ما لبث أن قرّر ترْك القش لأن هذه اللحظة ليست للأكل . واستولت الريح في اللحظة نفسها على القش وبدّدته بعيداً .

قال نيكيتا :

— لنضع الآن علامة .

وأدار الزلاجة إلى مواجهة الريح ، وربط بحزام المقعد طرفي العريش ، ونصب العريشين وأسندهما إلى مقدمة الزلاّجة . وقال وهو يلبس قفازيه بعد أن نفضهما :

— انتهيت ! فاذا ما غمرنا الثلج رأى الناس العريشين وجاؤوا لإخراجنا من تحته . هكذا علّمنا الشيوخ أن نفعل

حلّ فاسيلي اندريتش فرويّته التي جهد في تثبيت جانبيها وأخذ يحك عيدان الكبريت الواحد تلو الآخر على علبة فولاذية ؛ لكن يديه كانتا ترتجفان ، وكانت العيدان التي تشتعل تنطفىء فوراً أو تنطفىء في اللحظة نفسها التي يقرّ بها من سيجارته . وأخيراً اشتعل أحدهما وأضاء ، في مدى

ثانية ، فروّ الفرويّة ، ويده التي ازدانت سبابتهابخاتم ذهبي ، وقشّ الشوفان المغطّى بنثار الثلج الذي كان ينبعث من تحت الجلّ . اشتعلت السيجارة . سحب منها بنهمٍ سحبتين ، وبلع الدخان ثم نفثه عبر شاربيه . وأراد أن يتابع ، لكن الريح انتزعت السيجارة وحملتها بعيداً.

أبهجت هاتان السحبتان فاسيلي اندريتش ، فقال بلهجة حازمة :

— إن كان لابدّ من ذلك فلنبتْ هنا . انتظرْ قليلاً ، سأصنع رايةً.

التقط المنديل الذي رماه قبل حين في الزلاجة ، ونزع قفّازيه ، ووقف على مقدمة الزلاجة ، ومدّ نفسه ليبلغ الحزام الذي يصل بين العريشين وربط به ربطاً قوياً المنديلَ الذي أخذت الريحُ تحرّكه بعنفٍ ليصطفق ، فتلصقه حيناً بالعريش ، وتنفخه حيناً آخر كالشراع .

قال فاسيلي اندريتش وهو يتأمّل صنع يديه ، ويستقرّ في الزلاجة :

— الأمر حسن هكذا !

وأضاف :

— لو كنا اثنين لكان ذلك أدفأ لنا . لكن لا سبيل إلى ذلك .

قال نيكيتا :

سأجد مكاناً لي . لكن يجب أن أغطّي الحصان ، لأنه مبلّل بالعرق ، الحصان الغالي :

وأضاف وهو يقترب من الزلاجة :

— دعنّي أمرّ .

وسحب الجلّ من تحت فاسيلي اندريتش ، ثم طواه طيتين ، وغطّى به الحصان بعد أن نزع الحياصة والمقعد .

وقال وهو يعيد الحياصة والمقعد فوق الجلّ :
— ستكون هكذا أكثر دفئاً ، أيها الأحمق الصغير

وبعد أن انتهى ، دنا مرةً أخرى من الزلاّجة وقال لفاسيلي اندريتش :
— أنت لست بحاجة إلى الجنفيصة ، أليس كذلك ؟ وأعطني قليلاً من القش .

وسحب الجنفيصة والقش من تحت فاسيلي اندريتش . ومضى إلى خلف الزلاّجة ، وحفر حفرةً في الثلج وفرشها بالقش . وبعد أن أغرق قبعته في رأسه ، تلفلف بقفطانه ، وتغطّى بالجنفيصة فوقه وجلس على القش مستنداً إلى الزلاّجة التي كانت تحميه من الريح والثلج .

كان فاسيلي اندريتش ينظر إلى نيكيتا وهو يفعل ذلك نظرة استنكار : لقد كان يستنكر دائماً ، على كل حال ، جهل الفلاحين وبلاهتهم .

وأخذ بدوره يتهيا للمبيت . ففرش في أرض الزلاجة ما بقي من القش ، وجمّعه تحت جنبه ، وأدخل يديه في جيبيه ، وتمدد في زاوية الزلاجة ، مسنداً رأسه إلى مقدمتها المرتفعة التي كانت تحمية هكذا من ريح الشمال .

لم يكن يرغب في النوم . كان يفكّر : كان يفكّر دائماً في الشيء نفسه ، فيما كان يكوّن هدفَ وجوده ومعناه وفرحه وكبرياءه ، في المال الذي كسبه والذي ما يزال قادراً على كسبه ، في المال الذي يملكه آخرون يعرفهم ، وفي الوسائل التي بواسطتها جمعوا ثرواتهم ، وفي الطريق التي بفضلها يستطيع مثلهم أن يكسب الكثير من المال . وكان شراء غابة غورياتشكينو يمثّل بالنسبة إليه أهمية عظيمة : كان يأمل أن يربح من هذه الصفقة أرباحاً طائلة : ربما ربح منها نحو عشرة آلاف روبل .

وأخذ يثمّن في خياله الغابة التي طاف بها في الخريف والتي عدّ أشجارها على مساحة هكتارين .

« أشجار السنديان تعطي خشب الزلاّجات ، وخشب الصقالات ، وكل هكتار سيعطي تسعين ذراعاً من خشب التدفئة . وسأكسب من كل هكتار خمسة وعشرين روبلاً على الأقل . وهناك ما مجموعه ستة وخمسون هكتاراً . ستة وخمسون هكتاراً ، أي ست وخمسون مئة ، وأيضاً ست وخمسون مئة ، وست وخمسون عشرة ، وأيضاً ست وخمسون عشرة ، ثم خمس مرات من ست وخمسين . » ورأى أن حاصل ذلك أكثر من اثني عشر ألف روبل ، لكنه لا يستطيع أن يصل إلى الحساب الدقيق دون عدّادة . « لن أعطي مع ذلك عشرة آلاف روبل ، بل ثمانية آلاف ، وذلك بخصم ثمن فُرَج الغابة. سأدسّ في يد المسّاح مئة روبل ، بل حتى مئة وخمسين ، وسيحسب لي خمسة هكتارات من الفُرَج . نعم ، سيبيعها بثمانية آلاف . سأناوله مباشرةً ثلاثة آلاف روبل . ولسوف يلين ، دون شك ! » وجس بكوعه محفظته في جيبه . « كيف أمكن أن نضلّ طريقنا بعد أن تجاوزنا المنعطف ؟ الله أعلم ! لابد أن تكون الغابة هنا ، والكوخ . لكننا لا نسمع الكلاب. فهذه الكلاب الملعونة لا تنبح عندما نحتاج إليها »

نحّى ياقته وأصاخ السمع ؛ لكنه لم يسمع سوى صفير العاصفة ، واصطفاق المنديل المعلّق بالعريش ، وحفيف الثلج وهو يلطم الزلاجة. فتغطّى .

« لو كنا نعلم لبتنا في القرية . لا أهمية لذلك سنصل غداً . ولن نضيع سوى يوم . وفي مثل هذا الطقس لن يتحرك الآخرون أيضاً . »

وتذكّر أنه سيتسلّم المال في ٩ من اللحّام. « يريد أن يأتي بنفسه ، لكنه لن يلقاني . ولن تستطيع امرأتي أن تقبض هذا المال . فهي حقاً قليلة التعلم جداً وهي لا تُحسن التصرّف . » وتذكّر أنها لم تحسن التصرف مع مدير المنطقة الذي نزل ضيفاً عليهم عشية أمس . « امرأة ! أنا أعرف ماهي ! ماذا رأت ؟ كيف كان منزلنا في زمن أهلي ؟ لم يكن شيئاً ذا بال ! منزل فلاح غني : مستودع للحصيد ، ونُزُل . هذا كل ما كنا نملك . وأنا ، ماذا حصّلتُ في خمس عشرة سنة ؟

حانوتاً ، وحانتين ، ومطحنة ، ومخزناً للحبوب ، وقطعتي أرض مؤجرتين ، وبيتاً ، وحظيرة سقفُها من حديد . الأمر مختلف عمّا كان عليه في عهد أبي ! عمّن يتحدّث الناس اليوم في المقاطعة كلها ؟ عن بريكونوف » كل ذلك كان يقوله بفخرٍ . وفكّر في نفسه بفخرٍ أيضاً :

« ولمَ ذلك ؟ لأنني أعمل . لست كالآخرين ، الكسالى أو الذين تلهيهم الحماقات . أنا لا أنام الليل . وسواء أكان الطقس حسناً أم سيئاً : فأنا أسافر . وهكذا يتقدم الشغلُ . يظنّ بعضهم أن المال يُكسَبُ هكذا : بالمَزح . كلا ، عليك أن تكدّ وتكسر رأسكَ ، وأن تقضي الليل في العراء ، وألاّ تنام . ولفرط التفكير تصبح الوسادة وكأنها داخل رأسنا . يتخيّل بعضهم أن المرء يصبح إنساناً مرموقاً بالحظ . آل ميرونوف من أصحاب الملايين الآن . لماذا ؟ اعملْ ! وسيكون اللهُ بعونك . ليعطني الله الصحة فقط !

هزّته هذه الفكرةُ وهي أنه قد يصبح من أصحاب الملايين مثل ميرونوف الذي انطلق من لا شيء ، هزّاً شديداً حتى أحسّ بالحاجة إلى

أن يكلّم أحداً . لكن لم يكن هناك أحدٌ يكلّمه . . . آه ! لو كان في غورياتشكينو ، لتحدّث مع الملاّك ، ولأطلعه على دخيلة نفسه .

« ما أشد صفير الرياح ! سوف نُدفَن في أعماق الثلج بحيث لا يمكننا الخروج منه » . قال ذلك في نفسه وهو يصيخ السمع إلى زوابع الثلج التي تلطم مقدّمة الزلاّجة . ونهض ونظر حواليه : لم يميّز في العتمة المبياضّة سوى رأس الحصان القاتم ،وظهره تحت الجلّ الذي كانت الريح تهزه ، وذيله الكثيف المعقود . ومن حوله ، من جميع الجهات ، خلفه وأمامه ، كان يضطرب بحرٌ مظلم ، يبدو عليه أن يستنير لبضع لحظات ، ثم يزداد كثافة .

فكرّ فاسيلي اندريتش :

أخطأتُ حين أصغيتُ إلى نيكيتا . كان يجب أن نتابع سيرنا . لو فعلنا ذلك لبلغْنا مكاناً ما . كنا على الأقل رجعْنا إلى غريشكينو وبتنا عند « تاراس » بينما نحن هنا الآن طوال الليل . آه ! نعم ، لكن ، ما الشيء السارّ ؟ نعم ، ان الله يبارك العمل ولا يعطي الكسالى والحمقى شيئاً . . . يجب أن أدخّن ! »

جلس ، وأخرج علبه السجائر من جيبه ، وتمدّد على صدره ، جاذباً طرف فرويته ليحمي لهب عود الكبريت ؛ لكن الريح كانت تُفلح دائماً في الانسلال تحت الفروية لتطفىء أعواد الكبريت الواحد بعد الآخر . وأخير نجح فاسيلي اندريتش في إشعال أحدها ، وأخذ يدخّن. ولقد ابتهج كثيراً لكونه أشعل سيجارته بالرغم من كل شيء . ومع أنالريح هي التي امتصّت سيجارته ، إلا أنه استطاع أن يسحب منها سحبتين أو ثلاثاً ، فانشرح صدرُه . وعاد إلى النوم ، وتغطّى بعناية ،

وأخذ ، مرةً أخرى ، يفكر في الماضي ويحلم بالثروات المُقبلة ؛ ثم تشوّشت أفكاره فجأة وأغفى .

لكنه أحسّ ، على حين غرّة ، بمثل الصدمة واستيقظ . أهو الكميت يحاول أن يسحب من تحته أعواداً من القش أم أنها كانت صدمةً داخلية؟ مهمايكن من أمر ، استيقظ من جديد ، وأخذ قلبه يدق بقوة وبسرعة بدا له معهما أن الزلاّجة أخذت ترتجف تحته ؛ ومع ذلك خيِّل إليه أن الجو غدا أكثر صفاءً فقال في نفسه : « بدأ النهار يطلع ؛ اقترب الصبحُ ، بلا شك . » لكنه ما لبث أن تذكر أن الجو صفا بسبب القمر . ونهض وألقى نظرةً على الحصان . كان الحصان واقفاً يرتجف ، وظهره للهواء وانقلب الجل الذي ابيضّ ، من الثلج . وانزلفت الحياصة ، وأمكنه الآن أن يميّز تمييزاً أفضل رأس الحصان الذي انتثر عليه الثلج ، وناصيته المنتفشة. وأطلّ فاسيلي اندريتش من فوق مؤخرّة الزلاّجة ليرى ما الذي حلّ بنيكيتا . كان نيكيتا جالساً في الوضع نفسه ، واختفت قدماه والجنفيصة تحت طبقة كثيفة من الثلج .

فكرّ فاسيلي اندريتش :

« بشرط ألاّ يموت من البرد ! فثيابه ليست شيئاً . وسوف أكون أنا المسؤول . يالهم من أغبياء ! تلك عاقبةُ نقص التعليم ! » وأراد أن يرفع الجلّ عن ظهر الحصان ويغطّي نيكيتا ؛ لكنه قال في نفسه : إنه سيبرد إن نهض وتحرك ؛ ثم إنه خاف على الحصان أن يبرد . وفكر وهو يتذكّر امرأته التي لم يكن يحبّها : « لم جئتُ به معي ؟ تلك غلطتُها . » وتهالك على صدر الزلاّجة . وفكّر فجأة : « إن عمّي قضى هكذا ليلةً كاملة في الثلج . لم يُصَبْ بشيء . » لكنه ما لبث أن تذكر حالةً أخرى :

« نعم ، لكن سيفاستيان كان ، عندما رُفع الثلج ، ميتاً ، متصلّباً ، مثل قطعة لحم مجلّدة . لو أني بقيت في غريشكينو لما وقع شيء » .

وإذْ تلفلف بفرويته جيداً لكي لا تضيع حرارةُ الفرو ، ولكي تحيط بكل موضع من جسمه ، أغمض عينيه وحاول العودة إلى النوم . لكنه لم يستطع أن يستسلم للنوم بالرغم من كل جهوده . على العكس أحس أنه نشيط متحفّز . فعاد يحسب أرباحه وديونه على الآخرين ؛ وعاد يتباهى ويفرح بوضعه الرائع ؛ لكن أفكاره الآن أخذ يقطعها الرعبُ الخفيّ والأسفُ لكونه لم يبق في غريشكينو . « شيء مختلف أن يتمدّد المرءُ على مقعد ، في الدفء ! . . . » تقلب عدة مراتٍ واضطجع مرةً أخرى ، باحثاً عن وضع أكثر إراحةً وقدرةً على حمايته من الريح ؛ لكنه لم يجد ما يرضيه . كان ينهض ويضطجع بشكل مخالف ، ويغطي قدميه ، ويغمض عينيه ،ويهدأ لحظة . فتارةً كانت جزمةُ اللباد تضغط على قدميه وتؤلمه ، وتارة أخرى كانت الريح التي نفذت من بعض الفتحات . كان يفكر مجدّداً ، وهو ممتلىء غيظاً من نفسه ، كم كان سيرتاح في المنزل الخشبي في غريشكينو؛ فينهض ويتقلب ويتلفلف بعناية أكبر ويتمدد مرة أخرى .

خُيِّل إلى فاسيلي اندريتش ذات لحظة أنه يسمع من بعيد صياح الديكة . فنفض ياقة فرديته ، كله فرح ، وأصغى بانتباه . لكنه لم يسمع ، بالرغم من انتباهه كله ، سوى صوت الريح وهي تصفر بين العريشين وتصفق المنديل ، وسوى طقطقة الثلج على الزلاجة .

لم يتحرك نيكيتا منذ أن استقرّ خلف الزلاجة ، حتى إنه لم يجب فاسيلي اندريتش الذي سأله مرة أو مرتين . « إنه لا يبالي ! لعلل ينام » .

كذلك فكّر فاسيلي اندريتش مغتاظاً ، هو ينحني من فوق مؤخّرة الزلاجة لينظر إلى نيكيتا المغطّى بالثلج .

نهض فاسيلي اندريتش وعاد إلى الاضطجاع نحو عشرين مرة . خُيّل إليه أن هذه الليلة لا آخر لها . وقال في نفسه أخيراً وهو ينهض وينظر حوله : « الصبح يقترب الآن ، بلا شك . لو سحبتُ ساعتي ! لكني سأبرد لو تكشفت . بيد أني إن رأيت أن النهار يقترب فسوف يبهجني ذلك . ويمكننا أن نربط الحصان . »

كان فاسيلي اندريتش يعلم ، في قرارة نفسه ، أن النهار لابد أن يكون بعيداً ؛ لكن خوفه أخذ يتعاظم فأراد ، في الوقت نفسه ، أن يتحقّق من شعوره وأن يكذب على نفسه . ففكّ في حذر كلاّبات فرويته ، ودسّ يده تحت ثيابه ، وتلمّس طويلاً قبل أن تبلغ صدارته ، فسحب منها بمشقة ساعته الفضية المزدانة بزهورٍ من الميناء ، ونظر إليها . لكنه لم يره شيئاً دون إشعال عيدان الكبريت . اضطجع على كوعيه وركبتيه ، كما فعل قبل حين ، عندما أشعل سيجارة ، وإن فعل ذلك هذه المرة بعناية أعظم . اختار ، هو يجس العيدان باصبعه ، أثخنها ، ونجح ، من أول مرة ، في إشعالها . ودسّ الساعة تحت اللهب ، ونظر فلم يصدّق عينيه . . . كانت الساعة منتصف الليل إلا عشر دقائق فقط : كان الليل في أوله . فقال في نفسه : « اوه ! ما أطول هذه الليلة » . وسرتْ في ظهره رعشةٌ . وإذ زرّر فرويته وتغطّى بعناية ، اضطجع في زاوية الزلاجة ، عازماً على الصبر .

وفجأة ، سمع بوضوح ، عبر نعيب الرياح الرتيب ، صوتاً جديداً ، صوتاً صادراً عن كائن حي : ارتفع الصوت تدريجياً ، وانتشر ، ثم

تناقصت شدتُه بالشكل المنتظم ذاته . كان صوت ذئب . لاشك في ذلك. وكان هذا الذئب قريباً جداً حتى لقد كان يسمع بوضوح كيف يعدّل صوته وهو يحرّك فكيه . أصغى فاسيلي اندريتش بانتباه ، بعد أن رد ياقته عن أذنيه . وكان الكميت يُصغي أيضاً ، وهو يحرّك أذنيه ، وبعد أن انتهى الذئب من عوائه ، انحرف الكميت جانباً وانتفض على سبيل التنبيه . وبعد ذلك ، لم يعد بوسع فاسيلي اندريتش أن ينام ، بل ولا أن يصارع القلق . لقد حاول عبثاً أن يسوق أفكاره نحو أعماله ، نحو وضعه وغناه ، إلا أن الرعب كان يستولي عليه استيلاءً أشد ؛ كانت كل أفكاره خاضعه لسيطرة الأسف لكونه لم يبق في « غريشكينو » .

وأخذ يردّد : « لا ردّ الله هذه الغابة ! كان لدي صفقاتٌ مربحة كثيرة دونها ، بفضل الله !آه! كان ينبغي أن نبيت في غريشكينو». يقولون إن البرد يُصيب المرء إذا شرب ، وأنا قد شربت .. » وأحسّ أنه أخذ يرتعد دون أن يتبيّن إن كان يرتعد من الخوف أو من البرد . وحاول أن يتغطّى وأن يتمدّد كالسابق ، لكنه لم يكن قادراً على ذلك . لم يكن بوسعه أن يظلّ في مكانه . كان يرغب في أن ينهض وأن يفعل شيئاً ليخنق الرعب الذي أخذ يثور فيه والذي أحسّ بالعجز ازاءه . وتناول من جيبه مرة أخرى سيجارة ، وعيدان الكبريت ؛ لكن لم يبق من العيدان سوى ثلاثة هي أسوأ العيدان ؛ ولم يشتعل أيٌّ منها.

« قبّحك الله ، يا ملعونة ! » استخدم هذه الشتيمة دون أن يقصد أحداً ، ورمى السّيجارة المدعوكة كلّباً . ونوى أن يرمي أيضاً علبة الكبريت ، لكنه غيّر رأيه ، ودسّها في جيبه . واستبدّ به قلقٌ إلى الحد الذي لم يعد ممكناً معه أن يظل في مكانه . فخرج من الزلاّجة ، ووقف

وظهرُه للهواء ، وأخذ يفكّ زنّاره ليَحزُم به بعد ذلك خصره . وقال فجأة في نفسه : « مالي أنتظرُ الموت هنا ؟ سوف أمتطي الحصان ، وأمضي إلى الأمام . » فالحصان يستطيع أن يخلّص نفسه إذا كان مع خيّاله . وفكّر في نيكيتا : « أما هو فسيّان عنده أن يحيا أم يموت ؛ إن حياته ليست بهيجةً ، وهو لا يأبه بها . أما أنا فالحمدُ لله ، عندي ما يكفيني للعيش . . . . »

وإذ فكّ الحصان ، ألجمه وأراد امتطاءه ؛ لكن فرويّته وجزمته كانتا جد ثقيلتين حتى أنه سقط أرضاً . حينئذٍ وقف على الزلاجة ليسهل عليه بلوغ ظهر الحصان ؛ لكن الزلاجة تذبذبت تحت ثقله فسقطَ مرة أخرى . وأخيراً ، كانت المحاولةُ الثالثة أكثر توفيقاً : فقد قاد الحصان إلى قرب الزلاّجة وبعد أن وضع قدمه بحذر على حافتها نجح في الارتماء على ظهر الحصان بالعرض . ظل متمدداً هكذا بضع ثوان ، وتوصل بعد مجهودين أو ثلاثة إلى نقل إحدى ساقيه فوق الحصان ، واستوى جالساً ، وأسند قدميه إلى حزام الحياصة . إن الذبذبة التي أحدثها فاسيلي اندريتش في الزّلاّجة أيقظت نيكيتا ، فنهض ، وخُيِّل إلى فاسيلي اندريتش أنه يقول له شيئاً ، فصاح :

— سأكون جدّ غبيّ إن أصغيتُ إليكم ، أنتم أيها الحمقى ! كيف؟ هل ينبغي أن أدع نفسي أموت هنا اعتباطاً ؟

وإذ ردّ على ساقيه أطراف فرويته التي كان الهواء يطيرها ، دفع الحصان في الاتجاه الذي لا بدّ أن تكون فيه ، برأيه ، الغابة وكوخُ الحارس .

منذ اللحظة التي جلس فيها نيكيتا تحت مؤخرة الزلاجة ، متلفلفاً بالجنفيصة ، لم يحرك ساكناً. كان مثل جميع الذين يحيون بجنب الطبيعة ويعرفون الشقاء ، متجلداً ، قادراً على الانتظار ساعات وأياماً كاملة دون أن يستشعر قلقاً أو غضباً . ولقد سمع نداءات معلمه ، لكنه لم يرد عليها لأنه لم يشأ أن يتحرك أو يتكلم . ومع أنه ما يزال دافئاً بسبب الشاي الذي شربه والحركة التي أتى بها وهو يتخبط في كومة الثلج ، إلا أنه كان يعلم أن هذه الحرارة لن تدوم طويلاً ، وأنه لا يملك القوة لأن يُدفيء نفسه بالحركة ،إذ أحسّ أنه مُتعب كما يتعب الحصان عندما يعجز عن السير برغم السياط التي تنهال عليه ؛ حينئذٍ يدرك صاحبه أن عليه إطعامه لكي يستطيع استئناف العمل . كانت إحدى قدمي نيكيتا في فَرْدة جزمة مثقوبة ، فبردت حتى إنه لم يعد يحسّ بإبهامه . ثم إن البرد أخذ يجتاح جسمه شيئاً فشيئاً . ومرّت بباله فكرة هي أنه من المحتمل أن يموت هذه الليلة ؛ لكن هذه الفكرة لم تَبْدُ له جدّ كريهة ولا جدّ مرعبة . لم تبدُ له جدّ كريهة لأن حياته لم تكن البتّة بهجة متّصلة ، بل كانت ، على العكس ، عبودية مستمرّة أخذ يعافُها . ولم تبدُ له هذه الفكرة جدّ مرعبة لأنه كان يحسّ دائماً أنه — إن نحّى جانباً السادة الذين خدمهم على هذه الأرض ، مثل فاسيلي اندريتش — خاضع في هذه الحياة للسيّد الرئيسي ، للذي أرسله إلى هذه الحياة ؛ وكان يعلم أنه إن مات فسيظلّ خاضعاً لهذا السيد ، وأن هذا السيّد لن يسيء إليه . وقال في نفسه « إنها لخسارة أن نهجر ما عشنا به وما تعوّدناه ! لكن ما العمل!

ينبغي أيضاً أن نتعوّد على الجديد » . وتساءل : « وذنوبي ؟ » وتذكر إدمانه السكر ، والمال الذي أنفقه على الشرب ، والمعاملة السيئة التي عامل بها امرأته ، وتجديفه ، والكنيسة التي لم يذهب إليها إلا نادراً ، وجميع الذنوب التي كان الكاهن يلومه عليها عند الاعتراف . « نعم ، صحيح ، ذنوبي كثيرة. لكن هل أتحمّلها أنا ؟ الله هو الذي خلقني هكذا. نعم ، الذنوب ! لكن كيف نتجنّبها ؟ » هكذا كان يفكّر فيما يمكن أن يقع له هذه الليلة . لكنه كفّ عن التفكير ، بعد ذلك ، في هذه الأمور ، واستسلم للذكريات التي أخذت تتولّد من ذاتها في فكره . فحيناً يتذكّر وصول مارفا ، وسكرات العمال ، والعهد الذي قطعة على نفسه ؛ وحيناً آخر يتذكر سفرهما عشية البارحة ، ومنزل تاراس الخشبي ، والأحاديث بصدد القسمة ؛ وفي بعض الأحيان يتذكر فتاه أو الكميت دافئاً تحت الغطاء ؛ وفي أحيان أخرى كان يفكر في سيّده وهو يتحرّك فتصرّ الزلاجة : « المسكين جدّ تعس ، فيما أظن ، لانه لم يبق في « غريشكينو . مثل هذه الحياة ! لا يشتهي المرءُ أن يتركها . . . أما نحنُ فشيءٌ آخر ! »

جميع هذه الذكريات اختلطت شيئاً فشيئاً ، وأغفى .

عندما هزّ فاسيلي اندريتش الزلاّجة وهو يعتلي الحصان ، انحرفت المؤخرةُ التي كان نيكيتا يستند إليها ، وصدمه أحدُ المزلجين في ظهره . فاستيقظ ، واضطُرّ ، طوعاً أو كرهاً ، أن يغيّر وضعه . بسط بمشقة ساقيه ، ونحّى طبقة الثلج التي غطّتهما ، ووقف . وفي الحال أحسّ إحساساً مؤلماً بالبرد يخرق جسمه . وإذ أدرك ما يجري نادى فاسيلي

اندريتش وطلب إليه أن يدعَ الجلَّ الذي لم يعد يحتاجه الحصانُ الآن والذي يمكن أن يتدثر به هو نفسه .

لكن فاسيلي اندريتش انطلق دون أن يجيبه ، وتوارى في الغبار الثلجي الذي كان يدوّم حولهما .

حين بقي نيكيتا وحده فكّر لحظة فيما سيفعله . أحسّ أنه عاجزٌ عن السير بحثاً عن مأوى . وكان عاجزاً أيضاً عن العودة إلى الموضع الذي تركه قبل حين ، لأنه قد اختفى تحت الثلج . وأحسّ أنه لن يدفأ في الزلاجة إذ ليس لديه ما يتغطى به ، ولا يمكن لقفطانه وفرويته أن يحمياه من البرد وقد بلغ إحساسه بالبرد حداً وكأن ليس عليه سوى القميص ، فخاف ، وقال : « أيها الأب السماوي »

وهدّأه الإحساسُ بأنه ليس وحيداً ، وأن هنالك من يسمعه ولا يتخلّى عنه .

تنهّد بعمقٍ ، وصعد إلى الزلاّجة ، دون أن ينزع الجنفيصة التي تغطي رأسه ، وتمدّد مكان سيّده .

لكنه لم يتوصل إلى الدفء في الزلاّجة أيضاً وهزّت الرجفةُ جسمه ؛ ثم انقطعت الرجفةُ وفقد وعيه شيئاً فشيئاً . لم يكن يعلم إن كان ميتاً أو نائماً ، لكنه كان يحسّ بنفسه مستعداً للموت والنوم على حدّ سواء.

— ٨ —

في هذه الأثناء ، دفع فاسيلي اندريتش الحصان ، وهو يضربه بساقيه وباللجام ، إلى الوجهة التي ظنّ ، ولا يُعرَفُ سببُ ظنه ، أن الغابة وكوخ الحارس موجودان فيها . أعماه الثلجُ أما الريح فكانت كأنها

تريد إيقافه ؛ لكنه سال إلى الأمام . جاذباً أبداً أطرافَ فرويته ليدسّها بين فخذيه والسرج الصغير المتجلّد الذي كان يضايقه كثيراً ، وحثّ الحصان الذي كان يسير هملجة ، بجهد بالغ ، في الاتجاه الذي أراد أن أن يمضي إليه الرجلُ . . .

سار فاسيلي اندريتش هكذا مدة خمس دقائق ، على خط مستقيم ، كما بدا له ، وإن لم يكن يرى شيئاً سوى رأس الحصان ، والصحراء البيضاء من حوله ، ولم يكن يسمع شيئاً سوى صفير الريح قرب ياقة فرويته .

وفجأة أبصر شيئاً أسود أمامه ، فوجَبَ قلبُه فرحاً واتجه ، بدابته نحو هذه الكتلة السوداء ، وخُيِّل إليه أنه قد ميّز جدران بيوت القرية ؛ كانت الكتلةلاتني تتحرك ، لم تكن بيتاً وإنما كانت ارطماسيّات عالية نبتت في ثلم عميق ، وهي تضطرب بشدة أمام هجمةالريح التي أمالتها جانباً وأخذت تصفر بين أغصانها . وليس يُدرى لأي سببٍ جعله منظر هذه الأرطماسيات التي كانت تَلْويها العاصفةُ العاتية يرتعش من الرعب ؛ ودفع حصانه إلى الأمام دون أن يفطن إلى أنه حين اقترب من الأرطماسية غيّر اتجاهه . كان يسير الآن في اتجاه آخر ، وهو يتخيّل أنه يسير رأساً إلى الغابة والكوخ . لكن الحصان كان ينعطف دائماً إلى اليمين ، ولذلك كان يقوده إلى اليسار .

ومرةً أخرى ، ميّز شيئاً أسود أمامه ففرح ليقينه أن هذا الشيء لا بد أن يكون القريةَ ، هذه المرة . لكنه كان الأرطماسيات نفسها التي كان الهواء يسرطها ، والتي ملأت بالرعب فاسيلي اندريتش ، دون أن يعلم

السبب . لم تكن النبتات نفسها فقط بل كان يُميز قوبها آثار أقدام حصان أخذ الريح يسوّيها . توقّف فاسيلي اندريتش وانحنى ونظر بامعان : لقد مرّ حصان من هنا ولا يمكن أن يكون غير حصانه . لقد كان فاسيلي اندريتش دون شك يدور حول نفسه في هذا الحيّز الصغير . قال في نفسه : « سأهلك إن تابعتُ على هذا المنوال » . لكنه لكي يقاوم هذا الرعب أخذ يحثّ حصانه حثّاً أشد ، ساعياً جهده لأن يخترق بنظره الضباب الثلجي الذي بدا له أنه رأى فيه نقاطاً مضيئة تتلألأ ثم تختفي كلّما حدّق فيها . وخُيّل إليه ذاتَ مرة أنه سمع نباحَ الكلاب أو عواء الذئاب . لكن هذه الأصوات كانت ضعيفة جداً ومبهمة جداً . حتى إنه لم يستطع أن يتبيّن إن كان قد سمع حقّاً شيئاً ما أم أنه كان يتوهم توهماً. فوقف وأصاخ السمعَ محاولاً أن يلتقط أدنى الأصوات .

وفجأة دوّت في أذنيه صرخة مرعبةٌ ، تُصمّ السمعَ ، فأحس برجّة تشنجيّة تهزّه ، واحتضن رقبة الحصان ، لكن رقبة الحصان كانت ترتجف أيضاً ، فغدت الصرخةُ الفظيعة أشد هولاً . وفي بضع ثوان ، لم يستطع فاسيلي اندريتش أن يعود إلى رشده وأن يتبيّن ما يجري .أما ما حدث فلم يتعدّ الشيء التالي : إن الكميتَ أخذ يصهل بكل قوة رئتيه، لكي يتشجّع أو لكي يطلب النجــدة . شتمه فاسيلي اندريتش « الموت لك ، يا ملعون ! كم أخفتني ! » . لكنه حتى بعد أن أدرك السبب الحقيقي لرعبه : لم يُفلح في التغلب عليه . وكان يقول في نفسه: « يجب أن أفكر ، يجب أن أهدأ » . لكنه كان عاجزاً عن تمالك نفسه ، ولم يكف عن حث دابته ، دون أن يرى أن الريح صارت الآن في ظهره لا في وجهه كما كانت من قبل.أحسّ بالبرد والألم في كل أنحاء جسمه،

ولا سيّما في الموضع الذي كان فيه جسمه على احتكاك بالسرج الصغير ؛ وكانت يداه وقدماه ترتعد ، وغدا تنفّسه لهاثاً . أحسّ أنه مُقبلٌ على الهلاك في قلب هذه الصحراء الثلجية المرعبة ، لكنه لم ير أيّ سبيل للنجاة.

وفجأة تهاوى الحصان تحته وغاص في ركام الثلج ؛ وسقط على أحد جنبيه وهو يتخبّط ، فوثب فاسيلي اندريتش إلى الثلج ، وأوقع السرج الصغير الذي استند إليه وهو يقفز . وما ان خلّص الحصانَ حتى انتصب واستعدّ للوثب ووثب وثبتين وتوارى عن بصر صاحبه وهو يصهل ويجرّ خلفه الجلّ والجنفيصة . ظلّ فاسيلي اندريتش وحده ، وقد غمره الثلج إلى منتصفه . أراد أن يندفع وراء دابته ؛ لكن الثلج كان شديد العمق ، وكانت فرويتّاه شديدتي الثقل حتى إنه لم يستطع أن يسير أكثر من عشرين خطوة وهو يترنّح ، فتوقف وقد ضاقت أنفاسُه . وقال في نفسه فجأة : « الغابة ، وأجرة الأراضي ، والحانوت ، والحانتان ، والمنزل ذو السقف الحديدي ، والحظيرة والوارث . . . ماذا سيحلّ بذلك كله ؟ ماذا جرى لي ؟ هذا مستحيل ! » . وتذكّر بغتةً نبتات الأرطماسيّة التي كانت الريح تهزّها والتي مرّ أمامها مرتين ، فاستولى عليه رعبٌ شديد حتى اقد أبى أن يصدّق حقيقة ما يجري له. . . وتساءل: « أليس ذلك حلماً ؟ » ؛ وأراد أن يستيقظ لكن هذا الثلج كان حقيقياً وهو يلسع وجهه ، ويغطّي ثيابه ، ويجمّد يده اليمنى التي أضاع قفازها، وكانت حقيقيّة تلك الصحراءُ التي يجد نفسه فيها الآن ، وحيداً، مثل هذه الأرطماسيات ، في انتظار موت محتّم ، سريع وأخرق .

«أيتها الأم السماوية ! أيها القديس نيكولا ، يا نموذج التقشف ! »
وتذكّر قدّاس البارحة ، في الكنيسة ، والأيقونه بوجهها المسودّ في إطارها المذهب ، والشموع التي كان يبيعها والتي كان المؤمنون يشعلونها أمام الأيقونة ثم لا يلبثون أن يعيدوها إليه وهي لم تكد تُمَسّ ليخبئها في درج صندوقه . وأخذ يرجو نيكولا هذا الذي تُنسب إليه المعجزات، واعداً إياه باقامة الصلاة وإيقاد الشموع . لكنه ما لبث أن أدرك بجلاء ، ودون أي شك ، أن الأيقونة والشموع والكاهن والصلوات . كل ذلك كان جدّ هامّ ، وجدّ ضروري هناك ، في الكنيسة ، لكن جميع هذه الأشياء لا يمكن أن تمدّ له يد العون هنا ، وأنه لا علاقة ، ولا يمكن أن تكون أيةُ علاقة بين تلك الشموع والصلوات وبين وضعه اليائس . وفكّر « لا ينبغي أن أدع نفسي تنهار . يجب أن أسير على آثار الحصان ، لأنها ستختفي . ستقودني تلك الآثارُ ، وسأدركه . المهمُّ ألا اسرع ، وإلاّ أُنهكتُ ، وهلكتُ حينئذ . » لكن مع أنه صمّم على السير ببطء ، إلا أنه اندفع مسرعاً إلى الأمام وأخذ يركض ، وهو لا ينِي يسقط وينهض ويعود إلى السقوط . ولم تكن آثار الحصان تُرى إلا لماماً ، ولاسيّما حيث الثلج قليل العمق .

قال فاسيلي اندريتش في نفسه : « سوف أهلك ، لن أعثر على آثار الحصان ولن أدركه .» ولكنه رفع عينيه ، وأبصر ، في اللحظة نفسها ، بقعةً سوداء . كان ذلك الكميتَ والزلاجةَ والعريشين مع المنديل . وقد وقف الكميت ، والجنفيصةعلى ظهره بالعرض ، لا في مكانه القديم ،بل أقرب إلى العريشين ، وكان يهزّ رأسه ، وقد التفّ اللجام على ساقه . والنتيجة أن فاسيلي اندريتش سقط في كومة الثلج نفسها التي غرق فيها مع نيكيتا من قبل ، وأن الحصان عاد به إلى الزلاجة ، وتركه على خمسين خطوةً منها .

عندما وصل فاسيلي اندريتش إلى قرب الزلاّجة ، قبض على حافتها وظل هكذا واقفاً بعض الوقت ، محاولاً أن يسترد أنفاسه وأن يهدأ. لم يكن نيكيتا في موضعه القديم ؛ لكن فاسيلي اندريتش أبصر في الزلاّجة مايشبه الكومة المغطاة بالثلج ، فتكهّن بأنه نيكيتا . وتمدّد كليّاً رعبُ فاسيلي اندريتش .

وإذا كان ما يزال يخشى شيئاً فهو بالضبط عودة ذلك الخوف الشرس الذي استولى عليه عندما تاه على وجهه وهو يمتطي حصانه ، ولاسيما في تلك اللحظة التي وجد نفسه فيها متروكاً وحده في الثلج . كان ينبغي أن يحول بكل الوسائل دون عودة هذا الخوف ، ولابدّ لتفاديه من العمل ، من الانشغال بشيء ما . كان أول شيء عمله إذن هو أن يتّخذ موضعاً يكون ظهره فيه للريح وأن يفك فرويته . ثم إنه مالبث ، بعد أن استرد أنفاسه ، أن نزع جزمته ونفّضها ليخلصها من الثلج الذي دخلها ؛ وكذلك فعل بقفازه الأيسر ؛ أما الأيمن فقد ضاع ولا سبيل إلى استرداده بعد أن دُفن تحت الثلج . ثم فكّ زناره ، وشده وعقده تحت خصره كعادته عندما يخرج من حانوته ليفحص الحنطة التي يأتي بها الفلاحون ليبيعوه إياها . .

وعندما أصبح هكذا جاهزاً للعمل ، كان أول عمل عرَض له هو أن يحررَ ساقَ الحصان . وهذا ما فعله فاسيلي اندريتش . ثم ربط الكميتَ بمقدّمة الزلاّجة ، في الموضع السابق نفسه ، وأراد أن يمرّ وراء الحصان ليعيد الحياصة إلى مكانها وكذلك السرج الصغير والجل . لكنه رأى في

الوقت نفسه شيئاً يتحرّك في الزلاّجة : انتصب رأس نيكيتا من تحت طبقة الثلج التي كانت تغطّيه .

نهض نيكيتا ، بجهد واضح ، وقد استبدّ به البرد ، وجلس وأخذ يحرك يده أمام أنفه بصورة غريبة وكأنه يطرد ذباباً . كان يحرك يده ويقول شيئاً . أدرك فاسيلي اندريتش أنه كان يناديه ؛ حينئذ ترك الجلّ الذي كان يغطّي به الحصان ، واقترب من الزلاجة ، وسأله :

— ما بكَ ؟ ماذا تقول ؟

قال نيكيتا بصعوبة ، وبصوت متقطع :

— ها أنا ذا . . . أموت . الذي لي بذمتك . . . أعطه لولدي . . . أو لزوجتي . سيّان .

سأله فاسيلي اندريتش :

— ماذا . . . هل تجمّدت ؟

قال نيكيتا بصوت باك ، دون أن يكف عن تحريك يديه أمام وجهه وكأنه يطرد الذباب :

— إنه الموت . . . وأنا أحسّ به . سامحني . . . باسم المسيح .

ظل فاسيلي اندريتش بضع ثوان ساكناً ، صامتاً ، ثم تراجع خطوةً واتخذ ذلك المظهر الحازم الذي يتّخذه عندما يشدّ على يد زبونه وهو يعقد صفقة رابحةً ، فشمّر كمّيْ فرويته وأخذ يرمي بيدية الثلج الذي غطّى نيكيتا والزلاّجة . وبعد أن رمى فاسيلي اندريتش الثلجّ ، فكّ فرويته ودفع نيكيتا إلى صدر الزلاجة ، واستلقى عليه وغطاه هكذا بفرويته وبجسمه الملتهب. وبعد أن دسّ أطراف فرويته بين جوانب

الزلاجة ونيكيتا ، مع تثبيتها تحت ركبتيه ، ظل مضطجعاً على صدره ، ورأسه مستندٌ إلى مقدّمة الزلاجة . لم يعد يسمع الآن لا حركات الحصان ولا صفير العاصفة ، لكنه كان يُصيخ السمع إلى نَفَس نيكيتا . بقي نيكيتا في البدء ساكناً لا يُبدي حراكاً ، بعض الوقت ، ثم تنهّد وتحرّك تحركاً خفيفاً .

قال فاسيلي اندريتش :

— تلك هي حالنا ! أنت كنتَ تقول : إنني أموت . ابق هادئاً ، ادفأْ . أما نحن ، فكذلك . . . .

لكنْ ما كان أعظمَ دهشة فاسيلي اندريتش لأنه لم يستطع أن يُتمّ كلامه ، لأن عينيه امتلأتا بالدموع وأخذ فكّه الأسفل يرتجف بتشنّج. فكفّ عن الكلام ، وحاول جاهداً أن يبتلع ما صعد إلى حنجرته . وفكّر : « لقد خفتُ خوفاً شديداً ، وضعفتُ ضعفاً شديداً » . بيد أن هذا الضعف لم يكن فقط خالياً من الازعاج ، بل إنه أشعره ، على العكس ، بفرحٍ فريدٍ لم يستشعره قطّ من قبل .

كان يقول في نفسه : « أما نحن ، فهكذا . . » واستسلم لضرب من التحنّن الاحتفالي الشديد الخصوصية . وظل هكذا متمدداً بصمت زمناً طويلاً ، ماسحاً عينيه بفرو فرويته ، ضاغطاً بركبته اليمنى على طرف فرويته التي كانت الريحُ تحاول انتزاعه .

لكن رغبته باشراك أحد الناس في فرحه استبدّ به بقوة حملتْه على القول :

— نيكيتا .

أجاب صوتُ نيكيتا من تحت فاسيلي اندريتش :

— يكفي ، إني أحس بالدفء .

— نعم ، يا أخي ، الأمرُ هكذا . كادتُ أهلك . كنت سأموت من البرد ، وأنتَ أيضاً . . .

لكن فكيّه عادا إلى الارتجاف وامتلأت عيناه بالدموع . ولم يستطع أن يتمّ كلامه .

وفكر : « ليس هذا بذي بال . إني أعرف جيداً ما أعرفه » . صمت ، وظل طويلاً هكذا .

إن دفء جسم نيكيتا المتمدد تحته ، والفروية التي غطّت ظهره بعثا فيه الحرارة ؛ بيد أن يدي فاسيلي اندريتش اللتين كانتا تمسكان أطراف الفروية ، وقدميه اللتين كان الهواء يكشفهما دون انقطاع ، أخذتا تبردان. ويده اليمنى بخاصة بردت ، وكانت مكشوفة . لكنه لم يكن يفكر لا بقدميه ولا بيديه . لم يفكر إلا بتدفئة الرجل الذي كان مضطجعاً تحته.

رمى الحصانَ بنظرته عدة مرات ، ورأى أن ظهر الحيوان كان مكشوفاً ، إذ رمت الريح أرضاً بالجنفيصة . فقال في نفسه : إنه كان ينبغي أن ينهض ويغطي ظهر الحصان ، لكنه لم يستطع أن يصمّم على ترك نيكيتا ، ولو لبرهة ، وأن يشوش هذا الفرح الذي كان فيه . لم يعد يحس الآن بأيّ رعب . قال في نفسه وهو يفكّر في الطريقة التي يُدفىء فيها نيكيتا ، وهو يشعر بشعور الرضا نفسه الذي كان يشعر به وهو يمتدح مشترياته ومبيعاته : « لا خوف عليه ، ولن تخطئه الحرارة ! »

انقضتْ هكذا ساعةٌ ، ثم اثنتان ، ثم ثلاث . لم يلاحظ فاسيلي اندريتش سير الزمن . في البدء رأى في خياله العاصفةَ ، والعريشين المنصوبين ، والحصان بطوقه ؛ كان يفكّر أيضاً في نيكيتا المضطجع تحته.

ثم امتزجتْ بهذه الصور ذكريات : تذكّر عيدَ القرية ، وزوجته ، وضابط الشرطة ، ودرْجَ الصندوق الذي كان يخبىء فيه الشموع ، والذي تمدّد الآن نيكيتا تحته . ثم رأى فلاحين يشترون ويبيعون جدراناً بيضاء ، وبيوتاً سقوفُها من حديد وتحتها نيكيتا أيضاً . ثم اختلط كلُّ شيء ؛ وامتصّتْ الصورةُ الصورة الأخرى ، وكما أن ألوان قوس قزح المختلفة إذا تمازجت أعطت اللونَ الأبيض ، تلاشت جميعُ انطباعاته حين اختلط بعضُها ببعض ، ونام .

نام طويلاً نوماً لا رؤى فيه . لكنه حَلَمَ حلماً عند الصباح . رأى نفسه في الكنيسة واقفاً قرب الدرج حيث كان يبيع الشموع . وتشتري منه امرأةُ « تيخون » شمعةً بخمسة كوبيكات لتشعلها أمام الايقونة في يوم عيدها . وينوي أن يأخذ الشمعة ويعطيها إياها ، لكن يديه اللتين ضمهما في جيبه لا تطاوعانه . وينوي أن يعد المال ، لكن قدميه لا تطيعانه ، وتلتصق خفّافتاه الجديدة اللامعة بالأرض ؛ ويتعذّر رفعُ قدميه . ثم إن الطاولة لم تعد طاولةً وإنما أصبحت فجأةً سريراً ؛ ويرى فاسيلي اندريتش نفسه مضطجعاً على صدره فوق هذا السرير ، في منزله . هو ممدّد على سريره لا يقدر على النهوض ؛ بيد أن عليه أن ينهض لأن ضابط الشرطة ايفان ماتفيتش سيأتي ليذهبا معاً كي يعقدا صفقة الغابة ، أو لعله سيأتي من أجل إعادة جنفيصة الكميت إلى مكانها ؟ ويسأل فاسيلي اندريتش امرأته : « ماذا ، يا نيكولايفنا ، ألم يأت بعد ؟ » وتجيب امرأته : « لا ، إنه ليس هنا . » ويتسمّع أحدهم يقترب من مطلع الدرج . لعله هو ! لا ، إنه يمرّ دون أن يقف . ماذا ، نيكولايفنا ، ألم يأت بعد ؟ — « لا » . وهو مضطجع على سريره لا يستطيع النهوض ، وهو ينتظر ؛

وهذا الانتظار مشوبٌ بالخوف والفرح . وفجأة ، يتمّ الفرح . ويصلُ الذي كان فاسيلي اندريتش ينتظره : لا ايفان ماتفيتش ، ضابط الشرطة ، بل غيره ، وهو عينه الذي كان فاسيلي ينتظره . إنه يصل ويناديه ؛ والذي يناديه هو نفسه الذي قال له قبل قليل أن يتمدّد على نيكيتا لكي يدفئه . ويفرح فاسيلي اندريتش فرحاً عظيماً أن يأتي ذاك نفسه لإحضاره فيهتف بفرحٍ : « أنا آتٍ » . وهذا الصياح يوقظه .

إنه يستيقظ ، لكنه يستيقظ مختلفاً كلّياً عمّا كان عليه حين نام . ويريد أن ينهض ، فيعجز عن النهوض ، ويريد أن يحرك يده فيتعذّر عليه ذلك أيضاً . ويريد أن يحرك رأسه فلا يقدر أيضاً . ويدهشه ذلك كثيراً لكنه لا يحزن البتّة . ويتذكر أن نيكيتا مضطجع تحته ، وأنه دافىء وأنه حيّ ؛ ويُخيّل إليه أنه ، هو فاسيلي اندريتش ، ليس سوى نيكيتا ، وأن نيكيتا هو فاسيلي اندريتش ، وأن حياته هو ليست فيه وإنما هي في نيكيتا . إنه يستمع فيسمع تنفّس نيكيتا بل يسمع غطيطاً خفيفاً ، فيقول في نفسه بفرح الظفر : نيكيتا يحيا ، وهذا يعني أنني أنا نفسي أحيا » .

ويتذكّر ماله ، وحانوته ، وبيته ، ومبيعاته ومشترياته وملايين آل ميرونوف . ويصعب عليه أن يفهم لم شغل فاسيلي بريكونوف نفسه بكل هذه الأشياء . قال في نفسه وهو يفكر في فاسيلي بريكونوف : « نعم ، إنه لم يكن يعلم ما حقيقة الأمر . لم يكن يعلم ما أعلمه الآن . لا مجال للخطأ الآن . إني أعرف حقيقة الأمر الآن . » ومن جديد ، سمع نداء الذي هتف به قبل حين . فيصرخ كيانُه كله وهو مُفعمٌ بالاستبشار الرقيق : « أنا آتٍ ، أنا آتٍ ! » ويحسّ أنه حرٌّ وأنْ لا شيء يستبقيه بعد الآن .

وبعد ذلك لم يعد فاسيلي اندريتش يرى أو يسمع أو يحس شيئاً في هذا العالم

استمرت العاصفةُ . كان الثلج يرقص في زوابع سميكة ويغطي جسد فاسيلي اندريتش ، والكميتَ المتجمّد الذي كانت فرائصه ترتعد، والزلاجة التي غمرها الثلج إلى منتصفها ، فيما كان نيكيتا ينام دافئاً تحت سيّده الميت .

— ١ —

استيقظ نيكيتا ، عند الصبح . أيقظه إحساس بالبرد الذي استولى عليه مرة أخرى. وكان قد رأى في الحلم نفسه يقودُ إلى المطحنة طنبراً محمَلاً بالحنطة ، وأنه غاص في الوحل أثناء عبوره الساقية . ورأى نفسه تحت الطنبر الذي حاول رفعه وهو يقوّس ظهره . لكنْ ، يا للغرابة ؟ فالطنبر لا يتحرك ؛ وكأنه ملتصق بظهره ، وهو لا يستطيع أن يرفع الطنبر ولا أن يخرج من تحته ، والطنبر يسحق ظهره . يا الله ! ما أبرده ! يجب عليه حتماً أن ينهض . قال للذي يسحق له ظهره تحت الطنبر : « كفاك ، هيّا ، ارفع الأكياس ! » لكن الطنبر تزداد برودتُه شيئاً فشيئاً : وهو يسحقه . وفجأة أحسّ إحساساً غريباً : فيستيقظ ويتذكّر كلّ شيء . لم يكن الطنبر المتجمّد سوى سيّده الراقد فوقه. والصدمات التي أحسّ بها جاءت من الكميت الذي صدم بحافره الزلاجة مرتين .

هتف نيكيتا بحذر وقد أحسّ بالحقيقة وقوّس ظهره :

— اندريتش ! اندريتش !

لكن اندريتش لا يجيب ، وقد بلغ صدرُه وساقاه من الصلابة والثقل والبرودة ما في كرة من الحديد المسبوك .

فكّر نيكيتا : « لابد أنه ميت ! ليكن اللهُ معه ! »

ويدير نيكيتا رأسه ، ويثقب بيده ثقباً في الثلج ويفتح عينيه . كان الجو صاحياً . والريحُ ما تزال تصفر بين العريشين ، والثلج يتساقط كما كان من قبلُ ، مع هذا الفرق وهو أنه لم يعد يلطم حافات الزلاجة ، لكنه كان يغمر بصمت الزلاّجة والحصانَ الذي كفّ عن الحركة ولم يعد يسمع تنفّسه . قال نيكيتا في نفسه : « لابد أنه مات أيضاً » . وبالفعل فان الكميت الذي بذل آخر جهد له ليقف على قوائمه والذي تصلّب تماماً من جراء البرد ، قد صدم الزلاجة بحوافره ، فأيقظ نيكيتا.

« يا إلهي ! أيها الأب السماوي ! أنا أيضاً سأُدعى إليك ! لتكنْ مشيئتك المقدّسة ! الأمرُ مؤلم ، مع ذلك . لكن الإنسان لا يموت مرتين على شرط ألا يمتدّ ذلك ! »

ويُدخل يده من جديد ، ويُغمض عينيه ، ويُغفي مقتنعاً هذه المرة بأنه سيموت حقّاً .

في اليوم التالي فقط ، في ساعة الغداء ، أخرج الفلاحون فاسيلي اندريتش ونيكيتا من تحت الثلج ، على بعد تسعين ذراعاً عن الطريق ، وعلى نصف فرسخ من القرية .

كان الثلجُ قد غطّى الزلاجة تماماً ، لكن العريشين والمنديل كانت ما تزالُ تُرى . وكان الكميتُ الذي بلغ الثلجُ منتصف صدره واقفاً ، وقد ابيضّ ، ودخل رأسه الناحل في كتفيه ، وامتلأ منخراه بالثلج ،

وكذلك عيناه ، وكأنهما اغرورقتا بدموع متجمّدة . ولقد هزل ، في ليلة واحدة هزالاً شديداً حتى إنه لم يبق فيه سوى العظام والجلد .

كان جسد فاسيلي اندريتش متصلّباً مثل قطعة من اللحم المجمّد . وعندما رُفع ظلّت الساقان منفرجتين انفراجاً واسعاً كما كانتا وهو ممدّد فوق نيكيتا . وكانت عيناه اللتان كعيني البازي ، المدّورتان والجاحظتان، متجمدتين ، وحُشيَ فمُه ، تحت شاربيه المدبّبين ، بالثلج .

أما نيكيتا فظل حيّاً ، مع أن جسمه تجمّد في مواضع منه ، وعندما أُوقظ تخيّل أنه كان ميتاً وأن ما يقع له يجري في العالم الآخر . وعندما سمع صرخات الفلاحين الذين أزالوا الثلج عن الزلاجة ورفعوا جسد فاسيلي اندريتش ، أدهشة لأول وهلة أن توجد ، في العالم الآخر ، أجسادٌ ، وأن الذين فيه يتخاصمون كما يتخاصمون في هذا العالم . لكنه عندما أدرك أنه ما يزال على الأرض ، اغتمّ أكثر مما سرّ ، ولاسيما عندما أحس أن أصابع قدميه تجمّدت .

قضى نيكيتا شهرين في المستشفى . وقُطعت أصابعه الثلاث ؛ وشفيت أصابعُه الأخرى ، واستطاع أن يعود إلى العمل . عاش بعد ذلك عشرين سنه ، واشتغل أولاً خادماً في مزرعة ؛ وفيما بعد ، عندما أصبح عجوزاً، اشتغل حارساً ليلياً . وقد مات في هذه السنة ، في بيته ، كما كان يرغب، تحت الايقونات ، وفي يده شمعة . وقبل أن يموت طلب صَفْح العجوز ، وودّع ابنه وأحفاده ؛ ومات سعيداً بصدق لأنه خلّص ابنه وكنّته من رجلٍ عيالٍ عليهم ، ولأنه يهجر نهائياً هذه الحياة التي سئم منها إلى حياة أخرى كانتْ تبدو له ، كلما انقضت السنون ، أكثر جلاءً وأكثر جذباً.

أهو أفضل أو أقل فضلاً في ذلك العالم الذي استيقظ فيه بعد موته النهائي ؟ وهل شعرَ بالخيبة أم وجد هناك ما كان ينتظره أو يرجوه بالذات؟ سنعلم ذلك جميعاً ، عمّا قريب .

الله والشيطان

في الزمن الغابر ، كان ثمة سيّدٌ صالح يملك الكثير من الخيرات ؛ كان في خدمته كثيرٌ من الأقنان . وكانوا يمدحون سيّدهم قائلين : ليس تحت السماء سيّدٌ أفضل من سيّدنا . فهو يُطعمنا ويقدّم لنا ملابس حسنة ، ويشغّلنا شغلاً معقولاً . وهو لا يشتم ولا يحقد ، إنه لا يُشبه في شيء السادةَ الآخرين الذين يعاملون أقنانهم بأسوأ مما يعاملون الحيوان ، ويعاقبونهم في كل مناسبة ، ولا يجدون كلمةً طيّبة واحدة يقولونها لهم. أما سيّدنا فهو يريد لنا الخير ، ويعاملنا برفقٍ ، ويكلمنا بلطفٍ . لا يمكن أن نجد خيراً منه .

هكذا كان الأقنانُ يمدحون سيّدهم . لكن الشيطان استشاط غضباً حين رآهم يعيشون في وفاق تام مع سيّدهم . فاستولى على أحد هؤلاء الأقنان واسمه « أليب » ؛ وعندما امتلكه أوحى إليه بأن يُغوي الأقنانَ الآخرين

وذات يوم ، كان الأقنانُ يستريحون ويمدحون سيدهم ، فتكلم « أليب » قائلاً :

— يا إخوتي ، أنتم تخطئون حين تمدحون سيدكم ، ولو أنكم أخذتم تحققون مشيئة الشيطان لأصبح الشيطان صالحاً . نحن نخدم جيداً سيّدنا ؛

ونحن نطيعه في كل شيء ، وننفّذ أصغر أوامره ، ونلبيّ أدنى رغباته؛ فكيف لا يكون صالحاً معنا ؟ لكن لو أنا تصرّفنا تصرّفاً آخر ، لو أننا أسأنا ، لأصبح كالآخرين ، لأساءَ إلينا أكثر من أشرس الأسياد .

نشب النقاشُ بين سائر الأقنان و « أليب ». تناقشوا وتراهنوا . راهن « أليب » بأنه سيثير غضب السيد . وشرط على نفسه بأنه إن أخفق فسوف يخسر ثياب العيد ، وأنه إن نجح فعلى الآخرين أن يعطوه ثيابهم. وفضلاً عن ذلك ، تعهّد الاقنانُ بحمايته من السيّد ، وبتحريره إن قُيِّد بالقيد أو سُجن . وتمّ الوفاءُ بالرهان . ففي صباح اليوم التالي ، أعلن « أليب » بأنه سيثير غضبَ السيّد . كان « أليب » مكلّفاً بحظيرة الغنم : كان يُعنى بالخراف الأصيلة ، الخراف الغالية الثمن . وفي هذا الصباح ، بينما كان السيد الصالح يدخل الحظيرة مع زوارٍ أراد أن يريهم خرافه المفضلة ، أشار عبدُ الشيطان إلى رفاقه ، وكأنه يريد أن يقول لهم : « انظروا جيداً ! سوف أثير غضبه . »

أسرع الأقنانُ ، نظر بعضُهم من الباب ، ونظر آخرون من شقوق الحواجز . وتسلّق الشيطانُ شجرةً تطلّع منها إلى الفناء ، ليرى بوضوحٍ أكبر كيف سيعمل مملوكُه له . وبعد أن طاف السيّدُ الصالح برهة بضيوفه في الفناء ، وبعد أن أراهم كباشه ونعاجه ، أراد أن يريهم أثمن كباشه . قال لهم :

— الكباشُ الأخرى حسنة ، لكن هذا الكبش بقرنيه الملتويين ذو قيمة فائقة . وأنا حريصٌ عليه حرصي على حدقة عيني .

فرّت الكباشُ والنعاجُ من الزائرين ، ولم يستطع هؤلاء أن يروا الحيوان الثمين . وفي الوقت الذي كان قد توقف فيه هذا الحيوان ، آخاف عاملُ الشيطان القطيع كله ، وكأن ذلك قد تمّ عن طريق المصادفة؛ تبعتْ الفوضى ذلك ، ولم يجد الزائرون سبيلاً إلى رؤية الكبش الثمين. فاغتاظ السيّدُ ، وقال :

— أليب ، يا صديقي العزيز ، كلّفْ نفسك وأمسكْ برفقٍ كبشي المفضّل ذا القرنين الملتويين ، واحبسْه .

ما كاد يلفظ هذه الكلمات حتى اندفع « أليب » مثل الأسد في وسط القطيع ، وقبض على الحيوان الثمين من ظهره . امسك بيدٍ صوف ظهره ، وباليد الأخرى ساقه اليسرى التي رفعها ولوى قدمها فجأة ، على مرأى من سيّده ، حتى طقّت. لقد كسر أليب الساقَ تحت الركبة. فأخذ الخروف يثغو ، وسقط على قائمتيه الاماميتين ، ثم أمسك « أليب» بساقه اليمنى بينما تدلّت الساق اليسرى بلا حراكٍ كأنها سوط .

تأوّه الزوّارُ والأقنان . وعندما رأى الشيطانُ كيف نفّذ أليب عمله اغتبط

وتجهّم السيّدُ تجهّمَ الليل . فحنى رأسه ولم ينْبس بكلمة وصمت الزوارُ والأقنان .

انتظر الجميعُ ما سيحدثُ .

لزم السيّدُ الصمتَ ، ثم إنه انتفض ، وكأنه أراد أن يتخلّص من حمْله ، ورفعَ رأسه ونظر إلى السماء .

لم يُريرُطِل النظر إلى السماء ، وانبسطت أسارير وجهه ، وتبسّم . خفض بصره نحو أليب ، ونظر إليه ، وتبسّم وقال :

ـ أوه ! أليب ، إن سيّدك أمرك أن تُثير غضبي . لكن سيّدي أقوى من سيّدك . أنا الذي سأثير غضب سيّدك . خفتَ أن أعاقبك ، وأردتَ أن تكون حراً . فاعلمْ أنني لن أعاقبك ؛ وبما أنك أردتَ أن تكون حراً فأنا أُعتقك بحضور ضيوفي . امضِ إلى حيثُ تشاء ، وخذْ ثياب العيد .

رجع السيّد الصالح إلى بيته مع ضيوفه ، وصرّف الشيطانُ بأسنانه ، وسقط عن الشجرة ، وتوارى تحت الأرض .

* * *

ثلاثـــة أمثـــال
١٨٩٥

١ ــ الشـــيلم

طلع الشيلمُ في مرجٍ خصيب . ولكي يتخلّص أصحاب المرج منه أخذوا يحشّونه ، وبطبيعة الحال ، عاد الشيلم إلى الطلوع وهو أشدّ كثافةً ، وعندما زار أحدُ مُلاّك الجوار ، وكان صالحاً وحكيماً ، أصحابَ المرج ، نصحهم عدة نصائح من بينها ألاّ يحشّوا الشيلم حشّاً خشية أن يزداد انتشارُه من جرّاء ذلك ، بل أن يقتلعوه من جذوره.

لكن أصحاب المرج ظلّوا يحشّون المرج ومن ثمّ يُكثّرونه ، إما لأنهم لم يلحظوا بين النصائح الكثيرة التي قدّمها لهم جارُهم النصيحةَ المتعلقة بضرورةِ استئصال الشيلم بدلاً من حشّه ، وإمّا لأنهم لم يفهموا النصيحة ، أو لأنهم لم يتقيّدوا بالنصيحة من أجل أسبابٍ شخصية .

وخلال السنين اللاحقة ، ذكّر أكثرُ من إنسانٍ أصحابَ المرج بنصيحة الجار الصالح الحكيم ، لكنهم لم يصغوا إلى أحدٍ ، واستمرّوا على ما كانوا عليه ، بحيث أن حشّ الشيلم ساعةَ طلوعه لم يصبح عادةً فحسب بل أصبح تقليداً مقدّساً ، وأخذ المرج يحتجب أكثر فأكثر.

وأخيراً ، جاءتْ لحظةٌ لم يبق فيها ، في المرج ، سوى الشيلم ؛ فتألم أصحابُ المرج وبذلوا جهدهم للعثور على علاجٍ لمثل هذا الوضع. كان هناك علاجٌ واحد ليس غير ، وهو العلاج الذي وصفه لهم الجار الصالح الحكيم . لكنهم لم يستعملوه.

في الأوقات الأخيرة ، فتّش أحدُ المارّة ، وقد أحزنه أن يرى الفساد ممتداً إلى هذا المرج الجميل ، بين الإرشادات التي تركها الملاّكُ الحكيم والتي ظلّت منسيّة في إحدى الزوايا ، لعله يجد بينها ما يصلح لمثل هذه الحالة . فعثر على تلك النصيحة التي تأمر بعدم حشّ الشيلم ، بل باقتلاعه من جذوره . وأعلن أصحاب المرج أنهم قد تصرّفوا بغفلةٍ ، وأن الملاّك الصالح الحكيم قد حذرهم ، منذ زمن طويل ، من هذه الغفلة.

وبدلاً من أن يتحققوا من صحة ما أورده هذا الرجل ، وبدلاً من أن يكفّوا عن حش الشيلم في حال صحة دعواه ، أو أن يُثبتوا موضع الخطأ في حال عدم صحته ؛ بدلاً من قبول نصيحة الملاّك الصالح الحكيم بحذافيرها ، اغتاظوا من الدعوة التي ذكّرهم بها عابرُ السبيل ذاك ، وأخذوا يشتمونه .

وصفه بعضُهم بالتكبّر إذ تصوّر نفسه الكائن الوحيد في العالم الذي فهم إرشادات الملاّك الصالح . ونعته آخرون بالترجمان المزيّف والخائن والواشي ، وأكد غيرُهم ممّن لم ينتبه إلى أن هذا الرجل لم يقل شيئاً من عند نفسه ، وإنما ذكّر فقط بنصائح رجلٍ يقدّره الجميع ، أنه شخص مُؤذٍ ، يرغب في أن يرى الشيلم يتكاثر إلى الحد الذي يضيع فيه المرج عماقريب وإلى الأبد . كانوا يصيحون :

— هو يزعم أنه ليس من المناسب حش الشيلم ، لكن إن لم نُزل الشيلم فسوف يتكاثر إلى ما لا نهاية ، وحينئذٍ نفقد مرجنا ! وهل أعطينا هذا المرج لكي نزرع فيه العشبَ الضار ؟

كانوا يتناسون عن قصدٍ أن الرجل لم يتحدّث قط عن عدم إزالة الشيلم ، بل إنه تحدّث عن اقتلاعه من جذوره .

واستقرّ الرأيُ على أن هذا الرجل كان أحمق أو ترجماناً كذّاباً ، أو وحشاً لا يهدف إلا إلى ضرر الآخرين ، بحيث أن من لم يسخر منه أوسعه شتماً . وبالرغم من جميع الإيضاحات التي قدّمها وهي أنه لا يتمنى أبداً تكاثر الشيلم ، بل إنه كان يُقدّر ، على العكس ، أن إزالته أحد الواجبات الرئيسية لمالك الأرض ، لكنه كان يفهم هذه الإزالة كما فهمها الملاك الصالح الحكيم ، وأنه لم يفعل شيئاً سوى التذكير بنصائحه . بالرغم من ذلك كله ، لم يُصغ الناسُ إليه ، لأنهم أجمعوا نهائياً على أنه مجنون بجنون الكبرياء ، أو خائناً لكلام الملاك الصالح الحكيم ، أو شقياً بلغ به السوء حدّاً دعا معه الناس إلى عدم إزالة العشب الضار ، بل على العكس ، إلى العناية به وتسهيل تكاثره .

الشيء نفسه وقع لي عندما دافعت عن المبدأ الذي يأمر ألاّ نقاوم الشرّ بالعنف . هذه القاعدة صاغها المسيح ، وكرّرها تلاميذه بعده في كل الأزمنة والأمكنة . لكنْ كلما مرّ الزمنُ ازداد الناسُ إهمالاً لها ، وازداد ترتيبُ حياتهم بعداً عنها ، إما لأنهم لم يلاحظوها ، وإما لأنهم لم يفهموها ، وإما لأنه بدا الامتثالُ لها مُفرط الصعوبة . وأخيراً وقع ما نشاهده اليوم ، وهو أن هذه القاعدة بدأت تظهر في عيون الناس كشيء جديد ، مجهول ، إن لم يكن غريباً بل ومُحالاً .

جرى لي ما جرى لعابر السبيل ذاك حين ذكّر أصحابَ المرج بتعليم الملاك الصالح الحكيم ، وهو تعليم لا يصحّ بموجبه حشّ العشب الضار ، بل ينبغي اقتلاعه من جذوره . لقد سكت أصحابُ المرج عمداً عن أن التعليم الموصى به ليس الامتناع عن إتلاف الشيلم بل الامتناع عن إتلافه بطريقة غير معقولة ، وأعلنوا :

ــ إن هذا الرجل أحمق لأنه ينصحنا أن نعيد زرع الشيلم أو شيئاً قريباً من هذا ، بدلاً من حشّه .

وكذلك فعندما أكّدت أننا لكي نُلغي الشر ، ليس لنا إلا أن نتقيّد بالمبدأ الذي يعلّمنا ألا نقابل الشر بالعنف بل أن نستأصله بالمحبة ، صاحوا :

ــ لا تصغوا إلى هذا الأحمق الذي يدعونا إلى عدم مقاومة الشر لكي يخنقنا هذا الشر عمّا قريب .

كنتُ أقول أن الشرّ لا يُستأصلُ بالشر ، وأن مقاومة الشر بالعنف مجرّد زيادة لقوته ، وأن الشرّ يُستأصل بالخير : باركوا لاعنيكم ، صلّوا من أجل الذين يهينونكم ، أحبّوا أعداءكم ، ولن يكون لكم عدو . وكنتُ أقول : إن حياة الإنسان كلها صراعٌ بينه وبين الشر ، وأن الإنسان لن ينتصر على الشر إلا بالروحيّة والمحبة ، وأن بين جميع الاسلحة لمقاومة الشر استبعدوا هذا السلاح الخطر ألا وهو العنف ومقاومة الشر بالشر .

من كلماتي هذه استنتج بعضُهم أنني ابتكر مذهباً لا ينبغي بموجبه مقاومة الشر . وبادر جميع الذين بُنيت حياتُهم على العنف ، وكان العنف بالتالي ، عزيزاً عليهم ، إلى تمنّي هذا التأويل الخاطىء لكلماتي ، وأعلنوا

أن المذهب الذي يدعو إلى عدم مواجهة الشر بالعنف ، مذهبٌ كذّابٌ ، أحمق ، منتهكٌ للقدسيات وضار .

ويتابع الناسُ بهدوء إعادة إنتاج الشرّ وتكثيره ، بحجة تدمير الشر .

٢ — مواد غذائية مغشوشة

كان أناسٌ يتاجرون بالطحين والزبدة والحليب وبمواد غذائية أخرى . وكانوا يتبارون فيمن يحقّق أرباحاً أكثر ، ويغتني بأسرع وقت . وآلَ بهم الأمر إلى أن يخلطوا بسلعهم ، على نحوٍ متزايدٍ يوماً بعد يوم ، مواد شتى قليلة الثمن وكثيرة الضرر . كانوا يضعون في الطحين كلساً ، وفي الزبدة زبدةً صناعية ، وفي الحليب ماءً أو حوّاراً .

كل شي كان يسير سيراً حسناً مالم تصل المواد إلى أيدي المستهلكين . كان تجارُ الجملة يبيعون تجارَ نصف الجملة الذين يزوّدون بالمواد بائعي المفرّق . وكان هناك الكثير من المخازن والحوانيت ، وكانت التجارة تبدو مزدهرة جداً. على الأقل ، كان التجار يعدون أنفسهم راضين .

لكن مستهلكي المدن الذين لا يمكنهم أن ينتجوا أغذيتهم بأنفسهم والذين كانوا مُكرهين على شرائها ، شعروا حقاً بالامتعاض وأحسّوا حقاً بالخطأ . فالطحين كان كريهاً ، وكذلك الزبدة والحليب . لكن بما أنه لم يكن في أسواق المدينة مواد غذائية أخرى غير هذه المواد المغشوشة ، كان لابدّ للمستهلكين من أن يستمروا في شراء هذا الطحين وهذه الزبدة وهذا الحليب ، وأخذوا يتّهمون بعضُهم بعضاً بفساد الذوق ، وسوء الاستعداد ، ورداءة التدبير المطبخي . وإذْ لم يفكّر أحدٌ في أن يشكو التجارَ ، ظل هؤلاء يخلطون المواد الغذائية بكمية متزايدة من مركّبات غير متجانسة ، قليلة الثمن وكثيرة الضرر .

سارت الأمور على هذا المنوال زمناً طويلاً ، وبين الكثير من المستهلكين الذين خامرهم الشكّ في مصدر شرورهم لم يعقد أحدٌ منهم العزمَ على إظهار استيائه.

واتّفق أن ربة منزل ريفيّة ، كانت تُطعم أسرتها ، حتى هذه اللحظة ، أطعمة معدّة في المنزل ، انتقلت إلى سكنى المدينة . كانت تُعدّ الطعام منذ عدة سنوات ، ومع أنها لم تكن طاهية ماهرة إلا أنها كانت تُحسن الخبز وإعداد وجبة شهيّة .

ما إن استقرت حتى ذهبت تشتري مؤنها ، ثم أخذت تقلي وتغلي وتشوي وإذا بالخبز يتفتّت بدلاً من أن ينضج ؛ وإذا بالفطائر المقليّة بالزبدة الصناعية تفقد طعمها ؛ وإذا بالحليب يترسّب ولا تتشكل فيه القشدة .

حزرت ربةُ البيت مباشرة أن المواد مغشوشة . فحصتْها ، فتأكدت فكرتُها ، لأنها وجدت كلساً في الطحين ، وماء وحواراً في الحليب ، وزبدة صناعية في الزبدة . وحين رأت ذلك ، عادت إلى السوق واتّهمت بصوت عالٍ أصحابَ الحوانيت ، قائلةً إنه لا ينبغي أن يَعْرضوا سوى المواد السليمة ، المغذّية ، لا المغشوشة ، وإلا وجب عليهم أن يكفّوا عن التجارة ويغلقوا حوانيتهم .

هزّ التجارُ أكتافهم وأجابوا بأن موادهم من الصنف الأول ، وأن المدينة كلها تتموّن من عندهم منذ سنوات ، وأنهم ، من جهة أخرى ، قد نالوا أوسمة وهي على لافتات حوانيتهم .

صرخت ربةُ المنزل :

— لا أبالي بأوسمتكم . لا أريد سوى أغذية سليمة بحيث أننا إذا أكلناها أنا وأولادي ، لم نُصَبْ بأوجاع المعدة ، بعد أكلها .

احتجّ التجارُ قائلين :

— لاشك أنك لم تريْ ، أيتها الأمّ العزيزة ، حليباً حقيقياً وزبدة حقيقية ، وطحيناً حقيقياً .

وأروْها ، في آنية مطليّة ، طحيناً نقياً في الظاهر ، وزبدةً ذهبية موضوعة في صحائف جميلة عليها ورود ، وحليباً ناصع البياض في أباريق ملمّعة يمكن التمرّي في جوانبها.

ردت ربةُ البيت :

— كيف تزعمون أنني استُ خبيرةً بذلك ، أنا التي لم تأكل ولم تُطعمْ أولادها إلا ممّا أعدّته يداها ؟ موادّكم رديئة . والدليلُ على ذلك هذا الخبز الذي تفتّت ، والزبدة الصناعية التي قليتُ بها الفطائر ، والحثالة التي وجدتها في الحليب عوضاً عن القشدة . كل ما هو معروضٌ عندكم يجب أن يرمى في النهر أو يُحرق ، وأن تُستبدل به موادُّ صالحة حقاً.

وظلّتْ أمام الحوانيت متابعةً اللهجة نفسها ، وعندما كان الزُبُن يقتربون كانت تصرخ مُفصحةً عمّا في قلبها ، فينظر المشترون بعضُهم إلى بعض وقد اضطربوا .

وإد رأى التجار أنهم إن لم يضعوا حدّاً لهذه المرأة فلن تلبث أن تسيء بزعيقها إلى تجارتهم . فقالوا للمشترين :

— انظروا ، أيها الأخيار ، إلى هذه المجنونة التي تريد أن يموت الناسُ من الجوع . فهي لا ترضى إلا باغراق جميع المواد الغذائيةأو

باحراقها . وممّ ستعيشون لو صدّقناها ، أي لو امتنعنا عن بيع الغذاء ؟ لا تُصغوا إليها ، فهي فلاحةٌ مسكينة لا تفهم شيئاً في أغذية المدينة . وهي لا تهاجمنا إلا بسبب حسدها ؛ فبما أنها بائسة تمنّت أن يصبح الناس جميعاً في مثل وضعها .

هكذا خاطب التجارُ الجمهور المتجمّع ، وسكتوا عمداً عن أن المرأة لم تطلب إبادة جميع أنواع الأغذية وإنما طلبت استبدال الجيد بالرديء منها .

حينئذ اندفع الجمهور نحو المرأة وأخذ يهزأ منها . وعبثاً حاولت المرأةُ التأكيد بأنها لم تشأ قط إتلاف الأغذية ، إذ أنها قضت سنوات طويلة تُعدّ بيديها كلّ ما تحتاجه أسرتها من طعام ، وأنها طلبت فقط أن يكفّ الذين عُهد إليهم بتوفير الغذاء للبشرية عن تسميم الغذاء بمواد ليس فيها من الغذاء سوى مظهرها ؛ وعبثاً حاولت أن توضح للناس الأمر أكثر من ذلك ، إذ لم يُعيروها انتباها ، لأنهم اتّفقوا على أنها ترغب في أن ترى الناسَ محرومين من الغذاء الذي لا غنىً لهم عنه .

هذا ما جرى لي ، أنا أيضاً ، عندما درستُ الفنّ في زماننا . لقد غذّيت عقلي ، طوال حياتي ، بالفن الحقيقي ، وبذلتُ وسعي في أن أغذّي ، بطريقة من الطرق ، عقول الآخرين . وبما أن الفن ، بالنسبة إلي ، غذاءٌ وليس موضوعاً للتجارة أو الترف ، فاني أستطيع أن أعرف متى يكون هذا الغذاء غذاءً حقيقياً ومتى يكون صورةً ظاهرة عنه .

وعندما جربتُ الغذاء الذي بدأ يُباع منذ بضع سنوات في سوقنا الفكرية بشكل علمٍ وفنٍ معاصرين، وعندما جرّبته على الأشخاص الأعزّاء علي ، تبيّنتُ أن الجزء الأعظم من هذا الغذاء لم يكن نقياً.

وأعلنتُ أن العلم والفن اللذين يُتاجَر بهما في سوقنا الفكرية ، إنما هما تزييف — أو على الأقل هما خليطان تدخل فيهما موادُّ غريبة عن العلم والفن الحقيقي ؛ وأنا على يقين من ذلك . لإن المنتوجات التي اشتريتها من السوق الفكرية بدت عسيرة الهضم على أقربائي وعليَّ ؛ وهي ليست فقط عسيرة الهضم ، لكنها ضارة تماماً .

وما لبث الناسُ أن صاحوا بي ، وأكّدوا أن هذا الرأي لم يخطر لي إلا لأني لا أعرف الشيء الكثير ، وأنني لستُ أهلاً لفهم المسائل الرفيعه .

حينئذٍ شرعتُ في إثبات أن التجار الذين يتاجرون بهذه المواد الفكرية يتّهم بعضُهم بعضاً بالخداع ؛ وأن الأشياء الكاذبة والضارة حقاً قد قُدِّمتْ للناس ، في كل الأزمنة ، على أنها علمٌ وفنٌّ ؛ وأن من الطبيعي أن يَمْثُل مثلُ هذا الخطر في زماننا أيضاً ؛ وأننا لسنا هنا بإزاء مزحةٍ ، وأن تسميم الفكر أشدّ هولاً من تسميم الجسم ؛ وأن من الواجب بالتالي ، أن نفحص بانتباه فائقٍ ، الموادَّ التي تُقدَّم لتغذيتنا الفكرية فنرمي بحزم كل ما كان منها مغشوشاً أو خطراً .

وعندما تكلمتُ على هذا المنوال لم يعترض أحدٌ بأي شيء ، في مقالة أو كتاب ، على ما أكدّتُه . وانطلق الزعيقُ من جميع الحوانيت ، كما كانت الحالُ مع تلك المرأة :

— إنه مجنون يُريد أن يُلغي العلم والفن اللذين نحيا بهما . لا تصغوا إليه . أعرضوا عنه . تعالوا إلينا ، تأمّلوا معروضاتنا : إن بضاعتنا طازجةٌ ، من الخارج .

٣ ـ مسافرون تائهون

كان مسافرون يسيرون في طريقهم . واتّفق لهم أن ضلّوا طريقهم بحيث أنهم اضطروا إلى السير لا على الطريق المعبّدة ، العريضة والمستوية ، لكن في المناقع وعلى الأشواك . فتمزّقوا بالعلّيق ، وتعثروا بالخشب الميت ، وانسدّ الممرُّ شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما أصبح السيرُ متعذّراً .

حينئذٍ انقسموا فريقين . الأول أصرّ على رغبته في متابعة الطريق ، بلا انقطاعٍ ، في الاتجاه الذي سار فيه منذ بعض الوقت ، وبذل أتباعُ هذا الفريق وسعهم ليُقنعوا الآخرين وليقنعوا أنفسهم بأنهم لم يحيدوا قط عن الاتجاه الصحيح ، وأنهم اتجهوا أبداً اتجاهاً صحيحاً نحو غايتهم. أما الفريقُ الثاني الذي كان أتباعه مقتنعين بأن الاتجاه الذي يسيرون فيه حالياً لا يمكن أن يكون الاتجاه الصحيح إذ لو كان صحيحاً لبلغوا غايتهم ، فقد قرر أنه يجب البحث عن الطريق السليمة ، وأن عليهم ، من أجل العثور عليها ، أن ينقسموا على الفور وأن يسيروا في جميع الاتجاهات ، في آن واحد .

وافق جميعُ المسافرين : الفريق الأول على رأيٍ ، والفريقُ الثاني على رأي آخر . صمم الفريق الأول على متابعة السير ، وصمم المسافرون في الفريق الثاني على أن ينتشروا في كل الاتجاهات .

بيد أن رجلاً واحداً لم يأخذ بأيٍّ من الرأيين . فقد قال : إن من المهم قبل متابعة السير في الاتجاه الذي سار فيه الجميعُ حتى الآن ، وقبل الإسراع في كشف الاتجاهات الأخرى ، بغية العثور على الطريق الحقيقية ، من المهم المبادرة إلى الوقوف ، ومناقشة الوضع ، وعدم اتخاذ أي موقف إلا بعد التفكير فيه جدّياً .

لكن المسافرين كانوا مهتاجين من جرّاء السير ، وكان وضعهم يبلبلهم إلى حد كبير فرغبوا في أن يطمئنوا بالفكر أنهم لم يضلوا الطريق، أو أنهم لم يحيدوا عنه إلا للحظة ، ولن يطول بهم الأمرُ حتى يعثروا عليه ، وكانوا يطمحون ، على الخصوص ، إلى أن يكبتوا خوفهم بالحركة ، فاستُقبل رأي هذا الرجل بصرخات الاستنكار ، واللوم ، والسخرية التي صدرت عن الفريقين كليهما . قال بعضهم :

— تلك نصيحة الضعف والجبن والكسل .

وقال آخرون :

— بالها من وسيلة ناجعة لبلوغ غايتنا أن نبقى في أماكننا دون حراك.

وقال غيرهم:

— نحن رجالٌ ، وقد أُعطينا القوة لنقاوم ، لنبذل وسعنا كي نتغلب على العقبات لا لنذعن بدناءة .

وعبثاً حاول الرجلُ الذي انفصل عن أغلبية زملائه أن يؤكّد أنهم إن أصروا على عدم تغيير الاتجاه الخاطىء الذي سلكوه حتى الآن ، فلن يقتربوا من هدفهم ، بل ، على العكس ، سيزداد ابتعادُهم عنه: إنهم لن يبلغوا غايتهم إذا ضربوا في الأرض على غير هدى ؛ وأن الوسيلة الوحيدة لبلوغ قصدهم أن يهتدوا بالشمس وبالنجوم للعثور على أفضل الطرق ، فاذا ما عثروا عليها استأنفوا السير وهم على يقين بأنهم يسيرون حيث ينبغي لهم أن يسيروا ؛ ولكي يكونوا قادرين على تمييز الوجهة التي يمكن الانطلاق إليها على قدم ثابتة ، يَجْدرُ بهم قبل كل شيء أن يتوقفوا ، لا ليكفّوا عن الحركة ، بل لكي يُتاح لهم تمييزُ تلك الوجهة ؛ وعبثاً حاول أخيراً أن يوضّح لهم بألف طريقةٍ أنهم ، لكي يصلوا إلى

حيث يشاؤون ، فعليهم أن يحسنوا التوجّه ، ولكي يحسنوا التوجّه عليهم أن يتوقّفوا لحظةً . ولم يصغِ أحدٌ إليه .

تابع الفريقُ الأول سيره في الاتجاه الذي كان يسير فيه سابقاً ، وأخذ الفريقُ الثاني ينتشر يمنةً ويسرة ، ولم يقتربا من الهدف ولا تخلّصا من المناقع والأشواك ، ولم يزالا تائهين .

وقد وقع لي الشيءُ نفسه عندما أقدمتُ على إعلان هذا الرأي وهو أن الطريق الذي تهنا فيه في هذه الغابة المظلمة التي هي المسألة العمّالية وهذا المستنقع الغادر مستنقع التسلّح الذي لا تستطيع الشعوب أن ترى له نهاية ، أن هذه الطريق ليست الطريق التي ينبغي أن نسلكها ؛ وأن من المحتمل جداً أننا حدْنا عن الطريق الصحيحة ؛ وأن من الواجب ، من ثَمَّ ، إيقاف تلك الحركة الحاليّة الخطأ ، لبضع لحظات ، لكي نعكف على التفكير والبحث عن اتجاه ، وفق الأسس التي مُنحناها : أسس الحقيقة الشاملة والأبدية

سألتُ :

— أنحن نسير إيجابياً في الاتجاه الذي رسمناه لأنفسنا .

لم يردّ أحدٌ على سؤالي . ولم يقل لي أحدٌ :

« نحن لم نضلّ طريقنا ، ولم نَتِهْ . ونحن متأكدون من ذلك لهذا السبب أو ذاك » .

لم يجازف أحدٌ بالقول : ربما كنا تائهين حقاً ، لكننا نملك وسيلة لا تخطىء لتصحيح الخطأ دون قطع السير .

لم يقل أحدٌ ذلك ولا شيئاً آخر . لكنهم ثاروا جميعاً وكأنني أهنتهم شخصياً ، وبادروا إلى خنْق صوتي المنفرد بجلبتهم التضامنية :

— تعب الناسُ وصاروا كسالى . فهذا مذهب الخمول واللامبالاة ووقف النشاط . وأضاف غيرهم : والبطالة .

وصاح الذين يقدّرون أن الخلاص لا يمكن الحصولُ عليه إلا إذا لم يتغيّر الاتجاهُ المختارُ ، مهما يكن ذلك الاتجاه ، والذين يعتقدون أن الخلاص لا يمكن بلوغه إلا بالتخبّط يمنةً ويسرةً :

— لم التأخّر والتفكر ؟ لنتقدّمْ ، لنتقدمْ أبداً . وسوف ينتظم كلّ شيء من ذاته .

لقد أخطأ الناسُ طريقَهم ، وهم يتألمون من ذلك . ويبدو أن الاستخدام الأول والرئيسي الذي ينبغي لهم أن يجرّبوا به طاقتهم ، ليس تسريع الحركة الذي جرّنا إلى هذا الوضع المزري الذي سقطنا فيه ، بل وقف تلك الحركة . ويبدو أننا بوقوفنا فقط نغدو قادرين على فحص وضعنا والعثور على الاتجاه الذي علينا أن ننخرط فيه لنصل إلى الخير الحقيقي ، لا خير فئة من الانسانية ، بل إلى الخير الحقيقي لمجموع الجنس البشري ، وهو هدف نتّجه إلينا جميعاً كما يتّجه إليه كلُّ واحد بمفرده .

وأنّى ذلك ! إن الناس يخترعون كلّ ما يمكن تخيّله ، ما عدا الشيء الوحيد الذي يخلّصهم ، أو يخفّف آلامهم إن لم يُخلّصهم. وهذا الشيء هو الوقوف ، ولو لحظةً ، لكي لا نزيد تلك الآلام بنشاط خاطىء . وهم يحسّون كل ما في وضعهم من زراية ويعملون المستحيل لمعالجته ، لكنهم يأبون إطلاقاً استخدام الوسيلة الوحيدة الفعّالة لبدء خلاصهم ، فاذا نصحناهم ، أثارت نصيحتُنا سخطَهم أكثر من أي شيء آخر .

إذا كان ما يزال ممكناً الشكُّ بأننا تائهون ، فان موقف الناس الذي تبنّوه إزاء النصيحة الداعية إلى التأمّل ، يُثبت بوضوح لامثيل له إلى أي حد قدتُهنا عن الطريق السويّة ، وإلى أي حد أصبح لذلك وضعناً ميؤوساً منه.

الذهبُ والأخوان

في قديم الزمان ، كان يعيش أخوان ، غيرَ بعيد من القدس . كان الأكبر يُدعى « أثناس » ، والأصغر « جان » . كانا يعيشان في الجبل ، قرب المدينة ، ويأكلان ممّا يحمله الناسُ إليهما . وكان الأخوان يقضيان وقتهما في العمل ، لا لهما بل للفقراء . فحيثما وُجِدَ أناسٌ أرهقهم الشغلُ ، أو أناسٌ مرضى ، أو يتامى ، أو أرامل ، كانا يأتيان ليعملا ، وليعودا دون أن يقبلا شيئاً بدل عملهم .

كانا يقضيان الأسبوع هكذا ، كلٌّ في جهته ؛ ولم يكونا يلتقيان إلا السبت مساءً ، في مسكنهما . ركانا لا يلزمان منزلهما إلا نهار الأحد ، الذي يدعوان الله فيه ، ويتحدّثان . وكان ملاكُ الرب ينزل عليهما ويباركهما . وفي الاثنين يذهب كلٌّ منهما في وجهته . عاشا على هذا المنوال سنوات عديدة ، وكان الملاك ينزل عليهما ، في كل أسبوع ليباركهما .

وذات اثنين ، بينما هما يفترقان ليذهب كلٌّ منهما في وجهته ، لشُغله ، أحسّ الأخُ الأكبر فجأة بالحزن لفراقه أخاه الحبيب . فوقف وأدار رأسه . كان « جان » يسير خافض الرأس ، دون أن ينظر وراءه . وفجأة وقف ، وكأنه أبصر شيئاً ، وحمى عينيه بيده ، وحدّق في تلك الجهة . ثم اقترب مما رأى ، ووثب جانباً وهبط التلّة وهو يركض ،

وصعد سفحها الآخر ، بعيداً عن الموضع الذي كأن وحشاً مفترساً فيه قد لاحقه .

تحيّر « أثناس » من هذا التصرّف ، وعاد أدراجه ليرى ما الذي أمكنه أن يُخيف أخاه . وكان كلما سار رأى من بعيد شيئاً يلمع في الشمس . فلما دنا منه رأى كومةً من الذهب مُلقاةً على الأرض . دهش « أثناس» من هذا المنظر وتناقص فهمُه لهرب أخيه .

تساءل : « لمَ خاف ؟ لمَ هرب ؟ ليس في الذهب خطيئة : الخطيئة في الإنسان . إذا كان الذهبُ يولّد الشرّ ، فهو يولّد الخير أيضاً . فكم من اليتامى والأرامل يمكن إطعامهم بواسطة الذهب ! وكم من العُراة يمكن كسوتهم ، وكم من المرضى ، ومن ذوي العاهات يمكن أن نخفّف آلامهم ! نحن نساعد البائسين ، لكننا نقدر على القليل ، لأن مواردنا ضئيلة ، بينما نستطيع بهذا الذهب أن نفعل الكثير للناس . »

تلك كانت خواطر « اثناس » التي أراد أن ينقلها إلى أخيه . لكن « جان » جاوز مدى الصوت ؛ ولم يكن يراه أكثر من حشرة ، على السفح الآخر .

حينئذٍ ، خلع « أثناس » ثيابه ووضع فيها كل الذهب الذي يستطيع حمله ، وحمله على كتفه ، ومضى إلى المدينة . دخل نُزلاً ، وأودع المال لدى صاحب النزل ، ورجع ليحضر ما بقي من الذهب . وعندما حمل الذهب كله ، قصَدَ تاجراً ، واشترى أرضاً في المدينة ، وحجراً ، وخشباً ، وشغّل عمالاً ، وأخذ يبني ثلاثة بيوت .

وهكذا قضى « أثناس» ثلاثة أشهر في المدينة ، وبنى ثلاثة بيوت: بنى بيتاً للأرامل واليتامى ، ومصحاً للمرضى والمعوزين . وملجأً للحجاج والمتسوّلين . ثم وجد ثلاثة شيوخ جديرين بالاحترام : فعهد إلى الأول ببيت الأرامل واليتامى ، وعهد إلى الثاني بالمصح ، وعهد إلى الثالث بالملجأ ؛ وبما أنه ظلّ يحتفظ بثلاثة آلاف قطعة ذهبية ، فقد أعطى كلا من الشيوخ ألف قطعة لتوزَّع على الفقراء .

مالبثت الأبنية الثلاثة أن امتلأت بالناس الذين كانوا يُثنون على « أثناس» ويشكرونه على ما فعل . وكان يشعر لذلك بفرح عظيم حتى إنه لم يستطع أن يُزمع على ترك المدينة . لكن « أثناس » كان يحبّ أخاه وبعد أن ودّع هؤلاء الناس ، عاد على الطريق المؤدية إلى مسكنه ، دون أن يحتفظ بقطعة واحدة من الذهب ، مرتدياً ثيابه القديمة التي جاء بها.

وبينما كان يقترب من الجبل ، فكّر : لقد أخطأ أخي بفراره هكذا من كومة الذهب . ألم أتصرّفْ خيراً منه ؟ » لكن ما كادت تخطر له هذه الفكرة حتى ظهر له في الطريق ، فجأة ، الملاك نفسه الذي جاء ليباركه . كانت نظرتُه قاسيةً . فشحب « اثناس» وقال فقط :

— لمَ ذاك ، يا سيدي ؟

فتح الملاك فمه وقال :

— ابعدْ عني ! لستَ جديراً بالعيش مع أخيك . إن وثبةً واحدة من وثبات أخيك أثمن من كل ما فعلته بهذا الذهب !

حينئذٍ ، شرح له « اثناس» كيف أطعم عدداً كبيراً من الفقراء والحجاج ، وآوى عدداً كبيراً من اليتامى .

لكن الملاك قال له :

— الشيطان هو الذي وضع هذا الذهب في طريقك ليغويك ، وهو الذي أوحى إليك بهذه الكلمات .

استيقظ ضمير « اثناس» . وأدرك أنه لم يعمل لله . وانهمرت عبراته وندم . حينئذٍ أخلى الملاك له الطريق إلى حيث ينتظره أخوه .

منذ هذا الوقت ، لم يدعْ « اثناس» سبيلا للشيطان وذهبه إلى اغوائه ؛ واعترف أنه بالعمل وحده يمكننا أن نخدم الله والناس ، لا بالذهب.

وعاد الأخوان إلى العيش كما كانا يعيشان من قبل.

* * *

الجحيم الذي أعيد بناؤه
– ١٩٠٢ –

– ١ –

جرى ذلك في الأزمنة القديمة عندما كان يسوع المسيح يكلّم الجماهير على الدروب المحرقة ، وفي ساحات قرى فلسطين .

كان التعليمُ الجديد واضحاً يسهل اتباعُه ويفتح للبشر طريق الخلاص الأبدي على اتساعه . ولذلك بدا مستحيلاً أن يوقف انتشاره شيء منذ الآن .

إبليس ، أبو الجحيم وسيّده ، كان وحده قلقاً .لقد توقّع اقترابَ الزمن الذي سينتهي فيه سلطانُه على الناس . بيد أن أملاً واحداً كان يُعزيه في نكبته : وهو أن يرى يسوع يُنكر عقيدته .

مضت مرحلة الإرهاق ، فعزم إبليس أن يستخدم وسائلة الكبرى : أخذ الفريسيّون وعلماءُ الشريعة الخاضعون لاشعورياً للمشيئة الشيطانية يوسعون المخلّص إهانةً وخزياً ، وشرع التلاميذ الذين أعماهم روح الظلمات ، يفرّون ، متخلّين عن المعلم الالهي . وفكّر إبليس ان الحكم على « ابن الانسان » بالعذاب المخزي ، والإهانات ، والعزلةَ التي سيجد

نفسه فيها ، كل ذلك سيقوده ، وقبل أن تأتي ساعة العذاب النهائي ، إلى الارتداد الاعظم الذي سيدمّر ذلك البناء الشاهق من « التعليم » .

حسمت الأمور على الصليب ، فعندما سمع إبليس المسيحَ يهمس : « إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني ؟ » استبدّ بالشيطان فرحٌ عارمٌ . كان ذلك هو النصر ! .

لكن هذه الحماسة الفرحةَ كانت قصيرة ، لأن صوتاً شاكياً لفظ هذه الكلمات ، من أعلى الصليب :

— إلهي ، اغفرْ لهم لأنهم لا يعلمون ما يفعلون .

وعندما ارتفع آخر أنفاس يسوع في مجده ، أدرك إبليس أنه خسر كلّ شيء .

واستبدّ به رعبٌ صامت ؟ أراد أن يهرب ، وأن يرفع ، أولاً ، القيود التي تثبّت قدميه بقوة لكن السلاسل لم تستجب له . وحاول الشريرُ الذي لصق بالأرض أن يطير : فأبى جناحاه الساكنان أن ينفتحا.

ثم انبهرت عيناه باشعاع مباغت : لقد ظهر يسوع وسط هالة ، جليلاً وهادئاً . اقترب من أبواب الجحيم التي انفتحت على مصاريعها، وترك الخُطاةَ يمرّون . ورأى ابليس أيضاً جدران جهنّم تنهار بجلبة، ولم يستطع أن يتحمّل أكثر ممّا تحمّل ، زعق زعيقاً يائساً ، فانفتحت هوّةٌ تحت قدميه ، وفي هذه الهوّة توارى .

— ٢ —

مرّ قرنٌ ، ثم قرنان ، ثم ثلاثة . .

لم يعد إبليس يعيش في الزمن : كانت تحيط به الظلمات السوداء وصمتُ الموت ، وكفّ عن عدّ السنين التي تمرّ ببطء .

كان يحاول جاهداً ، وهو مضطجع بلا حراك ، ألا يفكّر فيما وقع له . لكن الكراهية كانت تعذّبه ، بالرغم منه . وكان يكره أكثر من أي وقت مضى ذاك الذي اعتبره مسؤولاً عن ضياعه .

وفجأة — لم يكن الشريرُ يعلم منذ متى امتدّ هذا الانسحاق الكئيب — سمع فوق رأسه ما يشبه وطء عددٍ كبير من الحوافر ، كما سمع حشرجاتٍ وصرخات وصريف أسنان .

فوجىء فرفع رأسه وأصاخ السمع .

كان الاعتقاد بأن الجحيم يُمكن أن يُعاد بناؤه يبدو غير مقبول ، بيد أن الأصوات التي ذكّرته ، على نحوٍ واضحٍ جداً ، بمنطقة نفوذه القديمة ، أخذت تتضّح شيئاً فشيئاً .

عدّل إبليس جذعه الثقيل ، وجلس على قدميه الكثّتي الشعر ، واللتين نما حافراهما نمواً هائلاً ، ولاحظ بدهشة أن القيود التي ثبتّت عقبيه بالأرض سقطت دونَ أن يفطن لذلك .

ما الجديد الذي حدث ؟ . . . نشر الشرير وهو مندهش ، جناحيه اللذين أصبحا حرّين على حين غرّة ، وأرسلَ وهو فرحٌ ، صفيراً طويلاً هو الذي كان يدعو فيه قديماً خدمه ومساعديه .

لم يكد يتنفّس ، حتى انفتح فوق رأسه ، ثقبٌ ضخم ؛ وأضاءت النارُ الحمراء أعماقَ الأرض حيث قضى الملاك الساقط عدداً لا يُحصى من الأيام ، بينما انهال على سيّد الشياطين جمهورٌ من الشياطين وهم يتدافعون ، مثل سرب من الغربان على جيفة .

وكان أحدهم عارياً تماماً ، أسود الجسم ، لامعاً وكأنه قدط لميَ ، مدوّر الوجه أمرده ، متدلّي البطن ، يرتدي لفاعاً على كتفيه. نحّى

بحركة جمهورَ أصحابه وجلس في مواجهة الشيطان ؛ وكان لا يكف عن الابتسام ، وهو يتأمله بعينيه اللامعتين ، ويرقّص ذيله الطويل والدقيق ترقيصاً موقّعاً .

— ٣ —

سأل إبليس وقد تخلّص من ذهوله ، وأشار باصبعه إلى الفتحة الفاغرة فاها :

— ما معنى كل هذه الضوضاء ؟ ماذا جرى فوق ؟

أجاب الشيطان ذو اللفاع :

— الشيء نفسه الذي كان يجري قديماً .

— مايزال هناك إذن خطاة ؟

— كُثُرٌ .

— و « تعليم » الذي لا أريد أن أسمّيه ؟

انفرج الفكان الثقيلان عن ابتسامة عريضة ؛ ولمعت الأسنان المحدّدة في الوجه المطليّ ، في حين تعالت ، في الجمهور ، ضحكاتٌ كُتمتْ بسرعة .

— ذلك « التعليم » لا يضايقنا ، فالناس لم يعودوا يؤمنون به .

— بيد أن تلك العقيدة نجّتْهم من سلطاننا ، وهو قد ختمها بموته على الصليب .

قهقه الآخر وهو يضرب الأرضَ بذيله :

— حرّفتُ عقيدته .

— وكيف ؟

— بكل بساطة ، ونتيجة أعمالي أن الناس لم يعودوا يؤمنون « بتعليمه» ، بل بتعليمي ، وإن اطلقوا على هذا اسم ذاك .

سأل إبليس :

— فعلتَ هذا ؟

وكرّر وهو يبتسم .

— فعلت هذا ! وكيف توصلت إليه ؟

— وقع ذلك وحده . . . ولم أفعل شيئاً سوى مدّ يد العون .

فرك إبليس يديه وأمره وهو ممتلىء بالرضا :

— ارْوِ لي كلَّ شيء .

خفض الشيطان ذو اللفاع رأسه ، وبدا لحظةً كمن يفكّر ، وبدأ يبطء حكايته .

تكلّم برصانة :

— عندما وقعت تلك القضيةُ الرهيبة ، ودُمّر الجحيم ، وغادرتنا أنت أبونا وسيّدنا ، فغرقْنا في الرعب والوحشة : سافرتُ إلى المكان الذي يبشّر فيه بالعقيدة التي أوشكت أن تُهلكنا . أردتُ أن أرى كيف يعيش الناسُ الذين يتّبعونها :

صمت الراوي لحظةً ، ثم استأنف كلامه :

— رأيتُ أنهم كانوا سعداء تماماً وأنهم ظلّوا بمأمن منّا . لم يكن بينهم كراهية ولا غضب ، ولم يكن سحر النساء ليؤثّر فيهم . لم يكونوا يتزوجون ، أو كانوا يتزوجون امرأةً واحدة ، ولم يكونوا يملكون شيئاً . كل شيء كان مشاعاً بينهم . ولم يكونوا يدافعون عن أنفسهم إزاء هجمات أعدائهم ، ويدفعون الشرّ بالحسنى ، وكانت حياتُهم جميلةً جداً حتى أن عدداً متزايداً من الناس كان لاينى ينضمّ إليهم .

تنهدّ الشيطان ذو اللفاع وأردف :

— هذا المشهد آغرقني في أسى ً لا حدّ له ؛ ظننتُ أن كل شيء ضاع منا ، وإذا بواقعة ِ صغيرة ، تافهة ِ في الظاهر ، تجذب انتباهي : فبعض هؤلاء الرجال كانوا يؤكدون أنه ينبغي الشروع في الختان وأنه لا ينبغي أكل لحم الأضاحي ؛ وكان آخرون يقولون ، بالمقابل ، إن ذلك كله باطل ، الختان عديم الفائدة ، وأن الانسان يمكن أن يأكل جميع اللحوم ، حتى المضحّى بها لله .

أما أنا ، فقد أدركت أية فائدة تحملها إلينا هذه الخلافات ، وبذلت جهدي لبذر الشقاق بين المعسكرين ، مؤكداً لهذا المعسكر حيناً ، والذاك حيناً آخر ، أن الحق مع كل منهما . وأوحيتُ إليهم ، فضلاً عن ذلك ، أن هذه الخصومات تُرضي الله الذي يرى فيها مبادرةً من البشر لخدمته . وقد صدّقوني : إذ تفاقم الشقاق ؛ وبما أنهم أظهروا هياجاً حقيقياً ، أوحيت إلى هؤلاء وإلى أولئك بالرغبة في البرهنة على صحة تعليمات كل فئة بمعجزات . وقد قمتُ ببعض المعجزات ، وهو ما لم يكن صعباً ، لأن ادعاء كل فئة بأنها تملك وحدها الحقيقة سهّل مهمّتي .

« روى بعضهم أن ألسنة اللهب نزلت عليهم ؛ وقال آخرون انهم شاهدوا المعلم المتوفّى . كانوا يخترعون ويروون أحداثاً غير موجودة ؛ كانوا يكذبون ويحلفون زوراً . وكانت قدرتهم على الكذب تفوق قدرتنا ، وهو ما كان يُفرحني فرحاً جنونياً ، لأن ذلك كله كان يتم باسم الذي نعتّته قديماً بالغشّاشين . في هذه الأثناء ، كان كلّ فريق

يؤكّد بصلابةٍ حديدية ، أن معجزاته وحدها هي الحقيقية ، وأن معجزات الخصم لم تكن سوى خدعة .

سارت الأمور إذن على أحسن ما يرام ، وكنت راضياً جداً عن ذلك. على أن الخوف من اكتشاف الخدعة التي غدت جليّة ، كان يعذّبني ؛ ولذلك قررّت أن أؤسّس « الكنيسة» . ولما رأيتُ بأية ثقة وبأي إيمان كانوا يتبعونني ، أدركت أن قضيتنا رابحة ، وأن الجحيم الذي أُعيد بناؤه سيكون ، منذ اليوم ، بمأمن من الاعتداء .

— ٤ —

سأل إبليس بقسوةٍ ، وقد أبتْ كبرياؤه أن يكون خُدّامُه أذكى منه :

ـــ وما الكنيسة ، يا ترى ؟

ـــ الكنيسة هي ما يلي : عندما يكذب الناس ، وعندما يُحسّون أن الآخرين لا يصدّقونهم يستنجدون بالله قائلين : « يشهد الله أن الحقيقة هي ما قلت . » وهناك أيضاً هذه الخاصيّةوهي أن الناس الذين يقولون إنهم « الكنيسة » يزعمون أنهم لا يمكن أن يُخطئوا . ولذلك فلا يمكن أن يرتدّوا عنأي خطأ خرج من أفواههم . و « الكنيسة » تُشيّد على النحو التالي : إن الناس يُعلنون أن « معلّمهم » اختار ، تفادياً للتأويلات الخاطئة للشريعة الالهية ، بعضَ الناس الذين يمكنهم وحدهم ، مع الذين عهدوا إليهم بسلطانهم ، أن يُؤوّلوا كلامه . ويَنْجم عن ذلك أن الناس الذين يؤلّفون الكنيسة يعدّون أنفسهم أصحابَ الحقيقة ،لا لأنهم يكْرزون بالحقيقة ، بل لأنهم يعتبرون أنفسهم الورَثة الشرعيّين

للتلاميذ الآتين من تلاميذ المعلم . ومع أننا يمكن أن نجد هاهنا من دواعي الشك بمقدار ما في المعجزات (إذ يستطيع كلُّ واحد أن يزعم أنه مؤسّس «الكنيسة» الحقيقية) إلا أن لهم هذه المزيّة وهي أنهم حين أعلنوا أنهم « كنيسة » حين أقاموا على هذا الأساس تعليمهم ، صارت العقيدةُ تفرض نفسها حتى في المُحال .

وسأل إبليس :

— وكيف جرى أن الكنيسة تسهّل هكذا عملنا ؟

انفجر الشيطان ذو اللفاع ضاحكاً :

— فعلتْ ذلك لأن ممثّليها يعتبرون أنفسهم كأنهم المالكون الوحيدون للشريعة الالهية ، وإذ أقنعوا الناس جميعاً بذلك ، أحرزتْ سلطاناً هائلاً على الجماهير . وعندما استقرت سلطتُهم هذه افتخروا بها ، وتهتّكوا على أثر ذلك ، وأصبحوا هدفاً للاشمئزاز والكراهية . ولما كانوا لا يملكون سلاحاً لمقاتلة أعدائهم سوى الغدر فقد أخذوا يطاردون جميع الذين لا يعترفون بطابعهم المقدّس ، وينكّلون بهم ، ويحرقونهم . وهكذا اضطرّوا أن يسوّغوا بعقيدتهم نفسها ، حياتهم المنحلّة والاضطهادات التي قاموا بها .

— ٥ —

قال إبليس وهو لا يكاد يصدّق أن مرؤوسيه قد نجحوا فيما لم يخطر له ببال

— كان ذلك التعليم بسيطاً جداً وواضحاً جداً بحيث بدا من المستحيل تحريفه : « افعلْ بالآخرين ما تريد أن يفعلوه بك » . فكيف فسّروا هذا المبدأ ؟

أجاب الشيطان ذو اللفاع :

— آه ! فسّروه ، بناءً على نصيحتي ، بطرق شتّى .

إن الناس يروون أسطورةَ ساحرٍ خيّرٍ أراد أن ينجّي الإنسان من روح الشر ، فحوّله آلى حبّة ذرة بيضاء . وإذ تحوّل الساحرُ الشرير إلى ديك ، همّ بالتقاط حبّة الذرة ، لكن خصمه صبّ فوقه مكيالاً مملوءاً بالذرة . ولما لم يستطع الشرير أن يأكل كل الحب فانه لم يعثر على تلك الحبة التي كان يفتّش عنها . لقد اتّخذتُ من هذه القصة دليلاً لي ، ونصحتُهم أن يفعلوا مثل ذلك بتعاليم الذي قال : « لا تفعلوا بالآخرين ما لا تريدون أن يفعلوه بكم » . فألّفوا تسعة وأربعين كتابَ تفسيرٍ كانت الكلمة في كلّ منها تُعتَدُّ إلهية . وعلى هذه « الحقيقة » البسيطة والمفهومة جداً صبّوا رُكاماً ممّا عدّوه حقائق مقدّسة ، بحيث أن الناس الذين لم يستطيعوا أن يقبلوا بها كلها ، فتّشوا بغير جدوى عن الحقيقة المشتركة بينها جميعاً . هذه هي الوسيلة الأولى .

الوسيلة الثانية التي استخدموها بنجاحٍ قروناً طوالاً هي أن يقتلوا ويحرقوا جميع الذين يطمحون إلى الحقيقة . ولما كانت هذه الوسيلة غير ممكنة الاستعمال في أيامنا ، فهم يُرهقون الناس الذين يسعى فكرُهم إلى التحرّر . بوشاياتهم ، ويسمّمون حياتهم إلى حدّ يغدو معه الذين يغامرون في هذه الطريق قلةً نادرة .

هذا هو السبيل الثاني .

أما السبيل الثالث فينحصر في أن ننتزع من الناس إمكانَ خروجهم من ركام المتناقضات التي أغرقهم فيها الذين يُدعون « الكنيسة » . وهكذا جاء مثلاً في الكتاب : « إن معلمكم الوحيد هو يسوع ولا تدْعوا أباً

غير الذي في السماوات . ولا تدعوا أحداً معلماً لأن معلمكم الوحيد هو يسوع . » وهم يقولون نحن معلّمو الناس وآباؤهم وقد قيل أيضاً: « إن كنتَ تريد أن تصلي ، فصلِّ بصمت ، والله يسمعك . » وهم يجيبون : « يجب أن نصلي معاً ، في المعابد ، بمصاحبة التراتيل والموسيقا. » أو إنّ الكتاب يأمر : « لا تحلفوا لأحد » بينما يأمرون بالحَلْف وبطاعة السلطات ، أيّاً كانت. لقد قال ابنُ الإنسان : « تعليمي هو الروح والحياة» بينما يؤكدون أنه إذا غُمستْ قطعُ الخبز في الخمر ، أصبح الخبز لحماً والخمر دماً ، وهذا الدم وذاك اللحم ضروريان لخلاص الروح . والناس يؤمنون بذلك ، ويتناولون بحرارة هذه الهِبَة السماوية ، وهذا لا يمنعهم ، إذا ما وقعوا في قبضتنا ، أن يُدهشوا من عدم جدوى هذه الهبة .

عندما انتهى الشيطان ذو اللِفافة من حكايته ، فتح فكيه حتى بلغا أذنيه ، وقلب عينيه ، من السرور ، حتى أضاء بياضُهما الظلمات .

قال إبليس وهو يبتسم :

ــ هذا حسنٌ جداً .

ولكي يُرضي جميعُ الشياطين سيّدهم انفجروا ضاحكين ضحكهم العريض .

— ٦ —

سأل إبليس وهو فرحٌ :

ــ أمن الممكن أن يوجد اليوم ، كما كان يوجد من قبل ، أهلُ الدعارة واللصوص والقَتَلة ؟

عند رؤية هذا الفرح الغامر ، أخذ الشياطين يتكلمون معاً .

قال أحدهم :

— لا كما كانوا من قبل ، بل أكثر .

وقال آخر :

— أهل الدعارة اليوم في مقاصير غير التي كانت من قبل .

— واللصوص اليوم أسوأ من ذي قبل .

— لا تزعقوا كلكم في آن واحد ، وليجب مَنْ أسأله وحده . مَنْ منكم المسؤول عن الدعارة ؟ فليأتِ وليقلْ لي ما الذي فعله بتلاميذ « الذي » حرّم تبديل الزوجة . وحرّم النظر إلى المرأة بشهوة ، هيا ، تعال.

أجاب صوتٌ :

— حاضر .

خرج من الصف شيطانٌ ضاربٌ إلى السواد ، متخنّثٌ ، ضخم الخدّين ، له جيبان ثقيلان تحت عينيه ، وفمٌ سائل اللعاب تتحرك شفتاه الهدلاوان بلا انقطاع . زَحفَ صوب الشيطان ، وأقْعى ، واضعاً ذيله ذا الشرابة قدّامه ، وبدأ كلامه بصوتٍ رخيم :

— كنا نعمل أولاً بالاسلوب القديم الذي استخدمتَه قديماً ، أنت أبو الشياطين وسيّدهم ، في الجنة ، وهو الأسلوب الذي وضع الجنس البشري تحت سلطاننا . وهناك أيضاً أسلوبٌ آخر ، هو أسلوب الكنيسة ؛ فيُشرَح للناس أن الزواج ليس كما هو في الحقيقة : أي اتحاد الرجل والمرأة ، لكنه احتفال يجْدر بالعروسين ، من أجله ، أن يرتديا أجملَ ثيابهما ، وأن يذهبا إلى عمارة أُقيمت لهذه الغاية ، وأن يركعا ، على صوت الموسيقا ، أمام طاولة صغيرة . والناس الذين يؤمنون بكلامنا ، آمنوا أخيراً بأن كل اتحادٍ ، ما عدا هذا الاتحاد ، مجرد لذة أو اشباع صحي . واستسلموا لهذه الملذات ، دون تحرّج

رمى الشيطانُ المتخنّث رأسه من كتفٍ إلى أخرى ، وصمت بانتظار استحسان ابليس .

وافق هذا .فأضاف تابعُه الوفيّ ليسرّه:

— هذه الوسيلة الأخيرة ، وكذلك وسيلتك الأولى الممتازة المستخدمة في الفردوس ، حملتا إلينا أفضل النتائج .

« لقد تصوروا أنهم يستطيعون أن يحصلوا على زواج ديني جميل بعد أن اقترنوا بمئات النساء ، كانوا منهمكين في الدعارة إلى الحد الذي تستمر فيه الدعارة بعد الزواج . وإذا ما ضايقتهم بعضُ مقتضيات الحياة الزوجية بدؤوا من جديد سجداتهم أمام الطاولة ، بعد أن يُعتبر الاقتران الأول باطلاً .

صمت الشيطانُ المخنّث ومسح ريق فمه بشرابة ذيله ، وشخص إلى ابليس بنظرة مستفهمة.

— ٧ —

قال ابليس :

— الوسيلة بسيطة ومناسبة . تُعْتَمَدُ . مَنْ منكم المكلّف بالسرقة؟

— أنا .

مَثَلَ بين يدي ابليس شيطانٌ هائل ، معقوف القرنين ، مفتول الشاربين باعتزاز . انتصب ، وضمّ باحترام قدميْ ساقيه القصيرتين ، وانتظر سؤال المعلم .

قال ابليس :

— إن الذي دمّر الجحيم أوصى البشر أن يعيشوا كما تعيش طيورُ السماء . وكان يقول إننا يجب أن نَهَبَ رداءَنا مَنْ طلب ثوبنا وأن

مَنْ أراد أن يخلّص روحه فعليه أن يتخلّى عن أملاكه . فما السبل التي تستخدمها لتوقع في شركك الناسَ الذين استمعوا إلى هذه الكلمات ؟

قال الشيطان ذو الشاربين وهو يردّ رأسه إلى الوراء :

— نحن نفعل ذلك بالطريقة نفسها التي فعلها أبونا وسيّدنا عند تنصيب شاول . فالناس مقتنعون ، بواسطتنا ، كما كانوا مقتنعين في تلك الحقبة ، بأن من الأفضل أن يسلبهم أموالهم واحدٌ يمنحونه سلطات مطلقة ، بدلاً من أن يسرق بعضُهم بعضاً . الجدّةُ الوحيدة هي أنه لكي نمنح هذا الرجلُ حقّ النهْب نقوده إلى معبدٍ ، ونُلبسه قبّعةً من نوع خاص ، وبعد أن نرفعه على مقعد عالٍ ، نضع بين يديه قضيباً وكرةً . ثم ندهن رأسه بزيتٍ خاص ، ثم نُعلن باسم الأب والابن تكريسه . بعد ذلك ، يغدو الابتزاز مشروعاً ولا حدود له . وهكذا فإن الأفراد المقدّسين ومساعديهم ومساعدي مساعديهم يسرقون الشعب بلا انقطاع وبأمانٍ تام . بل إن قوانين ومراسيم ، وُضعت لهذه الغاية ، تُتيح لناس لم يُدهَنوا بالزيت المقدّس ، أي لأقلية عاطلة ، أن تنهب الأكثرية التي تعمل : وهكذا ينتشر الابتزاز في كل مكان . أنت تلاحظ إذن ، أيها الأب والسيّد ، أن طريقتنا ، في الحقيقة طريقةٌ قديمة جعلناها فقط أكثر شمولاً ، وأكثر خفاءً ، وأكثر شيوعاً في المكان والزمان ، وأكثر استقراراً أيضاً .

إنها أكثر شمولاً لأن البشر الذين كانوا يخضعون قديماً ، لمن اختاروه اختياراً ، يخضعون الآن ، رغم إرادتهم ، لا لمن اختاروهم ، بل لأول شخص يستغلّهم ، وهي أكثر خفاءً لأن الضحايا ، بفضل نظام الضرائب ، ولاسيما الضرائب غير المباشرة ، لا يرون أبداً ذاك

الذي يقرضهم. وهي أكثر شيوعاً في المكان لأن الشعوب التي أصبحت مسيحية لا تكتفي بما يأتيها ، إلى مقرّها ، بل إنها تذهب متذرّعة بالتبشير ، لتنهب الذين ما زالو يملكون . وهي أكثر شيوعاً في الزمان بفضل نظام القروض الاجتماعية وقروض الدولة ، التي لا تدمّر الأجيال الحيّة فقط ، بل الأجيال الآتية أيضاً . ثم إنها أشد استقراراً لأن الجمهور لا يجرؤ على التصدي لقادة النّهابين باعتبارهم مقدّسين .
وهكذا جرّبتُ في حقبةٍ من الزمن ، في روسيا ، هذه التجربة : نصّبتُ على العرش سلسلةً من النساء الممقوتات (١) الخبيّات الأميّات ، المنحلاّت ، اللواتي ليس لهن حقٌّ في العرش ، بحسب قوانينهن أنفسهن . وآخرهن لم تكن فاسقةً فحسب ، بل كانت قاتلة (٢) : قتلت زوجها والوارث الشرعي للامبراطورية ، ولم يجلدها الناس ، ولم يعاقبوها ، كما يفعلون بقاتلات أزواجهن ، وذلك فقط لأنها دُهنت بالزيت المقدّس . لكن عبيدها وكذلك عشّاقها الذين لا يُحصون تركوها ، طوال ثلاثين عاماً ، تسْلب أملاكهم وحريتهم . ونحن نرى أن السرقات العادية ، في أيامنا ، أي سرقة حصانٍ أو ثوب ، لا تشكّل سوى جزءٍ من مليون من النهب الشرعي الذي ينفذه اولئك الذين أوكلتْ اليهم السلطة . إن السرقات المخفيّة ، إن شراسة التكالب على المال ، هي من الشيوع بحيث تكوّن هدفَ الحياة الرئيسي ، وبحيث أن التنافس وحده بين اللصوص قد يخفف من قسوتها .

(١) النساء الممقوتات : تميز القرن الثامن عشر في روسيا باعتلاء النساء العرش : كاترين الأولى ، آن ، ولية العهد آن ، اليزابيت ، وكاترين الثانية .
(٢) كانت قاتلة : قتل بطرس الثاني سنة ١٧٦٢ ، وقتل الامبراطور الطفل جان السادس سنة ١٧٦٤ .

قال إبليس :

— لابأس ، لابأس . والقتل ؟ مَنْ الذي يهتم بالقتل ؟

هتفَ صوتٌ :

— أنا .

تنحّى جمهورُ الشياطين لينفسح الطريق أمام كائن أحمر بلون الدم . وقد برزت من فمه كلاّبتان عظيمتان ، وزان رأسَه قرنان محدّدان ، وانتصب من خلفه ذنبٌ ضخمٌ ساكن : وقف مقابل ابليس وقفةً عسكريةً ، وانتظر :

— كيف تفعل ليغدو تلاميذ « الذي كان يقول : « قابلوا الشر بالخير » ، ولا « تقتل » ، قتَلَةً ؟

انبعث صوت الشيطان الأحمر مدوّياً ، مُصمّاً للآذان ، مثل ناقوس خشبي ضخم :

— إننا نتابع الطريقة القديمة ، فنوقظ في قلوب البشر الشهوةَ والكراهية والكبرياء ؛ ونحرّض أيضاً الأهواءَ الدنيئة بأن نقتل علانيةً مَنْ قتَل — للعبْرة : وهذه الطريقة لتهذيب الأخلاق المزعوم تُحضّر لنا قتَلةَ المستقبل . إن تعليم عصمة الكنيسة ، والزواج المسيحي ، والمساواة المسيحية وفّرت لنا وما تزال توفّر جماهير من الزبُن :إن عقيدة العصمة قدّمت لنا عدداً كبيراً منهم ، لأن البشر الذين أعلنوا أنهم أعضاء الكنيسة كانوا يعتبرون أن المفسرّين مجرمون وأن إبادتهم تقدمةٌ تسرّ الربّ : كانوا يقتلون شعوباً بأسرها ، ويحرقون مئات الآلاف. والجانب المضحك في هذه القضية أن هؤلاء الجلاّدين كانوا يعتبرون

بجميع الذين فهموا التعاليم الحقيقي — والذين كانوا شديدي الضرر لنا — كأنهم خـَدَمُ الشيطان : أما هم فكانوا يعتبرون أنفسهم — وهم خدامنا المخلصون وإن كانوا لا يشعرون — المنفّذين المقدّسين للمشيئة الالهية . كان ذلك يجري في عصور غابرة : أما في أيامنا فأكبر عدد من القـَتلة يـُقدّمه لنا الزواج وفكرةُ المساواة المسيحية . فالزواج سببٌ لكثير من القتل بين الأزواج ومن قتل الأولاد.فالأزواج والزوجات يقتتلون عندما يجدون أن شروط الاقتران شاقة إلى الحدّ الذي لا يـُطاق . والأمهات يـُهلكن أولادهن غير الشرعيين . هذا يحدث أبداً باستمرار . وبالنسبة إلى **المساواة** المسيحية فان القتل ليس دورياً لكنه بالمقابل ، أكثر عدداً : والذين خـُدعوا باعلان المساواة المسيحية أمام القانون تبيّنوا أنها ليست سوى كلمة فارغة : ولذلك انقضّوا على الفئة التي خدعتهم بعد أن ملّوا من خداعها لهم : وهكذا يقتل بعضُهم بعضاً ويقدّمون لنا ما لا يـُحصى من الجرائم .

— والقتلُ في زمن الحرب ؟ كيف تسوقون إليه تلاميذ «الذي» قال إن البشر جميعاً أبناء أب واحد والذي أمر بأن نـُحبّ أعداءنا ؟

أظهر الشيطان الأحمر كلاّبتيه ، في تكشيرة ، وبعث من فمه بسهام نارية حقيقية من اللهب والدخان . ثم ربّت ظهره بطرف ذنبه الضخم فرحاً ، واستأنف تقريره :

— ما فعلناه مدهش : لقد توصلنا إلى إيهام كل شعب بأنه أعظم الشعوب . «ألمانيافوق الجميع ، فرنسا ، انكلترا ، روسيا ، فوق الجميع» وهكذا يغدو تفوّق أمة على الأمم الأخرى ، بحكم المحقق ، وبما أننا نقول الشيء نفسه للجميع ، فان الجميع يرون الخطر الذي يهدّدهم

فيستعدّون للدفاع ، ولا ينِي يتعاظمَ يوماً بعد يوم كرهُهم المتبادل ، بحيث أنه كلما زاد معسكرٌ من تسليحه ، سعت المعسكرات الأخرى إلى التفوّق عليه ، وإن الشاغل الرئيسي الذي يشغل البشر الذين قبلوا تعليم « الذي » نَعَتَنا بالقَتَلة هو أن يُحضّروا اليوم للمذابح المقبلة .

— ٩ —

قال إبليس بعد صمت طويل :

— إن ذلك لا يخلو من المنطق . وكيف لم يفطن البشر الذين تحرّروا من خداع العلماء إلى أن الكنيسة حرّفت « التعاليم » ، ولم يسعوا إلى استعادته ؟

— لم يكن ذلك ممكناً .

الذي تكلّم هذا الكلام بصوتٍ واثق زحف إلى الأمام : كان شيطاناً غطى جسمه الحالك السواد بمعطف عريض . كانت جبهته مسطّحةً ومائلة ، وبدت أطرافه كأنها محرومة من العضلات ، واكتنفت رأسه أذنان مخفوضتان .

سأل إبليس بقسوة وقد ساءته هذه اللهجة الواثقة التي اصطنعها مرؤوسه :

— لماذا ؟

لم يضطرب الشيطانُ ذو المعطف البتّةَ من نبرة سيّده ، واقترب دون استعجال ، وجلس على الطريقة الشرقية قبالة السيّد ، مصالباً تحته ساقيه الساكنتين ، وتكلم بصوتٍ عَذْبٍ :

— لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك لأنني أصرف أنظارهم دائماً عمّا

يستطيعون وعمّا ينبغي لهم أن يعرفوه إلى ما لا يمكن ولا يستطيعون أبداً أن يعرفوه .

— وكيف فعلتَ ؟

أجاب الشيطان ذو المعطف :

— بحسب الزمن . في البداية ، كنت أوحي إليهم أن الشيء الرئيسي بالنسبة إليهم هوأن يعرفوا العلاقات بين أشخاص الثالوث الثلاثة ، من أين جاء يسوع المسيح ، وما جوهره وما صفات الله . وقد أسهبوا في نقاشها زمناً طويلاً وأثبتوا ونفوا وتغاضبوا . وكانت هذه النقاشات تثير اهتمامهم إلى حدّ كبير نسوا معه طريقة حياتهم . وهكذا ، لم يكن ضرورياً لهم أن يعرفوا « تعليم » المعلم الذي يتّصل بالحياة ، لأنهم لم يكونوا يفكّرون في شيء آخر غير هذه النقاشات .

وفي آخر الأمر تشوّشوا إلى حدّ لم يعودوا معه يفهمون أنفسهم . حينئذ ، أدخلت في خلد بعضهم أن مـــن المهم معرفة ما فكّر فيه مَن يُدعى أرسطو الذي عاش في اليونان قبل ألف سنة . بينما بحث الآخرون عملاً بنصيحتي ، عن حجر يصنعون بواسطته الذهب أو الاكسير الذي يجعلهم خالدين . وقد أحسنتُ العملَ حتى إن كبار المثقفين بينهم وجّهوا جهودهم الفكرية كلّها نحو هذا الهدف المزدوج .

لكنْ كان هناك أناس لم تَستهوهم هذه البحوث . حينئذ وجدتُ شواغل أخرى لنشاطهم : وهي أن يعلموا إن كانت الأرض تدور حول الشمس أو الشمس حول الأرض . وعندما وجدوا أن الأرض هي التي تدور ، وعندما حسبوا بعد ذلك عددَ الفراسخ التي تفصل الشمس عن الأرض ، راعهم ذلك وعكفوا منذ ذلك اليوم على حساب المسافات

السماوية مؤكدين أن هذه المسافات لا نهاية لها ، وأن عدد النجوم لا نهاية له ، وأن كل هذه المعرفة لا جدوى منها . ثم إني نصحتُهم بدراسة أصل جميع الحيوانات وجميع النباتات . ومع أن هذه المعرفة لا فائدة منها إطلاقاً ، ويتعذر بلوغُها ، فوق ذلك ، باعتبار أن عدد الحيوانات كبير كعدد النجوم ، فقد وجّهوا ، مع ذلك بحوثهم نحو ظاهرات العالم المادي ، ودهشوا أنهم كلما ازدادوا معرفةً ازدادت حاجتهم إلى معرفة ما لم يعرفوه ، وبدت لهم المنطقةُ المجهولةُ أكثر اتساعاً كلما مضوا في بحوثهم ؛ وتزايد موضوع الدراسات تعقيداً ، وتناقضت المفاهيمُ القابلة للتطبيق العملي . وهذا الاضطراب في الفراغ لم يُخمد همتّهم مع ذلك ؛ لقد كانوا مقتنعين بأهمية مشاغلهم فتابعوا مباحثهم ، وكتبوا ، وطبعوا ، وترجموا من لغة إلى أخرى النتائج الزهيدة لأعمالهم . وإذا ما برز ، من حين إلى آخر ، اختراعٌ مفيد ، لم يُستَخْدم إلا لتحسين وضع فئة قليلة من الأغنياء على حساب أكثرية المساكين .

ولكي لا تخطر ببالهم ثانية الفكرةُ التي مفادها أن الضرورة الوحيدة هي فهم قانون الحياة ، أدخلتُ في الأذهان الشكَّ والاحتقار إزاء كل إيمان ديني — وهو ليس سوى ضلال وخرافة . أما كيف يجب أن يحيوا فيمكنهم أن يعثروا على هذه المعرفة في العلم الذي اخترعتُه ، علم الاجتماع الذي يُريهم شتى الكوارث التي عانت منها الأجيال السابقة ؛ ولذلك فبدلاً من أن يبذلوا وسعهم ليحيوا وفق قوانينهم المسيحية ، اقتنعوا بأنه يكفيهم دراسة حياة أجدادهم ليستنتجوا منها الأسس التي يمكن أن يقوم عليها وجودٌ أفضل .

وأخيراً ، فلكي أشجّعهم على خطئهم ، بشّرت بعقيدة تشبه

« التعليم » : فأكّدت أن هناك تنظيماً يُدعى العلم ، وأن مبادىء هذا العلم معصومة من الخطأ مثلها مثل مبادىء الكنيسة .

« ونجم عن ذلك أن العلماء ما ان اقتنعوا بعصمة العلم حتّى أعلنوا أن كثيراً من المكتشفات الوهمية العديمة الفائدة والحمقاء غالباً ، التي إذا قُبل بها تعذّر إنكارها ، إنما هي حقائق . ولهذا السبب أجرؤ على تأكيداً ما يلي : سأحافظ ، ما حييت ، على احترام هذا العلم الذي اخترعوه لغايتهم ، ولن يبالوا بعد ذلك « بالتعليم » الذي كاد يُهلكنا.

— ١٠ —

قال إبليس وقد استنار وجهُه :

— حسنٌ جداً . أنت جديرٌ بالمكافأة ، ولن يفوتني أن امنحكَ إياها .

تصاعد الزعيقُ من الجمهور . أخذ شياطين من كل لون ، صغاراً وكباراً ، من ذوي القوائم الطويلة أو الملتوية يصرخون :

— إنك تنسانا ، إنك تنسانا .

سأل إبليس :

— وماذا فعلتُم ؟

— أنا ، أنا شيطان التحسين التقني .

هتف آخر :

— وأنا شيطان تقسيم العمل .

— وأنا شيطان الطرق والمواصلات

— وأنا شيطان المطبعة .

— وأنا شيطان الفن .

ـ وأنا شيطان الطب .

ـ وأنا شيطان التربية .

ـ وأنا شيطان تحسين النسل البشري .

ـ وأنا شيطان المخدّرات .

ـ وأنا شيطان حب البشر .

ـ وأنا شيطان الاشتراكية .

ـ وأنا شيطان النزعة النسوية .

كانوا جميعاً يتزاحمون أمام وجه ابليس الهادىء ، متدافعين ، داهساً بعضُهم حوافر بعض ، محركين أذنابهم وآذانهم .

صاح ابليس :

ـ لا تتكلموا جميعاً في آن واحد :

وقال مخاطباً شيطان التحسين التقني :

ـ أنتَ ، ماذا تفعل ؟

ـ إني أُفهمُ الناس أنهم كلما صنعوا أشياء ازدادت سرعتهم في عملهم ، وكان ذلك أفضل : وهكذا يُضيع الناس حياتهم في صناعة عدد متعاظم أبداً لأشياء غير مفيدة ، على الإطلاق ، للذين أوصوا عليها ولا يمكن أن يشتريها الذين صنعوها .

ـ طيّب : وأنتَ ، بتقسيمك للعمل ؟

ـ أنا أقول للناس إن الآلات أقدرُ منهم أنفسهم على الصناعة ، وأن عليهم إذن أن يتحوّلوا إلى آلات : وإذ فعل الناسَ ذلك كرهوا الذين أجبروهم على فعله .

قال إبليس :

— لابأس أيضاً . وأنتَ ، يا شيطان الطرق والمواصلات .

— إن دوري هو أن أوهم الناس بأن السعادة تكمن في إمكان الانتقال من مكان إلى آخر بأقصى سرعة ممكنة : وبدلاً من أن يعمد هؤلاء البائسون ، كلٌ في زاويته ، إلى تحسين شروط حياتهم ، فانهم يقضون حياتهم في هجراتٍ دائمة : إنهم فخورون بأن يقطعوا خمسين فرسخاً وأكثر في الساعة .

وافق إبليس .

حينئذٍ ، جاء دور شيطان المطبعة : قال إن دوره كان تعليم الكثرة الكثيرة جميعَ ضروب الحماقة والخزي التي تُكتَسَبُ وتفعَل في العالم :

وشرح شيطانُ الفن أنه كان يشجع الرذائل ، تحت رداء المثالية والمؤاساة ، عارضاً تلك الرذائل في مظاهر فتّانة :

وقال شيطانَ الطب أن عمله انحصر في الإقناع بأنْ لا شيء أشد ضرورةً من العناية بالجسد : لكن هموم الجسد قد تمتدّ إلى اللانهاية ، ومن تتملكهم هذه الهموم لا يحتقرون حياةَ الآخرين فحسب ،بل إنهم لا يجدون الوقت ليحيوا حياتهم :

وعَرَضَ شيطانُ التربية مهمّته قائلاً إن الناسَ يظنون ، وهم يسلكون سلوكاً سيئاً ، ودون أن يعرفوا كيف يهتدون إلى سواء السبيل ، أنهم يستطيعون مع ذلك ، بناء على تحريضه ، أن يعلّموا أولادهم كيف يعيشون عيشة صحيحة:

وأشار شيطانُ تحسين النسل البشري كيف حبّب إلى منافقين متعفّنين بالرذائل الرغبة في تهذيب أمثالهم من البشر .

وروى شيطانُ المخدّرات كيف أن الناس ، بدلاً من العمل على إصلاح أنفسهم للتخلّص من الآلام التي تجلبها عاداتهم غيرُ الصحية ، يحاولون الحصول على النسيان في الخمر والأفيون والتبغ والمورفين .

وزعم شيطانُ حب البشر أنّ الذين يسرقون الناس بالقناطير يمكنهم تسديد ذلك للبؤساء الذين نهبوهم ، بالغرامات ، وأنهم يكسبون بذلك صيتَ الفضيلة العظيم ، ولا حاجة لهم بعد ذلك إلى إصلاح أنفسهم .

وافتخر شيطانُ الاشتراكية بأنه أثار الكراهية بين الطبقات ، باسم نظام اجتماعي أرقى .

حينئذ قاطعه شيطانُ النزعة النسوية الذي زاد عليه ، وأعلن أنه استطاع ، باسم نظام اجتماعي أشد إرهافاً ، خلقَ الكراهية لا بين الطبقات فحسب ، بل وأيضاً بين الجنسين .

أخذ بقيّةُ الشياطين يصرخون ويصخبون محاولين الاقتراب من ابليس :

— أنا الرفاهية !

— وأنا البدعةُ !

تظاهر ابليس بالغضب . لكنه لم يتمالك نفسه من الضحك فصاح :

— أتظنونني بلغتُ من العمر والغباء حدّاً أجهل معه أن « التعليم » إذا زُيف غدا كل ما كان يمكن أن يضرّنا مفيداً لنا : كفى ، أشكركم جميعاً .

رفرف ابليس بجناحيه ، وانتصب : كان الشياطين يحيطون به كالسلسلة ، في أحد طرفيها كان يُرى الشيطانُ ذو اللِفاع ، مبتكر « الكنيسة» ؛ وفي الطرف الآخر الشيطان ذو المعطف ، مبتكر العلم . كلاهما مد يده وتحرّكت الحلقةُ .

كانوا يحرّكون أذنابهم ، ويدورون حول ابليس ويُتطنطون وقد تعالى ضحكُهم وزعيقُهم وصفيرهم وشخيرهم ، وكان ابليس يرفع قوائمه بحوافرها الهائلة ، ويرقص وحده وسط الدائرة .

فوقهم كان ثمة صراخٌ وبكاءٌ وحشرجات وصرير أسنان .

* * *

اسر حدون ملك آشور
ــ ١٩٠٣ ــ

احتلّ « آسر حدون » (١) ، ملكُ آشور ، مملكة الملك « لحيليا » ، ودمّر وأحرق جميع المدن ، وسبى جميع سكان البلاد ، وذبّح المحاربين ؛ أما الملك « لحيليا » فقد سجنه في قفص :

كان الملك يفكّر ، في الليل ، وهو في سريره ، في وسائل التعذيب الجديدة التي سيُعذب بها « لحيليا ، » عندما سمع صوتاً خفيفاً بجنبه ، ففتح عينيه ورأى شيخاً ذا لحية طويلة بيضاء وعينين وادعتين : سأله الشيخ :

ــ تُريد أن تُعدم « لحيليا » ؟

أجاب الملك :

ــ نعم ، لكني لم أعرف بعدُ بأية طريقة من طرق التعذيب سأُعدمه.

قال الشيخ :

ــ لكنْ ، بما أن « لحيليا » هو أنتَ . : .

ــ هذا غير صحيح ؛ فأنا أنا ؛ ولحيليا لحيليا :

استأنف الشيخ :

---

(١) آسر حدون : ملك آشور من ٦٨٠ الى ٦٦٩ قبل الميلاد .

ـ أنتَ وحيليبا شيءٌ واحد ؛ وإنما يظهر لك أنك لستَ حيليبا ، وأن حيليبا غيرك .

ـ كيف « يظهرُ » لي ! هأنذا مضطجع على سرير وثير ، يحيط بي العبيد الطيّعون ، وغداً سأولم وليمةً ، كما فعلتُ اليوم ، مع أصحابي ، في حين أن « حيليبا » سجينٌ ، مثل عصفور في قفص ، وغداً سوف يُخَوْزَقُ وسوف يتلوّى ، ولسانُه يتدلى ، حتى يهلك ، وسوف يُرمى بجسده إلى الكلاب .

أجاب الشيخ :

ـ ليس في مقدورك إعدام حياته :

ـ وماذا تقول في اربعة عشر ألف محارب أصبحوا جثثاً هامدة؟ أنا أحيا وهم ميّتون . وإذن فأنا أستطيع أن اعدم الحياة .

ـ كيف عرفتَ أنهم لم يعودوا موجودين ؟

ـ عرفت ذلك لأنني لا أراهم : ومن المؤكد أنهم قد عُذبوا وأنا لم أعذّب ؛ وتألّموا وأنا في أحسن حال .

ـ وهذا إنّما يظهر لك أيضاً : أنتَ إنما عذّبتَ نفسك ولم تعذّبهم هم :

قال الملك :

ـ لست أفهمكَ .

ـ أتريدُ أن تفهم ؟

ـ نعم .

قال الشيخ وهو يدلّ الملك على حوض مملوء بالماء :

ـ اقترب مني .

نهض الملكُ واقترب من الحوض :

— اخلع ثيابك وادخل الماءَ

أطاعه « آسر حدون » أضاف الشيخ وهو يملأ إبريقَ ماء :

— والآن ، غطّسْ رأسَكَ حين أبدأ بصبّ الماء عليك :

أمالَ الشيخُ الإبريقَ فوق الملك وغطس الملك رأسه : وعلى الفور لم يعد الملكُ يحسّ أنه « آسر حدون » ؛ بل رأى نفسه رجلاً آخر متمدداً على فراش وثير ، بجنب امرأة رائعة الجمال . إنه لم يرها قط لكنه يعلم أنها زوجته

وتنهض المرأةُ وتقول له :

— يا زوجي العزيز « لحيليا » ، لقد تعبت لكثرة العمل ، فأطلت النومَ ، وراعيتُ راحتك فلم أوقظك : وها إن الأمراء ينتظرونك في القاعة الكبرى ، فالبسْ ثيابك واذهب لاستقبالهم :

وأدرك « آسر حدون » من هذه الكلمات أنه كان « لحيليا » ، فلم يدهش لذلك ؛ بل إنه دهش كيف لم يعلم ذلك حتى الآن : وينهض ، ويرتدي ثيابه ، ويتّجه إلى القاعة الكبرى حيث كان ينتظر الأمراء :

وينحني الأمراءُ أمام ملكهم « لحيليا » حتى يلامسوا الأرض ، ثم ينتصبون ، بناء على إشارة منه ، ويجلسون قبالته : حينئذ وقف أقدمُ الأمراء وبدأ خطبة أبرز فيها عدم إمكان تحمّل الإهانات العديدة التي تصدر عن الملك الشرير « آسر حدون » وضرورةَ شنّ الحرب عليه: لكن « لحيليا» لا يوافق على هذا الرأي ، ويأمر بارسال سفراء إلى « اسر حدون » لتطييب نفسه ، ثم يصرْف الأمراءَ : ويُعيّن السفراءَ من

الأعيان ويزوّدهم بتعليمات مفصّلة حول ما ينبغي أن ينقلوه إلى الملك « آسر حدون »

وبعد أن تُصرّفُ الأعمالُ ، يخرجُ اسر حدون الذي أصبح «لحيليا» إلى الجبل لاصطياد حُمرُ الوحش : ويوفّقُ في صيده إذ يقتل وحده حمارين وحشيين ، ثم يعود إلى القصر ، ويولم الولائم مع أصحابه ، وهم ينظرون إلى العبيد يرقصون .

في اليوم التالي ، يقصد البلاط ، كعادته ، حيث ينتظره أصحابُ الحاجات ، وأصحابُ الدعاوى ، والمتّهمون ، ويُصدر قراراته في القضايااالتي عُرضت عليه.وعند الانتهاء من ذلك يذهب مرةً ثانية إلى الصيدتسليته المفضّلة،وفي هذااليوم يصيد لبوءةمُسنّةً ويقبض على ولديها.

وبعد الصيد ، تبدأ من جديد الاحتفالات والرقصات والموسيقا ، ويقضي الليل مع زوجته المحبوبة .

مرّت أيامٌ وأسابيع على هذا المنوال،في انتظار السفراء الذين ارسلوا إلى « اسرحدون » الذي كانه هو نفسه قديماً . ولم يعد السفراءُ إلا بعد شهر ، وقد قُطعت آذانُهم وأنوفُهم :

وبعث الملكُ« اسرحدون» إلى «لحيليا» يقول له : إن المصير نفسه ينتظره إن لم يرسل على الفور الجزية المفروضة عليه فضة وذهباً وخشباً من خشب السرو ، وإن لم يأت بنفسه ليقدّم واجبات التكريم .

ويجمع « لحيليا » ، الذي كان « آسرحدون » من قبل ، امراءه ويستشيرهم في التدابير التي يجب اتخاذها ، فيقرّرون بالإجماع شنّ الحرب على « آسرحدون » قبل بدء هجومه .

ويأخذ الملكُ بهذا الرأي ، ويمضي إلى الحرب على رأس جيشه : ويستغرق زحفُ الجيش أسبوعاً . وفي كل يوم ، يستعرض الملك جنده ويستثير نخوتهم : وفي اليوم الثامن ، تلتقي كتائبه وكتائب « آسرحدون» في سهل واسع يقطعه نهرٌ .

ويحارب جندُ « لحيليا » بشجاعة ؛ لكن « لحيليا » الذي كان «آسرحدون» من قبل ، يرى الأعداءَ ينحدرون عليه من الجبل كالنمل ، ويغمرون النهر ، ويدحرون جنده ، حينئذ ، يندفع على عربته إلى قلب المعركة طاعناً ومجندلاً أعداءه . لكن محاربي« لحيليا» يُعدون بالمئات ، في حين أن محاربي « آسرحدون » يُعَدّون بالآلاف : وهاهوذا يُجرَحُ ويُحمَلُ أسيراً . ويمشي تسعة أيام ، مقيّداً بين الأسرى الآخرين ، يُحيطُ به محاربو آسرحدون : وفي اليوم العاشر ، يُؤْتى به إلى نينوى ويُحبس في قفص :

ويتألم « لحيليا» من الجوع والجراح أقلّ مما يتألم من الغيظ العاجز . إنه هائج لأنه لم يستطع أن يُنزل بالعدو من الشر مثلما أنزل العدو به. وهولا يَقْدر إلا على شيء واحد ، وهو ألا يُفرح أعداءَه بمرأى آلامه ، فيوطّن النفسَ على أن يتحمّل بشجاعة ، ودون شكوى، كل ما سيُلحقه به أعداؤه من أذى .

ويمرّ عشرون يوماً وهو في قفصه ينتظر التعذيب : ويرى ذويه وأصدقاءه يمرّون ، ويسمع صرخات المعذّبين الذين تُقطّع أيديهم وأرجلهم والذين تُسلَخُ جلودُهم وهم أحياء ؛ لكنه لا يُظهر قلقاً ولا شفقةً ولا خوفاً : ويرى امرأته المفضّلة يسوقها خصيانُ «آسرحدون».

ويعلم أنها ستُصبح أمةً لآسرحدون ، فيتحمّل ذلك دون أن تندّ عنه شكوى .

وإذا بجلاديْن يفتحان القفص ، ويربطان يديه بحبل ويقودانه إلى موضع التعذيب الذي يفيض دماً : ويرى « لحيليا» الخازوق المحدّد الذي رُفعت عنه قبل حين جثةُ أحد أصدقائه ، فيتنبأ بأن الخازوق إنما يُحضَّر لتعذيبه . وتُنزَع ملابسه ،فيهوله نحولُ جسمه الذي كان جميلاً وقوياً من قبل : ويمسك الجلاّدان هذا الجسد بالفخذين الهزيلين ، ويرفعانه ، وينويان رفعه على الخازوق.ويفكّر « لحيليا» « هذا هو الموت والعدم» ، وينسى ما وطّن النفس عليه من شجاعة وهدوء حتى النهاية ، فيُمعن في النحيب ويتضرّع للعفو عنه . وما من مُجيب .

ويفكّر « لكن هذا غيرُ ممكن ، فأنا نائم وما أراه حلم ! » .

ويبذل جهداً كي يستفيق : ويقول في نفسه أيضاً : « أنا لستُ « لحيليا » ، أنا « آسر حدون » :

ويستيقظ فيرى نفسه لا « آسرحدون» ولا « لحيليا» ، بل حيواناً.

ويدهشه أن يكون حيواناً ، ويدهش في الوقت نفسه ألاّ يكون قد علم ذلك حتى الآن :

و ها هو ذا يرعى العشبَ الوفير ، ويطرد الذباب بذيله الطويل ، ويستشعر ثقلاً غريباً في ضروعه المليئة بالحليب :

وبجنبه يثب ويلعب جحشٌ رماديٌّ داكن ، مخطّطُ الظهر ،طويلُ القوائم . ويقفز الجحش نحو الحمارة ، التي كانت آسرحدون من قبل ، ويستقرّ تحت صدر أمه ويبحث عن الضرع بخطمه الصغير ؛ ثم يجده فيرضع ويسكن :

ويفهم آسرحدون أنه حمارةٌ ، أمٌّ لهذا الجحش ، فلا يدهش ولا يحزن لذلك ، بل إنه يفرح ، ويشعر بمشاعر الغبطة لحركة الحياة فيه وفي ابنه .

وفجأة يطير شيء وهو يَصْفق ، فيلطمه في جنبه ويخرق جسده. وحين تحسّ الحمارةُ بالألم ، تنتزع ضرعها من شفتي الصغير ، وتهرب ، وهي مسترخية الأذنين نحو قطيع الحمير الذي انفصلت عنه : وينطنط الجحش بقربها : إنه يمضي ليلتحق بالقطيع ، وإذا بسهم يغوص في عنقه ويتأرجح فيه . فيئنّ ويسقط على ركبتيه . وتقف الحمارةُ ، التي كانت آسرحدون قديماً ، لكـــي لا تترك ابنها ، لكن إذا بكائن رهيب ذي ساقين يُهْرَع ، ويقطع عنق الجحش :

ويفكرّ « آسرحدون » الذي يبذل أقصى جهد ليستيقظ : « هذا غير ممكن ، هذا حلم أيضاً » :

ويصرخ ، وفي اللحظة نفسها ، يُخرج رأسه من الحوض ، ويرى بجنبه الشيخَ يصبّ الماء على رأسه من لابريق :

ويهتف آسر حدون :

ـــ أوه ! ما أشدّ ما تألمتُ ! واستمرّ ذلك زمناً طويلاً .

قال الشيخ :

ـــ قلتَ : « زمناً طويلاً » ؟ إنك لم تكد تغطّس رأسك حتى سحبته : انظرْ إلى الابريق فهو لم يفرغ بعد : : هل فهمت الآن ؟

وتابع الشيخ :

ـــ هل فهمتَ الآن . أن « لحيليا » هو أنت ، وأن المحاربين الذين قتلتَهم هم أنت أيضاً ؛ بل إن الحيوانات التي كنتَ تقتلها في الصيد

وتلتهمها في ولائمك هي أنت أيضاً ،لاالمحاربين وحدهم . كنت تظن أن الحياة فيكَ أنتَ فقط ، لكني نزعتُ عن عينيك حجابَ الكذب ، وقد تبيّنتَ أنك عندما تسيء إلى الآخرين فانما تسيءُ إلى نفسك : الحياةُ واحدةٌ في كل شيء ، وأنتَ لا تحتوي إلا على جزء صغير منها . وبهذا الجزء الصغير الذي فيك ، يمكنكَ أن تحسّنَ الحياةَ أو تفسدها ، وتريدها أو تُنقصها : يمكنك أن تحسّن الحياة إذا ألغيتَ فقط الحواجز التي تفصل بين حياتك وحياة الكائنات الحيّة الأخرى ، إذا أحببتها ، إذا اعتبرتها ذاتك الأخرى ، أما إعدام حياة الآخرين ، فليس في مقدورك. إن حياة الكائنات التي قتلتها توارتْ عن عينيك ، لكنها لم تعدم. لقد ظننتَ أنك تطيل حياتك وتختصر حياةَ الآخرين وذلك ليس في مقدورك أيضاً . إذ ليس للحياة زمان ومكان: فالتي تمتد ثانية كالتي تمتد ألفَ سنة ، وحياتُك وحياة جميع كائنات العالم المرئي أو غير المرئي ،لها القيمةُ نفسُها . والحياة لا يمكن إلغاؤها ولا تحويلها، لأنها هي وحدها موجودة : . وكل ما سواها ليس إلا مظهراً .

عند هذه الكلمات ، اختفى الشيخ .

في اليوم التالي ، أمر الملك «آسرحدون» باطلاق سراح «لحيليا» ، وكذلك سراح جميع السجناء ، كماأمر بايقاف جميع الاعدامات.

في اليوم الثالث ، دعا ابنه «آشور بانيبال» ونقلَ اليه سلطته الملكية. وبعد ذلك اعتزل في الصحراء ليتأمّل قبل كل شيء فيما تعلّمه .وفيما بعد ، طاف المدنَ والقرى حاجاً ، يعلّم الناس ان الحياةواحدةٌ ، وانهم لا يسيئون إلا إلى أنفسهم وهم يريدون أن يسيئوا إلى الآخرين.

العمل والموت والمرض
- ١٩٠٣ -

تنتشر بين هنود أمريكا الجنوبية الأسطورةُ التالية : يقولون: إن الله خلق الناسَ بحيث لا يتوجّب عليهم العملُ ؛ فلم يكونوا بحاجة إلى اللباس ولا إلى المسكن ولا إلى الغذاء ، وكانوا جميعاً يعيشون حتى مئة عام دون أن يعرفوا المرض

مرّ زمنٌ ، وعندما نظر الله كيف كان يعيش الناس رأى أنهم ، بدلاً من أن يفرحوا بالحياة كان كلٌّ منهم لا يهتمّ إلا بنفسه ، وكانوا يتخاصمون ، وسارت أمورهم بحيث أنهم لم يفقدوا السرور بالحياة فحسب ، وإنما كانوا يلعنونها :

حينئذ قال الله : « ذلك لأن كل واحد يعيش لنفسه » . ولكي يمنعهم اللهُ من ذلك ، عملَ بحيث كان مستحيلاً على الناس أن يعيشوا دون أن يعملوا ؛ ولكي لا يتألموا من الجوع والبرد ، اضطروا أن يتغطّوا بالثياب ، ويحرثوا الأرض ، ويزرعوا ويجنوا الثمار والحبوب :

فكر اللهُ : العمل سيوحّدهم . فمن المستحيل على واحد وحده أن يقطع وينقل الجسور ، وأن يبني المساكن ؛ ومن المستحيل على واحد وحده أن يصنع أدوات العمل ، ويبذر ويجني وينسج ويخيط الثياب : ومن

السهل أن يفهموا أنهم كلما كثر عددُهم وهم يعملون معاً ، ازداد ما يصنعونه ؛ وسهلت عليهم الحياة ، وازدادوا اتحاداً .

ومضى وقتٌ أيضاً : ونظر الله مجدّداً كيف كان يعيش الناس. كان الناس يعيشون عيشةً أسوأ من ذي قبل . كانوا يعملون جماعياً (ما كان يمكنهم أن يفعلوا غير ذلك) ، لكنهم لم يكونوا كلهم معاً : كانوا ينقسمون إلى جماعات صغيرة ، وكانت كل جماعة تسعى إلى انتزاع العمل من الجماعة الأخرى ، وكان كل واحد يمنع الآخر من استخدام وقته وقوته في الصراع ، وكان ذلك شراً بالنسبة إلى الجميع . ورأى الله أن هذا غيرُ حسن فعزَمَ أن يَدَعَ الناس جاهلين بساعة موتهم بحيث يمكن أن يموتوا في أية لحظة : وأعلن لهم :

عندما يعلمون أن كلَّ واحد يمكن أن يموت في أية لحظة فلن يتغاضبوا بعد ذلك بسبب هموم الحياة التي قد تنتهي بين ثانية وأخرى؛ ولن يفسدوا بعد ذلك ساعات الحياة التي قُدِّرت لهم

لكن الأمر كان غير ذلك ، فعندما التفتَ اللهُ ليرى كيف كان يعيش الناس تبيّن له أن حياتهم لم تتحسّن :

لقد استغلّ الأقوياء أن الناس يمكن أن يموتوا في أية لحظة، فاستعبدوا الضعفاء ، قتلوا بعضاً منهم ، وهدّدوا الآخرين بالموت : ونجم عن ذلك أن الأقوياء وورثتهم لم يكونوا يعملون على الإطلاق ، وكانوا يتضجّرون في فراغهم ، وأن الضعفاء كانوا يعملون فوق قدراتهم ويتضجّرون لأنهم لا يجدون راحةً. وكان هؤلاء وأولئك يخشى بعضُهم بعضاً ، ويكره بعضُهم بعضاً : وغدت حياةُ الناس أشد تعساً .

رأى الله ذلك ، فقرّر أن يستخدم آخر وسيلة ، لمعالجة ما رأى : أرسل على الناس أمراضاً من كل صنف .

فكّر اللهُ أن الناس إذا كانوا جميعاً معرّضين للأمراض فسوف يدركون أن على الأقوياء أن يشفقوا على المرضى وأن يواسوهم ، لكي يهبّ الضعفاء بدورهم ، إلى إسعافهم إذا حلّ بهم المرضُ .

ومرةً أخرى ، ترك الله الناس وشأنهم . لكنه عندما التفت ليرى كيف أصبحوا يعيشون بعد أن خضعوا للأمراض ، لاحظ أن حياتهم غدت أسوأ . فهذه الأمراض التي كان ينبغي لها ، في فكر الله ، أن توحّد بين الناس ، زادتْهم فُرقةً . فالناس الذين كانوا يجبرون الآخرين بالقوة على العمل ، أجبروهم أيضاً بالقوة على العناية بهم أثناء المرض ، ومن ثمّ فلم يكونوا هم أنفسهم يعتنون بالمرضى . والذين كانوا يُكرَهون على العمل للسيّد ، والسهر على المرضى ، أرهقهم العملُ كثيراً بحيث لم يكونوا يجدون وقتاً للعناية بمرضاهم أنفسهم وكانوا يتركونهم دون إسعاف .

ولكي لا يحول المرضى دون مباهج الأغنياء ، أُدخلوا بيوتاً يتألمون ويموتون فيها دون أن يُعنى بهم ويواسيهم أقرباؤهم ، بين أيدي أشخاصٍ مُستأجرين ، بلا عطفٍ ، بل باشمئزاز . وفضلاً عن ذلك ، فعندما سلّم الناسُ بأن معظم الأمراض مُعديةٌ ، لم يكفّوا فقط عن الاقتراب من المرضى ، خوفاً من العدوى ، بل أنهم أخذوا يبتعدون عن الذين كانوا يعتنون بهم .

حينئذٍ قال الله في نفسه : « إذا لم يُمكنْ حمْل الناس على فهم قوام سعادتهم بهذه الوسيلة ، فلْيتدبّروا أمرهم مع آلامهم ! » وترك اللهُ الناس .

وحين ظلّ الناسُ وحدهم ، عاشوا زمناً طويلاً دون أن يفهموا ما يلزمهم ليكونوا سعداء .

في الأزمنة الأخيرة فقط ، بدأ بعض الناس يفهمون أن العمل لا ينبغي أن يكون فزّاعةً لتخويف البعض وعملاً إجبارياً بالنسبة إلى الآخرين ، لكن ينبغي أن يكون عملاً جماعياً ، ساراً يوحّد بين الناس. وبدؤوا يفهمون ، وهم في مواجهة الموت الذي يتهدّد كلّ واحد بين لحظةٍ وأخرى ، أن العمل الوحيد المعقول لكل إنسان يقوم على أن يقضي السنين او الشهور والساعات أو الدقائق المقدّرة له ، في الوفاق والمحبّة. بدؤوا يفهمون أن الأمراض لا ينبغي أن تكون سبباً للفرقة بين الناس ، بل ، على العكس ، سبباً للاتّحاد والمحبة بينهم .

* * *

ثــلاث مسائل
(١٩٠٣)

فكّر أحدُ الملوك ، ذات مرة ، أنه لو كان يعلم اللحظة الّتي يجب أن يبدأ فيها كلّ عمل ، ولو كان يعلم مع أي الناس يجب أن يعمل ، ومع أيهم لا يجب أن يعمل ، وقبل كل شيء لو كان يعلم دائماً أي الأعمال أعظم أهمية ، إذن لما لقي المتاعبَ أبداً . وبعد أن فكّر الملكُ أعلمَ الناسَ في المملكة بأسرها أنه سيمنح مكافأةً عظيمةً مَنْ يُنبئه كيف يعرف الوقتَ المناسب لكل عمل ، ومَن هم الأشخاص الأشد ضرورة ، وكيف لا يُخطىء في اختيار أهم الأعمال جميعاً .

أخذ العلماءُ يتوافدون للإجابة عن هذه المسائل المختلفة .

وجواباً عن المسألة الأولى قال بعضُهم إنه لكي نعرف الزمن المناسب لكل عمل يجب أن نرسم مسبقاً توزيع الزمن في الشهر ، وفي السنة. وأن نسير عليه بدقة . وحينئذٍ فقط نعمل كلَّ شيء في زمنه . وقال آخرون : إننا لا يمكن أن نقرّر ما الشيء الذي يجب أن نفعله في هذا الوقت أو ذاك ، ولكن يجب ألا ننسى أنفسنا في لهوٍ عقيم ، وأن نكون متيّقظين لما يحدث ؛ وحينئذ يجب أن نفعل ما تقتضيه اللحظة . وقالت فئة ثالثةٌ مهما يكن الملكُ متيقظاً لما يحدث فان رجلاً واحداً لا يمكن أن

يقرر تقريراً أكيداً في أية لحظة يجب أن يفعل هذا الشيء أو ذاك ، وأنه لا بد من استشارة الحكماء ، وبحسبها نرى ما يجب فعله ، وفي أي زمان. وقالت فئةٌ رابعة : إن هناك أعمالاً لا يتسنى لنا فيها أن نستشير الحكماء، بل يجب البتّ على الفور إن كانت اللحظةُ مناسبةً أم لا للبدء فيها . ولمعرفة ذلك ، يجب أن نعرف مُسبقاً ماذا سيحدث ؛ ومثل هذا لا يعرفه غيرُ السَحَرة وحدهم . بحيث أننا إذا شئنا أن نعرف الوقتَ المناسب لكل عملٍ وجَبَ أن نسأل السَحَرة .

أما الأجوبة عن المسألة الثانية فكانت متنوعّة أيضاً . قال بعضُهم أن أشد الناس ضرورة للملوك هم مساعدوه في الحكومة . وقال آخرون إنهم الكهنة ؛ وقال فريقٌ ثالث : إنهم الأطباء ؛ وقال فريق رابع : بل هم الجنود .

أما المسألة الثالثة : ما أهم عمل في العالم ؟ فقد أجاب بعضُهم بأنه العلم ؛ وأجاب آخرون بأنه الفن العسكري ؛ وقال فريقٌ ثالث : عبادة الرب .

ونظراً لتعدد الأجوبة ، لم يرضَ الملك عن واحد منها ولم يكافىء أحداً ؛ ولكي يحصل على جواب أكيدٍ عن هذه المسائل ، قرّر أن يذهب ويسأل ناسكاً مشهوراً بحكمته .

كان هذا الناسك يعيش في الغابة ولا يخرج على الاطلاق ، ولا يستقبل إلا الناس البسطاء . ولذلك ارتدى الملكُ ملابس فقيرة ، ونزل عن حصانه، قبـــل أن يصل هو وحاشيته صومعة الناسك ، وتوجّه سيراً على قدميه .

عندما دنا الملكُ من الناسك ، كان الناسكُ أمام صومعته يقلب كتلةً ترابية وعندما شاهد الملك حيّاه وما لبث أن استأنف حفره .

كان الناسك هزيلاً وضعيفا . غرز رفشه في التراب ، وبعد أن قلب كومةَ التراب الصغيرة ، تنهّد تنهُداً ثقيلاً . اقترب الملكُ منه وقال له :

— أتيتُكَ ، أيها الناسك الحكيم ، طالباً الجوابَ عن ثلاث مسائل : ما الوقتُ الذي تجب معرفتُه لكي لا يفوتنا ونندم بعد ذلك ؟ من هم الأشخاص الأكثر ضرورة والذين يجب أن نعمل معهم أكثر من غيرهم ، والذين يجب أن نعمل معهم أقل من غيرهم ؟ وما هي أهم الأعمال ، ومن ثم أيّ الأعمال يجب أن نفعله قبل غيره ؟

أصغى الناسك إلى الملك ولم يجب . بصقَ في يديه واستأنف حفره. قال الملكُ :

— أنت مُتعبٌ . أعطني الرفشَ وسأشتغل عنك .

قال الناسك :

— شكراً لك .

وأعطاه الرفش وجلس أرضاً .

بعد أن قلبَ الملك كتلتين توقّف وكرّر أسئلته . لم يجب الناسكُ ، ونهض ، ومدّ يده إلى الرفش ، وقال :

— استرحْ الآن وسأشتغل أنا :

لكن الملك لم يعطه الرفش وظلّ يحفر. مرّتْ ساعةٌ بعد أخرى . وأخذت الشمسُ تغيب خلف الأشجار . غرز الملكُ رفشه في التراب ،

وقال :

– جئتك ، أيها الرجلُ الحكيم ، طالباً الجواب عن أسئلتي . وإذا كنت لا تستطيع إجابتي فقلْ لي وسأنصرف .

قال الناسك :

– انتظره ، انظرْ ، أرى شخصاً يركض ، انظرْ مَنْ هو .

التفت الملكُ ورأى ، في الواقع ، رجلاً ملتحياً يركض في الغابة . كان الرجل يضعُ يديه على صدره ؛ وكان الدم يسيل من تحت يديه . وعندما وصل الرجلُ الملتحي إلى قربه سقط أرضاً ، وظلّ بلا حراك ، يئن أنيناً ضعيفاً . فكّ الملكُ بمساعدة الناسك ثيابَ هذا الرجل .

كان في صدره جرحٌ واسع : غسل الملكُ الجرحَ بمنديله ومنشفةٍ ، وضمّده الناسك . لكن الدم ما انفك ينزف . وبدّل الملك عدّة مرات الضماد المبلل بالدم الساخن . وعندما توقّف الدم ، صحا الجريح من إغماءته وطلب ماءً ، فحمل إليه الملكُ ماءً بارداً وسقاه . بيد أن الشمس توارت وانتشرت البرودة ، ولذلك نقلَ الملكُ بمساعدة الناسك الرجلَ الملتحي إلى الصومعة ، وأضجعاه على فراش الناسك . وهناك أغمض الجريح عينيه وبدا أنه ينام .

كان الملك متعباً جداً من السير والعمل ، حتى إنه نام أيضاً ، وهو جالسٌ في عتبة الصومعة ، نوماً عميقاً استغرق ليلة الصيف القصيرة كلها . وعندما استيقظ في الصباح ، ظلّ زمناً لم يستطع أن يفهم فيه أين كان ، ومَنْ كان هذا الرجل الغريب الملتحي الذي كان مضطجعاً على السرير يحدّق فيه بعينيه اللامعتين .

قال الرجل الملتحي بصوت ضعيف . عندما رأى الملك مستيقظاً ينظر إليه :

— سامحني .

قال الملك :

— لست اعرفك ، وليس لي ان اسامحك .

— انت لا تعرفني ، اما انا فأعرفك . انا عدوّك الذي أقسم ان ينتقم منك لأنك اخي الذي سلبني املاكي . . وعندما علمت انك آتٍ وحدك إلى صومعة الناسك ، صمّمت أن أقتلك . أردت أن أهاجمك عند عودتك ، لكن النهار كله انقضى ولم أرك . حينئذ خرجت من مكمني لأعلم أين صرتَ ، فوقعت بين أيدي أصحابك ، فعرفوني وجرحوني . . وهربت ودمي يسيل ، ولولا أنك ضمّدت جرحي لمتُّ . أردت قتلك فأنقذت حياتي . وإذا ما بقيت حيّاً الآن فسوف أخدمُكَ ، إن شئتَ ، كالعبد الأمين ، وسوف آمر أبنائي أن يفعلوا مثلما فعلتُ . سامحْني .

كان الملكُ سعيداً جداً لأنه تصالح مع عدوّه بهذه السهولة ، وأنه جعلَ منه صديقاً . لم يغفرْ له فحسب . بل إنه وعدَه باعادة أملاكه إليه ، وبأنه سيرسل مَنْ يُحضر خدمه وطبيبه .

وبعد أن ودّع الملكُ الجريحَ ، خرج يبحث عن الناسك . لقد أراد أن يسأله لآخر مرة ، قبل أن يغادر ، الإجابة عن الأسئلة التي طرحها عليه .

كان الناسك في الفناء ، يزرع الخضراوات وهو مقرفصٌ قرب الكتلة التي قلبها أمس .

دنا الملك منه وقال له .

— أسألك للمرة الأخيرة ، أيها الرجل الحكيم ، أن تجيب عن أسئلتي

قال الناسك وهو يجلس على ربلتيْ ساقيه الهزيلتين وينقّل بصره في الملك الذي كان أمامه ، من فوق إلى تحت .

— لقد حصلتَ على الجواب .

— كيف ، حصلتُ على الجواب ؟

اجاب الناسك .

— بكل تأكيد ! فلو انك لم تشفق امس على ضعفي ، ولم تحرّك هذه الكتلة عني ، ولو انك عدتَ وحدك ، لهاجمك عدوُّك ولندمتَ على انك لم تبقَ معي . واذن فالوقتُ المناسبُ اكثر من غيره كان اثناء شغلك في تلك الكتلة الترابية ، وكنتُ انا الإنسان الأهم ، وكان العملُ الأهمّ صنعَ الخير لي . وبعد ذلك ، وعندما جاء الرجل مسرعاً كان الوقت المناسب اكثر من غيره عندما عالجتَه ، فلو لم تضمّد جراحه لمات دون ان يُصالحك ، وإذن فالرجل الأهم كان هذا الرجل ، وما عملتَه العملَ الأهم . ولذلك تذكّر ان الوقت المناسب اكثر من غيره هو الزمن الراهن ، وهو الأهم لأننا فيه وحده نكون مالكي انفسنا ؛ واعظم الناس ضرورة هو الذي نلتقيه في هذه اللحظة ، والعمل الأهم هو ان نصنع الخير له .

* * *

« كورني فاسيلييف »
— ١٩٠٥ —

— ١ —

كان عمر « كورني فاسيلييف » عندما عـــاد إلى القرية ، اخر مرة ، أربعة وخمسين عاماً . لم تكن تُرى في شعره الكث ، الجعد ، شعرة بيضاء واحدة ؛ لحيته السوداء وحدها أخذ يدب فيها الشيب قرب الوجنتين. كان وجهه مستوياً ، أحمـــر ، وقذاله عريضاً وقوياً ؛ وقد سمن جسمه القوي بالحياة الوافرة في المدينة .

قبل عشرين سنة ، عندما انتهى من خدمته العسكرية ، عاد ومعه مال . فتح اول الأمر حانوتاً ثم تركها ليصبح تاجر مواشٍ . كان يذهب إلى « تشير كاسي » (١) ليأتي منها بالماشية التي يبيعها في موسكو .

في بلدة « غاي » ، في بيته الحجري الذي سقفه من صفائح الحديد ، كانت تعيش امه وزوجته وولدان (صبي وبنت) ، وكذلك ابن اخيه ، وهو يتيم اخرس ، ابن خمسة عشر عاماً ، وخادم .

تزوج « كورني » مرتين . وماتت زوجته الأولى التي كانت ضعيفة وسقيمة ، دون ان تخلّف اولاداً . فتزوج ، وهو ارمل ومسن ، من

(١) تشير كاسي : مدينة في مقاطعة كييف ، كان فيها سوق للماشية .

فتاة قويّة وجميلة ، ابنة ارملة فقيرة ، من قرية مجاورة . والولدان من هذه المرأة الثانية.

كان « كورني » قد باع بالربح بضاعته الأخيرة في موسكو حتى غدا مالكاً لنحو ثلاثة آلاف روبل . وإذ علم من احد ابناء بلدته ان غابة غير بعيدة عن قريته ، هي غابة ملاّك مفلس ، ستُباع بسعر رخيص ، صمّم ان يشتغل بالإخشاب . وكان على علمٍ بهذه التجارة ، قبل خدمته العسكرية ، لأنه كان قد اشتغل لدى مدير تاجر أخشاب .

في محطة السكة الحديدية التي تؤمن المواصلات للبلدة ، صادف كورني رجلاً من بلدته ، هو الفلاح « كوزما » الأعور . وكان شُغل « كوزما » ينحصر في المجيء إلى غاي ، عند كل قطار ، لنقل المسافرين بحصانيه الخشني الشعر . كان « كوزما» فقيراً ، ولذلك لم يكن يحب الأغنياء . ولم يكن يحب « كورني » الذي دعاه : « كورنوشكا».

خرج « كورني » إلى درج مدخل المحطة ، في معطف من جلد الخروف ، وبيده كيسٌ ، ووقف ، وقد برز بطنُه ، يلهث وينظر حوله . كان ذلك صباحاً ، والجوّ لطيف ومكفهرّ ، مع شيء من الصقيع . قال لكوزما :

— مالَكَ ، عم كوزما ! ألم تجد مسافرين ؟ أتريد أن توصلني ؟

— لمَ لا ! أعطني روبلاً وسأوصلكَ .

— ماذا ؟ سبعون كوبيكاً كافية.

— سمّنْتَ بطنك وجئتَ تساوم رجلاً مسكيناً . على ثلاثين كوبيكاً

قال كورني :

– طيّب ، طيّب . موافق .

ووضعَ كيسه وسفطاً صغيراً في الزلاّجة الصغيرة ، وجلس في مقعد الصدر .

واستقرّ كوزما في المقدّمة .

– هيّا ! سرْ !

تركت العربة المحطة وأخذت الطريق المرصوف

سأله كورني :

– ما الجديد ، عندكم ، في القرية ؟

– لا جديد حَسَناً يُذكر

– كيف ! والعجوز أما تزال حيّة ؟

– العجوز حيّة . كانت منذ مدّة في الكنيسة . العجوز حيّة وكذلك امرأتك ؛ وهي ليست سيّئة الحال . لقد شغّلت خادماً جديداً .

ضحك « كوزما » وبدا ضحكه غريباً ، فقال كورني :

– أي خادم ؟ بطرس ؟

قال كوزما :

– بطرس مريض . عيّنتْ « اوستينيي الأبيض » ، وهو من قرية « كامنكا » .

قال « كورني » :

– كيف ؟

عندما طلب « كورني » يد « مارفا» ، ثرثرت النساء كثيراً بصدد شاب يُدعى « اوستينيي » .

قال كوزما :

— الأمر هكذا ، يا كورني فاسيلييف . نساء اليوم لا يفعلن إلا ما يحلو لهن .

قال كورني .

وما العمل !

وأردف ليغيّر الحديث :

— بدا الكبرُ على فرسك .

أجاب كوزما وهو يسوط الحصانَ الخصيَّ ذا الساقين الملتويتين :

— وأناأيضاً لم أعدْ شاباً . الحصانُ مثل صاحبه .

كان في منتصف الطريق نُزُلٌ . أمر كورني بالوقوف ودخله . عطف كوزما حصانه نحو المعلف الفارغ ، وأصلح عدّته ، ولم يلتفت إلى كورني ، آملاً أن يقدم له كورني كأساً .

قال كورني وهو يخرج إلى درج المدخل :

— عمّ كوزما ، تعال خُذْ كأساً صغيرة .

تظاهر كوزما بعدم الاستعجال ، وقال :

— ايه ..! ماذا ؟

طلب كورني ماءَ الحياة ، ودعا « كوزما » . ومالبث كوزما أن ثمِلَ لأنه لم يتناول طعاماً منذ الصباح ، واقترب من كورني ، وأخذ يروي له « القيل والقال » في القرية . كان يُقال في القرية أن مارفا ، زوجته اتخذت عشيقها القديم خادماً لها ، وهي تعيش معه .

قال كوزما وقد انتشى :

ـ بالنسبة إلي ، أنت الذي أرثي له ، لكن هذا غيرُ حسنٍ . فالناس يهزؤون . لاشك أنهم لا يخافون الخطيئة . . . قلتُ : حسناً ! انتظروا ، سيأتي بنفسه . . . هذا ما كان ، يا عزيزي كورني فاسيليفتش.

كان كورني يصغي بصمتٍ إلى ما يقوله كوزما ، وكان حاجباه الكثّان ينخفضان شيئاً فشيئاً على عينيه اللامعتين ، السوداوين كالفحم. قال عندما فرغت القنّينة .

ـ ماذا ؟ أتريد مزيداً ؟ لا ؟ فلنذهبْ إذن .

دفع ثمن الشراب وخرج إلى الطريق .

وصل إلى بيته عند حلول الظلام . كان أول شخص لقيه هو « اوستينيي الأبيض » نفسه الذي لم يستطع الامتناع عن التفكير فيه طوال الطريق . سلّم كورني عليه . وعندما رأى « اوستينيي » بوجهه النحيف ، الشاحب ، الأشقر ، وهو يُهرع إليه ، هزّ رأسه فقط بدهشة . وفكّر :

ـ كذب عليّ ذلك الكلبُ الهرم ؟ لكنْ مَنْ يعلمُ . . . وسأرى الآن .

كان كوزما واقفاً قرب حصانيه ينظر خلسة بعينه الوحيدة إلى « اوستينيي» .

سأله كورني :

ـ إذن أنت تعيش عندنا . ؟

أجاب « اوستينيي » :

ـ وماذا أصنعْ ! لابدّ من العمل في مكان ما .

ـ هل الغرفةُ مُدفّأةٌ ؟

أجاب « اوستينيي » :

— كيف لا ؟ إن مازفا ماتضيفنا فيها .

صعد « كورني » الدرج . خرجت مارفا ، عند سماعها الأصوات في البهو . وعندما رأت زوجها احمرّ وجهها وبادرت إلى لقائه بحنان خاص ، وقالت :

— يئسنا من انتظارك أنا والأم .

وتبعتْ كورني إلى الغرفة

— حسناً ! وكيف عشتما دوني ؟

— كعادتنا دائماً .

وإذ حملت بين يديها البنت الصغيرة التي كانت تشدّها من تنورتها طالبة الرضاع ، خرجت بخطاً واسعة وواثقة إلى البهو .

دخلت الغرفة أم كورني بعينيها السوداوين ، وهي تجرّ رجليها في مشّايتيهما ، وقالت وهي تهزّ رأسها :

— شكراً لأنك جئت لرؤيتنا .

روى كورني لأمه عمّا جاء به ، وتذكّر كوزما ، فخرج ليدفع له أجرته . وعندما فتح بابَ البهو ، رأى قبالته ، قرب البـــاب مارفا واوستينيي . كانا يقفان أحدهما بجنب الآخر : كانت تقول له شيئاً ما. لاحظ « اوستينيي » « كورني » فانسلّ إلى الفناء ، واقتربت مارفا من السماور وسوّت أنبوبه الذي أخذ يصفر .

مرّ كورني صامتاً أمام ظهرها المحنيّ ، وبعد أن أخذ كيسه ، دعا كوزما لتناول الشاي في الغرفة .

قبل تناول الشاي ، وزّع كورني على ذويه الهدايا التي حملها من موسكو : أعطى أمه شالاً صوفياً ؛ وأعطى فيدكا كتاباً مصوّراً ؛

وأعطى ابنَ أخيه الأخرس صدرةً ؛ وأعطى امرأته حريراً هندياً لتصنع فستاناً :

ظلّ كورني ، أثناء تناول الشاي ، جالساً مقطّب الحاجبين ، صامتاً ، مبتسماً من أطراف شفتيه بين الحين والآخر وهو يرى الأخرس الذي كان يُبهج الحاضرين بفرحه. كان لا يملك نفسه من الفرح بصدرته : كان يطويها ويبسطها دون انقطاع ، ويجرّبها ، ويبعث بقبلاته إلى كورني ويضحك .

ما ان تناولوا الشاي والعشاء حتى أوى كورني إلى الغرفة التي ينام فيها مع مارفا وابنتهما .

ظلت مارفا في الغرفة الكبيرة ترتّب الصحون . جلس كورني وحده ، أمام الطاولة ، واتّكأ بمرفقه عليها ، وانتظر . كان الغضبُ الذي يشعر به نحو امرأته يغلي فيه شيئاً فشيئاً . انزل عن الجدار عدّادة معلّقة عليه ، وأخرج من جيبه مفكرةً ، وأخذ يراجع حساباته . كان يحسب وهو ينظر إلى الباب بين الفينة والفينة ، ويُصغي إلى حركات الجيئة والذهاب في الغرفة الكبرى. وسمع باب المنزل الخشي يُفتح عدة مرات ، وعبّر أحدُهم البهو ، لكنه لم يكن مارفا : وأخيراً تعرف خطواتها ، وتحرّك البابُ ، وانفتح ، ودخلتْ متوردةً ، جميلةً ، وعلى كتفيها خمارٌ أحمر ، وبين ذراعيها طفلتُها الصغيرة .

قالت وهي تبتسم ، وكأنها لم تلاحظ تجهّم وجهه :

— أنتَ متُعبٌ بعد السفر ؟

نظر كورني إليها دون أن يجيب وأخذ يحسب مع أنه لم يبق لديه ما يحسبه .

قالت وهي تضع الطفلة على الأرض ، وتذهب إلى ما وراء الحاجز: وسمعها وهي ترتّب سرير الطفلة وتنوّمها :

— الوقتُ تأخّر .

عادت إلى رأسة كلمات كوزما ، « الناسُ يهزؤون » . وفكّر ، « انتظري قليلاً ! » تنفّس بمشقة ، ونهض بحركة بطيئة ، ووضع قلمه الصغير في جيب صدرته ، وعلّق العدّادة بالمسمار ، واقترب من المخْدع

كانت واقفةً تصلّي ، ووجهها إلى الايقونات : توقّف وانتظر: رسمتْ علامة الصليب طويلاً ، وتلتْ صلواتها همساً.

بدا له أنها تلت جميعَ صلواتها منذ زمن طويل ، وأنها تعيدها عمداً: لكنها انحنت في آخر الأمر حتى لامست الأرض ، وانتصبت وهمست ببضع دعوات ، وأدارت وجهها نحوه : قالت وهي تشير إلى الطفلة،

— لقد نامت صغيرتُنا « أغافيا » .

ثم جلست مبتسمةً على السرير الذي كان يصرّ .

قال « كورني » الذي دخل المخدع ،

— هل « اوستينيي » في البيت منذ زمن بعيد؟

ردّت بحركة هادئة ، إحدى جدائلها الضخمة إلى صدرها ، وأخذت تحلّها بحركة سريعة من أصابعها . كانت تنظر إليه في وجهه، وعيناها تضحكان .

— « اوستينيي » ؟ لا أدري ، من نحو ثلاثة أسابيع .

قال كورني ،

– وهل تعيشين معه ؟

أرخت جديلتها ، لكنها ما لبثت أن قبضت على شعرها القاسي الكثيف وأخذت تجدله . وقالت ، وهي تلفظ اسم « اوستينيي » بلهجة خاصة :

– ما الذي تختلقه ؟ أنا أعيش مع « اوستينيي » ! افتراءات ! مَنْ قال لك ذلك ؟

قال كورني وهو يشد على قبضتيه في جيبيه :

– تكلّمي ! هل هذا صحيح أم لا ؟

– كفى حماقات ! أتريد أن أنزع لك جرمتك ؟

قال :

– أجيبي عمّا سألتِك عنه !

قالت :

– « اوستينيي » ، ياله من كنز ! ومن روى لك هذه الأكاذيب ؟

– ماذا كنتِ تقولين له في البهو ؟

– ماذا كنت أقول له ؟ قلتُ له أن من اللازم وضع حلقة جديدة للبرميل . لكن ماذا تُريد مني ؟

أريد أن تقولي الحقيقة . سأقتلكِ ، يا عاهرة !

وأمسك بها من جديلتها . فسحبتها من يديه ، وقد تشنّج وجهُها من الألم .

– أنتَ لا تَصْلح إلا للضرب ! ما الشيء السار الذي لقيتُه منك؟ لا ادري ما جدوى مثل هذة الحياة . . .

صرخ وهو يتقدم نحوها :

— ما جدواها ؟

— لماذا نتفتَ نصفَ جديلتي . ها إن شعري يسقط خُصلاً . ماذا تريد مني ؟ صحيحٌ أن . . .

لم تُنه كلامها . لقد أمسك بها من ذراعها ، وانتزعها من سريرها ، واخذ يضربها على اضلاعها وصدرها .

كان كلما ضربها احتدم الغضب فيه . كانت تصرخ ، وتتخبّط ، وتحاول الهرب ، لكنه لم يتركها .

ارتمت الطفلة التي استيقظت على امها وهي تزعق :

— ماما ، ماما !

امسك كورني الطفلة من ذراعها ، وفصلها عن امها ، ورماها في ركن كما يُرمى هرٌّ صغير . فأطلقت الطفلةُ صرخاتٍ حادة ، ثم لم يُسْمع صوتُها خلال ثوانٍ .

صاحت مارفا وهي تنوي الذهاب نحوها :

— قتلتَها ! يا لص !

لكنه امسكها من جديد ، وضربها ضرباً قوياً على صدرها حتى سقطت وكفّت عن صراخها .

كانت الطفلةُ وحدها تصرخ بكل قواها .

دخلت المخدعَ الأمُّ العجوزُ بلا شالٍ ، وشعرها الأبيض مشعّث ، ورأسها يهتزّ ، وجسمها يترنّح .

دنتْ من الطفلة التي كانت تطلق صرخات حزينة ، يائسة ، وأسكتتها وذلك دون أن تنظر إلى كورني ومارفا .

كان كورني واقفاً يتنفّس تنفساً ثقيلاً وينظر حوله . وكأنه قد استيقظ قبل حين ، ولم يدر أين هو ولا ما يجري .

رفعت « مارفا » رأسها ، وهي تئنّ ، وتمسح بقميصها وجهَها المدمّى . وقالت بسرعة :

— نعم . يا ملعون ! يا لص ! أنا أعيش مع « أوستينيي » ، وقد عشتُ معه فيما مضى ! واعلمْ أن « أغافيا » ليست منك ؛ إنها ابنته.

ورفعت ذراعها لتخبّىء بها وجهها تحاشياً للضربات التي كانت تنتظرها .

لكن « كورني » همهم ، ونظر نظرة دائرية ، وكأنه لم يفهم .

قالت العجوزُ وهي تُريه ذراع الطفلة المتدلّية وهي ما تزال تصرخ :

— انظرْ ماذا فعلتَ بالصغيرة ؛ خلعتَ لها يدها .

استدار كورني وخرج عبر البهو إلى درج المدخل .

ظل الجوّ كما كان مكفهراً وبارداً . وكانت شذاراتٌ من الجليد تسقط على وجنتيه وجبهته اللاهبة . جلس على درجة وقضم الثلجَ الذي كان يجمعه في قبضته من حديدة الدرج .

ومن خلال الباب ، سمع نواح مارفا وصرخات الطفلة الشاكية . ثم انفتح بابُ البهو ، وخرجت أمه من غرفة النوم ومعها الصغيرة ، وعَبرَت البهوَ ، ومضت إلى القسم الآخر من المنزل الخشبي .

نهض ودخل الصالة . كان المصباح يضيء إضاءةً خفيفة على الطاولة

ما ان دخل حتى سمع أنين مارفا الهائل ، خلف الحاجز . ارتدى ملابسه بصمت ، وتناول كيسه الموضوع تحت المقعد ، وأودع فيه اغراضه ، ولفّه بحبل .

اخذت مارفا تتأوه بصوت شاك :

— لماذا شوّهتني ؟ لماذا ؟ ماذا فعلت ؟

لم يجب كورني ، وتناول كيسه واتّجه إلى الباب . فقالت بلهجة أخرى ، بغضب :

— مجرم ! لص ! انتظرْ ! اتظنّ أن ليس هناك قضاة يحاكمونك.

دفع كورني البابَ بقدمه ، دون أن يجيب ، وصفّق الباب بقوة حتى ان الجدران اهتزت .

دخل النصفَ الآخر من المنزل الخشبي ، وأيقظ الأخرس ، وامره ان يربط الحصان إلى الزلاّجة . لم يُفق الأخرس دفعة واحدة ، واخذ ينظر إلى عمه مدهوشاً ومستفهماً ، ويحكّ رأسه بكلتا يديه . وعندما فهم المُراد منه ، وثب بحيوية ووضع مشّايته ، وارتدى معطفه الرثّ ، واخذ المصباح ، وخرج من الفناء .

كان النهار قد طلع عندما ذهب كورني مع الأخرس في الزلاجة الصغيرة ، وسلك الطريق الذي سار عليه عشية أمس مع كوزما .

وصل إلى المحطة قبل انطلاق القطار بخمس دقائق . وقد رآه الأخرس يأخذ بطاقة ، ويصعد إلي العربة مع حقيبته ، ويومىء إليه برأسه مودّعاً . ثم توارى القطار عن بصره .

فضلاً عن الكشوط ، في وجه مارفا . كُسر لها ضلعان ، وشُجّ رأسُها . لكن هذه المراة الصحيحة الجسم ، القوية والشابة ، تعافت ،

في ظرف شهر ، ولم يبق فيها أيُّ اثر للضربات . اما الصغيرة فظلت مشوّهة طوال حياتها : لقد كُسر عظما الذراع وظلت ذراعُها منحرفة . واما كورني ، فلم يسمع احدٌ شيئاً عنه منذ سفره ، ولم يعرف احدٌ إن كان حياً ام ميتاً .

— ٢ —

مضت سبع عشرة سنة . كان الفصل خريفاً ؛ ومالت الشمس إلى الغروب ؛ واخذ الظلام يحلّ منذ الساعة الرابعة . عاد القطيع إلى قرية « اندريفكا » . وكان الراعي الذي انهى خدمته قد انصرف عشية آخر يوم من الأيام التي تسبق الصيام ، وصارت النساء والأولاد يرعون القطيع ، كلٌّ بدوره .

كان القطيع الذي فارق ، قبل هنيهة ، الحقول وسار على الطريق الوسخة التي حفرتها الأرجل الظلفاء وعجلات العربات ، يتقدّم نحو القرية وهو يثغو ويخور . وكان يمشي ، امام القطيع ، على الطريق ، شيخٌ طويلٌ ، ذو لحية بيضاء وشعر أبيض جعد ؛ الحاجبان الكثيفان وحدهما كانا أسودين . كان يلبس سترةً مسودّة من المطر ومرقّعة؛ وتدلّى من ظهره كيسٌ جلدي ؛ كان يسير بمشقّة ، وهو يجرّ في الرجل حذاءه الغليظ ، المبلّل ، المثقوب ؛ ولدى كل خطوة ، كان يتوكّأ على عكّاز من السنديان .

عندما وصل القطيع إليه توقّف .

كانت المرأة الفتيّة التي تقود القطيع تغطي راسها بخمار ، وشدّت تنّورتها على خصرها ، وانتعلت حذاء رجل . كانت تتنقّل بسرعة من

جانب إلى جانب في الطريق ، حاثّةً الخنازير والنعاج المتخلّفة . وعندما وصلت إلى مقربة من الشيخ توقّفت ونظرت إليه .

قالت بصوت فتيّ ، حنون ، ورنّان :

— مرحباً ، يا جدّي

اجاب الشيخ :

— مرحباً ، ياوديعتي !

— ماذا ، اتأتي لتنام ؟

قال الشيخ بصوت مبحوح :

— سوف نرى .

قالت المرأة الشابة بحنان :

— إذهب إذن مباشرةً إلى بيتنا . إنه المنزل الثالث على الطريق ؛ إن حماتي تُؤْوي الحُجّاجَ ليلاً هكذا ، مجّاناً .

قال الشيخ وهو يحرك حاجبيه ، وقد بدا عليه الاهتمام :

— المنزل الثالث ؟ منزل « زينوفييف » إذن ؟

— وهل تعرفه ؟

— مررت قبل الآن من هنا .

صرخت المرأة الشابة وهي تشير إلى نعجة بثلاث قوائم ، تجرّ نفسها خلف القطيع :

— فيدوشكا ! مالكِ تَتْشْغين ؟ العرجاء متخلّفة كثيراً .

وإذْ حركّت العصا التي كانت تمسكها في يدها اليمنى ، وامسكت بيدها اليسرى ، وعلى نحو غريب ، الخرق ، الخمار الذي كان يغطّي رأسها ، ركضت خلف نعجةٍ سوداء ، هي العرجاء المتخلّفة .

كان العجوز هو « كورني » . وكانت المراة الشابة هي أغافيا نفسها التي كُسرت ذراعُها قبل سبع عشرة سنة . لقد تزوّجت في اسرة غنية من « اندزيفكا» ، وهي قرية على بعد اربعة فراسخ من « غاي » .

لقد غدا « كورني فاسيلييف » الرجل القويّ، الغنيّ ، المتكبّر كما هو الآن : شيخاً ضعيفاً ، معوزاً ، لا يملك شيئاً غير ثيابه التي تغطّي جسمه ، وبطاقة الجندية ، وقميصين في كيسه .

كلّ هذه التغيّرات تمّت شيئاً فشيئاً ، بحيث إنه لا يمكنه القول متى بدأ هذا وكيف حدث . الشيء الوحيد الذي كان يعلمه والذي كان مقتنعاً به اقتناعاً راسخاً هو ان زوجته العاهرة هي سبب كل هذه المصائب. كان يَسْتغرب ويشقّ عليه ان يتذكّر ما كان عليه قديماً . وعندما يتذكر فإنما يتذكر بحقدٍ تلك التي كان يراها مسبباً لجميع الآلام التي قاساها خلال هذه السبعة عشر عاماً

في الليلة نفسها التي ضرب فيها امرأته ، قصد الملاّك الذي كان يبيع خشبه ، فلم يتمكّن من شرائه : كان الخشبُ قد بيع . حينئذٍ عاد إلى موسكو واخذ يشرب . قديماً كان يشرب ، لكنه لم يصحُ من سكره ، هذه المرة ، خلال اسبوعين . وعندما صحا ، ذهب إلى الفولغا لشراء الماشية ، وكان هذا الشراءُ خاسراً . وعاد مرة ثانية ، لكن هذا الشراء الثاني لم ينجح أكثر من السابق . واخيراً ، وفي ظرف سنة ، لم يبق له من ثلاثة آلاف روبل سوى خمسة وعشرين . وكان عليه ان يعمل عاملاً بالأجرة . كان قديماً يشرب ، لكن شربه أخذ يزداد الآن شيئاً فشيئاً.

عمل أولاً وكيلاً لتاجر مواشٍ ؛ لكنه كان يسكر في الطريق ، فطرده التاجرُ .

ثم عثر ، بفضل معارفه ، على مكان لدى تاجر خمور ؛ لكن هذا لم يدم طويلاً أيضاً : كان يُخطيء في الحسابات ، فصُرِفَ من عمله . أيعود إلى البيت ؟ كان ذلك يَعْني أن يتجلّل بالعار ، وكانت هذه الفكرة تثير غضبه ، وكان يفكّر : « سيعيشون دوني ! وربما لم يكن الصبيُّ أيضاً منّي . »

كان كلُّ شيء يسير من سيء إلى أسوأ . فهو لم يعد يستطيع أن يستغني عن الكحول . وأخذ يبحث عن عملٍ ، لا عمل وكيل ، بل حارس مواشٍ . فلم يجد مثل هذا العمل على الفور .

وكان كلما ازداد وضعُه بؤساً ازداد اتّهامُه لزوجته ، وتعاظم كرهُه لها .

آخرُ عمل عمله هو عمله حارساً لدى معلّم لا يعرفه. مرضت الماشية ، ولم يكن لكورني يدٌ في ذلك . لكن صاحب الماشية طرد الوكيل وكورني

ولمّا لم يجد « كورني » عملاً ، صمم أن يسير على قدميه ، فحصل على جزمة ، وكيسٍ حسن ، وسكر ، وكان معه ثمانية روبلات ، فيمّم شطرَ كييف .

وسئمَ منها ، فسافر إلى القوقاز ، إلى آثوس الجديد (١) وقبل أن يصل أصابه مرضٌ ، وضعف ، ولم يبق معه سوى روبل وسبعين كوبيكاً ، ولم يكن يعرف أحداً ، فقرّر أن يعود إلى بيته في القرية « ربما كانت ميتةً تلك النذلةُ ، وإذا كانت حيّة فسأقول لها ، قبل موتها ،

---

(١) آثوس الجديد : في سنة ١٨٧٠ ، أسس رهبان روس في جبال القوقاز، قرب البحر الأسود ديراً دعوه آثوس الجديد، وأصبح موضعا للحجج .

كلَّ شيء : ولتعلمْ ، تلك العاهرة . ما فعلته بي ! » هذا ما فكّر فيه وهو يقصد قريته .

كانت الحمّى تكاد تملأ أيامه بالعذاب . لقد ازداد ضعفاً حتى إنه لم يعد يستطيع أن يقطع أكثر من عشرة فراسخ إلى خمسة عشر ، وعلى مئتي فرسخ من قريته لم يبق معه كوبيكٌ واحد ، فتابع طريقه وهو يتسوّل باسم المسيح . وكان يفكّر : « افرحي بما أوصلتني إليه » .

ولكونه مريضاً ، شديد الضعف ، أنفقَ أسبوعين لقطع المسافة الباقية ، وبلغ هذا الموضع الذي التقى فيه « أغافيا » ، لم ينظر إليها باعتبارها ابنته التي كسر ذراعها قديماً .

— ٣ —

فعلَ ما قالته له « أغافيا » . فعندما وصل إلى بيت زينوفييف ، استأذن في المبيت ، فأذنوا له .

عندما دخل المنزل الخشبي رسم علامة الصليب ، على عادته ، وهو ينظر إلى الأيقونات ، وحيّا أصحاب المنزل .

قالت امرأةٌ عجوز واضحة التجاعيد ، بالغة الابتهاج ، هي ربة المنزل التي كانت تعدّ المائدة :

— أنت متجمّد ، يا جدّي ! هيّا ، هيّا إلى الموقد !

كان زوج « أغافيا » ، وهو فلاحٌ شاب ، جالساً على مقعد ، يصلح مصباحاً . فقال له :

— كم انت مبلّل ، ياجديّ ، لكن ما العمل ! ما عليك إلا أن تجفف نفسك.

استراح ، وخلع حذاءه ، وعلّق عصابتيه فوق الموقد ، وصعد الموقد.

دخلت « أغافيا » أيضاً المنزل تحمل إبريقاً من الحليب . وقد تسنى لها أن تُدخل الماشية إلى الاسطبل . وسألتْ :

— هل جاءنا شحّاذٌ عجوز ؟ أنا أشرتُ عليه أن يبيت عندنا.

قال ربُّ المنزل ، وهو يشير إلى الموقد ، حيث كان « كورني » جالساً يفرك ساقيه النحيلتين الكثيرتي الشعر :

— هو هنا .

دعا أصحابُ المنزل « كورني » إلى الشاي أيضاً . فنزل وجلس على حافة المقعد . وأعطوه فنجاناً وقطعة سكر .

دار الحديثُ على الطقس والمحصول : لم يكن محصول القمح حسناً هذا العام ؛ والبطاطا تعفنت في الحقول ، وقد بدأ المطر يهطل عندما بدأ الناس ينقلونها . بيد أن الفلاحين انتهوا بأن جمعوها . وروى كورني أنه رأى في طريقه حقولاً ملأى بها .

صبّت له المرأةُ الشابة فنجاناً خامساً ، خفيفاً جداً ، لم يكد يصفرّ، وحملته إليه .

قالت له حين رفض

— خذه ، لا قيمة لهذا ، اشربْ لصحتك .

سألها وهو يتناول بحذر الفنجان المملوء ، ويحرّك حاجبيه :

— لمَ لمْ تكن ذراعك مستقيمة تماماً ؟

قالت العجوزُ الثرثارة :

— كُسرتْ ذراعُها وهي طفلة . كسرها أبوها الذي أراد أن يقتل ابنتنا « أغافيا » .

سأل :

— ولم ذاك ، يا ترى ؟

وإذ نظر إلى وجه المرأة الشابة ، تذكّر فجأةً « اوستينيي الأبيض » بعينيه الزرقاوين ، فارتجفت يده الممسكة بالفنجان ارتجافاً قوياً حتى لقد أسال نصف الشاي قبل أن يحمله إلى الطاولة .

— كان عندنا في « غاي » رجلٌ ، هو أبوها . كان يُدعى « كورني فاسيلييف . كان غنياً . ولقد غضب ذات يوم على زوجته فضربها وشوّه هذه .

صمت كورني ، ناظراً من تحت حاجبيه الأسودين اللذين لم يكفّا عن الحركة ، إلى صاحب المنزل تارة ، وإلى أغافيا تارةً أخرى

وسأل وهو يعضّ قطعة السكر :

— ولمَ ذاك ؟

قالت العجوز :

— من يَعْلم ؟ نحن النساء ، كلٌّ واحد يتحكّي علينا ، وواجبنا نحن أن نُجيب . كان ذلك بسبب خادم . كان بينهما شيء ما . كان عاملاً نشيطاً ؛ وهو من قريتنا . ولقد مات في بيتنا .

سأل كورني ، وتنحنح :

— أهو ميت ؟

— مات منذ زمن بعيد . ومن بيتهم جئنا بهذه المرأة الشابة . كانوا يعيشون عيشة حسنة . كانوا أغنى أهل القرية في زمن صاحب البيت.

سأل كورني :

— وماذا حلّ به ، هو .

ـ لا شك أنه ميتٌ ، هو أيضاً . وبعد ذلك . أخذ يشرب ؛ مضى على ذلك خمس عشرة سنة .

ـ أكثر من ذاك قليلاً . أمي قالت لي .

سأل كورني .

ـ ماذا ! ألا تحقدين عليه بسبب ذراعك ؟

ـ لكنْ ، هل كان غريباً ؟ . كان أبي . هيّا ، اشربْ لتدفأ. أأصبُّ لك ؟

لم يجب « كورني » وأخذ ينتحب

ـ مابكَ ؟

ـ لا شيء ، هكذا . . ليخلّصك يسوع !

وأمسك بيديه المرتجفتين قائمة الموقد وصعد فوقها .

قالت العجوز لابنها وهي تشير إلى « كورني »

ـ يا لهذا العجوز الغريب الأطوار !

ـ ٤ ـ

في اليوم التالي ، نهض كورني قبل الجميع . نزل عن الموقد ، وفرك عصابتيه المجفّفتين ، واحتذى بمشقة حذاءه ، وحمل كيسه . قالت العجوز

ـ مابك ، أيها الجَدّ ؛ أفضل لك أن تبقى للغداء .

ـ شكراً ، سأنصرف .

ـ إذن ، خذْ من فطائر أمس على الأقل . سأضعها في كيسك.

وشكرها كورني وودّعها

عندما تعود عرّجْ علينا إن كنا في هذا العالم .

كان ضباب الخريف الكثيف يغطي كلّ شيء . لكن كورني كان يعرف الطريق جيداً . كان يعرف كلّ منحدر ، كلّ دغل ، كل صفصافة بيضاء ، على يمين الطريق ويساره ، مع أن بعضها قُطع أثناء هذه السنوات السبع عشرة ، واستُبْدلت بالأشجار القديمة أشجارٌ جديدة ، وغدت الأشجار الفتية هرمةً .

كانت بلدة « غاي » هي نفسها ؛ بُني فقط في مدخلها بيوتٌ لم تكن من قبل. بعض المنازل الخشبية حلّ محلها أيضاً منازل من الآجر . وكان البيت الحجري هو نفسه ، وإن قَدُم قليلاً : فالسطح لم يُطْل منذ زمن بعيد ، وكانت بعض الحجارة ناقصة في الزوايا ، وانهار درج المدخل .

بينما كان يدنو من مسكنه القديم ، خرجتْ من الأبواب التي تصر فرسٌ مع مهرها ، وكذلك حصان خصيّ رمادي يشبه تماماً الفرس الذي جاء بها كورني من السوق قبل ذهابه . « لعله من حَمْلها . فله الكفل نفسه ، والصدر العريض نفسه ، والأقدام الكثيرة الشعر نفسها » . هكذا فكّر . وكان يقود هذه الجياد فتى أسود العينين ، في حذاء جديد من قشر الشجر المجدول . وفكّر كورني : « لعله الصغير « فيدكا» ، فله عيناها السوداوان » .

نظر الفتى إلى الشيخ المجهول ، وركض ليلحق بالمهر الذي كان يثب في الوحل . وخلف الفتى انطلق كلبٌ شديد السوادمثل كلبه القديم. وتساءل : أهو الكلب نفسه . وتذكّر أن ذلك يعود إلى عشرين عاماً.

اقترب من الدرج ، وصعد بمشقة الدرجات التي كان قد جلس عليها عندما ابتلع ثلج الحديد الواقي ، وفتح باب البهو .

سأله صوت امرأة في المنزل الخشي :

ـ لماذا تدخل دون استئذان ؟

تعرّف صوتَها . وما لبثت هي نفسها أن ظهرت عند الباب ، هزيلةً ، بارزة العروق ، واضحة التجاعيد ، ظاهرة الكبر .

كان كورني يتوقّع أن يرى تلك الشابة الجميلة « مارفا » التي أهانته ، والتي كان يكرهها ويود أن يوسعها تأنيباً . وإذا به يرى بدلاً منها عجوزاً عادية أمامه .

قالت بصوت حاد :

ـ إن كنت تطلب الصدقة ، فهي تُطلب من تحت النافذة .

قال كورني :

ـ لست أطلب الصدقة .

ـ إذن ، ماذا تريد ؟

وفجأة توقّفت . ولاحظ ، من وجهها أنها عرفته .

ـ الشحاذون أمثالك كثيرون . امضِ . وليكن الله معك .

أسند كورني ظهرة إلى الجدار ، وتوكّأ على عكّازه ، وحدّق فيها . وتبيّن بدهشة أنه لم يبق في نفسه ذلك الغضب عليها الذي أحسّ به سنوات طوالاً . واستولى عليه فجأة ضربٌ من الضعف والانفعال :

ـ مارفا ، يوم الموت سيأتيك أنت أيضاً .

قالت بسرعة وبغضب :

ـ امضِ ، امضِ ! ليكن الله معك !

— ألن تقولي لي شيئاً غير هذا ؟

— ليس عندي ما أقوله لك . ليكن الله معك ، امضِ ! الحاملون من أمثالك كثيرون .

ودخلت المنزل بخطاً حثيثة وصفقت الباب .

صاح صوتُ رجلٍ :

— لِمَ تهينينه !

وخرج من الباب فلاحٌ ، فأسُه في زنّاره ، أسود الشعر ، كما كان كورني قبل أربعين سنة وإن كان أقصر وأنحف ، لكن له نفس العينين السوداوين الشديدتي اللمعان .

كان هذا هو « فيدكا» نفسه الذي أهداه قبل سبع عشرة سنة كتاباً مصوّراً ، وهو الذي لام أمه لأنها نَهَرَتْ متسوّلاً .

وخرج معه أيضاً الأخرسُ ، وفأسُه في زنّاره . لقد غدا الآن رجلاً مسناً ، مجعّد الوجه، بارز العروق ، قليل شعر اللحية ، طويل العنق ، ثابت النظرة نافذها . كان الفلاحان قد انتهيا لتوّهما من الغداء ، وهما ذاهبان إلى الغابة.

قال « فيدكا» وهو ينبّه الأخرس باشارته الى العجوز ، ثم الى الغرفة ، ويحرك يديه بحركة تدل على تقطيع الخبز :

— على الفور ، أيها الجدّ .

خرج فيدكا إلى الطريق وعاد الأخرسُ إلى المنزل . ظلّ كورني خافض الرأس ، مسنداً ظهره الى الجدار ، متوكّئاً على عكّازه . كان يحسّ بضعف شديد ، ويحبس نحيبه بجهد. وخرج الأخرسُ من المنزل ، حاملاً قطعةً كبيرةً من الخبز الأسمر ، الطازج ، ومدها إلى « كورني» .

بعد أن رسم « كورني » علامة الصليب ، قبل الخبز . ودار الأخرس نحو باب المنزل ، ومرّر يديه على وجهه ، وتظاهر بأنه يبصق . لقد عبر بذلك عن استنكاره لفعل زوجة عمه. وفجأة بدا عليه الذهول ، ففغر فاه واقترب من كورني كأنه تعرّفه .

لم يستطع كورني أن يتمالك دموعه ، ومسح بطرف قفطانه عينيه وأنفه ولحيته البيضاء. وأدار وجهه عن الأخرس وهبط درج المدخل .

شعر شعوراً يمتزج فيه التحنّن والرضا والمذلّة أمام هؤلاء الناس ، أمامها ، أمام ابنه ، أمام الجميع ، وسبّب له هذا الشعور فرحاً وألماً في آن واحد ، ومزّق نفسه.

كانت مارفا تنظر من النافذة ، ولم تتنفّس بهدوء إلا بعد أن توارى الشيخ عند منعطف البيت .

وعندما تأكّدتْ أنه ذهب ، جلست أمام نولها وأخذت تَنْسج. دقّت النول عدة مرات لكن الذراعين لم يمشيا . توقّفت وأخذت تفكر بكورني كما رأته قبل حين . لقد تعرّفت الرجلَ الذي أساء معاملتها وأحبها قديماً ، وهالتها مافعلته قبل قليل . إنها لم تفعل ما ينبغي فعلُه . لكن ما الذي كان ينبغي أن تفعله ؟ أتستقبله ؟ فهو لم يقلْ إنه كورني وأنه عائد إلى البيت .

ومن جديد ، استأنفت عملها على نولها حتى المساء.

— ٥ —

وصل كورني ، حوالي المساء ، إلى أندريفكا ، بعد عناء شديد ، وطلب مجدّداً استضافتهم له فاستقبلوه .

ـ ماذا ، أيها الجد ، ألم تتمكن من الذهاب بعيداً .

ـ لا ، أنا ضعيف جداً . وبالطبع يجب أن أعود . وستدعونني أقضي الليل هنا .

ـ تعال ، وجفف نفسك .

كان كورني فريسةً للحمّى ، طوال الليل . وقبل طلوع الصباح ، أغفى قليلاً . وعندما استيقظ ، كان جميع مَنْ في المنزل قد غادروه الى أعمالهم ؛ ولم يَبْقَ فيه سوى « أغافيا » .

كان متمدّداً فوق الموقد ، على القفطان الجاف الذي فرش له أمس. وكانت أغافيا تُخرج الخبز من الفرن .

ناداها بصوت عذبٍ وضعيف :

ـ يا عزيزتي ، اقتربي مني .

أجابت وهي تسحب الرغيف :

ـ في الحال ، أيها الجد ، أتريد أن تشرب شيئاً ؟ من « الكفاس» ؟

لم يحر جواباً .

عندما سحبتْ آخر رغيف ، اقتربت منه ، ومعها وعاء فيه شراب «كفاس» . لم يلتفت إليها ، ولم يتناول الشراب . لكنه ظلّ مضطجعاً على ظهره ، رافعاً وجهه ، وتكلّم بصوتٍ خفيض دون أن يغيّر وضعه:

ـ غافيا ، دَنَتْ ساعتي ، وأنا أستعدّ للموت . فسامحيني باسم المسيح !

ـ الله يسامحكَ ، لكن كيف ؟ وأنت لم تُسىءْ إليّ !

صَمَتَ .

ـــ ثمّ افعلي هذا الشيء . . . يا صغيرتي . . . اذهبي إلى أمك وقولي لها . . . إن الحاجّ . . . قولي لها . . . إن حاج البارحة . . .

وأخذ ينتحب .

ـــ هل كنتَ عند أهلي ؟

ـــ نعم ، قولي لها ان حاجّ البارحة ...الحاج ...قولي ...(قطع النحيب كلامه ، وأخير استرد قواه ، وأنهى كلامه) . . . إن حاج البارحة جاء ليودّعها .

وأخذ يفتش في صدره .

ـــ سأقول لها ذلك ، سأقول لها ذلك . لكن عمّ تفتش ؟

ودون أن يجيب ، أخذ ، وقد تشنّج بسبب الجهد ، بيده الهزيلة الكثيرة الشعر ، ورقةً ومدّها إليها .

ـــ وهذه ، أعطيها . . . إذا طُلب منكِ . . . هذه بطاقة الجندية. والحمد لله أن جميع خطاياي قد غُفِرتْ ....

واتخذ وجهُه تعبيراً مهيباً ، وارتفع حاجباه ، وحدّقت عيناه في السقف ، وهمس دون أنيفتح شفتيه .

ـــ شمعة ...

فهمت أغافيا . تناولت شمعة من قدّام الأيقونات ، وأشعلتها وأعطته إياها . أخذها بين أصابعه الضخمة .

ابتعدت أغافيا لتخبّىء البطاقة في الصندوق ، وعندما اقتربت منه ، لم تكن الشمعة في يده ، وفقدت عيناه الجامدتان البصر ، وظلّ الصدر ساكناً .

رسمت أغافيا علامة الصليب ، وتناولتْ منشفةً نظيفة وغطّت بها وجهه .

لم تنم « مارفا » تلك الليلة ، ولم تكفّ عن التفكير في « كورني ». وعند الصباح ، ارتدت فرويّتها ، وغطّت رأسها بخمار وراحت تستعلم أين ذهب شحاذ البارحة . وما لبثت أن علمت أن العجوز توجّه إلى « اندريفكا» .

أخذت « مارفا » عصاً ومضتْ إلى اندريفكا . وكانت كلما اقتربت ازداد إحساسها بالاضطراب . وفكّرت : « سنأخذه إلى البيت ، سنتخلّص من الخطيئة ، على الأقل ، ليمتْ في البيت ، قرب ابنه.

عندما بلغت منزل ابنتها ، رأت مارفا حشداً كبيراً من الناس . كان بعضهم في البهو ، والآخرون تحت النوافد . وكان الجميع يعلمون أن « كورني فاسيلييف » الغنيّ المشهور ، الذي كان الناس يتحدّثون عنه منذ أربعين عاماً قد مات كحاجٍ مسكين في منزل ابنته.

كان المنزل الخشبي أيضاً غاصاً بالناس . وكانت النساء يتأوّهن ، ويتنهدن ، ويُطْلقن الآهات .

عندما دخلت مارفا الغرفة ، تنحّى الناسُ عن طريقها ، فرأتْ ، تحت الأيقونات ، الجسدَ المغسول ، المسجّى ، الملفوف بكفن ، وبقربه « فيليب كونونيتش » الذي كان يعرف القراءة ، ويقلّد الشمّاسين ، ويرتّل الصلوات باللغة السلافية .

فات أوانُ معفرتها له أو طلب مغفرته . ولم يكن ممكناً أن تعرف ، من وجه الشيخ الصارم الجليل ، إن كان قد غَفَر لها أم لا .

صــلاة أم

ـ ١٩٠٥ ـ

« إن أباكم يعلم بما تحتاجون اليه قبل أن تطلبوه »

ـ كلاّ ، كلاّ ! هذا لا يجب أن يكون . . . يادكتور ! أليس من وسيلة لإنقاذه ؟ أجبْ ! . . . لمَ تسكت ؟

هكذا كانت تتكلم الأمُّ الشابة وهي تخرج بخطاً حازمة من غرفة الطفل الذي كان يموتُ باستسقاء الرأس ، ابنها الأول والوحيد ، وهو صبي عمرُه ثلاث سنوات .

سكت الزوجُ والطبيب اللذان كانا يتحدّثان بصوت خفيض : اقترب منها الزوجُ على استحياءٍ ، وداعب برفق شعرها الذي كان بغير نظام ، وتنهّد تنهداً عميقاً . ظلَ الطبيب خافضَ الرأس ، مُظهراً بسكوته أن الوضع ميئوسٌ منه . قال الزوج :

ـ ما الحيلةُ ، يا عزيزتي !

فصاحت صيحة الغضب واللوم :

ـ آه ! لا تتكلّمْ ، لا تتكلّمْ هكذا !

واتّجهت بحركة نزقة إلى غرفة الطفل . فحرّك الرجل يده ليَثْنيها :

— كاتيا ، لا تذهبي إليه ! . . .

نظرت إليه بعينيها النجلاوين ، المتعبتين . دون أن تجيب ، وعادت إلى الصبيّ .

كان الصبي مضطجعاً على ذراعي مربيّته ، وتحت رأسه وسادة . كانت عيناه مفتوحتين ، لكن بلا حراك . وكانت شفتاه المزمومتان تزبدان . وكانت المربيّة العجوز تنظر ، وقد اتّخذ وجهُها تعبيراً رصيناً وارتسامياً ، في الفراغ ، من فوق وجه الصغير المريض ، ولم تتحرّك عند دخول الأمّ .

عندما اقتربت الأمّ ودسّت يدها تحت الوسادة لتحمل الصبيّ ، قالت لها المربيةُ برفق : « إنه يموت » ، ولم تشأ أن تتنازل لها عن حِمْلها. لكن الأم لم تُصغِ إليها ، وأخذت الطفلَ بين يديها ، بحركة مرنة تعوّدتها . اختلطت خصلُ شعر الصبي بعضها ببعض ، فرفعتها وحدّقت في وجهه . وهمستْ :

— كلا ، لا أستطيع .

وأرجعَتْهُ إلى المربيّة بحركة سريعة وحذرة ، وخرجت من الغرفة.

كان الطفل يتألم منذ أسبوعين . وكانت الأمُّ تنتقل أثناء مرضه بين اليأس والرجاء . وكانت لا تكاد تنام ساعةً ونصف في اليوم . وكانت ، في كل يوم ، وعدة مرات في اليوم تعتكف في غرفتها ، وتركع أمام صورة كبيرة للمخلص مرصّعة بالذهب ، وتدعو اللهَ أن يحفظ لها ابنها.

كانت الصورةُ التي سوّدها الزمنُ تمثل المسيح ممسكاً بيده كتاباً ذهبياً كُتب عليه بحروف مطليّة بالميناء : « تعالوا إليّ أيها الحزانى وسأُعزّيكم » .

كانت تصلي ، وهي واقفة أمام الأيقونة ، واضعةً في صلاتها جميعَ قوى روحها . . ومع شعورها ، في أعماق قلبها أنها حين تصلّي لن تنقل الجبل من مكانٍ إلى مكان ، وأن الله لن يفعل كما تريد بل كما يريد ، فانها كانت تصلّي، وتتلو صلواتها المعروفة ، والتي كانت ترتجلها بحماسة شديدة .

ما ان أدركت أنه سيموت حتى شعرتْ بشيء ينفصل عنها ويدوّم في رأسها . وإذ دخلتْ غرفتها نظرت بدهشة حولها ، وكأنما قد اختلط عليها الأمر . ثم اضطجعت على السرير ، وألقت برأسها لا على الوسادة بل على مبذل زوجها المطويّ ، وفقدت وعيها .

رأت في الحلم حبيبها « كوستيا» معافىً ومبتهجاً ، بخصل شعره ، وعنقه البيضاء الدقيقة ، جالساً في مقعده الصغير ، محرّكاً ساقيه السمينتين ، وشفتيه الممطوطتين ، يُجلْس بعنايةٍ لعبةً على حصان من الكرتون مصابة ساقُه ، ومثقوب ظهرهُ . ففكّرت :

— ما أسعد الحياة بأن يكون حيّاً ! وما أقساها أن يموت ! لماذا ؟ كيف تركه الله يموت وقد صلّيتُ له بكل تلك الحرارة ؟ وأية فائدة رأى في موته ؟ أكان يزعج أحداً » ؟ ألم يعلم الله أنه كان كلّ حياتي ، وأنني لا أستطيع العيش دونه ؟ ها إن هذا الصغير المسكين ، الرائع ، البريء ، يُعذّب فتتحطّم حياتي ، ولا أُجاب على تضرعاتي إلا بالموت... آه ! ذلك الجسد المتصلب ، البارد ، بعينيه اللتين غدتا كالزجاج . »

لكن ها هي ذي تراه مرة أخرى يمشي وهو صغيرٌ جداً نحو أبوابٍ كبيرة جداً ، مؤرجحاً يديه كما يفعل الكبار ، وهو ينظر ويبتسم

« الصغير الغالي ! وهو الذي أراد الله أن يُعذبه ويميته ! ولمَ نرفع الصلوات إليه ، بعد الآن ، إذا كان يمكن أن يرتكب مثل هذه الفظاعات ؟

وفجأة أخذت « ماتريوشا » ، المساعدة الشابة للفرّاشة ، تقول كلمات غريبة . وتعلم الأمُّ أنها ماتريوشا ، لكنها ملاكٌ أيضاً . وفكّرت الأمُّ : « إذا كانت ملاكاً فكيف لا يكون لها جناحان في ظهرها » .

بيد أنها تتذكّر أن شخصاً — لا تذكر مَنْ هو ، لكنه شخص جدير بالثقة — قال لها أن هناك الآن ملائكة بلا أجنحة .

ويقول الملاكُ ماتريوشا :

« ينبغي ، يا سيدتي ، ألاّ تحقدي على الله : إنه لا يستطيع أن يُصغي إلى الجميع . الناس ، في الغالب ، يطلبون أشياء إذا أُعطيها بعضُهم اغتاظ الآخرون لذلك . خذي مثلاً : في كل روسيا تقوم الآن صلواتٌ ؛ ومن هم الذين يصلّون ! كبار الأساقفة والرهبان أمام رُفات القديسين ، وجميع الناس يصلّون لكي ينصرنا الله على اليابانيين . هل ينبغي أن نطلب هذا ؟ ليس حسناً أن تُقام مثل هذه الصلوات ، ولا يعلم الله مَنْ يُرضي . اليابانيون أيضاً يصلّون لله لكي ينصرهم . وليس لنا غيره أباً ، إلهنا جميعاً ! فكيف ينبغي أن يفعل ؟ . . . صحيح ، يا سيدتي ، كيف ينبغي أن يفعل ؟

قالت الأمُّ :

— نعم ، أعلم ذلك جيداً ، وهذا الكلام قديم . « فولتير » كان قد قاله . كلّ الناس يعلمونه ويقولونه . ليس هذا هو الموضوع . لماذا لا يستطيع أن يستجيب لصلاتي عندما أطلب شيئاً غير مُؤذٍ ، عندما أطلب فقط ألا يُميت صغيري ، بما أنني لا أستطيع العيش دونه .

وأحسّت كأن الصبي يطوّق عنقها بذراعيه الربلتين ، وكأن جسدها ، جسد الأم ، يستشعر حرارة جسده الصغير . وفكّرت : « آه ما أحسنَ ألاّ يكون ذلك قد وقع » .

وتمضي ماتريوشا في عنادها ، بتفكك أفكارها المألوف :

— ليس هذا فحسب ، يا سيدتي ، ليس هذا كل شيء . قد يحدث أن شخصاً لا يطلب إلاّ شيئاً واحداً ، وأن الله لا يستطيع مع ذلك ، أن يفعل ما يُطلَب منه ، بأية طريقة من الطرق . ونحن نعلم ذلك جيداً... وأنا أعلم ذلك جيداً أنا التي تعلن .

قال الملاكُ « ماتريوشا» ذلك بنفس النبرة التي استخدمتها ماتريوشا عشية أمس وهي تقول للمربية العجوز عندما أرسلتها معلّمتها إلى المعلم : «أنا أعلم ، أن المعلم في المنزل ، لأنني أنا أعلنتُ وصوله . »

وقالت ماتريوشا أيضاً:

— كم مرّة كان علي أن أعلن عن وصول الناس ، فهذا شابٌ لطيف يطلب المساعدة لمنعه من سوء السلوك ، ومن السكر ، ومن المجون؛ إنه يطلب أن نخلّصه من الرذيلة كما تُسحَبُ الشوكةُ من القدم .

فكّرت الأم :

— ما أبلغَ كلامَها ، مع ذلك . »

— لكن الله لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لأن على كل واحد أن يبذل جهده . ونحن لا نستفيد إلا إذا أجبرْنا أنفسنا . . . أنتِ نفسك ، ياسيدتي ، أعطيتني حكايةً عن الدجاجة السوداء التي أعطت صبيّاً خلّصها من الموت حبة قنّب سحرية : كان يعرف جميع الدروس دون

دراستها مادامت الحبةُ في جيب بنطاله ؛ لكنه توقف عن الدراسة تماماً ، بسبب هذه الحبّة ، وفقدَ ذاكرته . . . ولا يستطيع إذن « أبونا » أن يخلّص هو نفسُه الناسَ من الشر . وينبغي ألاّ يطلبوا ذلك منه ، بل عليهم أن يقتلعوه وينفّضوه ويغسلوه هم أنفسهم .

فكّرت سيدتُها :

أين تعلّمتْ هذه الكلمات ؟ وقالت :

ــ لكنكِ لم تجيبي عن سؤالي ، يا ماتريوشا ؟

قالت ماتريوشا :

ــ دعيني أكملْ وسأقول لكِ كلَّ شيء . قد اعلنُ أن أسرة افلْست . وأنها لم تُفلس بسبب خطئها ؛ فيبكي الجميع ؛ ويعيشون في زاوية كوخ قذر بدلاً من غرفهم الجميلة . ويعوزُهم حتى الشاي ، ويطلبون شيئاً من المعونة . لكنه لا يمكنه أن يتصرّف بحسب رغبتهم ، لأنه يعلم أن هذه المصيبة ستفيدهم . إنهم لا يرون المصيبة ، أما « هو » فيعلم أنهم إن استمرّوا في رخائهم فسوف يصبحون فاسدين . سيُقتَلون تماماً .

فكّرت سيّدتها : « هذا صحيح . لكن لماذا تُعبّر بهذه اللغة السوقية عندما تتحدّث عن الله . هذا ليس حسناً . ولن يفوتني أن أنبّهها على ذلك في المناسبة الآتية .

ــ لكني لا أسألك عن ذلك . أسألُكِ لماذا ، ولأية غايةٍ ، أخذ إلهَكِ مني ابني .

وإذا بالأمُّ ترى أبنها كوستيا حياً ، وتصغي إلى ضحكه الصبياني الفاتن ، الرنان مثل جلجل صغير .

— لماذا أخذوه مني ؟ وإذا كان الله قد أقدم على هذا الفعل فمعنى ذلك أنه إله شرير ، سيء ؛ وأنا لا أحتاج إليه ولا أريد أن أعرفه !

لكن ، ما هذا ؟ ماتريوشا لم تَعدْ ماتريوشا، وإنما غدت كائناً آخر ، غريباً ، مُبْهماً ، وهذا الكائن لا يتكلم بشفتيه ، ولا يتكلم بصوتٍ مرتفع ، لكنه يتكلم بطريقة خاصة ، في أعماق قلب الأم . إنه يقول :

— أيتها المخلوقةُ الشقيّة ، العمياء ، المتكبّرة والوقحة . أنت تريْن ابنك « كوستيا» كما كان منذ بضعة أيام بأعضائه اللدنة ، وشعره الطويل الجعد ، وثغثغته الساذجة ، الرقيقة ، والمدروسة . لكنه هل كان دائماً هكذا ؟ جاء وقتٌ كنتِ تفرحين فيه عندما يقول : « ماما ، بابا» ، وعندما يتعرّف الأشخاصَ ؛ وقبل ذلك كنتِ تنتشين عندما كان يقف بجهدٍ على ساقيه ، ويتأرجح ، ويجري من كرسي إلى آخر ؛ وفي زمن أسبقَ أيضاً ، كنتم جميعاً سعداء جداً حين رأيتموه يحبو مثل حيوان صغير ؛ وقبل ذلك كنتم تفرحون بأنه استطاع أن يُجلس رأسه الصغير ؛ وقبل ذلك كنتم تفرحون عندما تناول الثدي وشدّ عليه بلثتيه الخاليتين من الأسنان ؛ وقبل ذلك كنتم تفرحون وأنتم ترونه محمرّاً ، وتسمعونه يصرخ مستفتحاً رئتيه . وقبل سنة من ذلك ، عندما لم يكن موجوداً بعد ، أين كان ؟ أنتم تظنّون جميعاً أنكم لا تتغيرون وأنكم أنتم والذين تحبّونهم لابد أن تظلّوا دائماً على حالكم . لكن ، لا تمرّ ثانيةٌ دون أن تتبدّلوا ؛

أنتم تَجْرون إلى الموت الذي سيأتيكم عاجلاً أم آجلاً ، تَجْرون مثل حجر يسقط . فكيف لا تفهمين أنه منذ أن صار إلى ما صار عليه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فلن يتجمّد ، ولن يبقى لحظة على الحالة التي كان فيها عندما مات . وكما أنه أصبح رضيعاً من لا شيء ، ثم طفلاً ، فسيصبح صبياً وفتى وشاباً وكهلاً ورجلاً ناضجاً وشيخاً . أنت تجلهين ماذا سيحلّ به لو بقي حيّاً ، أنا أعلم ذلك .

وترى الأمّ في مطعم مضاء بالكهرباء إضاءة باهرة (لقد صحبها زوجُها ذات يوم إلى مطعم مشابه) ، طاولةً عليها فضلاتُ عشاءٍ ، وأمامها عجوز جميلٌ ، متغضّنٌ ، معقوف الشاربين ، مخمور العينين ، كريه المنظر .

صرخت الأم صرخة استفظاع وهي تنظر إلى الشيخ البشع ؛ وهو بشع بالذات لأنها وجدت في تعبير نظرته ، وتجعيدة شفتيه ، شيئاً ذكّرها بكوستيا . وفكّرت : « لحسن الحظّ أن هذا حلم . فكوستيا الحقيقي ، ها هوذا . »

وتراه أبيض ، عارياً ، وصدره السمين العاري في حمامه ، ضاحكاً ، محرّكاً قدمية الصغيرتين ؛ إنها لا تراه فحسب لكنها تحسّ فجأة بذراعه المكشوفة حتى المرفق ، وتحسّ أنه يعانقها وينتهي بأن يعضّها ، دون أن تعلم ما تفعله بهذه الذراع الحبيبة . قالت في نفسها : « نعم ، هذا كوستيا ، وليس ذلك الشيخ الكريه . »

عند هذه الكلمات ، استيقظت وعادت إلى الحقيقة المروّعة التي لا يمكنها أن تستيقظ منها .

وتذهب إلى غرفة الصبيّ . كانت المربيةُ العجوز قد غسلت الجسد الصغير وزينّته . وهو ممدّد، على سرير عالٍ ، انفه الصغير كأنه من الشمع المصفّى ، مع غمازتين قرب المنخرين ، والشعر الأملس .

وحوله تحترق شموعٌ ، وعند رأسه وضعت زنابقُ بيضاء وبنفسج وورود . وتنهض المربيّة عن مقعدها ، وتنظر ، وحاجباها مرفوعان ، وشفتاها ممدودتان ، إلى الوجه الصغير المتحجّر . ومن الباب الآخر تقدمت « ماتريوشا » بوجهها الساذج وعينيها المحمرتين للقاء الأم .

فكرت الأم : « كيف كانت تقول لي : لا يجوز لنا أن نحزن ، وهي نفسهاتبكي ؟ »

وتصوّب الأم نظرتها إلى الميت الصغير . وعلى الفور يُدهشها وينفّرها الشبهُ المروّع بين هذا الوجه الصغير الذي لاحراك فيه ووجه الشيخ الذي رأته في الحلم . لكنها تطرد هذه الفكرة ، وتُطْبق بشفتيها الساخنتين على الجبين الصغير البارد ، وهي ترسم علامة الصليب ، ثم تقبّل اليدين الصغيرتين المضمومتين ، وفجأة ذكرتها رائحةُ الزنابق أنه قد مات وأنها لن تراه أبداً ، فيخنقها النحيبُ ، وتقبّله مرة أخرى في جبينه ، ولأول مرة تذرف الدموع . إنها تبكي ، وليست دموعها دموع اليأس ، لكنها دموع الاستسلام والتحنّن ، إنها تتألم لكنها لا تثور ولا تشكو ؛ إنها تعلم أن ما وقع لابد أن يقع ، وهو من ثَمّ حسنٌ .

قالت المربيةُ العجوز :

ــ البكاء خطيئةٌ ، يا سيدتي العزيزة .

وعندما اقتربت من الميت الصغير ، مسحت بمنديل مطوي دموعَ الأم التي كانت تلمع على جبين كوستيا الشمعي .

أضافت المربية :

هذه الدموع ستكون وزراً على روحه الصغيرة . إنه سعيد ، في الوقت الحاضر وهـــو ملاكٌ طاهرٌ ، ولو عاش فمَنْ يدري مـــادا سيحل بـــه .

قالت الأم :

— صحيح ، صحيح ، لكن هذا مؤلمٌ ، مؤلم مع ذلك .

* * *

لماذا

ــ ١٩٠٦ ــ

في ربيع سنة ١٨٣٠ ، استقبل « جاك جازويسكي » في ملكيّته في « روجانكا » ، « جوزيف ميغورسكي » ابن صديقه المتوفى .

كان جازويسكي شيخاً له من العمر خمسة وستون عاماً ؛ كان عريض الجبهة ، عريض المنكبين ، عريض الصدر ، ذا شاربين أبيضين على وجهٍ بلون الآجر . كان وطنياً من زمن تقسيم بولونيا الثاني (١) لقد خدم ، وهو في أوج شبابه ، مع ميغورسكي الأب ، تحت علم « كوزليوسكو » (٢) ، وكان يكره من كل نفسه الوطنية ، تلك الرهيبةَ — بحسب تعبيره — والفاسقة كاثرين الثانية ، وكذلك عشيقها « بونيا توسكي » (٣) « الخائن التعس» . وكان واثقاً أيضاً من عودة الجمهورية البولونية ثقتَه من أنه سيرى ، في اليوم التالي ، الشمس تلمع .

---

(١) تقسيم بولونيا الثاني : سنة ١٧٩٣ .

(٢) كوزكيوسكو : (١٧٤٦ ــ ١٨١٧) . وطني بولوني أسره الروس ، وحرره بولس الأول سنة ١٧٩٦ ، فاعتزل كل نشاط سياسي .

(٣) بونياتوسكي : (١٧٣٢ ــ ١٨٩٨) عشيق الدوقة الكبرى كاترين في بطرسبرج التي ما أن اعتلت العرش حتى نصّبته ملكا على بولونيا سنة ١٧٦٤ .

كان يأمر في سنة ١٨١٢ فوجاً في جيش نابوليون الذي كان يُجلّه. وقد بكى عند سقوط الامبراطور ، لكنه لم ييأس من رؤية وطنه بولونيا وقد أعيد تشكيلُها ولو جزئياً .

أحيا أملَه افتتاحُ الاسكندر الأول لـ « دييت » (١) فارسوفيا ؛ لكن « الحلف المقدّس » ، والردّة التي امتدّت في أوروبا بأسرها ، وحماقات الدوق الأكبر (٢) قسطنطين ، نائب ملك بولونيا ، أخّرت تحقيق أقدس رغباته .

وحوالي ١٨٢٥ استقرّ جاكزويسكي نهائياً في ملكيّته في روجانكا ، وعاش فيها عاكفاً على إدارة ممتلكاته ، وعلى الصيد ، وعلى قراءة الصحف والرسائل التي كانت تتيح له أن يتابع بانتباه متّصل أحداثَ بلاده السياسية .

تزوّج ، للمرة الثانية ، فتاةً جميلةً وفقيرة ؛ ولم يكن هذا الزواج موفّقاً ، إذ لم يكن يحبّ ولا يحترم زوجته الثانية ، وكان يعاملها باستعلاء وكأنه أراد أن يثأر منها للخطيئة التي ارتكبها . لم تنجب له أطفالاً ، في حين كانت له بنتان من المرأة الأولى . الكبرى « واندا » التي كان جمالها عظيماً لاسبيل إلى تجاهله والتي سئمت العيش في الريف ؟ أما الصغرى « آلبين » ، الأثيرة عند والدها ، فكانت طفلة مليئة بالحيوية ، نحيفة ،

---

(١) الدييت : المجلس التشريعي ، وفي سنة ١٨١٥ منح الاسكندر الأول مملكة بولونيا دستوراً — ليبرالياً وافتتح جلسات الدييت بخطاب ألقاه بالفرنسية .

(٢) حماقات الدوق الأكبر قسطنطين : أخو الاسكندر الأول ، تزوج ببولونية ، وكان قائداً عاماً للجيش البولوني . كان يكن نية حسنة نحو البولونيين الا انه كان عراضة لنوبات الغضب والوحشية ، شأنه شأن أبيه بولس الأول .

ذات شعر أشقر جعد ، وعينين نجلاوين رماديتين ، لا معتين ، متباعدتين كعيني أبيها .

كان عمر « آلبين » خمسة عشر عاماً عند وصول جوزيف ميغورسكي وكان هذا ، أثناء دراسته في فيلنا ، على صلة بجاكزويسكي الذي كان ، في تلك الفترة يقيم في فيلنا أثناء الشتاء . كان آنذاك يُغازل « واندا » ؛ لكن هذه أول مرّة يجيء فيها كرجل ناضج وحرّ بمصيره .

سرّ مقدمُه جميع سكّان روجانكا : سرّ الأبَ لأن « جوزيف » ذكّره صديقَه عندما كانا شابين ، وعندما كان ذلك الشاب يروي بحرارة وحماسة الغليان الثوري الذي لم يكن يحرّك بولونيا وحدها ، بل والبلاد الأجنبية التي كان يصل منها ؛ سرّ السيدةَ « جاكزويسكي » لأن زوجها كان أكثر تحفظاً أمام الغرباء فلا ينهرها في كل مناسبة كما تعوّد ؛ وسرّ الآنسة « واندا » لأنها كانت على يقين أن ميغورسكي جاء من أجلها ، بنية طلب يدها ؛ وكانت ، على كل حال ، مستعدّة أن تقبل على أن يدفع غالياً ثمن هذا القبول ؛ وأخيراً سَرّ مقدمُه « آلبين » لأن الجميع كانوا مسرورين . « واندا » وحدها كانت على يقين من أنه جاء ليطلب يدها ؛ وكان الجميع في المنزل يظنّون هذا الظن ، من الأب حتى المربية العجوز « ليدوفيك » ، مع أن أحداً لم ينبس بكلمة حول هذا الموضوع .

وبالفعل ، كان ذلك صحيحاً . فقد جاء بهذه النيّة . لكنه سافر ، بعد إقامته أسبوعاً ، وهو مضطرب ، مشوّش ، دون أن يُعلن عن نيته. ودهش كل واحد من هذا السفر المستعجل ولم يستطع أحدٌ أن يتبيّن الدافع . إلا « آلبين » التي استشفّتْه . فقد لاحظت طوال إقامة هذا الشاب في روجانكا أنه لم يكن يفرح أو ينتعش إلا في حضرتها . وكان يعاملها

وكأنها طفلٌ ، فيمازحها ويشاكسها ؛ لكنها أحسّت بحدْس المرأة أن هذا السلوك لم يكن سلوك شاب بالغ نحو بنت صغيرة ، بل سلوك الرجل نحو المرأة . أدركت ذلك من النظرة الرقيقة التي كان يُلقيها عليها لحظة دخولها أو خروجها . لم تفهم جيداً معنى هذا الموقف ، لكن ذلك كان يُمْتعها ، فتسعى بالرغم منها ، إلى إرضائه . وكان كل ما تفعله يرضيه ، وكان يزداد انتعاشاً في حضرتها كان يحب أن يراها تركض مع كلبها السلوقي الجميل الذي كان يثب ويلحس وجهها المُشرق ؛ كان يحب أن يسمع ضحكتها الرنانة التي تنفجر لأتفه سبب ؛ كان يحبّ أن يراها تتمالك نفسها لكي لا تضحك ، وهي تصغي إلى عظة الكاهن المضجرة ؛ كان يحب أن يتابع تعبير وجهها عندما تُقلّد تقليداً مُذهل الشبَه ، المربيّة العجوز ، أو الجار المخمور ، أو ميغورسكي نفسه ، منتقلة في وقت واحد من تقليد هذا إلى تقليد ذاك . لكن ما كان يُعْجَب به قبل غيره هو فرحها بالحياة . وكأنها جاءت فقط لتتعلم كلَّ ما في الحياة من سحرٍ ، وكأنها تستعجل للتمتّع به . وحين فطنت إلى أن هذا الفيض من الحياة يثير حماسته ، ازدادت هي نفسها حيويةً ، وتجلّت سعادتُها بالحياة تجلّياً صارخاً .

أمّا لماذا كانت « آلبين » وحدها تعرف الدافع الذي من أجله لم يُكاشفْ « ميغورسكي » أختها « واندا » ، مع أنه جاء بهذه النيّة ، فهو التالي . فقد كانت تعلم في قرارة نفسها أنه بذل وسعه في أن يُحب أختها ، لكنه شغف بها نفسها ، وإن لم تجرؤ أن تبوح بهذا لأحد أو تعترف به أمام نفسها . وكانت تدهش كثيراً من ذلك ، لكونها دون أختها « واندا » جمالاً وعلماً وذكاءً ؛ لكن لم يكن بمقدورها ألا أن تعلم بأن الأمور

هكذا ، وألاّ تكون سعيدة بذلك ، لأنها هي نفسها هامت بميغورسكي ، بكل أوتار قلبها الفتيّ . كانت تحب كما يحب الناسُ الحبّ الأول والوحيد في الحياة .

— ٢ —

حول أواخر الصيف (١) ، أعلنتُ الصحفُ أن الثورة انفجرت في باريس . وبعد ذلك بقليل ، وصل نبأ الهيجان الذي كان يسود فارسوفيا. وكان جاكزويسكي ينتظر بقلق وأمل ، عند وصول البريد ، نبأ مقتل قسطنطين وبداية الثورة البولونية . وأخيراً ، في تشرين الثاني ، توالت الأنباءُ على « روجانكا » عن الهجوم على قصر نائب الملك ، وهرب الدوق الأكبر قسطنطين ، وإعلان الدييت لسقوط عرش بولونيا عن أسرة رومانوف المالكة ، ودكتاتورية « كلوبيكي » (٢) ، والتحرير الجديد للشعب البولوني .

لم تمتد الثورة إلى روجانكا بعد ، لكن جميع سكانها كانوا يتتبّعون بانتباه تقدّمها ويستعدون لذلك .

كان العجوز جاكزويسكي يراسل باستمرار أحد زعماء التمرّد الذي كان من أصدقائه القدامى ، ويستقبل مفوضين عن الثورة ، وينتظر اللحظة المؤاتية للانضمام إلى الثوّار .

اهتمت السيّدة جاكزويسكي أكثر من أي وقت مضى بأن تحيط زوجها بكل الراحه الممكنة ، لكنها كانت لا تني تزيده ، بذلك ،

(١) حول أواخر الصيف : أدت ثورة ١٨٣٠ الى تمرد العسكريين البولونيين في فارسوفيا في ٢٤ تشرين الثاني من العام نفسه.

(٢) كلوبيكي : جنرال بولوني (١٧٧١ — ١٨٥٤) سماه ثوار ١٨٣٠ دكتاتوراً .

اغتياظاً . وأرسلت « واندا » بجواهرها إلى صديقة لها في فارسوفيا لكي تُحوِّل قيمتها إلى اللجنة الثورية . ولم تكن « آلبين » تهتم إلا بمآثر « ميغورسكي » . لقد علمت من والدها أن الشاب تطوّع في رتَل « دويرنيكي (١) » ، وكان يركّز كل انتباهه عليه . وقد كتب رسالتين أخبر في الأولى عن دخوله الجيش ، ثم وصف ، في أواخر شباط بعبارات حماسية انتصار البولونيين واستيلاءهم على ستة مدافع وأسرهم الكثيرين « انتصار البولونيين ، وهزيمة الموسكوفيين ، مرحى ! » بهذه الجملة أنهى رسالته .

ابتهجت « ألبين » ، وكانت تفحص الخارطة ، وتحسب متى وأين سيُهزم الموسكوفيون (١) نهائياً ، وكانت ترتجف وتشحب كلما أخذ أبوها يفتح بريده ببطء .

ذات يوم ، دخلتْ زوجةُ أبيها غرفتَها ، ففاجأتها أمام المرآة بالبنطال والسترة العسكرية . كانت الفتاةُ تتهيّأ من غير شك للفرار من البيت بهذه البزّة ، لتنضّم إلى الجيش البولوني . روت السيدةُ جاكزويسكي الأمرَ للأب . فاستدعى الفتاةَ ، وأخفى الفرح الذي شعرَ به حين علم بإخلاص ابنته للقضية البولونية الكبرى ووبّخها ، بقسوة ؛ قال لها : إن عليها أن تطرد من رأسها مثل هذه الفكرة الحمقاء ؛ وأضاف « للمرأة عملٌ آخر تعمله : عليها أن تحبّ وتشجّع الذين يضحون بأنفسهم من أجل الوطن » . ثم أبرز لها كم هي ضرورية له : كانت

(١) دويرنيكي : جنرال بولوني (١٧٧٨ ــ ١٨٧٥) انتصر على فصيل روسي في سنة ١٨٣١ .

(٢) الموسكوفيون: كان البولونيون يصفون الروس بأنهم موسكوفيون، وهي كلمة أخذت معنى التصغير .

فرحته وعزاءه وعما قريب سيأتي الوقتُ الذي تُصبح فيه ضرورية لزوجها ؛ وأراد أن يلامس قلبها ملامسةً صميمية ، لعلمه أن ذلك يُثمر ، فأفهمها أنه وحيدٌ وتعس . ألصقتْ وجهها بوجهه ، ووعدته وهي تحبْس دموعها التي بلّلتْ ، مع ذلك ، مبذل الأب ، ألاّ تفعل شيئاً دون رأيه .

— ٣ —

ينبغي أن يكون المرء في وضع البولونيين ليفهم ما قد أحسّوا به بعد تقسيم وطنهم ، وخضوع مزْقة من مزَقه للألمان الممقوتين ، وخضوع أخرى للمسكوفيين المكروهين أكثر من الألمان أيضاً ، وليكوّن فكرةً عن الحماسة التي استولتْ عليهم في سنة ١٨٣٠ و ١٨٣١ عندما عاد إليهم أملُهم بالتحرر ، بعد المحاولات السابقة المشؤومة. لم يدم هذا الأملُ طويلاً . فالقوى المتواجهة كانت غير متكافئة إلى حد كبير . ولذلك ، ما لبث التمرّدُ أن سُحق . إذ دُفع إلى بولونيا ، بآلاف الروس الخاضعين خضوعاً غبيّاً ، والذين غمروا الأرضَ بدمهم ودم اخوانهم البولونيين ، دون أن يعرفوا لماذا ؛ وقد سُحق البولونيون على أيدي الروس بامرة القائد « ديبيتبس » ، تارةً ، وتارة أخرى بقيادة القائد الأعلى « نيكـــولا الأول » ؛ ووُضعوا تحت نير رجـــال تافهين ليس همهم حرية البولونيين أو اضطهادهم ، وإنما همهم الوحيد جشعهم وغرورهم الحقير .

احتُلّتْ فارسوفيا ، وهُزِمتْ الأرتال البولونية التي كانت منثورةً في كل مكان ، كلٌ على حدة ؛ وأعدم مئات الرجال بل الآلاف ،

وضربوا حتى الموت أو نُفوا . وبين الذين نُفوا الشابُ ميغورسكي الذي صُودرتْ أراضيه وأُلحقَ هو نفسه كجندي بفوج في « أورالسك »

قضى آل جاكزويسكي شتاء ١٨٣٢ في فيلنا ، لأن الوطني العجوز كان يشكو من مرض القلب الذي أصابه بعد حوادث ١٨٣١ . وهاهنا تلقّوا الرسالة التي أرسلها ميغورسكي من قلعته. وكتب يقول : إنه مهما يكن مؤلماً ما شعر به وما ينتظرهأيضاً ، فقد كان سعيداً لأنه تألم من أجل وطنه ؛ وهو من ناحية أخرى ، لم ييأس من القضية المقدّسة التي من أجلها ضحّى بجزءٍ من حياته ، والتي من أجلها كان مستعداً لبذل كلّ ما بقي له ، ويقول أيضاً ، إنه إذا ما اتيحت له فرصةٌ جديده للعمل فسيعمل ما عمله من قبل . توقّف جاكزويسكي الذي كان يقرأ الرسالة بصوتٍ عالٍ في هذا الموضع لأن العبرات خنقته . وأتمّت « واندا » قراءة الرسالة . وكتب ميغورسكي أيضاً إنه مهما تكن خططُه وأحلامُه أثناء زيارته الأخيرة التي ستظل أبداً من أروع لحظات حياته ، فانه لا يستطيع أن يتحدث عنها في الظروف الحالية .

فهمتْ « واندا » و « آلبين » معنى هذه الكلمات كلٌّ على طريقتها ، ولم تُطلعا أحداً على أفكارهما الحميمة . وفي نهاية الرسالة ، سلّم « ميغورسكي » على الجميع ، مصطنعاً اللهجة المازحة التي كان يتّخذها وهو يحدّث آلبين أثناء زيارته الأخيرة ؛ فسألها إن كانت ما تزال تركض بسرعة كلبها أو أسرع ، وإن كانت ما تزال تقلد الجميع بالإتقان نفسه . وتمنّى للشيخ الصحةَ الجيدة ، ولربة البيت الازدهار في جميع أعمالها البيتية ، وتمنّى لواندا زوجاً صالحاً ، ولآلبين استمرار فرحها بالحياة.

ساءت صحة جاكزويسكي شيئاً فشيئاً ، وسافرت الأسرة كلها إلى الخارج في ١٨٣٣ . والتقت « واندا » مهاجـــراً بولونياً غنياً تزوجته ولم يتعاف العجوز جاكزويسكي من دائه وما لبث أن مات بين يدي «آلبين » . ورفض ، حتى آخر لحظة عناية امرأته ولم يستطع أن يغفر لها الخطيئة التي ارتكبها هو بزواجه منها .

عادت السيدة جاكزويسكي مع آلبين إلى ملكيتهما . ظل ميغورسكي الاهتمام الرئيسي لآلبين ؛ لقد كان في نظرها بطلاً وشهيداً صممّت أن تكرس حياتها من أجله . بدأت تراسله قبل سفرها إلى الخارج . كتبت في البداية على لسان والدها ، ثم على لسانها شخصياً .

عندما عادت إلى روسيا ، بعد موت أبيها ، ظلّت تراسل ذلك الشاب . وأخيراً ، عندما بلغت الثامنة عشرة أعلنت لخالتها أنها قررّت السفر إلى « أورالسك(١) » لتلقى ميغورسكي ولتتزوجه .

اتّهمت السيدةُ جاكزويسكي المنفيَّ بأنه يريد أن يُحسّن وضعه بالزواج من الفتاة الغنية وباجبارها على مقاسمته حظّه العاثر ، أنانية منه . اغتاظت آلبين من كلامها ، وأعلنت لها أنه ليس هناك شخص غيرها ينسب مثل هذه المشاريع الدنيئة إلى رجل ضحّى بكل شيءٍ في سبيل الوطن . على العكس ، لقد رفض مرّاتٍ العونَ الذي قدّمته له ؛ ولذلك قررّت قراراً لا رجوع عنه ، أن تذهب للقائه والزواج منه إذا قبل أن يُحقّق لها هذه السعادة . وهي بالغة ، ولها ثروتها الشخصية ،

(١) اورالسك مدينة على نهر الأورال . مركز منطقة القوزاق .

وحصتها من الثروة التي تركها عمٌّ متوفى لأختها ولها ؛ ولذلك فلا شيء يمكن أن يَثْنيها عن عَزْمها .

في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها ، ودّعت آلبين جميع أقاربها الذين فارقوها كما يُفارقُ من يمضي إلى الموت ، في بلد موسكوفي ، متوّحش وناءٍ . وصعدت مع مربيتها العجوز والأمينة « لودفيك » إلى عربة أبيها الصغيرة ، التي جُدِّدت لهذا السفر الطويل ، وسافرتْ .

— ٥ —

سُمحَ لميغورسكي أن يعيش خارج الثكنة في مسكن مستقل . وكان الامبراطور نيكولا لا يقضي فقط بأن يتحمل البولونيون المجرّدون من رتبهم عبءَ حياة الجندي القاسية ، بل أن يتحمّلوا أيضاً جميع المذلاّت التي كان يتعرّض لها ، في هذه الحقبة ، الجند العاديون . ولحسن الحظ أن الجزء الأكبر من مرؤوسيه كانوا يفهمون وضعه المنكود بصفته مجرّداً من رتبته ، ولم يكونوا لينصاعوا ، عندما يستطيعون ، للمشيئة العليا ، بالرغم من الخطر الذي يتعرّضون له . وكان آمر الكتيبة التي ضُمَّ إليها ميغورسكي ، جندياً نصف أمي ، مترفّعاً من الصف ، يتفهّم تماماً الوضع الذي فُرض على هذا ، الرجل المتعلم ، الغني الذي سُلبَ كلّ شيء ؛ ولذلك أشفق عليه وكان كثير التسامح معه . وكان ميغورسكي من جهته يقدّر طيب هذا الآمر ذي العارضين الأبيضين اللذين يقطعان وجهه المنتفخ ، ولكي يردّ له الجميل ، أخذ يعطي أولاده الذين يستعدّون لدخول مدرسة الضباط دروساً في الرياضيات والفرنسية

لم تكن حياة ميغورسكي في « اورالسك » التي بدأت منذ ستة أشهر رتيبةً وكئيبة فحسب بل كانت شاقّة أيضاً . ولم تكن له علاقاتٌ خارج علاقته بآمر الكتيبة الذي التزم معه موقفاً متحفظاً جداً . إلاّ ببولوني منفيّ ، قليل العلم ، ثقيل الظلّ ، شديد النشاط يُتاجر بالأسماك . وكان أكثر ما يَثْقلُ عليه هو عدم تحمّله الحرمانات . ذلك أن مصادرة أملاكه سلبتْه جميعَ موارده، ولم يكن بإمكانه أن يتدبّر معيشته إلا ببيعه المجوهرات الباقية له .

كان فرح حياتهالأعظم والأوحد هو مراسلته مع « آلبين » التي ظلّت صورتُها الشعرية والساحرة حيّةً في قلبه منذ زيارته الأخيرة لروجانكا ، والتي أخذت تزداد إشراقاً في منفاه . وقد سألته الفتاةُ في إحدى رسائلها ، بين أشياء كثيرة ، عن معنى هذه الكلمات في إحدى رسائله السابقة « مهما تكن خططي » وأحلامي » . فأجابها أنْ لا شيء يمنعه الآن من الاعتراف بأن أعزّ حلـــم له كان أن يتزوّجها . فأجابته بأنها تحبّه . فردّ عليها حينئذ أنه كان من الأفضل ألاّ تقول له ذلك لفرْط ما يشقّ عليه أن يتصوّر كيف كان يمكن أن تكون حياته ، في حين أن تلك الحياة مستحيلةٌ الآن ؛ أجابت أن هذه الحياة ليست شيئاً ممكناً فحسب ، بل شيئاً مؤكّداً أيضاً . فرفض تضحيةً لا يجوز له قبولها في الوضع الذي هو فيه .

بعد هذه المراسلة بقليل ، تلقّى حوالةً بنحو ألفي « زلوتي » (١) وأدرك من طابع البريد ومن العنوان أنها مرسلة من آلبين ؛ وتذكّر أنه وصَفَ لها في إحدى رسائله الأولى ، بلهجةٍ مازحة . كم كان سعيداً

(١) زلوتي : عملـة بولونيـة .

لأنه استطاع أن يكسب بالدروس التي يعطيها المال اللازم لشراء الشاي والتبغ وحتى الكتب . وضع الحوالة في مغلّف جديد ، وأعادها مع كلمة يرجوها فيها ألا تكدّر علاقاتهما الخالصة بالمال المُرسل ؛ وأكّد ، لها ، من جهة أخرى ، أنه يملك كلَّ ما يلزمه وأنه من أسعد الناس أن يعرف صديقةً مثلها .

عند هذا توقّفت المراسلةُ بينهما .

وفي ذات يوم من أيام تشرين الثاني ، وبينما كان ميغورسكي مشغولاً عند العقيد آمر الكتيبة باعطاء درس لولديه ، سُمِعَ جلجل البريد وتوقّفت زلاّجةٌ عند درج مدخل البيت . تراكض الولدان ليعرفا مَنْ القادم . وظلّ ميغورسكي وحده في الغرفة ، ينظر إلى الباب في انتظار الولدين. لكن زوجة العقيد هي التي دخلت وقالت :

— ها هنا سيّدة تطلبك . لاشك أنها من بلادك ، لأن لها هيئة البولونيات

لو أن ميغورسكي سُئل من قبل : « هل تعتبر وصول « آلبين » إلى هنا ممكناً ؟ » لأجاب بأن ذلك خرافة ، ومع ذلك فقد كان ، في قرارة نفسه ، ينتظرها .

تدفّق الدمُ إلى قلبه ، وجرى ، وهو يلهث ، إلى المدخل . كانت هناك امرأة ضخمة مجدورة تفك خمارها عن رأسها ؛ وخلفها امرأة أخرى . وعندما سمعت آلبين خطواتٍ خلفها التفتت بحيوية . كانت عيناها ، تحت غطاء رأسها ، بأهدابهما التي ألمَّ بها الجمدُ ، تلمعان وهما مفعمتان بالسعادة . كان الشابُ كمن يتحجّر ؛ فلم يَدْر ما يفعلة وما يقوله.

هتفت : « جوزيو » . لقد نادته بالاسم الذي كان أبوها يناديه به والتي أطلقته عفوياً ، ثم طوّقته بذراعيها . وأسندت وجهها البارد والمحمر إلى وجهه وأخذت تضحك وتبكي .

عندما علمت زوجةُ العقيد مَنْ هي « آلبين » ولماذا جاءت ، استقبلتها في بيتها وعبّرت عن نيّتها في الاحتفاظ بها إلى يوم زواجها .

— ٦ —

حصل العقيدُ الطيّبُ على إذن السلطة العليا . واستَقْدم من اورنبرغ (١) كاهناً زوّج الخطيبين . وقامت زوجةُ العقيد مقام الأم ، وحملت إحدى طالبات ميغورسكي الصورة المقدّسة ،وكان وصيف الشرف البولوني المنفيّ « برزوزوسكي » .

لم تكن تعرف آلبين زوجها مع أنها كانت تحبّهبشغف ، ولم تعرفه إلا بعد الزواج ، وإن بدا ذلك غريباً . ومن المؤكّد أنها وجدت في هذا الرجل بلحمه وعظمه كثيراً من الأشياء العادية غير الشاعرية ، وهي أشياء كانت غائبة عن الصورة التي حملتها ودلّلتها في خيالها . لكنها وجدت فيه ، وبالضبط لأنها كانت إزاء رجل بلحمه وعظمه ، صفاتٍ بسيطة وطيّبة لم تكن موجودة في الكائن الخيالي . لقد سمعت أصدقاءه يتحدّثون عن بسالته في الحرب ، وعرفت الشجاعة التي أظهرها أثناء فقدانه ثروته وحريته ؟ ولذلك تصوّرته بطلاً يعيش أبداً عيشةً فوق الطبيعة . أما في الواقع فهو ، وإن كان قوياً من الناحية الجسدية ، وشهماً

(١) اورنبرغ : مدينة على نهر الأورال ، مركز مقاطعة .

من الناحية الأخلاقية ، إلا أنه كان أودع حَمَلٍ وأبسطٍ إنسان . كانت ابتسامةُ الطفل هائمة أبداً على شفتيه الشهوانيتين ، وعثنونه وشاربيه الشقر التي فتنتْها في روجانكا ، وهذا الغليون الذي لا ينطفىء والذي ضايقها مضايقة شديدة أثناء حملها .

وكذلك ميغورسكي ؛ فهو لم يعرف ، بدوره « آلبين » على حقيقتها إلا بعد الزواج ، ومن خلالها ، كوّن ، لأول مرة فكرةً عن المرأة. إن اللواتي عرفهنّ قبل الزواج لم يكنّ قادرات على إفهامه : ما المرأة ؛ وما وجده في « آلبين ، من حيثُ هي امرأةٌ على العموم ، أدهشه ولعله كان خليقاً بأن يخيّب ظنه في المرأة على العموم ، لولا أنه شعر تجاهآلبين بصفتها آلبين ، بشعور بالغ الرقه والنبل .

كان يشعر تجاه آلبين ، من حيث هي امرأةُ على العموم ، بضربٍ من التنازل المتودّد والساخر قليلاً ، بينما كان يشعر تجاه آلبين ، بصفتها آلبين ، بالتعبد لا بالحب الرقيق وحده ؛ كان يشعر أنه مدينٌ لها بالسعادة غير المستحقّة التي منحتْه إياها .

كانا سعيدين بحبّهما وحدة ؛ كانا يشعران وهما يركّزان حبّهما كل على الآخر ، وسط الغرباء ، باحساس كائنين تائهين خدّرهما البرد فتدفّأ كلاهما بالآخر . وقد أسهم في سعادتهما مشاركة « لودفيك» الطيبة في حياتهما ، وكانت مخلصة حتى العبودية ، دائمة التذمّر ، مضحكةً ، ومحبّة للجميع . وكانا سعيدين أيضاً بولديهما . فبعد سنة من زواجهما وُلد لهما ولدٌ ؛ وبعد ثمانية عشر شهراً رُزقاً بنتاً . كان الصبي صورةً عن أمه ، بعينيها وحيويتها ورشاقتها . وكانت البنت حيواناً صغيراً جميلاً ومعافىً .

كانت تعاستهُما تأتي من بُعدهما عن وطنهما ، ولا سيّما من وضع المذلّة الدائم الذي هما فيه . وكانت آلبين تتألم من ذلك تألماً شديداً . أما هو ، جوزيو ، بطلُها ، مثلُها الأعلى ، فكان مضطراً أن يقف وقفة الاستعداد أمام كل ضابط ، وأن يقوم بالحراسة ، وبكلمة واحدة . أن يخضع خضوعاً ذليلاً . وأخيراً، كانت أنباء بولونيا أشدّ ما تكون إيلاماً . جميعُ ذويهما وأصدقائهما معتقلون خارج الوطن أو منفيّون .ولم يكن الوضعُ ، بالنسبة إليهما ، يحتمل أي تحسّن.فجميع المحاولات للحصول على العفو ، أو لترفيع ليغورسكي إلى رتبة ضابط ، ذهبتْ سدىً . وكان نيكولا الأول يأمر باقامة الاستعراضات والاحتفالات العسكرية، ويتردّد على الحفلات الراقصة ، ويبحث فيها عن المغامرات الغرامية ، ويجوب روسيا مسرعاً دون أية ضرورة ، مروّعاً الناس ، مهلكاً الخيل؛ لكنْ حين يتجرّأ أحدُ المتهوّرين ، ويسأله ، في تقرير له ، بعض التخفيف عمّا أصاب الديسمبريين والبولونيين ،هؤلاء المعتقلين المنفيين الذين كانوا يتألمون بسبب حبّهم لوطنهم الذي كان هو نفسه يمجّده ، وهو منتفخ الصدر ، شاخص البصر ، كان يجيب : « ليستخدموا أيضاً . . . الوقت مبكّرٌ جداً . » وكأنه كان يعلم حقاً اللحظة التي يحين فيها الوقت كي يكون رحيماً . وكان جميع جلسائه وجنرالاته وحجّابه ، هم ونساؤهم الذين أتخمهم ، يتأثّرون أمام فطنة هذا الرجل العظيم غير العادية وحكمته .

وعلى الاجمال كان في حيـــاة الزوجين من الفرح أكثر ممّا فيها من الألم .

مرّت خمس سنوات هكذا . وفجأة أصابتهما مصيبةٌ مروّعة : مرضت البنتُ وبعد قليل جاء دورُ الصبي . ففي غياب الأطباء ، ظلّ الصبي ثلاثة أيام متوالية فريسة للحمّى الشديدة ، ومات في اليوم الرابع ، وبعد يومين ماتت البنتُ أيضاً .

وإذا كانت آلبين لم تُلق بنفسها في نهر الأورال فذلك لأنها لم تكن تستطيع أن تفكّر دون رعب فيما سيحلّ بزوجها حين يعلم بانتحارها. لكن تحملها للحياة كان أقل صعوبة . لقد تركت كل شؤون المنزل للودفيك ، وهي التي كانت شديدة النشاط من قبل . وكانت تظل ساعاتٍ طوالاً شاخصة العينين ، أو تهبّ مذعورة ، وتجري في غرفتها الصغيرة ، دون أن تجيب بكلمة عن كلمات التعزية من زوجها ومن المربية ، فتبكي بصمت وتتوسّل إليهم أن يتركوها وحدها.

في الصيف ، كانت تذهب إلى قبر ولديها وتهدّ قلبها بالتفكير فيما كانوا عليه وفيما صارا إليه . وكانت تعذّبها هذه الفكرةُ وهي أن ولديها كانا سيعيشان لو أنها سكنت المدينة حيث يكون إسعاف الطبيب ممكناً .

فكّرتْ : لمَ ذلك ؟ لم نكنْ جوزيو وأنا نطلبُ شيئاً من أحد ؛ كانت رغبتُنا الوحيدة أن نعيش كما عاش أجدادُنا ؛ وبالنسبة إلى ، فأنا لم أكن أطمح إلا بأن أعيش معه ، وأن أحبّه ، وأن أعشق ولديّ ، صغيريّ ، وأن أربّيهما ...وإذا به يُعتقل ويُنفى ويُنتزَع مني ما هو أغلى من النور . لماذا ؟ لماذا ؟

هكذا كانت تسأل الناسَ والله . لم يكن بوسعها حتى أن تتصور إمكان العثور على جواب ما ؛ ومن دون هذا الجواب لم يكن للحياة أي

معنى بالنسبة إليها ، لقد توقفت الحياةُ . وغدتْ حياةُ المنفى البائسة التي كانت تزيّنها من قبل برشاقتها وذوقها لا تُطاق ، لا بالنسبة إليها وحدها ، بل بالنسبة إليها وإلى ميغورسكي الذي كان يتألم من أجلها ولا يدري كيف يعزّيها .

— ٧ —

في هذه اللحظات الشاقّة وصل إلى « أورالسك» بولونيٌّ يُدعى «روزولوسكي » ، كان قد اشترك في إعداد المشروع الجريء المحرّض على تمرد المنفيين السيبيريين وفرارهم اللذين نظمّهما كاهنٌ منفي يُدعى « سيروسنسكي (١) » . وكما وقعَ لميغورسكي ولآلاف المنفيين الذين كان جرمهم الواحد هو حرصهم على البقاء كما كانوا ، أي بولونيين ، جُلد « روزولوسكي » وأُلحق بالكتيبة التي كان ميغورسكي فيها .

كان الوافد الجديد ، وهو أستاذ رياضيات قديم ، طويلاً ، مقوّس الظهر قليلاً ، هزيلاً . كان خدّاه أجوفين ، وجبهته مسمرّة ومنذ أول مساء لوصوله ، أخذ يروي ، وهو جالسٌ أمام فنجان شاي في منزل ميغورسكي ، أخذ يروي طبعاً بصوت خفيض ، هادىء ، القضية التي تألم منها بمرارة . لقد شكّل الراهبُ « سيروسنسكي » جمعيةً سريّة تمتدّ فروعها في كل سيبيريا ، وهدفها انتفاضة الجنود والمحكومين بالأشغال الشاقة والمنفيين بمساعدة البولونيين الملحقين بكتائب القوزاق والمشاة ، والاستيلاء على المدفعية في « اومسك (٢)» وتحرير الجميع .

(١) سيروسنكي : كاهن بولوني نفي إلى سيبيريا ونظم فيها تمرد المنفيين .
(٢) اومسك : مدينة في سيبيريا الغربية .

سأله ميغورسكي :

— أكان ذلك ممكناً .

قال روزولسكي وهو يقطب حاجبيه :

— ممكناً جداً : كان كل شيء جاهزاً .

وشرح بهدوء كل الخطة وكل التدابير التي اتخذت من أجل سلامة المتآمرين في حال إخفاق المحاولة . وكان النجاح محققاً لولا أن وشى بهم مجرمان . وكان الراهب ، إذا صدقنا « روزولوسكي » ، رجلاً عبقرياً ، ذا عزيمة نفسية قوية ؛ ولذلك مات بطلاً وشهيداً .

أكمل « روزولوسكي حكايته بصوته الذي لم يَبْدُ عليه التأثر ، راوياً جميع تفاصيل التعذيب التي اضطرّ أن يحضرها ، بناءً على أمر السلطات ، مع جميع الذين شاركوا في المؤامرة :

شكل فوجان مصطفّان في صفّين ، ممراً طويلاً : كان كلُّ جندي مزوداً بعصاً ليِّنة ، بمقدار ثلث أنبوب البندقية ، وقد وافق القيصرُ على نموذجها : كان أول المحكومين الذين أُتي بهم الدكتور «زوكالسكي » أمسك به جنديان ، بينما كان الآخرون يضربون ظهره العاري بعصيّهم في اللحظات التي يمر فيها بمحاذاتهم : لم أشعر بهذا العذاب إلا في اللحظة التي اقترب بها ذلك المنكود من الموضع الذي كنت فيه ؛ فحتى هذه اللحظة لم أكن أسمع سوى قرع الطبل ولم أفهم التعذيب إلا في اللحظة التي سمعت فيها صفير العصي وصوتها وهي تنهال على اللحم البشري . رأيتُ الجنود يجورّنه ببنادقهم ، بينما كان يمشي وهو يرتعد ويدير رأسه إلى هذه الجهة تارةً وإلى تلك تارةً أخرى : وعندما وصل أمامنا ، سمعت طبيباً روسياً يقول للجندي : « لاتضربوه هذا الضرب المبرح ،

ارحموه ». لكنهم لم يكفّوا عن الضرب ؛ وعندما عاد إلى قدّامي ، لم يكن يقوى على المشي ، كانوا يجرّونه جرّاً . كان ظهره بشع المنظر فأغمضتُ عيني ؛ وسقط أرضاً فحملوه . ثم جاء دورُ الثاني والثالث والرابع . كانوا جميعاً يسقطون فيُحملون أمواتاً أو أحياء على شفا الموت ، وكنّا مجبرين أن نبقى هناك وأن نُنظر . دام التعذيب ست ساعات من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثانية . وكان آخرهم سيروسنسكي نفسه الذي لم أره منذ زمن بعيد . ولم أكن لأتعرّفه لفرط ما كبر . كان وجهه الأجرد مغضّناً بلون مخضرّ ، وكان جسمه الذي عُرّي ، هزيلاً ، اصفر ، نأتيء الأضلاع . كان يرتعد عند كل ضربةٍ كالآخرين ، ويرفع رأسه . ولم يتأوه البتّة ،بل كان يصلي بصوتٍ عالٍ : « ارحمني ، يا رب ، برحمتك العظيمة ».

وقال روزولوسكي بحيوية :

ــ لقد سمعتُه بأذنيّ .

وأغلق شفتيه ، وأخذ ينفخ من أنفه .

كانت « لودفيك » الجالسة قرب النافذة ، تنتحب . صاح ميغورسكي وهو يرمي غليونه :

ــ ما الحاجة إلى رواية كل هذه التفاصيل ! الوحوش تظلّ وحوشاً

نهض فجأة ، ومضى بخطوات حثيثة إلى غرفة النوم الغارقة في العتمة كانت « آلبين » شاخصة العينين ، وكأنها متحجّرة .

— ٨ —

في اليوم التالي ،عندما رجَعَ ميغورسكي من التدريب ، دهش وفرح حين رأى امرأته تلاقيه بخطاً خفيفة ، ووجهٍ مشرق ، كما كانت تفعل قديماً . وقادته إلى غرفة النوم :

— اصغ إليّ ، الآن .

— أنا مصغٍ ، ماذا جرى ؟

— لم أنم الليلة وأنا أفكر في حكاية « روزولوسكي » . لقد صمّمتُ . لا أستطيع أن أستمر في العيش هكذا ، لا أريد أن أبقى هنا . الموتُ ولا البقاء هنا .

— لكنْ ما العمل ؟

— نهرب .

— نهرب ؟ كيف ؟

— لقد قدّرتُ كل شيء ، اصغِ .

وأطلعتْه على الخطّة التي تصورتها أثناء الليل . يتركُ زوجُها البيت عند حلول الظلام ، ويترك على ضفة « الأورال » معطفه ، وعلى المعطف رسالة يُعلن فيها انتحاره . وسيظن الجميع أنه انتحر . وسيبحثون عنه، وستكون هناك مخاطباتٌ ورقيّة بين المكاتب ، بينما هو مختفٍ . وسوف تخفيه بمهارة فلا يكتشفه أحدٌ . يمكن أن يمرّ شهرٌ على هذا المنوال ، وعندما يهدأ كلّ شيء فسوف يستغلّون ذلك للهرب .

بدت الخطةُ لميغورسكي ، في البدء ، غير قابلة للتحقيق . لكنه تزعزع ، في آخر النهار ، من قناعة زوجته . ومن جهة أخرى ، كان هناك داعٍ آخر يدعوه إلى الأخذ برأيها : ففي حالة الفشل : لن يهدّد العقابُ الذي سيصيبه على نحو ما أصاب « روزولوسكي » أحداً غيره ، في حين أن نجاح الخطة يمكن أن يحرّر زوجته وكان يرى إلى أي حدّ كانت الحياةُ شاقةً عليه منذ موت ولديهما .

اطّلعَ روزولسكي ولودفيك على الخطة ، وبعد مشاورات مطوّلة ، وعدة تعديلات ، اقرّت خطّةُ الهرب . قُرِّر أولاً أن يهرب ميغورسكي وحده ، بعدتظاهره بالانتحار . وينبغي أن تسافر آلبين في عربة وتلحق به في مكان متّفق عليه . هكذا كانت الخطة الأولى . لكن عندما روى روزلوسكي جميعَ محاولات الفرار الفاشلة في سيبيريا أثناء السنوات الخمس الأخيرة (شخصٌ واحد نجح في الفرار) ، اقترحت آلبين خطةً أخرى .

سيختبىء « جوزيو » في العربة ، ويسافر معها ومع « لودفيك »حتّى « ساراتوف » . وهناك ، يغيّر ثيابه ، ويسير على قدميه محاذياً شاطىء الفولغا ، وفي نقطة محدّدة ، يركب في قارب تستأجره في ساراتوف ، وينزلون ثلاثتهم الفولغا حتّى « استراخان » ويقصدون فارس من بحر قزوين . اقِرَّت هذا الخطةُ من الجميع ، وعلى رأسهم روزلوسكي.بيد أن هناك صعوبةً اعترضت ، وهي إعداد مخبأ في العربة لا يسترعي انتباه السلطات ويمكن أن يُخفي رجلاً .

في هذه الأثناء ، أعربت آلبين التي زارت قبرَ والديها ، لروزولوسكي عن ألمها أن تضطر لترك رفات والديها ، في بلد أجنبي . فقال بعد لحظة من التفكير :

— اطلبي الإذن بنقل رفاتهما وسيمنحونك إياه .

قالت آلبين :

— لا ، لا أريد ذلك ولا أستطيعه !

— اطلبي ذلك ، هذا هو المهم . لن نأخذ معنا الرفات ، والصندوق الكبير الذي سنصنعه لهذه الغاية سيكون مخبأ لجوزيو .

رفضت آلبين ، في بداية الأمر ، هذا الاقتراح . فقد كان يؤلمها أن تَقْرنهما بخدعةٍ . لكن عندما وافق ميغورسكي بسرور على هذا المشروع ، وافقت بدورها .

اقرّت الخطةُ نهائياً إذن على النحو التالي : ينبغي أن يفعل ميغورسكي ما يجب فعلُه لإقناع السلطات بأنه انتحر غرقاً . وعندما يُعتّرف بموته ، تتقدّم آلبين بالتماسٍ تطلب فيه السماح لها بالعودة إلى بلادها حاملةً معها رفات والديها . فاذا ما تزوّدت بهذا الإذن تظاهرت بنقل الرفات ، ويستقر ميغورسكي في الصندوق المُعَدّ لهذه الغاية .

يستمر السفرُ هكذا حتى ساراتوف حيث ينبغي أن يتمّ الإبحار . وفي السفينة ، يخرج جوزيو من الصندوق ويتجهان إلى بحر قزوين ، ومنه إلى بلاد فارس أو إلى تركيا : وسينالان حريتهما .

— ٩ —

اشترى الزوجان عربةً كبيرة بحجة إعادة المربّية إلى الوطن ، ثم أخذا يصنعان صندوقاً بحيث يمكن الدخول إليه والخروج منه دون إثارة الانتباه ،

وبحيث يظل مضطجعاً فيه دون أن يُعوزه الهواءُ . كانت مساعَدَةُ روزولوسكي لهذا الترتيب ثمينة جداً ، لأنه كان نجّاراً ممتازاً . وأخيراً ثُبِّتَ الصندوق في مؤخّرة العربة بحيث ينفتح الحاجز الذي يمسّ الصندوق فيستطيع الذي فيه أن يمد جزءاً من جسمه في الصندوق والجزء الآخر في صدر العربة . واحدثتْ ثقوبٌ ، وثُبّتت حُصرٌ بحبالٍ تحيط بها من كل الجوانب . وكان الصندوق ينفتح في داخل العربة.

عندما صار كلُّ شيء جاهزاً ، قصدتْ آلبين بيت العقيد وقالت له ، لكي تضلّل السلطات ، إن زوجها الغارق في الكآبة حاول أن ينتحر ، وأنها تخاف على حياته ، وتلتمس له بضعة أيامٍ من العطلة . وقد ساعدتها مواهبها التمثيلية هذه المرة خيرَ مساعدة .

بدا القلقُ المؤلم الظاهر على وجهها طبيعياً جداً حتى إن العقيد تأثّر ، ووعد أن يفعل ما بوسعه . ثم كتب ميغورسكي الرسالة التي سوف يُعثر عليها في كمّ معطفه ، وفي المساء المحدّد ، اتّجة إلى النهر ، وانتظر الظلام ، ووضع على الضفة معطفه والرسالة ورجع إلى بيته مستخفياً . وكان قد اعدّ له مكانٌ في مخزن الحبوب . وفي وسط الليل ، أرسلتْ آلبين « لودفيك» إلى العقيد لتنبئه بأن زوجها الذي خرج منذ نحو عشرين ساعة لم يعد إلى البيت بعد . وفي الصباح ، بعد أن حملت إليها رسالةُ زوجها ، هرعت إلى منزل العقيد ، وهي فريسة لأعنف الأسى .

بعد أسبوع ، أرسلت آلبين التماساً تطلب فيه السماحَ لها بالعودة إلى وطنها ؛ وكان الحزنُ الذي تبديه يهزّ جميع الذين يرونها ، فيشفقون على مصير هذه الزوجة والأم البائسة . وعندما جاء الأذن بالسفر ،

تقدّمت بالتماسٍ آخر متعلّق بولديها ، فمنحتها السلطات هذا الإذن الجديد ، وإن أدهشتهم هذه الحالة العاطفية.

في اليوم التالي ، وعند تلقي الأذن الثاني ، قصد روزولسكي وآلبين ولودفيك المقبرةَ ، عند حلول الظلام ، في عربة مستأجرة ، ومعهم الصندوق المعدّ لنقل الرفات . وبعد أن صلّوا أمام القبر ، نهضت آلبين بعجلة ، ومسحت دموعها ، وقالت لروزولسكي :

— تصرّفْ أنت ، فأنا مُرهقة .

وابتعدت .

أزاح روزولوسكي ولودفيك حجر القبر ، وحرّك التراب فوق التابوتين . وعندما انتهى كلُّ شيء ناديا على آلبين ، ورجعوا بالكيس مملوءاً بالتراب .

حان موعدُ السفر . كان روزولسكي مبتهجاً بسير المشروع الموفّق. وكانت لودفيك قد أعدّت للسفر كثيراً من الحلوى والفطائر ؛ وكانت تقول إن قلبها يتمزّق من الخوف والفرح . كان ميغورسكي سعيداً بانتهاء أسره في مخزن الحبوب الذي حُبِسَ فيه منذ شهر ، وسعيداً ، قبل كل شيء ، بالانتعاش والفرح اللذين أظهرتهما آلبين . بدا عليها أنها نسيت كلَّ مصائب الماضي ومخاطر المستقبل ، وكان وجهها يشعّ بالحماسة كلما صعدت لتراه ، كعهده بها في شبابها.

في الساعة الثالثة صباحاً ، وصل القوزاقي الذي سيصحب المرأتين ، وكذلك الحوذي وجياده الثلاثة . جلست آلبين ولودفيك ، وعلى ذراعيها كلبٌ صغير ، على وسائد داخل العربة . صعد القوزاقي إلى جنب الحوذي. وكان ميغورسكي الذي ارتدى ثياب فلاحٍ ممدّداً في الصندوق

تجاوزوا آخر بيوت المدينة ، وانطلقت العربةُ بكل سرعتها على الطريق المستوية ، والمرصوفة رصفاً متيناً ، والموغلة في أواسط السهوب البائرة الممتدّة إلى اللانهاية .

— ١٠ —

كان قلب آلبين يخفق أملاً وحماسةً . لم تستطع أن تتمالك نفسها ، فأخذت تومىء برأسها ، إلى لودفيك ، مع ابتسامة خفيّة ، لتنبّهها تارةً إلى ظهر القوزاقي العريض ، وتارة أخرى إلى صدر العربة . وكانت لودفيك تنظر أمامها ، وقد بدا عليها أنها فهمت إشارتها ، دون أن ترمش مغضّنةً شفتيها قليلاً .

كان الجوّ صافياً ؛ وكانت صحراء السهوب اللمّاعة تمتّد من كل الجهات إلى اللانهاية ، مفضضة تحت الأشعة المائلة لشمس الصباح . وعلى جانبي الطريق ، حيث كان يرنّ على الاسفلت الجريُ السريعُ للجياد البشكيرية (١) ، بدت أكمات أوجرة « المرموط » وخلف كل جماعة منها حيوانٌ حارسٌ صغير ، ينطلق إلى وجاره بعد أن ينبّه على الخطر بصفيره الحاد . ولم يكونوا يصادفون سوى مسافرين نادرين : رتل من العربات المحمّلة بالقمح ، أو بشكيري على حصانه يتبادل معه القوزاقي بعض كلمات تتريّة بسرعة .

عند كل إبدال للخيول ، كانت الجياد الجديدة التي يستأجرونها نشيطة ، حسنة التغذية ، وكان الحلوان الذي توزّعه آلبين على الحوذيين يسرّع البريد على حد تعبير آلبين .

(١) بشكيرية : البشكير شعب تتري في غربي الاورال .

عند أول وقفة ، انتهزت آلبين اللحظة التي كان الحوذي يسوق الجياد فيها إلى مكان الابدال والتي دخل فيها القوزاقي إلى الفناء ، فانحنت نحو زوجها وسألته كيف حاله ، وإن كان يحتاج إلى شيء .

— أنا في حالة جيدة ، ولست أحتاج إلى شيء ، وأستطيع أن أبقى هكذا ثماني وأربعين ساعة .

عند المساء ، وصلوا إلى بلدة « دير غاتشي» الكبيرة . ولكي تسمح آلبين لزوجها أن يتنفس قليلاً وأن يُريح أعضاءه ، أمرت بالتوقّف ، لا في مكان البدل ، بل في النزل ؛ ثم لم تلبث أن أرسلت القوزاقي ليشتري حليباً وبيضاً . وضعت العربةُ تحت الطنف وبما أن الجو أظلم . فقد فُرزت لودفيك لترصد عودة القوزاقي ، وأخرجت آلبين زوجها وأطعمته ، واستطاع بعد ذلك أن يعود إلى مخبئه في الوقت المناسب .

ارسل مَنْ يُحضر الجياد واستأنفوا السير . كانت آلبين تحسّ بالفرح أكثر فأكثر ، ولم تستطع أن تكبح حماستها . لم يكن بامكانها أن تحدّث غير لودفيك والقوزاقي أو الكاتب الصغير ، لكنها لم تمتنع عن السخرية مــن الثلاثة جميعاً.وكانت « لودفيك » ، بالرغم مــن بشاعتها ، تشك في كل رجل بأن له فيها مطمعاً غرامياً ، فاعتقدت أنها أصبحت محبوبةً من القوزاقي القوي والطيب الذي كانت نظرته الصريحة وسذاجته العظيمة تعجب المرأتين . وكانت « آلبين » تهزأ من « الكنز » الصغير الذي كانت تهدّده باصبعها كلما شمّ الصندوق ، وتسخر من لودفيك وغنجها المضحك مع القوزاقي البريء من أية نيّة غرامية . لقد استفزها الخطرُ ، وبدايةُ تحقّق خطّتها ، ومنظر السهوب الحي ، فأحسّت بانشراح وبهجة صبيانيتين لم تشعر بهما منذ زمن طويل . وكان ميغورسكي

يسمع تلك الثرثرة الفرِحة فينسى الضيق الشديد الذي يعانيه ، والحرّ والعطش اللذين آلماه ، ويفرح لفرحها .

في نهاية اليوم الثاني ، أخذوا يتبيّنون في الضباب أشكالاً مبهمة : كانت تلك الأشكال مدينة ساراتوف والفولغا . وقد شاهد القوزاقي الذي تعودّت عيناه السهوب ، شاهد بوضوح النهر والسواري وأخذ يُريها لودفيك . وكانت لودفيك تزعم ، بالطبع ، أنها تراها . ولم تكن « آلبين » تميّز شيئاً ، لكنها صرخت عمداً مخاطبةً « الكنز » ، وهي تنوي أن تعلن ذلك لزوجها

— هذه هي ساراتوف ، هذا هو الفولغا .

— ١١ —

أمرت آلبين بالتوقف على ضفة الفولغا اليسرى ، دون دخول ساراتوف ، عند قرية « بوكروفسكايا » ، قبالة المدينة . كانت تأمل أن يُتاح لها التحدثُ إلى زوجها ، أثناء الليل ، بل واخراجُه من الصندوق لسوء الحظ لجأ القوزاقي إلى طنبر فارغ واقف في مكان قريب منهم ، لقضاء هذه الليلة القصيرة من أيام الربيع . وكانت لودفيك التي لزمتْ العربة بناءً على أمر آلبين ، على يقين بأن القوزاقي لن يبتعد كثيراً بسببها ، فأخذت تطرف بعينيها وتضحك وتغطي وجهها المجدور بخمارها . لكن آلبين لم تكن تضحك وأخذ قلقها يتعاظم بسبب موقف القوزاقي الغريب .

خرجت آلبين ، عدة مرات ، أثناء هذه الليلة المقمرة ، من غرفة النزل ، عبر الباب الخلفي . لكن القوزاقي لم ينم وظلّ قاعداً في الطنبر

الفارغ . ولم تستطع آلبين أن تبادل زوجها بضع كلمات إلا عند الفجر . عندما بدأت الديكة تتصايح . كان القوزاقي متمدداً في الطنبر يشخر . دنتْ برفقٍ من العربة وصدمت الصندوق وقالت :

— جوزيو

فلم يجب أحد .

واستأنفت بصوت أعلى وهي قلقة :

— جوزيو ! جوزيو !

أجاب صوتُ ميغورسكي الغافي

— ماذا ؟ مابلكِ ؟

— لمَ لا تجيب ؟

— كنتُ نائماً .

وأدركت آلبين من ارتجاف صوته أنه كان يضحك .

— حسناً ! أيمكنني الخروج ؟

— غير ممكن ، فالقوزاقي هنا .

عندما لفظت هذه الكلمات نظرتْ إلى القوزاقي ، فرأت شيئاً غريباً . كان القوزاقي يشخر وعيناه الزرقاوان الطيّبتان مفتوحتين : كان ينظر إليها ، ولم يخفض جفونه إلا عندما اصطدمت نظرتُه بها . وتساءلت آلبين :

« أكان ذلك وهماً ، أم أنه لم يكن في الحقيقة نائماً ؟ » وما لبثت أن قالت في نفسها وهي تلتفت إلى الصندوق : « كلا ، ذلك وهمٌ ». وقالت

— اصبرْ قليلاً . هل أنتَ جائع ؟

— لا ، وإنما أودّ أن أدخّن.

ألقت آلبين نظرة أخرى على القوزاقي . كان ينام . ففكرت : لاشك أن ذلك كان وهماً.

— أنا ذاهبة رأساً إلى الحاكم .

— هيّا ، اذهبي ؛ حظاً سعيداً .

أخرجت آلبين من حقيبتها أحد فستاتينها ودخلت النزلَ لتغيّر ثيابها .

بعد أن لبست أجمل فساتينها ، عبرتْ الفولغا . وعلى الرصيف ، استأجرت عربةً وأمرتها بالتوجّه إلى الحاكم . أعجبتْ البولونيّةُ الأرملةُ الشابةُ ، المبتسمة أبداً ، والتي تتكلم الفرنسية باتقان ، الحاكم، العجوز الجميل ، فمنحها الرُخص التي طلبتْها ، ورجاها ن تعود ، في اليوم التالي ، لتأخذ الأمر المكتوب الموجّه إلى رئيس مدينة «تزارستين»(١)

سعدتْ بنجاح طلبها وبالانطباع الذي تركته في الحاكم ، فنزلت الضفة المفضية إلى الميناء ، وهي ملأى بالأمل . كانت الشمس قد ارتفعت فوق أشجار الغابة المجاورة ، وتراقصت أشعتها على صفحة الماء العريضة. وكانت تُرى ، على اليمين وعلى الشمال ، فوق الهضاب ، أشجارُ التفاح المزهرة ، مثل سُحُبٍ صغيرة بيضاء . وكانت غابةٌ من السواري تنتصب في النهر ، والأشرعة تخفق في الهواء .

عندما وصلت المرفأ ، حدّثت آلبين حوذيّها لتعلم إن كان ممكناً استئجار مركب للذهاب إلى « استراخان » . عند هذه الكلمات ، عرض

(١) تزار ستين (مدينة القيصرة) ، تقع على الفولغا الأدنى ، سميت سنة ١٩٢٦ . ستالينغراد وغير اسمها بعد المؤتمر الثاني والعشرين الى فولغوغراد .

نحو عشرة من أصحاب المراكب خدماتهم بفرح . استبقتْ منهم واحداً أوحى إليهابثقة أكبر من غيره وأصعدتْ إلى المركب . كان المركب مزوّداً بسارية لها شراع يسمح باستخدامالهواء . فاذا لم يكن هواءٌ ناب عنه جدّافان نصَحَ قائد المركب الشهمُ بالاحتفاظ بالعربة وبوضعها في المركب بعد رَفْع عجلاتها

— سيسعُها المركب وستكونون أكثر راحةً . واذا واتى الجوّ ، فسوف نبلغ « استراخان » بعد خمسة أيام ، بعون الله .

اتفقت آلبين مع صاحب المركب على السعر وطلبت إليه أن يأتي إلى نزل بلدة بوكروفسكايا ، ليرى العربة ويتسلّم العربون . كان كل شيء يتم بأحسن مما أَمِلتْ . غمرتها السعادة ، فعبرتْ الفولغا وعادت إلى النزل .

— ١٢ —

كان أصلُ القوزاقي « دانيلو ليفانوف » من « ستريلتسك » وكان عمره أربعة وثلاثين عاماً ، وكان سينهي خدمته العسكرية بعد شهر . كانت أسرته تتألّف من جدّ ابن تسعين عاماً ما يزال يتذكّر «بوغاتشوف» ، ومن أخوين ، ومن زوجة أخيه البكر الذي نُفي إلى سيبريا بسبب إيمانهبعقيدة آبائه ، ومن امرأته هو وبنتيه وابنيه . أما أبوه فقد قُتل في الحرب ضد الفرنسيين ؛ ولذلك أصبح هو سيّد الأسرة وكان في بيته ستة عشر جواداً ، وأربعة وعشرون ثوراً . وكانت الأسرة تملك أخيراً مساحةً واسعة من الأرض المزروعة قمحاً . وقد خدمَ دانيلو أولاً في « اونبرج » ، ثم في قازان . وظلّ شديد التمسك بعقيدته القديمة ، فلا

يدخّن ، ولا يستخدم مواعين الذين يخالفونه في العقيدة ، ويراعي بدقة يمينَ الولاء الذي حلفه للقيصر . وكان في كل ما يصنعه حازماً ، بطيئاً ، وحذراً .

تلقّى هذه المرة ، أمراً بمرافقة بولونيتين ونعشين إلى ساراتوف ، حتى لا يقع لهم في الطريق ما يُزعج ، وحتى تتصرّفا أيضاً تصرّفاً حسناً . وكان عليه أن يسلّمهما في « ساراتوف » إلى السلطات بكل أمانة.

وهكذا صحبهما إلى «ساراتوف» ، هي وكلبها الصغير والخادمة والنعشين. وكانت المرأتان رقيقتين ، لطيفتين ، لم تُسيئا في شيء ، وإن كانتا بولونيتين . بيد أنه في « بروغروفسكايا» ، رأى ، عند المساء ، الكلب الصغير يشب إلى داخل العربة ، وينبح ويحرك ذنبه ، وسمع صوتاً يصدر من تحت المقاعد ، وشاهدا إحدى المرأتين ، الكبرى منهما ، تلحظ الكلب في العربة ، فتُبدي قلقها ، وتمسك بالكلب وتحمله بعيداً.

فكّر القوزاقي وأخذ يتنصّت : « ليس هذا طبيعياً»

عندما اقتربت البولونية الشابةُ من العربة تظاهر بأنه نائم وسمع بوضوح صوت رجل ينبعث من الصندوق . وفي الصباح الباكر ، قصد المخفر وأعلن أن المرأتين اللتين عهد بهما إليه لا تتصرفان كما ينبغي لهما ، وأنهما تحملان كائناً حيّاً في صندوق الرفات .

عندما وصلت آلبين النزل ، وهي واثقة من نهاية شقائهما ومن خلاصهما القريب ، فوجئت حين رأت قرب الباب عربةً أنيقة يصحبها قوزاقيان . وقد ازدحم أمام باب العربات جمهور يحاول أن يرى ما يجري في الفناء :

كانت آلبين ملأى بالأمل والقوة إلى حد كبير لم يخطر معه على بالها أنه يمكن أن تكون ثمة صلة بين هذا الجمهور ، وتلك العربة وبينها هي . دخلت الفناء . وشاهدت أناساً متجمهرين حول عربتها ، وسمعت نباح الكلب العنيف. وقع بالضبط ما كانت تخشاه أشد خشية . فأمام العربة ، وقف رجل ، مهيب الهيئة ، أسود العارضين ، متحزوماً في بزة كانت أزرارها المذهبة تبرق في الشمس ، محتذياً جزمة ملمّعة . كان يلقي أوامر قصيرة بصوته المبحوح الحاسم . وأمامه وقف ، بين جنديين ، جوزيو ، وهو في ثياب فلاح ، وعلى شعره بقايا قش ، يهزّ كتفيه القويتين كأنه يتساءل عمّا يجري حوله . وكان الكلبُ «الكنزُ» الذي لم يتبادر إلى ذهنه أنه سبب هذه المصيبة ، ينبح بهياج على رئيس الشرطة .

ارتعد ميغورسكي عندما شاهد آلبين . وهمّ بالاندفاع إليها ، فمنعه الجنديان .

قال ميغورسكي بابتسامته الوادعة :

— لا أهمية لهذا ، لا أهمية لهذا .

قال رئيس الشرطة :

— آه ! هذه هي السيدةُ نفسها . اقتربي !

وأشار إلى ميغورسكي ، وقال :

— أهذا هو رفاتُ ولديكِ ؟

لم تحر « آلبين » جواباً ، لكنها كانت تنظر برعب إلى زوجها ، فاغرةً فمها ، ويداها متشنجتان على صدرها.

وكما يحدثُ دائماً في اللحظات الحاسمة من الحياة ، عاشت من جديد ، في ذكرياتها ، وفي ثانية واحدة ، بحراً من العواطف والأفكار ، وإن لم تستطع بعدُ أن تفهم فداحه مصيبتها .

كان شعورها الأول هو الذي عرفته منذ زمن بعيد : كبرياؤها المهانة ، لدى رؤيتها زوجها ، بطلها المُذَل أمام هؤلاء الرجال الأفظاظ المتوحشين الذين أخضعوه لسيطرتهم . وفكّرت في البدء : « كيف يجرؤون أن يضعوا اليدَ عليه وهو أفضل الناس.

الإحساسُ الثاني كان وعيُها للمصيبة الواقعة وقد ابتعث فيها هذا الإحساسُ ذكرى أعظم مصيبةٍ في حياتها : موت ولديها .

لماذا ؟ لماذا سُلِبتْ ولديها ؟ ولماذا تُرهق المصيبةُ الآن زوجَها ، أعزّ الناس وأفضلهم ؟

عندئذ تذكّرت العقابَ المُزري الذي ينتظره والذي كانت هي سببه الوحيد .

سألها قائد الشرطة :

— ما قرابته لك ؟ أهو زوجك ؟

صاحت :

— لماذا ؟ لماذا ؟

ثم تملّكها ضحكٌ هستيريّ ، وسقطت على الصندوق المرميّ بجانب العربة .

هرعت لودفيك والنحيب يهزّها ، ووجهها يفيضُ بالدمع . وأخذت تردّد وتلاطف آلبين ، وهي زائغة العينين :

— يا سيدتي العزيزة ، يا سيدتي العزيزة ! والله لن يحدث شيء!

غُلّتْ يدا ميغورسكي واقتيدَ . وعندما رأته آلبين يمضي هكذا ، اندفعت نحوه :

– سامحني ! سامحني ! أنا وحدي المذنبة !

قال قائد الشرطة وهو ينحّيها بيده :

– سوف نرى أين المذنب !

اقتيد ميغورسكي نحو النهر ، بينما تبعته آلبين دون أن تتبيّن ما كانت تفعله ، بالرغم من توسّلات لودفيك .

في هذه الأثناء ، كان القوزاقي دانيلو ليفانوف يقف بجنب العربة ويلقي نظرات متجهّمة ، على قائد الشرطة حيناً ، وعلى آلبين حيناً آخر ، وعلى قدميه في بعض الأحيان .

عندما سافر « ميغورسكي » ظل « الكنز » وحده وأخذ يحتكّ بالقوزاقي محركاً ذنبه ؛ لقد ألفه أثناء السفر . وفجأةً ابتعد القوزاقي عن العربة ، وانتزع قبّعته ، ورماها بشدةٍ على الأرض ، ونحّى « الكنزَ » بقدمه ، ومضى هارباً إلى الحانة. وهناك ، طلبَ ماءَ الحياة ، وشرب طوال النهار والليل ، وأنفق كل ما معه . في اليوم الثاني فقط ، عثر عليه في حفرة ، لقد كفّ عن التفكير في المسألة التي عذّبته : هل أحسن صنعاً عندما وشى بزوج البولونية للسلطات ؟

حوكم ميغورسكي وحُكم على فراره بألف جلدةٍ كما حكم على السيبيريين قبله . واستطاع ذووه ، وكذلك « واندا » الذين كان لهم معارف ذات شأن في بطرسبرج ، تبديل العقوبة . فنفي نفياً مؤبداً إلى سيبيريا . وتبعته آلبين .

أما نيكولا الأول فكان سعيداً لأنه سحق تنّين الثورة لا في بولونيا وحدها ، بل في اوروبا بأسرها : كان فخوراً بأنه لم يخالف تقاليد الحكم الفردي المطلق ، وبأنه أخضع بولونيا لمصلحة وطنه العظمى . وكان رجالٌ مثقلون بالأوسمة ، مزدانون بالمزركشات يكيلون له المدائح كيلاً خُيِّل إليه معها بصدق أنه رجلٌ عظيم ، وأن حياته وفّرت السعادة للانسانية على العموم ، وللروس على الخصوص ، في حين أنه استخدم لا شعورياً جميع قواه لإفسادهم وتَبْليدهم.

* * *

التـــوت البري
(١٩٠٦)

— ١ —

كانت تلك الأيام أياماً حارّةً لا نسيم فيها من شهر حزيران . وفي الغابة ذات الورق الكثيف . الأخضر ، الممتلىء بالنسغ ، كانت أشجار البتولة والزيزفون التي اصفرّت هي وحدها التي أخذت أوراقها تتساقط في بعض المواضع . وعلى أدغال النسرين انهالَ وابلٌ من الأزهار العطرة. وكانت فُرَجُ الغابة مغطّاةً بالنفل الذي يمتصه النحل ؛ ومن الشيلم ، والقمح العالي والثقيل ، المتموّج في الشمس ، تعالى صياحُ السمّاني. وفي الأغيال تجاوب الصفردُ ؛ وكان العندليب يُرسل بين الحين والحين زغردةً ثم يسكت . وكانت الحرارةُ الجافة تحرق الطرقات حيث الغبار السميك بمقدار الاصبع يرقد بلا حراك تارة ، ويرتفع تارةً أخرى في سحبٍ كثيفة خلالها كان الفلاحون الذين انتهوا من حصاد الكلأ ينقلون على عرباتهم الزبلَ ببطء . وظلّت الماشية جائعة في المروج المحصودة منتظرة طلوع العشب الجديد : وأخذت الأبقار والعجول تركض وتنتطح ؛ وعُني الأولاد بحراسة الخيول على التلال ؛ ومضت النساءُ إلى

الغابة ليبحثن عن العشب ، بينما كانت البناتُ كباراً وصغاراً يجنين التوتَ البرّي ليبعْنه لأهل المدينة الذين جاؤوا للاصطياف .

كان هؤلاء المحظوظون في هذه الدنيا ، المقيمون في بيوت شديدة الأناقة ، يتنزهون في الممرات المذهبة برمل البساتين ، وهم يرتدون ثياباً ثمينة ، أنيقة وخفيفة . وكان آخرون يجلسون في ظل الأشجار أو في الأكشاك ، هرباً من الحرّ ، ويشربون الشاي أو المشروبات الباردة .

أمام دارة نيكولا سيميونيتش المزخرفة جداً ، ببرجها الصغير ، وشرفاتها ، وأبهائها ، وقفت عربة المسافرين المقطورة بعربة « ترويكا» فخمة حافلةٍ بالجلاجل ، لقد نقلت لتوّها سيّداً من بطرسبرج .

كانت تلك الشخصية سيّداً ليبيرالياً معروفاً ، ينتسب إلى جميع الجمعيات واللجان ، ويوقّع على غرائض مؤلّفة بمهارة ، تقدّمية مع اعتدادها بالولاء للعهد القائم . قدم لتوّه من المدينة المجاورة : هذا الرجل المنهمك جاء ليبقى عند صديق طفولته اربعاً وعشرين ساعة فقط .

لم يكونا دائماً على وفاقٍ حول إقامة الأسس الدستورية . كان الزائر ، وهو من سكان بطرسبرج ، أوروبي النزعة أكثر منه ، مع شيء من التسامح إزاء الاشتراكية . وكان يتلقى أجوراً كبيرة عن الوظائف التي يشغلها .

أما نيكولا سيميونيتش ، فكان رجلاً روسياً حقيقياً ، ارثوذكسياً ، ملوّناً تلويناً خفيفاً بالسلافية ، مالكاً لآلاف الهكتارات من الأرض .

جرى العشاءُ في الحديقة . وكان الطعام مؤلفاً من خمسة أصناف ؛ لكن الحرّ الشديد أخمد الشهية وذهب سدىً تعبُ الطاهي ومساعديه . ولم يكد الحاضرون يتناولون شيئاً من حساء الشمندر المُجمّد ، ومن السمك ،

ومن المثلّجات المتعددة الألوان المُحاطة بالبسكويت . وكان الحاضرون على المائدة القادم الجديد ، وطبيباً ليبيرالياً ومربيّ الأولاد ، وهو طالب اشتراكي ، ثوريٌّ عنيد ، لكن نيكولا سيميونيتش كان يفخر بأنه يعرف كيف يقوده وكانت هناك أيضاً « ماري » زوجة نيكولا وأولادها الثلاثة . أصغرهم لم يتناول غير الحلوى .

كان جو العشاء متوتّراً قليلاً ، لأن ماري ، وهي امرأة شديدة العصبيّة ، كانت متخوّفة من اضطراب معدة « غوغو » ـ هكذا كانت تدعو نيكولا الفتى (كما هي العادة لدى الناس الذين هم في وضع حسن. وأيضاً لأن المربي المزعج ما ان يبدأ الحديثُ حتى يُطلق حكماً قاطعاً، رغبةً منه في أن يظهر أنه لا يخفي شيئاً من آرائه أمام أحد ، حتى إن الضيف يلزم الصمت ، بينما يحاول نيكولا سيميونيتش أن يحافظ على الهدوء .

جرى العشاءُ في الساعة السابعة . وبعد ذلك . انتقل الأصدقاء إلى الشرفة يتبرّدون بنبيذ جزيرة القرم المثلّج .

برز الخلافُ بخاصةٍ حول هذه المسألة : هل ينبغي ان تكون الانتخاباتُ على درجةٍ أم على درجتين ؟ وحميَ النقاش عندما دُعي هؤلاء السادة إلى تناول الشاي في غرفة الطعام التي كانت تحميها من الذباب ستائرُ الموسلين . واستمرّ النقاش مع ماري وإن لم تكن تهتم به، لأنها لم تكن تفكرَ بغير معدة « غوغو » .

ثم تناول الحديثُ فنّ التصوير . أعلنت ماري بصراحة أن في التصوير المنحطّ (١) شيئاً غير محدّد لا يمكن إنكاره . في هذه اللحظة ، لم تكن

(١) التصوير المنحط : هو الذي سبق الرمزية .

تفكّر البتّة في التصوير المنحط . لكنها كانت تقول ذلك لأنها قالته مئات المرّات . لم يكن الضيف بحاجةٍ إلى مخالفتها ؛ لكنه كان يعلم أن حركة الفن المنحط انتُقدت كثيراً . فتحدث وأجاد الحديث عنها بحيث لم يظهر إن كان معها أو ضدّها ، وبحيث لم يخامر أحدٌ الشك إلى أيّ حدٍّ كان غير مبالٍ بها . أما نيكولا سيميونيتش الذي كان ينظر إلى امرأته فقد أحسّ أنها مستاءة وأن انفجاراً لن يلبث أن يقع . وفضلاً عن ذلك ، فان هذه الآراء التي سمعها ألف مرة كانت تُضجره.

أشعلت مصابيح البرونز التي لاشك أنها كلّفت كثيراً ؛ ووُضعتْ في الحديقة فوانيسُ . ونُوِّم الأطفام . وكان لابدّ لغوغو أن يخضع لعلاج طبي .

عاد الضيفُ ونيكولا سيميونيتش والطبيب إلى الشرفة . وحمل الخادم شموعاً تحميها كممٌ صغيرة وكذلك نبيذ القرم . وبما أن الوقت قارب منتصف الليل ، فقد شرعوا بفحصٍ حقيقي للتدابير التي يجب أن تُتّخذ في هذه الحقبة الهامة بالنسبة إلى روسيا .

في الخارج ، وراء باب العرباب ، كانت جلاجلُ الجياد ترنّ من وقتٍ إلى آخر . كانت الجيادُ الجائعة تنتظر الطعام . وكان الحوذي جالساً في العربة يتثاءب ويشخر . كان رجلاً عجوزاً مضتْ عليه عشرون سنة في خدمة المعلّم نفسه ، وكان يرسل أجرته كلها إلى أخيه ، ما عدا أربعة روبلات أو خمسة يحتفظ بها ليشرب .

لكن عندما أخذت الديكة تتصايح من دارة إلى دارة ، وعندما أيقظة أحدها ، وكان أكثر صخباً من غيره ، خيِّل إليه أنهم نسوه.

فنزل وولج فناء الدارة . وهناك رأى معلّمه جالساً في الشرفة يشرب ويأكل ويتحدّث .

خشيء أن يُزعج هؤلاء السادة ، فراح يبحث عن الخادم . كان هذا جالساً في البهو ، ينام ، ويحلم من غير شك بأسرته المؤلّفة من خمس بنات وصبيين ، يُعيلهم بأجرته التي تبلغ خمسة عشر روبلاً قد يزيدها الحلوان إلى مائة روبل . استفاق فجأة ، فتمطى ومضى ليخبر أن الحوذي قد عيلَ صبرُه وأنه يُطلب أن يَدَعوه ينصرف .

عندما دخل رأى أن الحديث كان ناشطاً ، إذ انضمّ إليه الطبيبُ الذي انتهى من معالجة « غوغو » .

— لا يمكنني التسليمُ بأن الشعب الروسي سيعثر على طريق أخرى للتطوّر . تلزمنا ، قبل كل شيء الحريةُ السياسية ، وهذه الحرية هي ، كما نعلم ، أعظم حريّة ، وهي تحترم حرّية الآخرين . . . .

تشوّش الضيف ، ولم يعدْ يعلم بدقّة ما يقوله ؛ ولم يعد يعلم ، في حمّى المناقشة ، ما ينبغي قوله .

قال نيكولاي سيميونيتش الذي لم يُصغِ ، لكنه أراد أن « يَعْرِض فكرته الخالصة » بأي ثمن :

— صحيح ، لكنّا قد نبلغه بطرق أخرى ، لا بالانتخابات العامة ، بل بالقبول العام . انظرْ إلى « المير (١) » .

(١) انظر إلى المير : المير : جمعية الفلاحين القروية التي شرعت في توزيع الأراضي بين الفلاحين . وكان انصار السلافية يمجدونها ويعتبرونها تعبيراً عن الإحساس بالعدالة . وهو احساس فطري في الشعب .

ـ آه ! هذا المير !

قال الطبيب :

ـ لا يمكننا أن ننكر أن الشعوب السلافية تملك تصوّرات خاصة. لنأخذْ مثلاً قانونَ « الفيتو(١)» البولوني أنا لا أقول أنه أفضلُ الحلول...

ـ اسمحوا لي أن أنهي فكرتي ، إن الشعب الروسي يملك فضائل خاصة . وهذه الفضائل . . .

نظر إليهم الخادم الذي دخل بعينيه المنتفختين من النعاس :

ـ الحوذيّ نفذ صبرُه .

ـ قلْ له : (كان الزائر يخاطب الخدم بضمير الجمع ، وهو شيء كان يفتخر به (سأنصرف في الحال ، وسأعوّضه عن الزمن الضائع .

ـ أمركم ، سادتي .

خرج الخادمُ . وكان يمكن لنيكولا سيميونيتش أن يُنهي فكرته. لكن الضيف والطبيب اللذين سمعاه عشرين مرة ، أخذا يحاربانها ، ولاسيّما الأول ، الذي حمل إلى النقاش أمثلةً تاريخية ، لأنه كان يعرف تاريخه .

انضمّ الطبيبُ إلى رأيه ؛ كان معجباً يتبحّره، وكان فخوراً بأن يقيم علاقاتٍ معه .

طال الحديثُ . انكشفت السماءُ ، فوق الغابة ، في الجانب الآخر من الطريق ، واستيقظت العصافيرُ ، في حين كان الرجالُ ما يزالون

---

(١) قانون الفيتو البولوني : كان على المجلس التشريعي البولوني (الدييت) أن يتخذ قراراته بالاجماع . وكانت معارضة نائب واحد له الحق أن يصيح « فيتو : أعترض» كافية لإلغاء كل مشروع قانون .

يتحدّثون ويدخّنون . وكان يمكن لهذه الثرثرة التافهة أن تستمر طويلاً لو لم تدخل الخادمةُ .

كانت تلك الخادمة يتيمة مسكينة خدمت أول الأمر لدى تجّار. وقد أغواها وكيلٌ تجاري فولدت منه ولداً مات . ثم خدمت في منزل موظف كان ابنه ، وهو طالب فاجر ، يضايقها . واستقرّت أخيراً في منزل نيكولا سيميونيتش حيث كانت سعيدة لأنها لم تكن مضطهدةً ، وكانت أجرتُها حسنة . جاءت لتقول أن السيدة تطلب الطبيب والسيّد.

سأل نيكولا سيميونيتش :

— ماالأمر ؟

— نيكولا نيكولا يفتش (١) مريضٌ قليلاً (استخدمت الخادمة ضمير الجمع لتشير إلى النهم « غوغو » المصاب بالإسهال) .

قال الضيف :

— آه ! حان وقتُ الانصراف . انظروا ، لقد طلع النهار ! كم أطلنا الجلوس !

قال هذا وكأنه يمدح نفسه ومؤاكيله لأنهم استطاعوا أن يتحدّثوا طويلاً .

ثم استأذن ، جرى الخادم يميناً وشمالاً ، على رجليه المتعبتين ، لإحضاز قبعة الزائر ومظلّته التي وضعها الزائر في مكان غير عادي . ولقد أملَ هذاالخادم الطيب حلواناً وافراً ، لأن هذا الضيف الكريم

---

(١) نيكولا نيكولايفتش : تعبير ينم على الاحترام لأن الخادمة استعملته لتدل على الصغير فيكولا .

كان قادراً على أن يعطيه روبلاً . لكنه نسيه هذه المرة تماماً ، وهو مستغرق في هذه الأفكار أيضاً العظيمة المُثارة ، ولم يفطن إليه إلا في الطريق .

صعد الحوذي إلى مقعده وأمسك بالمقود وانطلق . رنّت الجلاجلُ وأخذ البطرسبرجي المتمدد على الوسائد يفكر في ضيق فكر صديقه وفي رأيه المتحيّز .

وكان نيكولا سيميونيتش الذي تأخّر عن اللحاق بزوجته يقول في نفسه كذلك :

« إن ضيق فكر هؤلاء مروّع . ولا يمكنهم التخلّص من هذا الضيق. »

وإذا كان قد تأخر عن اللحاق بأمرأته فلأنه كان يخشى هذه المقابلة. كان التوت البرّي هو سبب هذه البليّة .

ففي عشية أمس ، جاء صبيانُ القرية وعرضوا توتهم البرّي ، واشترى منهم نيكولا سيميونيتش صحنين ، دون مساومة . فتراكض الأولاد وأخذوا يأكلون . لم تكن « ماري » قد خرجت من غرفتها بعد ، وعندما وصلت وعلمت أن « غوغو » أكل من هذا التوت ، استبدّ بها غضبٌ عظيم قائلةً إن معدة الصبي ضعيفةٌ جداً ونتج عن ذلك لومٌ متبادل انتهى بالخصام .

وبالفعل ، فقد مرض « غوغو » عند المساء ؟ ودهش نيكولا سيميونيتش الذي ظنّ الأمر تافهاً ، عندما رأى الطبيب يصل بعد أن استعجلته ماري .

عندما دخل غرفة الأولاد ، رأى امرأته مرتدية مبذلاً جميلاً جداً كانت تحبّه كثيراً ، لكنها لم تكن تفكر فيه كثيراً في هذه البرهة ،

وكانت تتأمل بصحبه الطبيب ، والشمعةُ في يدها ، كأساً موضوعةً ، أمامهما .

كان الطبيبُ الذي علّت أنفه نظّارةٌ ، وأمسك بيده قضيباً يحرك به ما في داخل الكأس ببراعة .

قال بلهجة الموافقة :

ـ نعم ، كلّ ذلك من هذا التوت البري الملعون .

قال الزوج بحياء :

ـ لكنْ ، لمَ التوتُ البرّي ؟

ـ بالطبع . أنت الذي أعطيتهم ليأكلوا ، وأنا لا أنام الليل ، والولد مشرفٌ على الموت .

قال الطبيب وهو يبتسم :

ـ كلا ، لن يموت . اعطيه جرعةً صغيرة من « البسموت » وهذا كل شيء . لذلك سأعطية إياها في الحال .

قالت :

ـ هو نائم .

ـ الأفضل ألاّ تزعجيه . سآتي غداً .

ـ طيّب .

انصرف الطبيب ، ولم يستطع نيكولا سيميونيتش أن يُهدّىء امرأته إلا بعد زمن طويل . وعندما نام . كان النهارُ في ضُحاه .

— ٢ —

في القرية المجاورة ، وفي هذه الأثناء ، كان الفلاحون يعودون من حراسة الليل شباباً وشيوخاً . بعضهم يمتطون جيادهم ، وآخرون يقودونها بأعنّتها ، ومهارها تجري خلفها .

كان « تاراسكا ديزونوف » ، وهو صبيّ ابن اثني عشر عاماً ، يمتطي ، وهو حافي القدمين ، مرتدٍ فروية ، فرساً مبقّعة ، ويقود حصاناً خصيّاً من عنانه . أجزاهما جرياً وتجاوز الآخرين مسرعاً نحو القرية . وأمامه كلبٌ أسود يركض ، وخلفه مهرٌ فتيّ حسن الهيئة ينطّ على قوائمه الصغيرة المحجّلة .

اقترب « تاراسكا» من منزل خشبي ، وربط جواديه بباب السور ، ودخل .

صاح بأخيه وأخته اللذين كانا ينامان على حصائر في المدخل :

— ايه ! أيها النائمان !

كانت الأمُّ قد نهضت وذهبت لتحلب البقرة . نهضت اولغا الصغيرة على عجل ، وأصلحت بيديها ما انتثر من شعرها الأشقر . أما « فيدكا» فظلّ نائماً ، ووجهُه في الفرو الذي يغطي رأسه ، وقد برزت قدمُه الصغيرة من القفطان .

لقد قرّر الأولاد أمس أن يذهبوا لجني التوت البري ، ووعد تاراسكا أخويه أن يوقظهما عند عودته من حراسة الليل .

كان جالساً ، هذه الليلة ، تحت دغل وهو يترنّح من النعاس .
الآن نسي ذلك وقرّر أن يذهب مع البنات لجني التوت البري .
في هذه الأثناء ، تناول القصعة التي مدّتها أمه إليه ، وقطع قطعة خبز ، وجلس على مقعد ، وأخذ يأكل .

وعندما ترك على التراب ، بعد بضع لحظات ، آثار قدميه العاريتين ، وهو بقميصه وبنطاله المثقوب ، وجد آثار أقدام صغيرة ، أقدام بنات صغيرات سبقنه برزْنَ مثل بقع حمراء على الخضرة الداكنة للغابة الصغيرة . لقد هيّأن ، عشيّة أمس ، الوعاء والجرّة ، وأخذْن معهن قطعاً من الخبز ، دون أن يفطرن ، وركضن إلى الغابة ، بعد أن رسمنْ بحرارة علامة الصليب .

أدركهنّ تاراسكا عند الغابة الكبرى بينما كنّ يدرْن حول الطريق.

كان الندى يغطيّ الأعشاب والأدغال بل وأغصان الأشجار المنخفضة . وكانت الأقدامُ الصغيرة التي ابتلّت في البدء تَدْفأ وهي تركض على العشب الرَخْص والأرض الجافّة .

كان المكان الذي يطلع فيه التوتُ البري واقعاً في مدخل الغابة . وقد ولج الأولادُ المكان الذي قُطعت أشجارُه في السنة الماضية . حول الأغصان التي نبتت حديثاً ، وبين الأدغال الكثيفة ، كانت تُرى ، في بعض المواضيع ، الأعشابُ القصيرة التي احتجبَ فيها التوتُ البري ، بعضه أبيض مورّد وبعضه قاني الحمرة .

انحنت البناتُ ، وأخذن يجمعْنه بأيديهن الصغيرة المسمّرة ، آكلاتٍ ما هو قليل الجودة ، وواضعاتٍ الجيّد منه في الجرّة .

ـ تعاليْ إلى هنا ، يا اولغا ، فها هنا أكوامٌ منه .

ـ كذّابة ! اوه !

هكذا صرخت البنيّات منبئاتٍ بوجودهن .

ذهب تاراسكا نحو الخيل حيثُ أخذت الغابةُ التي قُطعت منذ سنتين تمتلىء بفسائل الجوز والعرعر التي تتجاور قامة الانسان .

كان العشب فيها أشدّ كثافة ، والتوتُ البريّ أضخم وأكثر ماءً.

ـ غروشكا !

ـ ماذا ؟

ـ وإذا كان هناك ذئبٌ !

ـ وماذا يهمّ ، الذئب ؟ أتظنين أنك تخوّفينني بالذئب ؟ أنا لا أخاف شيئاً .

قالت غروشكا ذلك ، ونسيت نفسها فأخذت تفكّر في الذئب ، واضعة حبّات التوت البري الواحدة تلو الأخرى في فمها.

ـ وتاراسكا الذي ذهب إلى الأغيال !

أجاب صوتُ تاراسكا من الدغل :

ـ أنا هنا .

ـ نحن آتيات .

هبطت البنيّات الثلاّة متشبّثاتٍ بالأغصان الطالعة . ومالبثن أن رأين في فرجةٍ صغيرة تلمع بأشعة الشمس ، كميّةً كبيرة من التوت البرّي. كن يشتغلن دون كلام . وفجأةً سقط شيء سقوطاً ثقيلاً في الدغل . كان ذلك ، في الصمت ، بالنسبة إلى البنتين مثل رعد تتجاوب أصداؤه في

كل مكان . سقطت غروشكا مروَّعة وقلبت نصفَ ما في الجرّة . وزعقت « ماما » وأخذت تبكي .

صاحت أولغا وهي تشير إلى الظهر الرمادي الأسمر الذي علتْه أذنان طويلتان ، والذي جرى بين الأشواك :

— أرنب ! تاراسكا ! ها هو ذا الأرنب !

وقالت لغروشكا :

— مالك تتصرخين ؟

— خشيت أن يكون ذئباً !

فلما ذهب عنهما الخوفُ أخذتا تضحكان .

— اوه ! يا لهذا الحيوان !

قالت غروشكا بضحكتها الصافية :

— اوه ! لكمْ خفْتُ !

عندما انتهتا من جمع التوت البري أبْعدتا . كانت الشمس ارتفعت ، وكانت بقعٌ مضيئةٌ تُزيّن الخضرة ، وتتلألأ في الندى. كانت البنتان تتقدمان وهما تأملان أن تعثرا على كمية أكبر من التوت البري كلما أوغلتا في الغابة لكنهما سمعتا ، بعد قليل ، أصواتَ النساء والبنات اللواتي نهضن متأخرات عنهما ، وجئن يجنين التوت البري . كانت الجرة والوعاء ممتلئين عندما صادفتا العمة آكولينا ، يتبعها مباشرة صبي صغيرٌ يجر بمشقة بطناً ضخماً على ساقين مفتولتين .

قالت آكولينا وهي تحمله بين ذراعيها :

— لا يريد أن يتركني ، وليس عندي أحدٌ يحرسه .

– رأينا قبل هنيهة أرنباً جميلاً ! كبيراً ! كبيراً !

قالت آكولينا وهي تضع الصبيّ على الأرض :

– عجباً ، عجباً !

عند ذاك فارقتها البنتان وتابعتا عملهما .

قالت أولغا وهي تتوقّف في ظل شجرة جوز :

– لنجلسْ هنا ، لنسترحْ قليلاً . ليتنا جئنا بخبز أكثر .

قالت غروشكا :

– أنا جائعة .

– لماذا تصرخ العمةُ « آكولينا » بهذه القوة ، أتسمعين ؟

كان صوتُ العمة يصرخ من بعيد :

– اولغا !

– ماذا ؟

– الصغير ليس معكما ؟

– لا .

لكن إذا بالأدغال تتحرك وإذا بالعمة مقبلة ، وقد شمرّت تنورتها إلى ما فوق الركبة ، وسلّتها في ذراعها :

– ألم تريا الصغير ؟

– لا .

– يا للمصيبة ! . . . ميشكا !

وردّدت اولغا :

– ميشكا ، آه ! آه ! . . .

لم يجبْ أحدٌ .

— يا لمصيبة المصائب ! سيضيع ، سيذهب إلى الغابة الكبرى.

وثبتْ اولغا وذهبتْ في جهة ، بينما ذهبت العمة آكولينا في جهة أخرى .

كانت أصواتهن الواضحة تصرخ « ميشكا » . وما من مجيب.

قالت غروشكا وهي تتخلّف :

— اوه ! كم أنا متعبة !

لكن اولغا لم تكلّ من النداء وهي تذهب يميناً ويساراً وتنظر في كل مكان .

كان صو ت آكولينا القلقُ يرنّ بعيداً في الغابة . أوشكت اولغا أن تكف عن البحث ، عندما سمعت ، تحت جذع زيزفونة تحف بها فسائل فتيّة ، صيحاتٍ هائجة ويائسة يطلقها طائر جُنّ جنونهخوفاً على صغاره ، وأخذ يهاجم . نظرت اولغا إلى الدغل المحاط بالعشب الكثيف وبالأزهار ، فشاهدت تحته شكلاً صغيراً أزرق لا يشبه شيئاً ممّا في الغابة . توقّفت : كان« ميشكا» ، ومنه خاف الطائر الهائج . كان مضطجعاً على بطنه الضخم ، نائماً ، ويداه الصغيرتان متصالبتان فوق رأسه ، وساقاه المفتولتان متمدّدتان . نادت اولغا الأمّ وأيقظت الصغير وأعطته توتاً برياً . وبعد ذلك بزمن طويل ، ظلّت اولغا تقصّ على الجميع ، على أمها وأبيها وجيرانها كيف بحثت عن صغير آكولينا وعثرت عليه .

ارتفع النهارُ الآن ؛ وأدفأت الشمسُ الأرض وجميع الكائنات .

صاحت البُنيّات اللواتي جئن مع اولغا ، وهن ذاهبات إلى الساقية ، وهنّ يغنّين :

— اولغوشكا ، تعاليْ واستحمّي .

لم تلاحظ البناتُ وهنّ يتخبّطن ويصرخن سحابة متثاقلة سوداء آتية من الغرب . وتغطّت السماء بالغيوم ، ثم انقشع الغيمُ عنها مرة أخرى . وغدا عطرُ الأزهار والأوراق والبتولة أشد حدّةً

وفجأة أرعدت السماء . ولم يكدن يرتدين ثيابهن حتى هطل المطرُ مدراراً وبلّلهن حتى العظم .

وصلن إلى البيت ، وقد لصقت قمصانهن بظهورهن ، فأكلن وحملن الطعام إلى الأب المشغول بعزق البطاطا .

عندما علن كانت قمصانهن جافة.فرزن التوث ، ووضعنه في فناجين لبيعه في دارة نيكولا سيميونيتش حيث يدفعون سعراً جيداً .

كانت ماري جالسةً في مقعد كبير تحت مظلّة كبيرة ، تتألم من الحرّ . وعندما أبصرت البنيّات حرّكت مروحتها حركةً تدل على الرفض وصاحت :

— لا يلزمنا ، لا يلزمنا !

لكن « فاليس » أكبر الأولاد ، وهو صبي ابن اثنتي عشرة سنة ، كان يلعب بالكرات الخشبية ليستريح من دروس اليونانية واللاتينية ، فشاهد التوت البري وجرى نحو « اولغا » وسألها :

ـ بكم ؟

ـ بثلاثين كوبيكاً .

قال :

ـ هذا كثير .

قال « كثير » لأن الكبار يحكون هكذا .

ـ انتظرْ قليلاً .

وركض إلى المربية .

كانت اولغا وغروشكا تتأملان في أثناء ذلك تلك الكرة الزجاجية الضخمة التي كانت تنعكس فيها بيوتٌ صغيرة ، وغاباتٌ صغيرة ، وحدائق صغيرة . لكنْ لم تدهشهما لا هذه الكرة ، ولا كل ما كانتا تريانه ، لأنهما كانتا تتوقّعان ألا تريا سوى الأشياء العجيبة في هذا العالم فوق الأرضي ، عالم الناس الإقطاعيين .

ذهب فاليا يبحث عن المربية وطلب منها ثلاثين كوبيكاً . فأجابته بأن عشرين كوبيكاً كافيّة وزيادة ، وأعطته المال . أراد الصبيّ أن يتجنّب أباه الذي نهض بعد ليلة ثقيلة وأخذ يقرأ صحفه وهو يدخّن ، فركض نحو البنتين وسلمهما العشرين كوبيكاً وصبّ التوت البرّي في صحن وأكله بشراهة .

عندما عادت اولغا إلى البيت . فكّت بأسنانها الصغيرة عقدة المنديل الذي وضعت فيه العشرين كوبيكاً ، وأعطتها أمّها التي خبّأتها وذهبت تغسل الغسيل في الساقية .

أما تاراسكا الذي ساعد أباه على فرز البطاطا فقد كان ينام في ظل السنديانة الظليل . وكان الأبُ جالساً قربه ، يراقب الحصان المحلول الذي كان يحاول أن يدخل الحقول المسوّرة المجاورة .

كان كل شيء يسير ، اليوم ، في أسرة نيكولا سيميونيتش ، على عادته ، ومن حسن حظ الذباب أن الغداء المؤلف من ثلاثة أصناف ، كان جاهزاً منذ زمن بعيد دون أن يقرب المائدة أحدٌ ، إذ لم يجئ أحدٌ .

كان نيكولا سيميونيتش مسروراً حين لاحظ صحة توقّعاته التي أيّدتها كلّياً صحف اليوم . وكانت ماري مسرورةً لأن خروج « غوغو » كان حسناً . وكان الطبيب مسروراً لأن وَصْفته آتتْ ثمرها . وكان فاليا مسروراً لأنه أكل صحناً مملوءاً بالتوت البرّي .

* * *

الالهي والبشري
(١٩٠٦)

ـ ١ ـ

جرى ذلك في روسيا سنة ١٨٧٠ ، عندما كان صراع الثورة مع الحكومة على أشدّه .

كان الجنرال حاكم المنطقة الجنوبية ، وهو ألماني عجوز ، متين ، جالساً ذات مساء في مكتبه الذي كانت تضيئه ثلاث شمعات تحميها كمم . كان صاحب المقام الرفيع هذا يعيد قراءة الأوراق التي تركها أمامه رئيس مكتبه . وكان يوقّع بالحروف الأولى : الجنرال المساعد (١) فلان» ثم يضع الورقة على يمينه بحركة مرتّبة وبطيئة .

كان رجلاً مديد القامة يجلس جلسة مستوية . وكانت نظرته الباردة خالية من التعبير . وكان شارباه ينحدران نحو سترته التي تزدان عند العنق بصليب أبيض هو وسام الفارس الآمر .

بين الأوراق ، كان الحكمُ بالموت شنقاً على أستاذ متخرّج من

(١) الجنرال المساعد : بعض الجنرالات كان يحملون اللقب الفخري « مساعد » أي المساعد العسكري لصاحب الجلالة .

جامعة « اوديسا» هو « آناتول سفيتلوغوب (١) » ، الذي اوقف باعتباره عضواً في مؤامرة حاولت ، كما يقول التقريرُ ، قلبَ الحكومة القائمة . وقّع الجنرال وهو شديد العبوس . فلما انتهى من ذلك ، سوّى بين أطراف الأوراق بأصابعه البيضاء النظيفة التي غضّنها الزمنُ والصابون ، ووضعها بحركة موزونة جانباً . الورقة التالية كانت تتعلق بمبالغ مستحقّة لنقل المؤن . كان هذا الشيخُ يقرأ بإمعانَ ويراقب الجمعَ ، عندما تذكّر فجأةالحديثَ الذي دار بينه وبين الفريق بشأنقضية « سفيتلوغوب ». فقد ذهب هو نفسه إلى أن الديناميت الذي وُجد لدى المتّهم لا يمكن أن يثبّت وحده النيّة الإجرامية ، بينما ألحّ محدّثه على الشيء التالي وهو أن هناك ، فضلاً عن المتفجّرات ، كمية من الأدلة الأخرى التي تبرهن على أن سفيتيلوغوب كان زعيماً حقيقياً للمتآمرين .

عند تذكر هذا الحديث خفق قلبُ الجنرال ، تحت طيّات سترته المحشوّة ، خفقاناً أشدّ ، وغير منتظم . ولقد تنفّس بصعوبة بالغة حتى أن الصليب الأبيض الذي هو محطّ فرحه وكبريائه تحرّك على صدره . وفكّر الحاكم أن بالإمكان استدعاء رئيس مكتبه وتأخير تنفيذ الحكم إن لم يمكن تغييره . وتساءل : أأستدعيه أم لا ؟ وخفق قلبهُ خفقاناً أشد من قبل . ودق الجرس . تعالت أصوات خطاً مسرعة ودخل الحاجبُ الغرفة :

— هل انصرف إيفان ماتفيفيتش ؟

---

(١) آناتول سفيتلوغوب : شاب ثوري من أسرة نبيلة وغنية أعدم في أوربا سنة ١٨٧٩ .

ـ لا ، يا صاحب السيادة ، لقد تفضّل ودخل مكتبه .

توقف قلبُ الجنرال عن الخفقان ، ثم دقّ بضع دقات متسارعة.

عاد إلى ذاكرة الرجل العجوز تنبيه الطبيب الذي فحصه قبل عدة أيام . قال له : إذا أحسستَ بشيء في قلبك فأوقف رأساً كل عمل. ليس هناك ما هو أسوأ من الانفعال ، ويجب ألاّ تستسلم له مهما كلّف الأمر . »

سأله الحاجب :

ـ هل تأمر باستدعاء رئيس المكتب .

قال الجنرال :

ـ لا ، لا حاجة إليه . تستطيع الانصراف .

وخرج الحاجب .

قال صاحب المقام الرفيع في نفسه : « التردد يثير الانفعال كثيراً. لقد وقّعتُ وانتهى الأمرُ . « كل امرىء ينال عاقبة فعله » (١) كان هذا هو مَثَلَه المفضّل. ومن جهة أخرى فان ذلك لا يعنيني . وأضاف وهو يقطّب حاجبه كأنه يثبت لنفسه أن قلبه يخلو من هذه القسوة : أنا منفّذ الإرادة العليا ، وينبغي أن أضع نفسي فوق جميع الاعتبارات.

وتذكّر على الفور مقابلته الأخيرة للامبراطور ، عندما حدّق فيه الامبراطور بوجهه القاسي ونظرته الجليدية ، وقال له :

ـ أنا أثق بك وآمل أن تطارد الحمْرَ بالقوة نفسها التي حاربت فيها العدو أثناء الحرب ، لا يخدعنّك أحدٌ ولا تخفْ ! إلى اللقاء .

---

(١) بالألمانية في الأصل .

ومدّ العاهل كتفه وعانقه . وأجاب الجنرال :

— إن رغبتي هي أن أبذل حياتي لعاهلي ووطني .

إن تذكر هذه الرقة الذليلة وإخلاصه للامبراطور هزّه ودفعه إلى طَرْح الفكرة التي أقلقته لحظة . ووقّعت يده الحازمة بقيّة الأوراق. ثم رن الجرسَ مرة أخرى . سأل الحاجب :

— هل جهّز الشاي ؟

— بعد لحظة ، يا صاحب السيادة .

— طيّب . اذهبْ .

تنهّد الشيخُ بعمق، وفرك بيده موضع القلب . بعد ذلك ، انتقل، وهو يمشي متثاقلاً ، إلى القاعة الفارغة . ضرب كعباه العاليان لحظة الأرضيّة الخشبية الملمّعة ، ودخل صاحب المقامُ الرفيع قاعة صغيرةً مجاورة كان يخرج منها صوتُ الأحاديث .

كانت زوجته تستقبل ضيوفها . وقد حضر الحاكمُ المدني ومعه زوجته ، وهي أميرةٌ عجوز ووطنيّة كبيرة ، وكذلك ضابط من ضبّاط الحرس ، خطيب أصغر بنات الجنرال .

كانت زوجة الجنرال ضامرةً ، رقيقة الشفتين ، تجلس خلف طاولة صغيرة تتلألأ فوقها آنيةُ الشاي مع غلاّية شاي فضيّة موضوعة على مَوْقد . وكان الحزنُ المتصنّع يُغضّن قسماتها ؛ كانت السيدةُ العجوز تروي لمغناجٍ بارزة التقاطيع ، ذاوية الرونق القلقَ الذي تشعر به نحو صحة زوجها .

— كلُّ يوم يحمل إلينا تقارير جديدة تشير إلى مؤامراتٍ وأشياء أخرى مروّعة . . وكل ذلك يقع على عاتق « بازيل » الذي ينبغي له أن يبتّ فيه .

هتفت الأميرة :

— آه ! لا تحدّثيني عن ذلك . إني أغدو شرسة عندما أفكّر بهذه الفئة الملعونة .

— آه ! نعم ، هذا رهيب . هل تصدّقين أنه يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم ! وفوق ذلك ، قلبه البالغ الضعف ! أنا خائفة . . .

لم تكمل حديثها إذ رأت زوجها داخلاً .

قالت وهي تبتسم بتجبّب لزوجه الحاكم :

— سوف تستمعين إليه بالتأكيد : إن « باربيتي » مغن صادح لا نظير له .

أخذت تتكلم الآن عن المغنّي الجديد ، وكأنها لم تتكلم قبل ذلك إلا عن الغناء .

جلست ابنةُ الجنرال ، وهي سمينةٌ قليلاً لكنها وسيمة ، مع خطيبها في ركن من القاعة ، خلف حاجز صيني . وعند رؤية الأب داخلاً نهضا كلاهما وأقبلا عليه .

قال الجنرال وهو يقبّل ابنته ويشدّ على يد الخطيب :

— لم نتقابل اليوم بعد .

ثم سلّم على ضيوفه ، كلاً على حدة ، وجلس إلى الطاولة وبدأ يتحدّث عن أحداث الساعة .

قاطعتهما امرأة الجنرال :

— لا ، لا . الكلام على الأعمال ممنوع . وها هوذا « كوبييف» ، سيروي لنا شيئاً مبهجاً .

— مرحباً ، كوبييف .

روى هذا الفَرِح ، الفكهُ ، صاحب النكتة على الفور حكايةً مسلّية أبهجت الحضور .

— ٢ —

— كلا ، كلا ، هذا غير ممكن ، هذا غير ممكن . دعني أذهب ، دعني !

كانت أم سفيبيتلوغوب تُطلق صرخات شاكية وتحاول أن تنتزع نفسها من ذراعي صديق ابنها ومن الطبيب اللذين كانا كلاهما يسعيان إلى استبقائها.

كانت الأم ما تزال شابة ، وسيمة ، وخطّ الشيبُ خصلاتها ، وقد تغضن صدغاها قليلاً .

أراد الأستاذُ ، صديق ابنها ، بعد أن علم بأن قرار إعدام ابنها وُقّع ، أن يهيّئها لهذا النبأ المروع . لكنه ما كاد يبدأ حتى تنبّأت بكل شيء من نبرة صوته ومن نظرته الخائفة . إن النهاية المحتومة التي كانت تخشاها منذ زمن طويل قد اقتربت الآن .

جرى هذا المشهد في غرفة أفضل فندق في المدينة .

— لماذا تردّني ؟ دعني أذهب .

كذلك أخذت تصرخ وهي تنتزع نفسها من ذراعي الطبيب ، وهو صديق قديم للاسرة ، وكان يردّها بيد ، بينما كان يضع خلسةً باليد الأخرى قمقماً على الطاولة .

بيد أنها كانت راضية عن منعهما لها من الذهاب ، وهي تتخبّط وتحاول الإفلات ، ذلك لأنها كانت تحس أن عليها أن تفعل شيئاً ما. لكن ما هذا الشيء ؟ كانت تجهله وتخافه.

قال لها الطبيب وهو يمدّ القمقم المملوء بسائل كثيف.

— مالكِ ، اهدئي ، وخذي قليلاً من شراب الناردين هذا .

سكتت التعسةُ فجأة ، وحنتْ رأسها على صدرها الأجوف ،وكأنها قُطعتْ اثنتين ثم تهالكت على الأريكة وعيناها مغمضتان .

انتصبت الآن أمام عينيها صورةُ ابنها كما رأته منذ ثلاثة أشهر : لقد ودّعها والحزنُ بادٍ على محيّاه . ثم تذكّرت الأمُّ المسكينةُ الصبيّ ابن السنوات الثمان بسترته المخميلة ، وشعره الجعد ، وساقيه العاريتين.

« وهو بعينه ، ذلك الصغير بعينه ! »

هبّت واقفة من جديد ، ودفعت الطاولة عنها ، وتخلّصت من يدي الطبيب ، وركضت نحو الباب . لكنها حين وصلتْ إلى الباب ، ارتمت على أريكة .

— ويقولون إن الله موجود!ماهذاالالهالذي يسمح بمثل هذه الأشياء ! ليذهبْ عني الهكم ! سيُشْنَقُ ابني ، سيُشْنَقُ ذاك الذى تخلّى عن كل شيء للشعب ، ذاك الذي وهَبَ الشعب كل ما يملك!

كانت تنتحب حيناً وتضحك حيناً آخر ضحكاً هستيرياً ، وتصرخ دون أن تتذكّر أنهالامت ابنها قديماً على ماتمجّده به الآن. وحشرجَتْ قائلة :

— وتقولون إن الله موجود ؟ ؟

أجاب الطبيب :

— لكني لم أقل شيئاً ، أطلبُ إليك فقط أن تتناولي هذه القطرات. أسكرها يأسها ، فظلت تضحك وتنتحب في آن واحد . . .

عند حلول الظلام ، كانت الأم التي غدت عاجزة عن الكلام والبكاء ، تحدّق أمامها بنظرة مجنونة . اقترب منها الطبيب وحقنها بابرة مورفين فنامت . . .

بعد هجعة لا أحلام فيها ، كانت يقظة البائسة أشد هولاً . وأكثر ما كان يعذبها أن يكون البشر بهذه القسوة . لا الجنرالات الكريهون وحدهم بوجناتهم المحلوقة ، بل الشرطة أيضاً ، بل الجميع . الجميع ، المربّية نفسها ، بوجهها الهادىء ، والجيران الذين يتلاقون ويضحكون كأن شيئاً لم يكن !

— ٣ —

فكّر « سفيبتلوغوب » كثيراً وعانى كثيراً أثناء الشهرين الأولين من حبسه الانفرادي . لقد تألم منذ طفولته ، لا شعورياً ، من وضعه الخاطىء كانسان غني ، ومع أنه كان يسعى إلى محو هذا الاحساس من نفسه ، إلا أنه كان خجلاً ، في الغالب ، من أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع شقاء الشعب . وعندما كان يشعر أحياناً بالراحة والبهجة كانت كالإهانة له أن يرى هؤلاء الناس ، هؤلاء الشيوخ ، هؤلاء النساء

والأطفال ، الذين لا يولدون وينمون ويموتون محرومين فحسب من الأفراح التي كان ينعم بها والتي كان ، على كل حال ، قليل الاحتفال بها ، بل وأيضاً لا يخرجون من حالة الشقاء ومن الكدّ المُعنّي . ولكي يتحرّر « سفيبيتلوغوب » من الخطيئة التي قدّر أنها خطيئته جزئياً ، نظّم ، بعد الانتهاء من دراسته ، في القرية مدرسة نموذجية ، وتعاونية ، وملجأ للعجزة .

لكن الشيء الغريب أن هذا الشاب كان يستشعر ، وهو عاكفٌ على مؤسساته ، خجلاً أكبر أمام الشعب عندما يقع له أن يتعشى مع أصحابه أو يشتري حصاناً غالي الثمن . كان يدرك أن كل شيء كان سيئاً وقذراً من الناحية الأخلاقية .

في أزمةٍ من أزمات خيبة الأمل في قيمة نشاطه الاجتماعي ، جاء إلى كييف » حيث التقى صديقاً من أفضل أصدقائه ، رفيقاً له في الدراسة اعدم رمياً بالرصاص في حفرةٍ من قلعة المدينة ، بعد ثلاث سنوات.

هذا الرفيق المضطرم ، الموهوب إلى أقصى حدّ ، قاده إلى جمعية سرية هدفُها تعليم الشعب . وكان الشبابُ الذين يؤلّفون هذه الجماعة يلقّنون الفلاحين وَعْيهم لحقوقهم ؛ كانوا يسعون إلى أن يشكلوا بينهم اتّحادات ستتحرّر بدورها من سيطرة ملاكي الأرض ومن سيطرة الحكومة . وألقت الأحاديثُ مع هذا الرجل وأصدقائه ما يشبه النورَ على المستقبل الذي كان « سفيبيتلوغوب » يهجس به منذ زمن طويل.

أدرك ما بقي عليه أن يفعله . وعاد إلى قريته ، دون أن يقطع صلته بأصدقائه الجدد ، ليُنشىء فيها عملاً جديداً . صار الشابُ معلّم

مدرسة ، ونظّم دروساً للكبار حيث كان يقرأ كتباً تشرح للفلاحين وضعهم . وفضلاً عن ذلك ، كان يطبع كتباً وكرّاسات في السرّ ، ويُعطي كلّ ما يملك لتأسيس مراكز مشابهة في قرىً أخرى .

لكن « سفيبيتلوغوب » اصطدم منذ خطواته الأولى في هذه الطريق ، بعقبتين غير متوقعتين . ذلك أن أغلبية السكان كانوا ينظرون إلى رسالته إما بعدم اكتراث ، وإما بعداءٍ أحياناً . (الذين كانوا يفهمونه ويوافقونه هم ذوو الخُلُق المشبوه وحدهم) . العقبةُ الثانية جاءت من الحكومة : امِرَ باغلاق المدرسة وجرى تفتيش بيته وبيوت القريبين منه .

لم يعلّق سفيبيتلوغوب كبيرَ أهمية على لا مبالاة الشعب لأن الاضطهاد الحكومي كان يؤجّج سخطه . لقد جرحتْه هذه الملاحقات الرعناء المهينة .

كان إحساسُ رفاقه في العمل نفس إحساسه . فمشاعر الاستنكار تعاظمت من التضامن للعمل المشترك ، وقرروا جميعاً تقريباً أن يستخدموا قواهم بكاملها في الصراع ضدّ الظالمين .

كان زعيم هذه الجماعة شخصاً يُدعى « ميجينتسكي » اعترف له الجميعُ بالإرادة الحديدية . كان ذا منطق لا عيب فيه ، مخلصاً بجسده وروحه للثورة .

خضع « سفيبيتلوغوب » تماماً لتأثيره ووهب نفسه للعمل الإرهابي بكل القوة التي استخدمها في دعايته الشعبية .

كان هذا العمل يتضمن خطراً جسيماً . لكن هذا الخطر نفسه كان يجتذب الشاب .

كان يقول في نفسه :

« النصر أو الاستشهاد ؛ وإذا وقع الاستشهاد فالاستشهاد نصرٌ أيضاً، لكنْ للمستقبل » .

ولم تنطفىء الحماسةُ التي كانت تنهشه خلال هذه السنوات السبع من نشاطه الثوري ، بل إنها تعاظمت وتوطّدت بحب الذين يحيطون به واحترامهم . لم يكن يعلّق أية أهمية على إرثة الأبوي الذي قدّمه للقضية ، كما أنه لم يبال بالأعمال القاسية بل حتى بالشقاء الذي عاناه في وضعه الجديد . الشيء الوحيد الذي كان يحزنه هو الأسى الذي أغرق أمّه فيه من جراء عمله ، وكذلك ابنتها بالمعمودية التي كان يحبّها وتحبّه.

ذات يوم ، طلب إليه رفيقٌ إرهابي لا يوحي بالود وليس موضعاً للثقة ، أن يخبّىء عنده شيئاً من الديناميت . قَبِلَ سفيبيتلوغوب ، دون تردّد ، ولاسيّما أنه لم يكن يحب كثيراً هذا الرفيق . وفي اليول التالي، فُتِّش بيته وعُثِر على الديناميت . وأبى سفيبيتلوغوب أن يجيب عن جميع الأسئلة حول مصدر هذه الوديعة .

وبما أن كثيراً من الرفاق ، في هذه الأوقات قد سجنوا أو نُفُوا أو أعدموا ، كما أن كثيراً من النساء عُذِّبن ، فان « سفيبيتلوغوب » أخذ يتمنّى مصيرهم . ومنذ اللحظة الأولى لتوقيفه ، وأثناء الاستجواب الذي تلاه ، أحس بشعور حاد من التهيّج الذي كان شعوراً من الفرح تقريباً .

كان يشعر بذلك أيضاً وهم يُعرّونه ويقيسونه ويقودونه إلى السجن الانفرادي ويغلقون البابَ الحديدي عليه . لكن عندما مرّ يومٌ ، ثم اثنان،

ثم ثلاثة ، ثم اسبوع ، ثم اسبوعان ، في هذا السجن الانفرادي الموبوء المليء بالحشرات ، في العزلة ، وفي العطالة الاجبارية ، ضعفتْ قواه المعنوية والجسمانية ، وذبل ، ولم يعد يتمنّى ، كما كان يقول ، سوى الموت

تعاظم حزنُه:خامره الشكُّ في قواه ، ومع ذلك كان الزمن يمرّ ، لا تقطعه سوى الإشارات السرّية التي كان الرفاق السجناء يتناقلون بواسطتها الأنباء المحزنة على العموم .

وفي أحيان أخرى ، كان الاستجواب الذي يمْثُل فيه أمام رجالٍ باردين وعدوانيين يسعون إلى انتزاع وشاياته برفاقه .

عندما جاء الشهر الثالث ، أخذ يحسّ أحياناً بأنه مستعدٌ لأن يقول الحقيقة كلها لكي يُطلَق سراحُه . فخاف من الضعف ، خاف ألاّ يستعيد القوة التي اختفت وبدأ يكره نفسه ويحتقرها . وكان قلقه يكبرُ كلّ يوم .

كانت أشدّ الأشياء عليه ، في سجنه الانفرادي ، أسفه على قوى الشباب ، والفرح الذي كان ينتابه وهو يضحّي بها قديماً . بدأ له ذلك الآن بالغ السحر بحيث أنه شكّ في جدوى عمله الثوري . أخذ يفكر في أنه كان يمكن أن يعيش سعيداً وحراً في الريف أو في الخارج ، بين أناس قريبين من القلب يحبّونه ، ويتزوج من فاتاشا أو من غيرها ، ويحيا حياةً بسيطة ، فرحه ، واضحة .

— ٤ —

في أحد الأيام الفظيعة الرتابة من الشهر الثاني لحبسه ، سلّم المراقبُ ، وهو يقوم بجولته ، سفييتلوغوب كتاباً صغيراً كانت جلدتُه الخارجية

مزدانةً بصليب وأضاف أن امرأه الحاكم زارت السجن وتلقّت الإذنَ بتسليم هذه الكتب للمعتقلين . شكره سفيبتلوغوب وهو يبتسم ووضع الكتاب الصغير على الرفّ المثبت في الجدار . ولما ذهب المراقبُ تحادث سفيبتلوغوب مع جيرانه بواسطة الإشارات المعهودة . فأخبرهم عن زيارة المراقب وعن الانجيل الذي حمله إليه . فأجابه جارُه بأنه تلقّى مثله .

بعد الغداء ، تناول الكتاب الذي كانت الرطوبة تُلصق أوراقه بعضها ببعض . لم يقرأ سفيبتلوغوب قط الانجيل كما يُقرأ الكتابُ . كل ما كان يعرفه عنه هو ما علّمه إياه في المعهد أستاذُ التعليم الديني وما يقرؤه الكاهن والشمامسة في الكنائس . قرأ :

الاصحاح الأول . — ميلاد يسوع المسيح ، ابن داود ، ابن ابراهيم . . . اسحق ولد يعقوب . . . كان كل ذلك كما توقّعه : لغواً معقّداً ولا فائدة فيه . ولو لم يكن في السجن لما استطاع أن يكمل هذه الصفحة ، لكنه استمرّ في قراءته مثل « الغبي بيتروشكا » (١) . وهكذا تجرّع الإصحاحَ الأول المتعلّق بودلاة ابن العذراء ، والنبوءة التي تُعلن أن الذي سيولد سيُسمّى عمانوئيل أي « الله معنا »

وفكّر : لكن أين النبوءة .

وتابع القراءة .

وهكذا قرأ الإصحاح الثاني عن « النجم » ؛ والثالث الذي يتحدث عن ناس يتغذّون بالجراد ؛ والرابع الذي يروي العرض الذي عرضه الشيطان على يسوع وهو يقوم ، على سطحٍ ، بتمارين بهلوانية . لم يَبْدُ له ذلك كله مشوّقاً . كاد يُغلق الكتابَ ، ويعود إلى شغله الشاغل ، بالرغم من ملل السجن ، وهو البحث عن البق ، لولا أنه تذكّر أنه

---

(١) الغبي بيتروشكا : في النفوس الميتة : لغوغول بيتروشكا الخادم لا يقرأ إلا من أجل متعة القراءة .

نسي ، وهو في الصف السادس ، آيةً من الكتاب المقدّس وأن الكاهن ذا الوجه المتورّد والشعر الجعد قد غضب عليه وأعطاه علامة سيئة . لم يستطع أن يتذكّر الآية وقرأ الاصحاح كله :

« طوبى للذين يتألمون من أجل الحقيقة لأن لهم ملكوت السماوات» كأن ذلك يتعلّق بنا نحن :

« طوبي لكم إذا عيّروكم ، واضطهدوكم ، وافتروا عليكم بكل سوء ، افرحوا وابتهجوا ؛ فان أجركم عظيم في السماوات ؛ فانهم هكذا اضطهدوا الأنبياء الذين قبلكم . أنتم ملحُ الأرض ؛ ولكن إذا فقد الملح طعمه فكيف تردّ له طعمه ؟ إنه لا يصلح بعد ذلك لشيء إلا لأن يُطرح في الخارج وتدوسه الناس » .

وفكّر : « وهذا أيضاً يتعلّق بنا » ولما انتهى من قراءة الاصحاح الخامس استغرق في أفكاره « لا تغضبوا ، لا تزنوا ، وتحملوا إساءه المسيء ، وأحبّوا أعداءكم »

همس : « لو أن الجميع عاشوا هكذا لما كان هناك حاجةٌ إلى الثورة . »

كان كلما قرأ نفَذَ معنى بعض مقاطع الكتاب إلى فكره ، وفرضت الفكرةُ التالية نفسها عليه شيئاً فشيئاً وهي أن هذا الكتاب يحتوي شيئاً عظيم الأهمية شيئاً بسيطاً ومؤثراً ، وعظيم الخطورة ، شيئاً لم يسمعه من قبل ، لكنه يبدو له مألوفاً .

« وقال للجميع : من أراد أن يتبعني فليحملْ صليبه وليْأت معي ؛ من أراد أن يخلّص نفسه أضاعها ؛ ومَنْ أضاع نفسه من أجلي خلّصها ؛ وماذا ينفع الإنسان أن يربح العالم ويخسر نفسه ؟ »

هتف الشاب والدموع في عينيه : « نعم ، هو ذاك ، هو داك بعينه هذا بالضبط ما أردتُ أن أفعله . أردت أن أعطي نفسي ، أن أعطيه ففي ذلك يكمن الفرح ، تكمن الحياة ! فعلت الكثير للناس ، لما يسمّونه المجد ، لتكون لي شهرة حسنة عند الذين أحبهم وأحترمهم : ناتاشا ، ديمتري . لكن كانت لي شكوكي حينذاك ، لم أكن أشعر بالراحة إلا عندما أفعل ما أفعله من أجل روحي ، عندما أعطي نفسي بكاملها .

منذئذ ، قضى معظمَ وقته في القراءة والتأمل فيما قرأ . كانت تلك القراءة لا تثير فيه شعوراً بالتحنّن يحمله بعيداً عن ظروفه الراهنة ، بل وأيضاً عملاً فكرياً لم يعرفه من قبل . لماذا لا يعيش الناس كما جاء في الانجيل !

وكان يقول :

ليس هذا صحيحاً فقط بالنسبة إلى إنسان واحد ، لكن بالنسبة إلى الجميع . عيشوا هكذا ولن يبقى شقاءٌ ولا حزنٌ ، وستسود السعادةُ وحدها . على شرط أن ينتهي اعتقالي وأن أستطيع العيشَ بحرية . سيدعونني مع ذلك ، أخرج ذات يوم ، أو سيرسلونني إلى الأشغال الشاقة . سيّان عندي ، يستطيع الإنسان أن يعيش حيثما كان ، وهكذا سأعيش ، وكلّ حياةٍ أخرى جنون

— ٥ —

في أحد الأيام التي بلغ فيها سفيبيتلوغوب هذه الحالة من الاهتياج الفرح ، دخل آمرُ الحرس في ساعة غير معتادة ليسأله إن كان في وضع حسن وإن كان يريد شيئاً . دهش السجينُ من هذه العناية وطلب سجائر ،

متوقّعاً الرفض . لكن الحارس أجاب بأنه سيرسلها إليه ، في الحال ، وبالفعل فقد حملها السجّان على الفور ومعها كبريت .

فكّر وهو يشعل سيجارة : لعل هناك مساعيَ للتخفيف من سوء وضعي » . وأخذ يمشي طولاً وعرضاً ، وهو يفكّر في هذا التغير الغريب

في اليوم التالي ، اقتيد إلى المحكمة . لم يُستنجَوب هذه المرة . وقف أحد القُضاة من مقعده ، ووقف الآخرون مثله . وأخذ الأول الذي كان يمسك ورقة في يده ، يقرأ بصوت مرتفع ، لكنه غير مفهوم تقريباً .

كان سفيبيتلوغوب يصغي ، وهو ينظر إلى وجوه القضاة الذين لم يرفعوا هم أيضاً أبصارهم عنه. وكانت الوجوه التي تبدو كأنها استطالت بسبب الانهاك ، تعبّر عن شيء لا سبيل إلى فهمه . كانت الورقة تقول إن « آناتول سفيبيتاوغوب » المقتنع من اشتراكة في عمل ثوري يهدف إلى قلب الحكومة القائمة في زمن بعيدٍ أو قريب ، حُكم بالحرمان من حقوقة المدنية وبعقوبة الموت شنقاً .

كان سفيبيتلوغوب يسمع ويفهم معنى الكلمات التي نطق بها الضابط ، ويلاحظ غباء العبارات « بعيد أو قريب . . . الحرمان من الحقوق . . . » المطبّقة على رجل يُحكم بالموت . لكنه لم يكن يفهم على الإطلاق معنى ما كان يُقرأ بالنسبة إليه .

لم يدرك الواقع إلا بعد ذلك بزمن ، عندما اخرج من القاعة ، وصار في الشارع بين الشرطة .

أخذ يقول في نفسه وهو جالس في العربة المغلقة التي تقوده إلى السجن : « ثمّة شيءٌ غامض ، شيء لا معنى له ، ذلك لا يمكن أن يكون . »

كان يشعر بقوة عظيمه للحياة فيه بحيث لم يتمكن من أن يتصوّر وعيه للأنا والموت ، ذلك الغياب للانا ، في وقت واحد .

عندما عاد إلى زنزانته ، جلس على سريره ، وأخذ يتخيّل ، وعيناه مغمضتان ، ما ينتظره ، فلم يستطع . ما كان بامكانه أن يتخيل أنه سيموت ، وأن هناك أناساً ينوون قتله . وأخذ يفكّر فيما تحمله له من حبٍ أمّه وناتاشا وأصدقاؤه : « أنا الشاب ، السعيد ، الذي يحبّه جميعُ الناس » . « سيقتلونني ، سيشنقونني ، أنا ! مَن سيفعل ذلك ؟ ولماذا ؟ وماذا سيجري عندما لا أكون في هذه الدنيا ؟ ذلك غيرُ ممكن . »

دخل آمرُ الحرس ولم يسمعه « سفيبيتلوغوب » فسأله :

ــ مَنْ أنت ؟ فيمَ ترغب ؟ آه ! نعم ، هذا أنت . متى سيجري ذلك !

قال آمرُ الحرس :

ــ لا أدري :

تردّد بضع ثوانٍ ، ثم قال بصوتٍ رقيق ، مخادع :

ــ الكاهن المرشد هنا ، وهو يودّ أن يراك ، أن يُراك . . أن يراك .

صاح سفيبيتلوغوب :

ــ لا أريد شيئاً ، اذهبْ !

ــ ألا تريد أن تكتب لأحد ؟ هذا ممكن .

— نم ، نعم . سأكتب وأرسلْ ما أكتب .

ابتسم الآخر .

— وإذن سيتم ذلك غداً صباحاً . هكذا يفعلون عادةً . غداً صباحاً ، لن أكون هنا . . . هذا غير ممكن . هذا حلمٌ

لكن حارسه العادي جاء . كان يعرفه وحمل إليه ريشتين ، ومحبرة ، ورزمةً من ورق الرسائل ، ومغلّفات ، ووضع المقعد أمام الطاولة ، كل ذلك لم يكن حلماً .

لا ينبغي أن أفكّر في ذلك ، نعم ، نعم سأكتب إلى أمي .

جلس على المقعد وأخذ يكتب .

« أيتها الأم العزيزة الوديعة ! » — وخنقته العبرات — اغفري لي ما سببتُه لكِ من ألم . أأخطأت أم لا ؟ لا أدري ، لكن لم يكن بوسعي أن أفعل غير ما فعلتُ . لا أطلبُ منك إلا شيئاً واحداً أن تغفري لي . » لقد كتبتُ هذا مرةً من قبل . لكن لا بأس . فلا وقت لدي لأنسخ ما كتبت — « لا تعذّبي نفسك من أجلي . أتقدّم الموتُ قليلاً أم تأخرّ قليلاً ، سيّان ، أليس كذلك ؟ لستُ أخشى شيئاً ولستُ نادماً على شيء ممّا فعلتُ . لم يكن بوسعي أن أفعل غير ما فعلتُ . لكن اغفري لي ، ولا تكرهي لا الذين عملتُ معهم ولا الذين سيقتلونني . فلا هؤلاء ولا أؤلئك كان بوسعهم أن يفعلوا غير ما فعلوا . اغفري لهم لأنهم لا يعلمون ما يفعلون . لا أجرؤ على تكرار جميع الكلمات التي في قلبي والتي تشدّ عزيمتي وتهدئني . اغفري لي . أقبّل يديك الغاليتين الطاعنتين في السن » .

سقطت دمعتان الواحدة تلو الأخرى على الورق وتفشّتا .

« إني أبكي ، لا من الخوف ، ولا من الألم ، بل من الحنان أمام هذه اللحظة المهبة من حياتي . لا ترهقي أصدقائي باللوم ، لكن أحبّيهم. ولاسيّما بروكوروف ، لأنه كان سبّب موتي . فمن المُستعذب أن نحبّ الذي ينبغي أن نتحامل عليه ونكرهه . ما أعظم السعادة في أن نحبّ أعداءنا ! قولي لناتاشا إن حبّها كان لي عزاءً وفرحاً . لم أكن أفهمه بوضوح ، لكنه كان في أعماق نفسي ، كانت الحياةُ أسهل لعلمي أنها تحيا وتحبّني . هذا كل شيء . وداعاً . »

طوى الرسالة ووضعها في المغلّف ، وجلس على السرير ، ويداه على ركبتيه ، وصدرُه لاهثٌ .

ظلّ غيرَ مصدِّقٍ أنه سيموت . حاول عبثاً أن يستيقظ وهو يطرح على نفسه هذا السؤال . وهذا الجهد حمله على التفكير في أن عبورنا هذا العالم ليس سوى حلم والموت هو اليقظة منه . وإذا كان الأمرُ كذلك ، أفلا يكون وعيُنا للحياة الأرضية يقظةً من حياة سابقة لسنا نذكرها ؟ وحينئذٍ لن تكون الحياة بدايةً ، بل مظهراً من مظاهر الوجود فقط ... سوف أموت وسوف أنتقل إلى شكل جديدٍ للحياة . . . أعجبته هذه الفكرة ، لكنه عندما أراد أن يستند إليها ، أدرك أنها ككل تصورٍ آخر ، لا يمكن أن تهبه اليقينَ أمام الموت. فكفّ عن التفكير . وكفّ دماغُه عن العمل . وأغمض عينيه وظلّ زمناً طويلاً هكذا

أحسّ بالطمأنينة ، بالسعادة تقريباً . عادت إليه فكرةٌ : « ماذا سيقع ؟ » لا شيء ، هذا لا شيء . »

بدا له الآن بوضوح أنْ ليس من إنسان حيّ تمكنه الإجابة عن هذه الأسئلة .

« لِمَ التساؤل هكذا ؟ ينبغي ألا نسأل عن شيء ، بل أن نعيش كما عشت قبل هنيهة ، وأنا أكتب هذه الرسالة. نحن جميعاً حُكم علينا بالموت ، ومع ذلك فنحن نعيش . نعيش بفرح عندما نحبّ . . . ولأنني كتبتُ هذه الرسالة بحبّ فأنا سعيد. هكذا ينبغي أن نعيش ، أن نعيش في كل مكان ودائماً ؛ أمس واليوم ، أحراراً أو سجناء ، وحتى النهاية . »

اشتهى فجأة أن يكلّم أحداً ، بدَعَةٍ ، بحب. وعندما حدّق الحارسُ في زنزانته ، سأله سفييتلوغوب عن الساعة كم هي ومتى يأتي الحارس البديل . فلمّا لم يُجبْه هذا ، طلب آمر الحرس ، فسأله آمرُ الحرس.

— فيم ترغب ؟

— كتبتُ رسالةً إلى أمي : سلمها إياها ، من فضلك .

وصعدت الدموعُ إلى عينيه .

وعده آمر الحرس بأن يفعل ذلك ، وانثنى راجعاً عندما أوقفه سفييتلوغوب ، وقال له ، وهو يلمس كمّه لمساً خفيفاً :

— قل لي ، وأنت رجل شهمٌ ، لماذا تشغل هذه الوظيفة التي مسؤوليتها ثقيلة جداً .

بدت على شفتي آمر الحرس ابتسامةٌ مغتصبة ، خفض بصره وأجاب :

— يجب أن نعيش .

— اتركْ وظيفتك . يمكن تدبّر الأمر دائماً . ربما استطعتُ . . .

جفلَ آمر الحرس ؟ فانكفأ راجعاً وصفق الباب .

أثّر انفعالُ هذا الرجل في سفييتلوغوب الذي لم يكد يحبس دموعه من الفرح ، وأخذ يمشي في الزنزانة طولاً وعرضاً . لم يعد يحسّ بأي خوفٍ ، بل لقد شعر بحنان يرفعه فوق العالم .

أما مسألةُ ماذا سيحلّ به بعد الموت فقد بدت له الآن محلولةً ، لا بجواب عقليّ ، بل بوعي الحياة الحقيقية التي كانت فيه . ثم جاءتَ كلماتُ الإنجيل : « الحق أقول لكم ، إن لم تمتْ حبّةُ الحنطة التي تسقط على الأرض فسوف تظل وحدها ؛ لكنها إن ماتت فسوف تنتج حبوباً كثيرة . »

« وأنا أيضاً أسقط على الأرض . » وأخذ يردّد : « الحق ، الحق»... لو نمتُ قليلاً حتى لا أبدو ضعيفاً »

اضطجع وأغمض عينيه ونام من فوره .

كانت الساعةُ السادسة صباحاً عندما استيقظ سفييتلوغوب ، وهو ما يزال متأثراً بحلم سعيدٍ مغمورٍ بالشمس . رأى نفسه بصحبة فتاةٍ شقراء وهما يتسلّقان أشجاراً مغطّاة بالكرز الأسود الذي كانا يقطفانه ويضعانه في صينية من النحاس . لكن الكرز لم يكن يسقط في صينية بل بجانبها ، فتلتقطها حيوانات غريبة ، أنواعٌ من الهررة ، وترميها في الفضاء ثم تلتقطها من جديد . كانت البنت الصغيرة تضحك ، وكان ضحكها مُعْدياً إلى حدّ أن سفييتلوغوب كان يقلّدها ، في نومه.وفجأة انزلقت الصينية من يد البنيّة وسقطت على الأرض محدثة صوتاً معدنياً.

حينئذ استيقظ ، وأخذ يصغي ، وهو مبتسم ، إلى الصوت الذي ما زال يرنّ : لم يكن الصوتُ سوى صرير الأبواب الحديدية التي كانت تُفتح في الممرّ .

دوّت أصواتُ خطاً وسلاح ، فتذكّر سفيبتلوغوب كلّ شيء. وقال في نفسه :

« آه ! ليتني أستطيع أن أنام أيضاً . »

لكن لم يبق مجالٌ للنوم : لقد أخذت الخطا تقترب وسمع مفتاحاً يجول في الباب .

في فتحة الباب ظهر ضابطُ الشرطة ، وآمر الحرس ، والجنود المرافقون .

فكّر ، وهو يحسّ بغبطة أمس تعودُ إليه : « الموتُ لا يهمّ ! » .

— ٦ —

حُبِسَ ، في السجن نفسه ، منشقّ عجوز (١) ، كان يبحث ، وهو في شك متّصل ، عن العقيدة الحقيقية . لم يكن ينكر الكنيسة الرسمية منذ البطريرك « نيخون » فحسب ، لكن وأيضاً جميع الحكومات التي تعاقبت منذ بطرس الأكبر الذي كان الشيخُ يعتبره المسيح الدجّال . وكان يسميّ حكومة القيصر حكومةَ التبغ (٢) ، وكان يقول بجرأة كلّ ما يفكر فيه ، فيتهم الكهنة والموظفين ، ممّا جلَب له الإقامة المتصلة

(١) منشقّ عجوز : كان المنشقون يؤلفون شيعة لا تقبل بالكهنة .

(٢) حكومة التبغ: كان المنشقون يكرهون التبغ ويعتبرونه نبتة شيطانية، ويتهمون الحكومة بتسهيل بيعه .

في جميع سجون الامبراطورية . إن فقدانه الحريّة ، والسجن الدائم ، وإهانات الحُرّاس المتواصلة ، والقيود ، وسخريات السجناء الآخرين التي أنكرت ، شأنها شأنُ الحكومة ، الله وشوّهت صورته المقدّسة فيهم ، كل ذلك لم يكن يُبالي به : لقد رأى ذلك حيثما كان ، سواء أكان في السجن أم كان حرّاً . وكان ذلك كله ينبع من أن الناس فقدوا معنى العقيدة الحقيقية ، وهم شبيهون بجِراءٍ عُمْيٍ تشتّتت وهي تفارق أمها . ومع ذلك ، كان يعلم أن هناك عقيدة حقيقية : كان يعلم ذلك لأنه كان يحسّ بذلك في قلبه . كان يبحث عنها في كل مكان ، ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه سيعثر عليها في رؤيا القديس يوحنا : « فليستمرّ الظالمُ في ظلمه ، والنجسُ في نجاساته ، وليستمرّ البارُ في بره والقديسُ في قداسته . ها أنا ذا آتٍ عن قريب ، وجزائي معي لأجازي كلّ واحد على حسب أعماله . » كان يقرأ بلا انقطاع هذا الكتاب المليء بالأسرار وكان في كل لحظة ينتظر مجيءَ الذي سيأتي ويجازي كلّ واحد على حسب أعماله ، ويُعلن للناس ، فوق ذلك أيضاً ، الحقيقةَ الإلهية.

في يوم إعدام سفيبيتلوغوب ، سمع الشيخ الطبول ، فتسلّق نافذته ، وشاهد عبر القضبان الحديدية عربة الموتى . ورأى أيضاً شاباً يخرج من السجن صافي العينين ، جعد الشعر . كان يبتسم وهو يصعد عربة المساجين ، ولاحظ الشيخ أنه يمسك بكتاب يضمّه إلى قلبه . وابتسم المحكومُ بالإعدام للسجناء الذين كانوا ينظرون إليه عَبْر القضبان الحديدية . سارت الجيادُ الهوَينا ، وخرجت العربةُ التي تحمل الشاب المشرق الوجه كالملاك يحيط به الحراس ، إلى الفناء ، تاركة أصداءها على الطريق المبلّط .

ترك الشيخُ النافذةَ وجلس على سريره وأخذ يفكّر : « لقد أُعلنتْ الحقيقةُ لهذا الشاب ، ولذلك سيخنقه خدّام المسيح الدجّال بحبلٍ ، لكي لا يُعلنها بدوره . »

— ٧ —

كانت صبيحة هذا النهار الخريفي رمادية ،ومن البحر أقبل الهواء اللطيف الرطبُ .

كان الهواءُ العليل ، ومنظر البيوت ، والمدينة ، والجياد ، والناس الذين ينظرون إليه ، كل ذلك كان يُسلّي سفيبيتلوغوب ، وهو جالسٌ في عربته ، مديراً ظهره للحوذي ، يتفحّص وجوه الجنود والأهالي الذين يصادفهم .

كان الوقت مبكّراً وكانت الشوارع التي يمرّ بها الموكبُ ما تزال خالية . العمال الذاهبون إلى عملهم هم وحدهم الذين كانوا يقفون لينظروا . رآه بتّاؤون ، وإذ أشار أحدهم إشارة يائسة بيده ، انصرف الجميع مسرعين . وكانت العرباتُ الثقيلة المحمّلة بالحديد توقف جيادها القوية لتدع الموكب يمرّ . وكان الحوذيون ينظرون بفضول دَهِش ، ورسم أحدهم ، بعد أن رفع قبعتّه ، إشارة الصليب . وركضت النساءُ إلى الأبواب وشيّعن العربة بنظراتهن . وأخذ رجلٌ عجوز ، رث الثياب ، لم يحلق لحيته ، يكلمَ الناس بحركات محتدّة ، وهو يشير إلى سفيبيتلوغوب . وأدرك صبيّان المركبة وهما يركضان وأخذا يسيران بمحاذاتها على الرصيف . كان الأكبر يسير بخطاً واسعة ، والأصغر

الحاسر الرأس يتشبّث بأخيه وهو يخبّ على ساقيه الصغيرتين ، وقد بدا الرعب عليه . وعندما التقى سفييتلوغوب عينيه ، أومأ إليه برأسه ، وكأن هذه الحركة من الرجل الرهيب الذي يُساق إلى الموت أرعبت الصبي ففتح فاه ليجهش بالبكاء ؛ لكن سفييتلوغوب أرسل إليه قبلة فأجابه الصبي بابتسامة وديعة ساحرة .

وطوال الزمن الذي استغرقه الطريق لم يعكّر هيئةَ المحكوم عليه بالموت أيُّ إحساس مما كان ينتظره . عندما بلغت العربة المكانَ أمام المشنقة ، وأُنزِل ، وعندما رأى العمود والعارضة والحبل الذي يتأرجح عندما يحرّكه الهواء ، عند ذاك فقط أحسّ بضربة في قلبه ، ونَقَزَ ، لكن ذلك لم يدم طويلاً . حول المصطبة اصطفّت صفوفٌ سوداء من الجند ؛ وحين نزل من العربة ، ارتعد من قرع الطبول . وأمام صفوف الجند أخذ الضباط يتمشّون وخلف الجند طائفةٌ من العربات التي حملت جمهور الناس من المدينة وقد جاؤوا ليستمتعوا بالمشهد . أدهش هذا المنظرُ سفييتلوغوب لحظةً . لكنه تذكّر ما كان عليه قبل سجنه ، فرثى للذين لا يعرفون ما كان يعرفه الآن . وفكّر : « لكنهم سيعرفون. سأموت لكن الحقيقة لن تموت . »

أصْعِدَ إلى المصطبة ، ومشى خلفه الضابطُ الذي قرأ ، عندما توقّفت الطبولُ ، بصوت ناشز ضعيف الرنين في الساحة الواسعة ، الحكمَ الغبيَّ الذي قُرىء من قبل في المحكمة والذي يتحدّث عن حِرمان الذي كان يُقتَل من « الحقوق المدنية » ، وعن المستقبل البعيد أو القريب.

وفكّر : « لماذا يفعلون ذلك كله ؟ ولماذا لا أستطيع أن أقول لهم ما أعلم ؟ » .

اقترب من سفيبيتلوغوب رجلٌ هزيلٌ ، ذو شعر طويل ، قليل ، يرتدي جبّة ليلكيةَ ، وعلى صدره صليبٌ ذهبي . وكان يمسك بيده البيضاء الضعيفة صليباً آخر أكبر تتلألأ فضّتُه . بدأ كلامه وهو يمد الصليب لسفيبيتلوغوب :

— إن الرب رحيم .

ارتعش هذا وابتعد . وبمشقّةٍ احتبَسَ الكلمات القارصة التي كان سيوجهها إلى الكاهن الذي يشارك في اقتراف هذا العمل ، و الذي يجرؤ على الحديث عن الرحمة . لكنه تذكر كلام الانجيل : « إنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » . فتحامل على نفسه وقال برفق :

— عفوك ؛ لكني لا أحتاج إلى ذلك كله ، في الحقيقة شكراً .

ومدّ يده إلى الكاهن .

مرّر الكاهن يده يمنةً ويسرةً وشدّ على اليد الممدودة . ثم غادر المصطبة محاولاً ألاّ يرى المحكوم بالإعدام .

دقّت الطبولُ من جديد ، خانقةً جميعَ الأصوات الأخرى ، وأقبل بخطاً حثيثة هزّت ألواح المصطبة الخشبية ، رجل ثقيل . صرَّ نفسه في سترة يُرى تحتها قميص أحمر قاسَ سفيبيتلوغوب بنظرة عين ، ودنا منه فغمره برائحة العرق والخمر ، وأمسك بيديه فشدّهما بقوة ، وجذبهما إلى الخلف ليربطهما . فعل هذا ، وابتعد قليلاً ، ناظراً إلى ضحيته تارة ، وتارة أخرى إلى أشياء أخرى حملها معه ، وأخذ يفكر . ثم اقترب من الحبل أخيراً بعد أن خطط لعمله ، وقَرّب سفيبيتلوغوب من حافة المصطبة .

لم يدرك سفيبيتلوغوب معنى الحركات التي ينفذها الجلاّد وهو يحضر لعمله الرهيب ، كما لم يدرك منطوق الحكم من قبل . كان وجه الجلاد هو وجهَ العامل الروسي العاديّ . لكنه كان يعبّر عن ذلك التركيز الذي نراه لدى جميع الذين يحاولون أن ينفّذوا عملهم على نحو كامل.

قال بصوت أجش وهو يدفع سفيبيتلوغوب نحو المشنقة:

— اقترب قليلاً من هنا .

قال :

— يا إلهي ، كنْ بعوني ، ارحمني .

لم يكن يؤمن بالله ، وغالباً ما كان يهزأ من الناس الذين يؤمنون به . وهو لا يستطيع أن يؤمن به أيضاً ، إذ كان من المستحيل عليه أن أن يعبّر عن مثل هذا المفهوم ، كما أن هذا المفهوم لم يكن ليدركه الفكر. لكن ما كان يفهمه من كلمة « إلهي » هو الحد الأقصى من الحقيقة التي تصورها . وكان على يقين أن نداءه ضروري ولابدّ منه . كان مقتنعاً بذلك ، وهذه الثقة منحتْه القوة رأساً .

اقترب من المشنقة ، وطاف بنظره على صفوف الجند السوداء وعلى صفوف المشاهدين ، وفكَّر مرة أخرى :

— لمَ يفعلون ذلك ؟

أشفق عليهم وعلى نفسه وصعدت الدموع إلى عينيه .

سأل الجلادَ وقد التقى نظرة حادةً من عينيه الرماديتين :

— ألا ترأف بي ؟

توقّف هذا لحظةً . وغدا وجهُه شرساً ودمدم :

— هيا ، بلا خُطَب .

وانحنى على عجل ، وتناول قماشة ، وبحركة حاذقة من يديه ، أمسك بسفيبيتلوغوب من الخلف ، ووضع على رأسه كيساً ، وسحبه حتى منتصف جسمه .

همسَ سفيبيتلوغوب وهو يتذكّر كلمات الانجيل :

— إني أضع روحي بين يديك .

لم يقاومْ فكرُه الموتَ . غير أن جسمه الفتيّ والقوي استيقظ . ولذلك أراد أن يقاوم .

أراد أن يصرخ ، أن يتخبط ، لكن في هذه اللحظة بالذات أحسّ بالدفع ، ففقد توازنه ، استولى عليه رعبٌ حيواني . وأحسّ بضجة عظيمة في رأسه ، ثم اختفى كلُّ شيء .

تأرجح الجسدُ في الفراغ . ارتفعت الكتفان وانخفضتا مرتين .

بعد لحظة ، وضع الجلاّدُ ، وهو متجهّم ، اليدين على كتفي الجثة ، وسحبه إلى الأرض بحركة عنيفة . توقّفت كلُّ حركة . وغدا مثل دمية تتأرجح ، رأسهُ مائلٌ إلى الأمام ، في وضع غير عادي ، والقدمان اللتان غُطّيتا على نحو خشن بجوربي السجناء ، قد استطالتا .

بعد ساعة ، رُفعت الجثةُ عن المشنقة ، ونُقلت إلى مقبرة المحكومين. لقد نفّذ الجلادُ هذا الأمر ، لكن ذلك لم يكن شيئاً سهلاً . ولم تغادرْ رأسَه كلماتُ سفيبيتلوغوب : « ألا ترأف بي » ؟ هو نفسه كان قاتلاً محكوماً بالأشغال الشاقة ، وكانت مهمة الجلاد تمنحه حريةً نسبية والفرح بالحياة . لكنه ، منذ هذا اليوم رفض الاستمرار في هذه المهنة التي كان

قد قبلها ؛ وفي أثناءالأسبوع شرب بالمال الذي جاءه من تنفيذ الحكم. وأيضاً من المال الذي جناه من بيع ثياب المحكوم . ولذلك سُجن ، ومن السجن نُقل إلى المستشفى .

— ٨ —

نُقل أحدُ زعماء الحزب الإرهابي ، « إنياس ميجينتسكي » ، وهو نفسه الذي اجتذب سفيبيتلوغوب إلى العمل ، من مكان توقيفه إلى بطرسبرج . وفي السجن الانتقالي الذي نُقِلَ إليه ، حبس حبساً موقتاً الشيخُ المنشق الذي رأى رحيل سفيبيتلوغوب للإعدام . كان في طريقه إلى سيبيريا . وبالرغم من جميع ضروب الاضطهاد التي تعرّض لها ، فقد استمرّ في بحثه عن العقيدة الحقيقية ، ومن حين إلى آخر ، كان يفكر في الشاب الجميل الذي كان يبتسم وهو ماضٍ إلى الموت .

ولما علم المنشقّ أن رفيقَ الشاب كان في السجن نفسه ، رجا الحارسَ ، وهو سعيدٌ — لأنه كان يعتقد أن السجين يحمل العقيدة نفسها — أن يقوده إلى صديق سفيبيتلوغوب ، وبالرغم من صرامة نظام السجون ، لم يكفّ ميجينتسكي عن الاتصال برجال حزبه ، ومن يوم إلى يوم كان ينتظر أخباراً عن النقب الذي تصوّره هو نفسه لنسف القطار الامبراطوري. وإذا فكّر ببعض التفاصيل التي أهملها ، حاول أن ينقلها إلى رفاقه المتواطئين معه . وعندما دخل الحارس زنزانته ليقول له بصوت منخفض إن أحد المحكومين يريد أن يراه ، سَعدَ بذلك كثيراً ، آملاً أن يُتاح له الاتصال بحزبه . فسأله :

— مَنْ هو ؟

— فلاحٌ .

— ماذا يريد مني ؟

— يريد أن يتحدّث عن العقيدة

ابتسم ميجينتسكي وقال

— حسناً ! ابعثْه .

وفكّر :

« هؤلاء المنشقّون يكرهون ، هم أيضاً ، الحكومة . فلربما أمكنه أن يخدمنا » .

خرج الحارس ، وبعد قليل ، أدخلَ الزنزانةَ رجلاً عجوزاً جافاً ، متوسّط القامة ، ذا عثنون قليل الشعر ، وقد خطه الشيب ، ومدّ وجهه الهزيل .

سأله ميجينتسكي :

— فيم ترغب ؟

ألقى الشيخُ عليه نظرةً . ثم خفض عينيه على عجل ، ومدّ إليه يداً جافةً وقوية .

— عندي كلمة أود أن أقولها لك

— ما الكلمة ؟

— حول العقيدة

— أية عقيدة ؟

— يُقال عنك إنك تحمل العقيدة نفسها التي حملها الشاب الذي شنقه في اوديسا خُدّامُ المسيح الدجّال

ــ أي شاب ؟

ــ الذي شُنق ، في اوديسا ، في الخريف الماضي .

ــ لعله سفيتيلوغوب ؟

ــ هو بعينه . أكان صديقك ؟

كان الشيخُ ، عند كل سؤال ، يتفحّص بعينيه الوادعتين وجه ميجينتسكي ولا يلبث أن يحوّل نظره عنه .

ــ نعم ، كان قريباً مني .

ــ ومن العقيدة نفسها . ؟

قال ميجينتسكي وهو يبتسم :

ــ لاشك .

ــ عن ذلك أحبّ أن أحدّثك .

ــ لكن ما الذي تبتغيه ، إجمالاً ؟

ــ أحبّ أن أعرف عقيدتكم .

قال وهو يهز كتفيه في عبارات تعوّدها :

ــ عقيدتنا . اجلسْ اذن . ودونك ما تقوم عليه : إننا نعتقد أن هناك أناساً استولوا على القوة ، وهم يعذّبون الشعب ويخدعونه . وقد عزمنا ألا نتوانى في النضال ضد هؤلاء الناس لنخلّص منهم الشعب الذي يستغلّونه .

وأردف :

والذي يعذّبونه ، ويجب علينا أن نُبيدهم . إنهم يقتلون وسنقتلهم ، حتى يأتي اليومُ الذي يعترفون فيه بأخطائهم .

كان المنشقّ العجوز يتنهد دون أن يرفع بصره .

ـــ وإذن فان عقيدتنا تقوم على التضحية بحياتنا لقلْب الطغيان ، وإقامة حكومة الشعب المنتخبة والحرّة ..

تنهّد الشيخ بأناة ، ونهض ، وأزاح معطفه ، وارتمى راكعاً أمام ميجينتسكي . ثم ضرب بجبهته حصير الأرضية الوسخ :

ـــ لماذا تركع ؟

سأله الشيخ دون أن ينهض :

ـــ لا تحاولْ خداعي . قلْ لي علام تقوم عقيدتكم .

ـــ قلتُها لك . انهضْ . أرجوك . وإلا توقفتُ عن الكلام .

نهض الشيخُ وسأل ، وهو ينظر إلى ميجينتسكي تارة ، ويغضّ بصره تارةً أخرى .

ـــ إذن ، هذه كانت عقيدةُ الشاب .

ـــ نعم ، هذا قوامُ عقيدته ، ولذلك شنقوه ومن أجل هذه العقيدة يقتادونني إلى قلعة « بطرس وبولس » (١) .

انحنى الشيخ انحناءة كبيرة . وخرج وهو صامتٌ ، من الزنزانة. وفكّر :

« لا ، عقيدةُ الشاب لم تكن هكذا . كان يعرف العقيدة الحقيقية. وهذا يَفْخر بقوله إن لهما العقيدة نفسها ، أو لعله لا يريد أن يصرّح بشيء . . . يجب أن أستمرّ في بحثي . اللهُ في كل مكان ، هو هنا كما هو في سيبيريا . إن توقفتَ في دربك فاسألْ عن الطريق . »

---

(١) قلعة بطرس وبولس : تقع في وسط العاصمة ، وفيها سجن السجناء السياسيين .

ثم تناول الشيخُ العهد الجديد الذي انفتح من ذاته على صفحة «إعلان الملكوت » ، ووضع نظارتيه الكبيرتين ، وجلس قرب النافذة . وأخذ يقرأ .

— ٩ —

مرّت سبعُ سنوات . وأُرسل ميجينتسكي إلى سيبيريا بعد أن أنهى السجن الانفرادي في قلعة « بطرس وبولس » . ولقد تألم كثيراً أثناء هذه الحقبة . لكن اتجاه تفكيره لم يتغير ، ولم تهنْ عزيمتُه . وقد أدهش القضاةَ ، أثناء الاستجوابات التي سبقت سجنه ، بقوة شكيمته وباحتقاره للرجال الذين كان بين أيديهم . وفي أعماق نفسه ، كان يتألم من أنه اعتُقل قبل أن يتمّ عملُه . لكنه لم يُظهر هذا الألم ، وكان كلما مَثُلَ بين يدي هؤلاء الناس استيقظ فيه كرهٌ وحشي. كان لا يردّ على الاسئلة التي تُطرح عليه ، ولم يكن يجيب إلا عندما يستطيع أن يُصيب بسخريته ضابط الشرطة أو النائب العام .

وعندما كانوا يردّدون عليه الجملةَ المعتادة :

« تستطيع أن تحسّن وضعك باعترافك الصادق » ، كان يبتسم ويقول باحتقار :

— إذا كنتم تعتقدون أنكم تحملونني على الوشاية برفاقي من أجل مربح ما أو بسبب الخوف فأنتم لا تحكمون عليّ إلا من خلال أنفسكم. أتظنون أنني عندما انطلقتُ في هذا العمل لم أتوقع أسوأ الأشياء . ليس في وسائلكم ما يدهشني أو يخيفني . افعلوا بي ما تشاؤون ، فلن أتكلم.

وكان يشعر بسرور حقيقي حين يراهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة مرتبكة .

وعندما أودع ، بعد الحكم ، قلعة « بطرس وبولس » ، وعندما رأى الزنزانة الصغيرة الرطبةَ ، وفيها ، في الأعلى ، النافذة الزجاجية الضيقة التي كمدت ، أدرك أن ذلك لم يكن لشهور ، بل لسنين ، فاستولى عليه الرعبُ . كان صمتُ الموت هذا ، وهو صمتٌ منظّم بدقه ، مُرعباً. وأدرك أيضاً أنه لم يكن وحده ، لكنّ خلف هذه الجدران الصفيقة ناساً يشبهونه ، حكموا بعشر سنين أو بعشرين ، ناساً يقتلون أنفسهم ، أو يُشنقون ، ويجنّون ، أو يموتون ببطء من السلّ . كان هناك رجال ونساء ، ومن المحتمل أن يكون بينهم أصدقاء .

فكّر : « ستمرّ السنون ، وأنت أيضاً ستغدو مجنوناً ، ستشنق أو تموت ، ولن يدري أحدٌ أبداً ماذا حلّ بك . »

ثار فيه هياجٌ صامت ضدّ الناس ، ولاسيّما ضد الذين حبسوه . وفي هذا الهياج ، كان يتمنّى وجود هؤلاء : كان بحاجة إلى الحركة والضوضاء ، ولم يكن ها هنا سوى صمت الموت . وخطاً مخنوقة ، خطا الصم البكم الذين لا يردّون على سؤالٍ ، وصرير الأبواب التي تفتح وتُغلق في ساعات الطعام المعتادة . وخلف الزجاج الكامد ، كان أبداً الضياءُ الشاحب ذاته ، الظلمات نفسها ، الخطا المخنوقة ذاتها ، الأصواتُ ذاتها اليوم وغداً ودائماً . . . والغضب الذي لا يجد مخرجاً فَيَقْرض القلب.

حاول أن يدقّ على الجدران بحسب الإشارات ، لكن لم يجبه أحدٌ ، وكان يسمع كل مرة الخطوات نفسها ، والصوت المتساوي ذاته من الرجل الذي يأتي ليهدّده بالعقوبة .

لحظات الراحة كانت ساعات النوم وحدها ؛ لكن بالمقابل كم كانت أشد هولاً ساعات اليقظة . كان يرى نفسه ، في الحلم ، حراً، مشغولاً بأشياء غريبة عن نشاطه الثوري .

فتارةً كان يعزف على كمان غريب ، وتارةً أخرى يغازل البنات ، في المركب ، أو يمارس الصيد . وفي بعض الأحيان كان يُرفّع إلى مرتبة « دكتور » الفخرية ، في جامعة أجنبية ، فيُلقي خطباً أمام المدعوين إلى مأدبة فخمة . كانت الأحلام برّاقةً والواقع فارغاً وريباً إلى حدّ كبير .

أشق ما في الأمر ، مع ذلك ، هو أنه كان يستيقظ ، كلّ مرة ، في اللحظة التي كانت رغبته ستتحقّق فيها . فما ان تصيبه فجأةً ضربة في القلب حتّى يختفي النسيج الفرح ، ولا تبقى سوى الرغبة الظامئة ، والجدار ببقع الرطوبة العريضة التي كان يضيئها ، على نحو غريب ، مصباح صغير ، وفراش القش القاسي تحت جسمه .

كان النوم أفضل أوقاته ، لكن كلما طال السجن قلّ نومُه .وكان ينتظر النوم كما يُنتظر الفرحُ العظيم ، لكنه كلما اشتهاه ابتعد عنه . كان يكفيه أن يفكر : « هل سأنام ؟ » حتّى يذهب النومُ . وكان مشيه وقفزاته في زنزانته لا تُجدي شيئاً . وكانت الحركة السريعة تأتي بالضعف وتزيد تهيّجه العصبي وكان الصداع يُصيبه في أعلى الرأس ، وكان يكفي أن يغمض عينيه حتّى تظهر ، على خلفيّة سوداء تنقّطها بقعٌ مضيئة هيئات مشعرة أو صلعاء ، ملتوية الأفواه ، كل واحدة أشدّ هولاً من أختها . كانت تكشّر تكشيرات وحشية . وظهرت ، فيما بعد ، حتّى دون أن يغمض عينيه . ولم تكن وجوهاً فحسب ، بل كانت أجساماً كاملةً تأخذ

في الكلام والرقص. كان يستبد به قلقٌ قاتل ، فيثب من سريره ، ويضرب رأسه بالجدار ويصرخ. حينئذ تُفتح الطاقةُ ، ويقول له صوت هادىءٌ متساو :

— الصراخُ ممنوعٌ في النظام .

فيزعق ميجينتسكي :

— ادعُ آمرَ الحرس .

فلا يجيبه الحارسُ وتُغلَق الطاقةُ من جديد . ويستولي عليه يأسٌ لا حدود له ، ولا يتمنّى سوى شيء واحد : الموت . وعزم ذات يوم أن يقتل نفسه .

كان في زنزانته مروحةُ تهوية : كان يكفي أن يربط بها حبلاً وأن يصعد السرير ، حتى يتمكّن من شنق نفسه بسهولة . ولمّا لم يجد حبلاً مزّق أغطية الفراش إلى عصائب ضيّقة ، لكنه لم يستطع أن يجمع منها ما يكفي . حينئذ أراد أن يموت جوعاً فامتنع عن الطعام يومين . لكنه ضعف في اليوم الثالث حتى عادت هلوساته بشدة جديدة . وعندما حمل إليه الحارسُ طعامه وجده ممدّداً على أرض الزنزانة ، مغمياً عليه ، وعيناه مفتوحتان .

استُدعي الطبيبُ فنوّمه ، إذْ أعطاه شراب الروم والمورفين فنوّماه.

في اليوم التالي ، عند استيقاظه ، كان الطبيب هنا ، منحنياً فوقه ، يهزّ رأسه. وفجأة تملّك ميجينتسكي شعور الغضب الذي كان يضاعف قواه قديماً ، والذي لم يشعر به منذ زمن طويل .

صاح بالطبيب بينما كان يعد نبضاته ، وهو خافضٌ رأسه :

— ألا تُخجل من المجيء إلى هنا . تعالجُني لتعذّبني من جديد عندما أتعافى . ألست كمن يحضر جلداً بالعصا فيؤجّل تتمة الجلد إلى اليوم التالي ؟

قال له الطبيبُ دون أن ينفعل .

— تفضّل واضطجع على ظهرك

لم يكن ينظر إلى المريض ، واخرج من جيبه آلة يتسمع بها إلى صدره.

صرخ ميجينتسكي فجأةً :

— هؤلاء يعالجون الجراح ليُمكن إنزالُ الضربات الباقية . اذهبوا إلى الشيطان ! انصرفوا ! سأموت دونكم !

— هذا سيءٌ ، أيها الشاب . واعلمْ أننا نملك الردّ على فظاظاتكَ .

— اذهبوا إلى الشيطان ، قلت لكم . إلى الشيطان !

بدا ميجينتسكي سيئاً إلى حدود الشراسة حتى إن الطبيب بادر إلى الانصراف

— ١٠ —

أكان ذلك نتيجة الأدوية التي تناولها ، أم أن الأزمة قد مرّت ، أو أن فوْرة غضبه على الطبيب هدّأته ؟ لكن منذ هذا اليوم بدأ السجينُ حياةً جديدة .

فكّر : « إنهم لا يستطيعون ولا يريدون ، من غير شك ، أن يحتفظوا بي هنا إلى الأبد . سوف يُطلقون سراحي ، ذات يوم ، أو

— وهذا هو الأرجح — سيتغيّر النظام السياسي ، فممّا لا شك فيه أن رفاقنا ما يزالون يعملون . ينبغي عليّ إذن أن أوفّر قواي لأخرج معافىً ، قادرا على المشاركة في المهمة المشتركة .

أنفق زمناً طويلاً في تنظيم طريقته الجديدة في الحياة . كان يرقد في الساعة التاسعة ويجبر نفسه على البقاء مضطجعاً ، سواء أنام أم لا ، حتى الساعة الخامسة صباحاً . حينئذ كان ينهض ، ويغتسل ، ويقوم بتمرين رياضي ، وبعد ذلك يقول في نفسه : إنه ذاهب إلى أعماله . وفي خياله ، يقطع بطرسبرج ، من جادّة « نيفسكي » إلى « ناد وجدتسكايا» ، محاولاً أن يتصوّر كلّ ما يمكن أن يصادفه في طريقه : البيوت ، اللافتات رجال الشرطة ، العربات والمشاة . وعند « نادجدتسكايا » يدخل منزل صديق ورفيق . وهناك ، يلقى الرفاق الذين يهيّئون الثورة المقبلة . وتنشب المناقشات التي لا نهاية لها : ويتكلّم ميجينتسكي عنه وعن الآخرين بصوت مرتفع ، — فيذكّره الحارسُ من الطاقة بالتزام النظام — فلا يبالي ميجينتسكي . ويستمر في يومه الخيالي . وبعد ساعتين من هذه المناقشات ، يترك أصدقاءه ويعود إلى بيته لتناول الطعام . يبدأ ذلك بخياله ثم يأكل حقيقة الطعامَ الذي حُمل إليه في السجن . وبعد ذلك ، وفي خياله ، يظل في البيت ، مشغولاً بالتاريخ والرياضيات ، وأحياناً بالأدب في يوم الأحد .

كانت دراسةُ التاريخ تقوم على اختيار شعب وعصر : كان يحاول أن يتذكر الوقائع والتواريخ . أما الرياضيات فقد كان يحلّ عن ظهر قلبٍ مسائل الجبر والهندسة .

كان هذا الشغلُ الأخير أعزّ مشاغله عليه . وفي نهار الأحد ، يتذكّر بوشكين وغوغول وشكسبير ويؤلّف هو نفسه . وقبل أن ينام كان من عادته أن يقوم بنزهة مع رفاقه ، رجالاً ونساءً ، ويتحدث معهم أحاديث بهجة أو رصينة ، أحاديث بعضها جرى حقيقة فيما مضى من الزمن ، وبعضها الآخر اخترعه من أوله إلى آخره.

وتسير الأمورُ هكذا إلى الليل . وكان يسير في زنزانته فعلياً ألفي خطوة ، ويضطجع فينام في معظم الأحيان . وفي اليوم التالي يبدأ ذلك من جديد .

كان يذهب أحياناً إلى الجنوب ليثير تمرّداً في الشعب ، وبعد أن يطرد ملاّكي الأراضي ، يوزّع الأرض على الفلاحين . لم يكن يتخيّل ذلك دفعةً واحدة ، بل تدريجياً ، مع كل التفاصيل . وكان الحزبُ الثوري منتصراً دائماً ؛ وكانت الحكومة تضعف وتلجأ إلى الجمعية التأسيسية . وكانت العائلةُ الامبراطورية تختفي ، وكذلك جميع ظالمي الشعب . وتقوم الجمهورية ، ويكون هو ميجينتسكي رئيساً لها . وكان يصل غالباً إلى هدفه بسرعة فائقة . وحينئذٍ يستعيد نسيج عمله ويبلغ غايته بوسائل أخرى .

وهكذا عاش سنةً ، واثنتين ، وثلاثاً ، منحرفاً أحياناً عن خطّته الصارمة ، لكنه كان يعود إليها دائماً . وإذْ كان السيِّدَ المتحكمَ بخياله ، فقد تحرّر من الهلوسات والأرق ، وغدت الرؤى المكشرة نادرة . وفي بعض الأحيان ، كان ينظر إلى آلة التهوية ويحاول أن يتصوّر كيف سيفعل ليثبّت بها حبلاً ، ويعقد عقدة ويشنق نفسه : لكن هذه النوبات لم تكن تدوم طويلاً ؛ فقد كان يحاربها وينتصر عليها .

وهكذا عاش سبع سنوات . وعندما انتهى وقتُ سجنه الانفرادي واقتيد إلى مكان النفي ، كان معافىً ، في حالة حسنة ، مالكاً لجميع قواه العقلية .

— ١١ —

سيق ، كما يساق المجرمُ الخطير ، دون أن يُسمَح له بالاتصالِ بالآخرين . ولم ينجح بهذا الاتصال مع المحكومين الذين كانوا يُساقون مثله إلى الأشغال الشاقة ، إلا في سجن « كرانويارسك(١) » . كانوا ستةً ، امرأتين وأربعة رجال ، كلهم شباب ، من جيل تكوّن حديثاً يجهله ميجينتسكي . كانوا ثوريين من الجيل الذي تلا جيله ، وهو الأمرُ الذي أثار اهتمامه كثيراً. كان يتوقّع أن يجد فيهم أناساً مشوا على آثار مَنْ قبلهم فقدّروا تقديراً عالياً كلَّ ما صُنع قبلهم على أيدي الذين سبقوهم ، وبخاصة على يديه هو نفسه. وكان يُعدّ نفسه ليعاملهم بطيبٍ ورفقٍ ؛ لكن كم كانت دهشتُه عظيمة عندما رأى أن هؤلاء الشباب لم ينكروا عليه فقط أن يكون رائداً ومعلماً ، بل إنهم أخذوا يعاملونه بشيء من التعالي ، وكأنهم يحاولون إيجاد العذر لأفكاره العتيقة . ففي رأي هؤلاء الثوريين الجدُد ، أن كل ما فعله ميجينتسكي وأصحابُه ، من مثل محاولات التمرد في الأرياف ، والإرهاب ، ومقتل الحاكم « كرابوتكين » ، ومقتل « ميزنتسوف ، ومقتل الاسكندر الثاني (٢)

(١) كرانويارسك : مدينة في سيبيريا الغربية .

(٢) مقتل كرابوتكين . . . قتل الأمير كرابوتكين على أيدي الثوريين في ٩ آذار ١٨٧٩ والجنرال ميزنتسوف رئيس الشرطة السياسية في ٦ نيسان ١٨٧٩ ، والأمبراطور الاسكندر الثاني في آذار ١٨٨١ .

نفسه ، كل ذلك لم يكن سوى سلسلة من الأخطاء كلُّ ذلك قد ابتعثَ الردّة التي انتصرت في عهد الاسكندر الثالث وقادت المجتمع إلى حالة القنانة تقريباً . إن طريق التحرر ، كما يقول هؤلاء الشباب ، كانت مختلفة تماماً .

دامت هذه المناقشاتُ نهارين وليلتين . وكان أحدُهم ، ويُدعى « رومان » ، وهو الذي كان يعتبره الآخرون زعيماً لهم ، يُهين على نحو مؤلمٍ ميجينتسكي بثقته بنفسه التي لا تتزعزع ، وبابتسامته المفعمة بالإشفاق وبما يبدو أنه سخرية هازئة من نشاطه ونشاط رفاقه القدامى . وفي اعتقاده أن الشعب ليس سوى قطيع من الماشية في حالة متدنيّة من التطوّر بحيث لا يمكن أن نفعل منه شيئاً . ولم تكن جميعُ المحاولات لتنوير الأهالي الريفيين الروس بأنجع من محاولة حرق الحجر أو الجليد : يجب تربية الشعب ، وتعليمه التضامن ، وهو ما لا يمكن حصوله إلا بالصناعة الكبيرة وبالتنظيم الاشتراكي المتولّد عنها . وليست الأرض عديمة الفائدة للشعب فحسب ، لكنها تجعل منه محافظاً وعبداً وليس هذا عندنا فحسب ، بل وفي اوروبا ، وكان يستشهد عن ظهر قلبٍ بعدد كبير من الأرقام وبحججٍ يُحتَجّ بها . يجب أن يتخلص الشعبُ من الأرض وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل . وكلما كبُرَ عددُ الذين يذهبون إلى المعامل ، ازداد احتكارُ الرأسماليين للارض وسحقهم للعامة ، وكان ذلك أفضل . فالاضطهاد والرأسمالية لا تمكن إبادتهما إلا بتضامن الشغّيلة . وهذا التضامن لا سبيل إلى بلوغه إلا بفضل اتّحادات النقابات ، أي عندما تصبح الجماهيرُ الشعبية بروليتاريةً ، وتكفُّ عن أن تكون ريفيه.

كان ميجينتسكي يناقش ويتحمّس . وكانت إحدى المرأتين تناقضه على وجه الخصوص . كانت امرأةً قصيرة سمراء ، حلوة جداً ، غزيرة الشعر ، برّاقة العينين . كانت تجلس على حافة النافذة ، وكأنها لا تُشارك في النقاش ، لكنها كانت تتدخّل ، بين وقت وآخر ، ببضع كلمات توافق فيها على تأكيدات « رومان » . أو أنها كانت تقتصر على السخرية من الثوري القديم .

سأل ميجينتسكي :

ـ لكن كيف ستحوّل جميع الشعب الزراعي ؟

أجاب « رومان » :

ـ ولِمَ لا ؟ هذا قانون اقتصادي ثابت .

ـ لكن ، كيف عرفتَ أنه ثابت

قالت السمراء القصيرة ، وعلى وجهها ابتسامة احتقار :

ـ اقرأ « كاوتسكي » (١) .

ـ وحتى لو سلّمنا ـ وأنا لا أسلم ـ أن هؤلاء الريفيين سيتحولون إلى بروليتاريين ، فما هي أسبابُ افتراضك أنهم سيذوبون في هذه البوتقة التي تُهيّئها لهم .

قالت السمراءُ مرة أخرى وهي تلتفت إلى النافذة :

ـ لأن العلم يُثبت ذلك .

وعندما تطرّق النقاش إلى أفضل وسائل العمل لبلوغ الهدف ، تفاقم الاختلاف : أكّد « رومان » وأصحابُه أن من الواجب إعداد جيش من

(١) كاكوتسي : (١٨٥٤ - ١٩٣٨) اشتراكي ألماني من منظري الماركسية . وقد أسس فيما بعد جناحها اليميني « التحريفي » .

الشغيّلة ونشر الاشتراكية ، مع الإسهام في تحويل العامل الزراعي إلى عامل مصنع ، وأن من الواجب لا عدم محاربة الحكومة فحسب ، بل استخدامها لتنفيذ هذه الخطّة . أما ميجينتسكي فظل يؤكّد أن النضال ضد الحكومة أمرٌ لا بدّ منه ، وأن من الواجب إرهابها ، لأنها الاقوى والأكثر حيلةً .

– لستم أنتم الذين ستغشّون السلطات العامة ، بل إنها هي التي ستخدعكم . أما نحن ، فنقوم بالدعاية ، وفي الوقت نفسه نناضلُ ضد الحكومة .

فهمست السمراءُ ساخرةً :

– ولذلك قمتم بذلك العمل العظيم !

وقال رومان :

– نعم ، أعتقد أن الصراع المباشر مع الحكومة هدرٌ للقوى .

فصاح ميجينتسكي :

– كيف ، أول آذار (١) هدرٌ القوى . لقد ضحيّنا بحياتنا ، بينما بقيتم أنتم في بيوتكم تستمتعون بالحياة ، وتبشّرون بنظريات مسالمة .

قال « رومان » بهدوء وهو يلقي نظرةً حوله :

– لا يمكن مع ذلك القولُ بأننا نستمتع بالحياة .

ثم أمعن في ضحكٍ قويّ خاصّ به . وهزّت السمراء رأسها وهي تتبسم ابتسامة الاحتقار .

واستأنف رومان :

(١) أول آذار : في أول آذار قتل الاسكندر الثاني .

— لا يمكن القولُ إننا نستمتع بالحياة . وإذا كنا هنا فذلك يعود إلى الردّة التي هي محصّلة أول آذار .

صمت ميجينتسكي ؛ أحسّ أن الغضب يخنقه فخرج إلى الممر .

— ١٢ —

حاول الثوريُّ القديم أن يستعيد هدوءه ، فأخذ يتمشى طولاً وعرضاً . كانت أبواب الزنزانات مفتوحة لتفقّد المساء . اقترب منه سجين محكومٌ بالأشغال الشاقة ، أشقر ، ذو وجه باسم ، مليءٍ بالطيب الهادىء بالرغم من المظهر الغريب لرأسه الذي حُلق نصف حلقة وفقاً لنظام السجون .

— في غرفتنا سجينٌ رأى سيادتك .

وقال لي : أدعُه لأراه .

— أي سجين ؟

— لقبُه هو « حكومة التبغ » . إنه عجوز قصير من المنشقّين.

قال لي : ادعُ لي هذا الرجل . إنه يريد أن يكلّم سيادتك .

— أين هو ؟

— هنا ، في غرفتنا . قال لي ادعُ لي النبيلَ .

سار ميجينتسكي في أثر السجين ودخل غرفة صغيرة كان فيها ، بعض السجناء ، الجالسين أو المتمددّين على أسرة المعسكرات . وعلى الألواح غير المفروشة إلا بمعطف رمادي، اضطجع ذلكالمنشقُّ العجوز الذي جاء يسأل ميجينتسكي قبل سبع سنوات عن سفييتلوغوب . كان وجه الشيخ شديد الشحوب ، مغضّناً ، مخدّداً ، وكأنه قد جفّ .

وابيض عثنونه القصير القليل الشعر وارتفع إلى الأعلى. كان مستلقياً على ظهره وكأن به حمّى ، لأن وجنتيه كانتا محمرّتين احمراراً مَرَضياً.

دنا ميجينتسكي منه وسأل :

— ماذا تبتغي ؟

نهض الشيخ بمشقة واتّكأ على مرفقه ، ومدّ إليه يده الجافة والمرتجفة . فكأنما كان يُعدّ نفسه للكلام قبل الكلام ، لأنه كان يتنفّس بقوة وبمشقة .

— لم تشأ أنت ، في الماضي ، أن تكشف لي عن عقيدتك . ليسامحْك الله أما أنا فأكشفها للجميع .

— وما الذي تكشفه ؟

— إني أتحدث عن الحَمَل . . . الحمل . . . كان الشاب الآخر مع الحمل . وقد قيل : « أنا الحمل ، وسأَغلب العالم ، والذين هم معي سيكونون المُختارين . »

قال ميجينتسكي :

— لا أفهمُ .

— افهمْ بادراكك الروحي . القياصرة سوف يستولون على السلطة مع « الوحش » وسيَغْلبهم الحملُ .

سأل ميجينتسكي :

— أيّ قياصرة ؟

— القياصرة سبعةٌ : خمسةٌ منهم سقطوا ، وبقي واحدٌ ، وسيأتي السابع الذي لم يأت بعد . لكنه عندما يأتي ، ستكون النهاية . هل فهمتَ .

هزَّ ميجنتسكي رأسه اعتقاداً منه أن الشيخ يَهْذي وأن كلماته لا معنى لها . وهكذا كان أيضاً رأي رفاقه في الغرفة . اقترب من ميجينتسكي السجين الذي دعاه ، ودفعه بمرفقه ، وقال :

— إنه يهذر هكذا ، طوال الوقت ، عن « حكومة التبغ » ، ولا يعلم ماذا يقول .

ومع ذلك ، فقد كان الشيخ يعلم جيداً ماذا يقول ، وكل ما قاله كان له معنى واضح وعميق . كان معناه أن سلطان الشرّ لن يدوم طويلاً ، وأن تواضع الحمل سينتصر على كل شيء ؛ وأن الحمل سيمسح كل دمعة ، وأنه لن يكون بعد ذلك لا دموعٌ ولا أمراضٌ ، ولا موت . وكان يحسّ أن ذلك كله في سبيله إلى التمام ، في العالم كله ، كما في نفسه التي استنارتْ بدنوّ الموت .

وقال وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة عدّها ميجنتسكي جنوناً :

— أَقبِلْ بسرعة ، أقبلْ ، يا سيدي . آمين .

— ١٣ —

فكّر ميجنتسكي وهو يخرج من عند الشيخ :

— ها هو ذا ممثّل الشعب ، بل أفضل ممثّليه . يالظلمات الجهل !

ثم فكّر في « رومان » وأصدقائه :

— يقولون أنه لا يمكن فعلُ شيء ، مع مثل هذا الشعب .

لقد قام ميجنتسكي بكل عمله الثوري بين الشعب ، وعرف ، كما

كان يقول ، كلّ جمود الفلاح الروسي ؛ عاش مع الجنود ومع الاحتياطيين ، وتبين إيمانهم البليد بالبيمين التي أقسموها ، وبضرورة الطاعة السلبية ، وكان يعلم أنه لا يمكن التأثير فيهم بالعقل . عرف ذلك كله قديماً ، لكنه لم يستخلص منه شيئاً .

أخرجه عن طوره النقاش مع الثوريين الجدد .

— يقولون إن كل ما فعلناه ، ما فعلـه « كالتورين » ، و « كيبالتشيش » ، و « بيروفسكايا » (١) ، كان بلا جدوى ، بل مضراً لأنه أثار ردّة الاسكندر الثالث . ويزعمون أنهم أقنعوا الشعب بأن النشاط الثوري يأتي من ملاّكي الأراضي الذين قتلوا القيصر بعد أن انتزع منهم أقنانهم . أية حماقة ، وأي جهل ، وأية عجرفة في التفكير على هذا المنوال .

كان يفكر في ذلك وهو يذرع الممر . كانت جميعُ غرف السجن مغلقةً ، ما عدا غرفة الثوريين الجدد . وعندما دنا ميجينتسكي منها سمع ضحكَ السمراء الكريهة ، وصوت « رومان » الحاد . كان يبدو أنهم يتحدثون عنه ، فتوقّف ليستمع إلى كلمات الشاب .

— بما أنهم لا يفهمون القوانين الاقتصادية ، فقد كانوا لا يعلمون ما يفعلون . ويجيء هذا في قسمه الأعظم ، من . . .

---

(١) كالتورين . . . ستيفان كالتورين (١٨٥٦ — ١٨٨٢) ، عامل ثوري نسف قصر الشتاء بالديناميت وقتل أكثر من ٦٠ جندياً ، كيبالتشيش (١٨٥٤ — ١٨٨١) عضو في منظمة « إرادة الشعب » هيأ القنابل التي قتلت الاسكندر الثاني ، صوفي بيروفسكايا : ابنة حاكم بطرسبرج ، عضو في المجلس التنفيذي لإرادة الشعب ، وقد نظمت مقتل الاسكندر الثاني . شنقت مع كيبالتشيش في ٣ نيسان ١٨٨١ .

لم يشأ ولم يستطع ميجينتسكي أن يسمع أكثر من ذلك . إن نبرة صوت هذا الرجل تُظهر الاحتقار الذي يكنّه له ،هو ميجينتسكي ، بطل الثورة ، والذي قدّم للقضيّة اثنتي عشرة سنة من حياته .

أحسّ بغضب غير معهود يُولدُ في نفسه ، بكره للجميع ، لكل شيء ، لهذا العالم الأحمق الذي لا يمكن أن يعيش فيه إلا أناسٌ كالحيوانات — مثل ذلك الشيخ وحَمّاله — أو كأنصاف الحيوانات مثل الجلاّدين والحراس الأفظاظ — وأصحاب النظريات هؤلاء الأموات — الأحياء، المتعجرفين ، الواثقين بأنفسهم تلك الثقة البالغة .

دخل حارسُ الخدمة وقاد المرأتين المحكومتين إلى مكانهما . ولكي لا يلتقيه ميجينتسكي ، مضى إلى آخر الممر . وعندما عاد الحارسُ ، أغلق باب السجناء السياسيين الجدد ، وأمره أن يدخل زنزانته . فنفّذ ما طُلب منه آلياً ، وطلب ألا يُغلق بابه .

اضطجع ووجهه إلى الجدار .

— أمن الممكن أن تكون تلك الطاقات جميعاً وهذه العبقرية قد أُنفقتْ عبثاً ؟ (لم يعدّ قط أحداً فوقه .)

تذكّر أنه تلقّى ، وهو في طريقه إلى سيبيريا ، رسالةً تلومُه فيها أم سفيييتلوغوب على أنه جرّ ابنها إلى هلاكه . في تلك اللحظة ، تبسّم مزدرياً تلك الرسالة بمنطقها النسائي : ماذا يمكن أن تفهم هذه المرأة من الأهداف التي يسعى نحوها هو وسفيييتلوغوب ؟ لكنه عندما فكّر الآن بتلك الرسالة ، وبالشخصية الوادعة جداً ، والواثقة بنفسها جداً . شخصية صديقه الذي اختفى ، غدا حالماً وانطوى على نفسه . أكانت حياتُه كلُّها خطأً ؟

أغمض عينيه وأراد أن ينام ؛ لكنه واجه برعبٍ تلك الحالة التي عرفها منذ الأيام الأولى من سجنه في قلعة « بطرس وبولس » وعاوده ذلك الألمُ الموجع في أعلى رأسه . ومن جديد ظهرت تلك الهيئات ذات الأفواه العريضة المشعرة ، على أرضية معتمة ومثقّبة بالنجوم . لم يكن هناك سوى رؤية جديدة واحدة : إن السجين الذي رآه قبل حين ، الذي يرتدي ثوباً رمادياً والحليق الرأس ، كان يتأرجح فوق كل شيء. والنتيجة الحتمية أن ميجينتسكي أخذ يبحث عن آلةالتهوية التي يمكن أن يعلّق بها حبلاً .

أخذ يعذّبه هياج لا يُطاق ، هياجٌ يحاول أن يُطلق العنان لنفسه . لم يكن بوسعه أن يلزم مكانه ، ولا أن يطرد أفكاره ، وأخيراً طرح السؤال التالي على نفسه :

« كيف ؟ أأقطع شرياني ؟ لا أستطيع .

أأشنق نفسي ؟ هذا هو الأسهل .

تذكّر الحبل الذي حُزمتْ به حزمةُ حطبٍ في الممر . لكن الحارس كان في هذا الممر وقد ينام أو قد يخرج . لابدّ من أن أنتظر ، وآخذ الحبل ، وأصعد على السرير ، وأُعلّقه بآلة التهوية .

وقف قرب بابه ، يصغي إلى خطا الحارس الذي كان يبتعد بين وقتٍ وآخر . لكنه لم ينصرف ولم ينمْ . كان السجين ينتظر بشوق ، وأذنه تتنصّت .

في غضون هذا الوقت ، وفي غرفة السجن التي كان فيها الشيخ ، وفي الظلمات التي لم يكد ينفذ إليها سراجٌ مدخّنٌ ، وبين موجات الأصوات الليلية من تنفّسٍ وتذمّرٍ وهمسٍ وشخيرٍ وسعالٍ ، كان

يجري أعظم حدثٍ في هذه الدنيا : كان الشيخُ المنشقّ ينازع الموت وأخذت نفسُه ترى الآن كل ماسعى إليه واشتاقه بشغف طوال حياته المسكينة : تجلّى له الحَمَلُ في هالة من النور الباهر ، في قسمات إنسان شابٍ ، ومن حوله جمهورٌ من الناس في ثيابٍ بيضاء يزدحمون بفرح : زال الشر عن الأرض . تمّ كل شيء في نفسه وفي الدنيا بأسرها ، كان الشيخ يعلم ذلك ، وهذه الحقيقة سبّبت له هدوءاً عظيماً وفرحاً لا نهاية له .

لكنْ ، بالنسبة إلى الذين كانوا في غرفته ، كان شيء واحدٌ حقيقياً: كان الشيخ في النَزْع الأخير يحشرج . استيقظ جارٌ له وحرّك الآخرين وعندما انتهت الحشرجةُ ، وبرد الشيخُ وصمت ، أخذ رفاقه في الغرفة يدقون الباب . ودخل الحارسُ

بعد عشر دقائق ، خرج اثنان منهم ، يحملان على كتفيهما جسداً لاحياة فيه نقلاه إلى غرفة الموتى. تبعهما الحارس ، وأغلق البابَ ، فخلا الممرّ :

همس ميجينتسكي الذي كان يتابع هذه الحركة من وراء الباب :

— أغلقْ ، أغلقْ ، فلن تقدر على منعي من الهرب من هذا الرعب السخيف : ومع ذلك فان هذا الرعب لم يكن يعذّبه . كان كيانه كله مستغرقاً في فكرة واحدة : على شرط ألا يحول بيني وبين تنفيذ خطتي شيءٌ .

اقترب من الحزمة ، خفّاقَ القلب ، وهو يراقب باب المدخل ، وفك الحبل وحمله إلى زنزانته . وحينئذ ثبّته بآلة التهوية ، ثم وصل بين طرفيه وعقد انشوطة . كانت الأنشوطة شديدة الانخفاض ، فعمل

غيرها ، وجرّبها على رقبته ، وأصغى بقلق ، ناظراً أبداً إلى الباب ، وصعد على المنضدة .

مرّ الرأس من الأنشوطة : دفع المنضدة وظلّ معلّقاً .

عند جولة الصباح ، رأى الحارسُ ميجينتسكي وكأنه واقف مطويّ الركبتين . وبجانبه المنضدة مقلوبة على الأرض

علم آمر الحرس أن « رومان » طبيب ، فاستدعاه لنجدة المشنوق :

استُخدمت جميع الوسائل المعتادة . لكن ميجينتسكي لم تمكن إعادتُه إلى الحياة .

حملْ جسدُه إلى غرفة رتي . وأضجع إلى جنب جسد الشيخ المنشق.

* * *

مقدمة لم تنشر
— ١٩٠٨ —

لا يمكنني أن أسكت بعد الآن . لا أحد يصغي إلى صرخاتي وتوسلاتي ، لكنني لن أكفّ عن الاتهام والصراخ والتوسل حتى اليوم الأخير من حياتي ، القريب جداً من نهايته . وسأفعل ذلك حتى في نَزْعي الأخير : يجب علي أن أعرب عن هذا الشعور الذي يعذّبني ، والذي يتألف من العطف والخجل والدهشةوالرعب ، والذي انضاف إليه أيضاً سخطٌ يكاد يبلغ البغض ، وهو شعورٌ أنا مضطرٌ إلى اعتباره مشروعاً ، لاقتناعي بأن قوّة أخلاقيّةً عليا ولّدته فيّ . إن رغبتي إذن هي التعبير عنه كما أستطيع وكما ينبغي لي أن أفعل :

لقد وُضعتُ في وضع فظيع . والوسيلة الأكثر بساطة والأقرب إلى الطبيعة هي أن أقول لهؤلاء الوحوش الذين يشكّلون الحكومة كلّ حقارتهم ، كلّ إجرامهم ، كلّ الاشمئزاز الذي يثيرونه في البشر الذين سيخلطون ، في المستقبل بينهم وبين أمثـــال « بوغاتشيف » ، و « رازين » و « مارا » إلخ..إن واجبي الأوحد هو أن أصرخ بذلك كله ، ليتصرّفوا معي كما يتصرّفون مع الذين يتّهمونهم ! وسوف يكون من الطبيعي ، وأنا أكرّر ذلك ، أن يُطلقوا خدّامهم المتبلّدين والمأجورين :

أن يُلقوا القبضَ عليّ ، ويسجنوني ، ويمثّلوا ، عليّ وعلى الآخرين ، تلك اللعبة الحقيرة ، لعبة المحاكمة ، ليبعثوا بي أخيراً إلى الأشغال الشاقة حيث احرم من النزر القليل من الحرية التي أتمتّع بها والتي هي عبءٌ عليّ بالنظر إلى تلك الفظائع التي تتمّ من حولي : لقد بذلتُ وسعي لهذه الغاية ، ولعلي كنت سأبلغها لو كنتُ أنتمي إلى عصابة من القَتلة . لقد نَعَتُّ قيصرهم بأنه مثير للاشمئزاز ، وبأنه قاطع طريق سفيه ؛ ونَعَت قوانينهم الالهية والاجتماعية بأنها خدعةٌ مقيتةٌ ؛ ونعت وزراءَهم وجنرالاتهم بأنهم عبيد حقراء ومجرمون مرتشون .

لقد تركوني أفعل : وأنا مضطرٌ أن أحيا في المجتمع الراهن المبنيّ على أحقر الجرائم التي أحسّ أني مشارك فيها . هذا الوضع يعود ، في جزء منه ، إلى سني المتقدّم ، ويعود بخاصة إلى هذه الشهرة التي أصابتني كما يُصيبنا المرضُ ، بسبب تلك القصص الصغيرة الحمقاء التي كانت تسلّيني قديماً والتي سلّيتُ بها الناس . وهاهنا تكمن مأساة وضعي : إنهم لا يسجنونني ولا يقتلونني . وتلك الرحمة أقسى عليّ من القتل . لم يبق لي سوى شيء واحد أجرّبه : هو أن أتخلص من هذا الوضع الملتبس وقد عزمتُ منذ اليوم على أن أحاول ذلك ، ومن أجل هذا ، سأفعل كل ما في وسعي ، لا لأجبرهم على إهانتي فحسب بل لأتهمهم أبداً .

* * *

الأحجار

— ١٩٠٩ —

جاءت امرأتان تطلبان شيخاً قدّيساً لصلاح نفسيهما . كانت احداهما تعتبر نفسها خاطئة : لقد أظهرت قديماً أنها زوجةٌ سيئة ، ولم تكف عن الشعور بالندم . أما الأخرى التي عاشت بحسب القانون ، فانها لم تكن تلوم نفسها على أية خطيئة خاصة ، وبدت مسرورة من ذاتها .

سأل الشيخُ المرأتين عن حياتهما . اعترفت إحداهما ، ودموعها تنهمر ، بخطيئتها الكبرى . وكانت تعتبر هذه الخطيئة من الكبر بحيث لم تكن تنتظر صفحاً عنها ؛ أما الثانية فقالت إنها لا ترى لنفسها خطيئة تعترف بها .

قال الشيخ الأولى :

— اذهبي ، يا أمةَ الله ، إلى ما وراء ذلك السور ؛ وابحثي عن حجر كبير ، ثقيل جداً تستطيعين رفعه ، وائتيني به :..أما أنت التي لا تعترفين بأية خطيئة ذات شأن ، فاحملي إليّ أحجاراً ، على قدر ما تستطيعين ، واختاريها أحجاراً صغيرة .

خرجت المرأتان لتنفيذ أمر الشيخ . حملت إحداهما حجراً كبيراً ، وحملت الأخرى كيساً مملوءاً بالحجارة الصغيرة .

تأمّل الشيخُ الحجارةَ ، وقال :

ـ الآن ، افعلا ما يلي : أعيدا هذه الأحجار إلى المواضع التي أخذتماها منها . حتى إذا انتهيتما من إعادتها إلى موضعها عُدتما إليّ

خرجت المرأتان لتنفيذ أمر الشيخ . وجدت الأولى بلا مشقة الموضعَ الذي أخذت منه حجرها ، فوضعته في مكانه كما كان ؛ لكن الثانية لم تستطع أن تتذكر المكان الذي أخذت منه هذا الحجر أو ذاك ، فعادت إلى الشيخ دون تنفيذ الأمر ، حاملة كيسها المملوء بالحجارة .

قال الشيخ :

ـ هكذا أمركما مع خطاياكما . أنت وضعتِ بسهولة الحجر الشديد الثقل في موضعه القديم لأنك تذكرتِ المكان الذي أخذتِه منه .

ثم قال الشيخ مخاطباً التي حملت أحجاراً صغيرة :

ـ أما أنتِ فلكثرة ما ارتكبتِ من خطايا صغيرة لم تتذكّريها ، ولم تتوبي عنها ، وتعودتِ المعيشة في الخطيئة ، وانغمست في خطاياك انغماساً أعمق وأنتِ تدينين خطايا الآخرين .

كلّنا مخطئون ، وسوف نهلك جميعاً إذا لم نتبْ عنها .

أغاني القرية(١)

— ١٩٠٩ —

مع أن الأصوات وأنغام الأكورديون بدتْ قريبةً جداً ، إلا أن الضباب كان يحول دون رؤية أي شيء :

وبما أن اليوم كان يوماً عادياً ، فقد أدهشتني قليلاً هذه الأغاني الصباحيّة ؛ لكنني عندما تذكّرت حديثاً جرى معي عشية أمس بشأن خمسة شبّان من القرية دُعوا إلى الخدمة العسكرية ، أدركتُ في الحال سبب هذه الجلبة الفرحة :

قلتُ في نفسي : « إنهم يرافقون المكلفين » ، وتوجّهتُ على الفور ، إلى الموضع الذي كانت تصدر منه الأصوات :

وعندما أدركتُ الجمهورَ ، كان المغني قد انتهى من أغنيته ، ورأيت بعض الناس يدخلون منزلاً حجرياً كان يسكنه والدُ أحد المكلفين . وتجمّع عند الباب جمهورٌ من النساء والبنات والأولاد :

لم يتسنَّ لي أن أستعلم عن أسماء المكلّفين الذين دخلوا المنزل قبل حين ، ولم يلبثوا أن ظهروا من جديد بصحبة أمهاتهم وأخواتهم :

(١) كتبت هذه الأقصوصة بتأثير مباشر لمشهد ، من مشاهد سفر المجندين ، حضره تولستوي .

كانوا خمسةً : كنت أعرف أن أحدهم متزوّجٌ وأعلم أن الأربعة الآخرين عزّاب .

كانت قريتنا قريبةً من المدينة ، وقد اشتغل خمستهم هناك : وهم الآن يرتدون ، على طراز المدينة ، ثيابهم الجديدة : السترات الجديدة ، والقبّعات الجديدة ، والجزمات الأنيقة .

كان لأحدهم ، وهو غير طويل جداً ، لكنه حسن الهيئة ، وجهٌ بشوش ، معبرٌ ووديع ، يزينه عثنونٌ صغير ، وعينان واسعتان لامعتان . وكان يجذب ، على الخصوص ، انتباه المشاهدين . وما ان خرج حتى تناول الأكورديون الثمين الذي تدلّى من كتفه ، وبعد أن حيّاني ، أجرى أصابعه السريعة على ملامس الأكورديون : ودوّت في الضباب أغنيةٌ شعبية معروفة ، وسرنا جميعاً الهوينا .

كان يسير بجانبه شابٌ أشقر ، قصيرٌ ، لكنه عريض المنكبين : كان يرافق صوتَ الموسيقي بصوته الواضح ، وهـو يلقي حوله نظرات خاطفة . كان هذا هو الرجل المتزوج

كانا يسيران في المقدّمة ، يتبعهما الثلاثةُ الآخرون الذين لبسوا أحسن ملابسهم أيضاً ، لكن لم يكن فيهم ما يميّزهم ، سوى أن أحدهم كان مديد القامة جداً :

كنتُ أسير في أثر الجمهور دائماً ، ولا حظتُ أنهم لم يكونوا يغنّون إلا الأغاني الفرحة ؛ ولم أر طوال الوقت الذي استغرقته المسيرةُ ظلاً للحزن . لكن لم تكد مقدّمةُ الموكب تقترب من البيت التالي ، حيث أُعدّ الاستقبالُ ، كما يبدو ، حتى بدأ على الفور لحنٌ محزن غنّته النساء ، مثل انشودة كئيبة لم ألتقط منها سوى كلمات نادرة : « الموت . . . الأهل . . . مولد الرأس . . . » وبعد كل مقطع ، كانت

المغنيةُ التي بدت كأنها تتلقّف الهواء بنهم، تستغرق في حشرجة عميقة. ثم يتصاعدُ نواحٌ جديد، وينتهي كل شيء بضحكات هستيرية. كان ذلك من أمهات المسافرين وأخواتهم. وكانت أغنياتُ أسف الأهل تُقطّع بنُصْحِ النساء الأخريات، وقد سمعتُ إحداهن تقول لماتريونا العجوز:

— هيا، توقّفي قليلاً، فأنا متعبةٌ جداً:

دخل الشبابُ المنزل، بينما بقيتُ خارجه أتحدّث مع تلميذي السابق، الفلاّح «بازيل اوريكوف» الذي كان ابنه أحد المجنّدين الخمسة، وهو نفسُ الشاب الأشقر المتزوج.

سألته:

— أيؤلمك هذا؟

— ما العمل، هو مُجبرٌ على الذهاب.

وما لبث العجوز أن حدّثني عن وضعه العائلي.

كان له ثلاثة أولاد: أحدهم، الأكبرُ، ظلّ في البيت، وسافر الثاني، وكان الثالث يعمل في المدينة. وكان هذا الأخير فتى طيباً، يرسل بانتظام ما يربحه إلى المنزل. أما المسافر فقد فهمتُ أنه لم يكن كريماً مع الأهل.

قال بازيل:

— المرأة التي تزوّجها من المدينة. ولا غَناء فيها. ابني الثاني إذن مثل كسرة خبز قُطعت من الرغيف. كل ما نطلبه منهم هو أن يقوموا بأود أنفسهم. ولا شك أن من المؤلم أن نراهم يسافرون، لكن ما العمل!

بينما كنا نتحادث ، خرج الفتيان من جديد إلى الشارع ، وعادت الضوضاء وعادت الألحان المحزنة والتنهدات والضحكات والنصائح. أما أنا فلم أزل أتعجّب من ذلك الموسيقي الذي كان يوقّع اللحن توقيعاً سريعاً بكعبيه ، تارةً ، وتارةً أخرى يتوقف لينطلق من جديد : وكان يغنّي بصوت فرحٍ ، ونظرهُ يطوف على الجمهور : كنت أتأمله ،وعندما التقت نظراتُنا ، على حين غرّة ، بدا لي أنني قرأتُ في نظرته شيئاً من الارتباك . لكنه ما لبث أن تمالك نفسه ، ورفع حاجبيه ، واستأنف أغنيته بجرأة أشد :

عندما بلغنا المنزلَ الخامس والأخيرَ ، لحقتُ بالفتيان الذين دخلوا المنزل : جلسوا خمستهم حول مائدة مغطّاة بغطاء أبيض وُضع فوقه رغيفُ خبز مصحوباً بزجاجة من ماء الحياة . وكان صاحبُ المنزل ، وهو محدّثي قبل هنيهة ، عاكفاً على ملء الأقداح ولم يشرب الشبّانُ ، مع ذلك : : :

بينما كنت جالساً قرب الموقد أتأمل هؤلاء الشبّان ، نزلت امرأةٌ من الفرن بجنبي : وبدا لي زيُّها غريباً وغير متوقّع . كانت ترتدي فستاناً حريرياً أخضر ، مزركشاً ، على طراز المدينة . وكانت قدماها تحتذيان حذاء نصفياً عالي الكعبين ؛ وقد صُفّف شعرُها على شكل عَمْرة ، وتدلّت من أذنيها لؤلؤتان كاذبتان . وكان وجهها لا يعبّر لا عن الفرح ولا عن الحزن ، وإنما ارتسم عليه أثرٌ من الغرابة وممّا يبدو كالإهانة:

رأيتُها تنزل إلى الأرض ، وتخرج إلى الممر قارعة الأرض بكعبيها ، دون أن تنظر إلى الحضور .

بدا لي كلُّ شيء فيها غريباً في هذا الوسط الذي كنّا فيه : لباسها، هيئتها المصدومة ، ولا سيما اللؤلؤتان الكاذبتان : والذلك بقيتُ زمناً قبل أن أعرف مَنْ هي ، وما المصادفة التي جاءت بها إلى الفرن ، في منزل العجوز بازيل : ولكي استعلم ، سألتُ الفلاحةَ العجوز التي كانت جالسةً بجنبي :

— مَنْ هذه ؟

— هذه كنّة بازيل . كانت خادمة في المدينة .

صبّ المُضيف للمرة الثالثة ، لكن الشبّان رفضوا بأدب أن يشربوا ، ونهضوا وثباً ، وشكروا أصحاب البيت ، ومضوا إلى الشارع ، بعد أن رسموا علامة الصليب أمام الأيقونات :

في الشارع ، استؤنفت الضوضاءُ : بدأت الأغنيةَ الحزينة المعتادة امرأةٌ عجوز ، مقوّسةُ الظهر ، خرجت بعد المكلّفين . كان غناؤها بالغَ الحزن وكانت النساء اللائي يرافقنها يبذلن وسعهن لتعزيتها .

سألتُ :

— مَنْ هذه ؟

فقيل لي :

— هذه جدّة الفتى ، أم بازيل :

ولم يتحرك الموكبُ من جديد ويستأنف الأكورديون عزفه إلا في اللحظة التي سقطت فيها العجوز بين ذراعي جارة لها .

عند مدخل المدينة ، كانت عربةٌ بأربع عجلات تنتظر المكلّفين لنقلهم إلى « الفولوست »(١) توقف الجميع ، وسكت الصراخُ والبكاء بسرعة . أما الموسيقيّ فقد بدا من جديد . كان رأسهُ منحنياً على كتفه ،

---

(١) الفولوست : مركز المنطقة .

يوقّع بقدمه على الأرض ، ويداه الماهرتان تجريان دون توقّف على ملامس الأوكورديون ، صانعاً بهما زخارف لا حدّ لها . وفي بعض المواضع ، كان صوتـه الفرح العالي النبرة يبدأ بانشاد الأغنية التي كان يرافقه فيها ابنُ بازيل الفرحُ .

كان الشيوخ والشباب ، وأنا في عدادهم ، نتأمّل باعجاب هذا المغنّي .

قال أحدُ الفلاحين :

— ما أبرعه !

همسَ أخر :

— البؤس يبكي ، البؤس يغنّي .

اقترب أكبر المكلّفين من الموسيقي ليقول له شيئاً ، انحنى على عازف الأكورديون وأسرّ إليه شيئاً في أذنه .

فكّرتُ :

— ما أجمل هذا الفتى . سيضعونه بالتأكيد في فوج من أفواج الحرس المتميزة . ولما كنتُ لا أعلم ابن مَنْ هو ، سألتُ عجزاً قصيراً اقترب مني قبل قليل :

— مَنْ أبو هذا الفتى الوسيم ؟

حسر الشيخُ عن رأسه ليسلّم عليّ ، لكنه لم يسمعني فرجاني أن أعيد سؤالي ،

لم أتعرّفه في البدء . لكني ما لبثت أن تذكّرتُ ، وأنا أسمع نبرةَ صوته ، الفلاحَ الطيّبَ ، العامل والشهم ، الذي تحامل عليه القدر ،

فأرسل إليه ، كما يقع غالباً ، مصيبةً إثر مصيبة : فحيناً كانت تُسرَق خيولُه المسكينة ، وحيناً آخر يحترق بيته ؛ كما أنه نُكب بموت زوجته.

وجدتُ مشقة في تعرّف ذلك الأصهب الطيب « بروكوب » في هذا الشيخ المجلل بالبياض ، المتغضن ، فهتفتُ :

— آه ! هذا أنت ، بروكوب ! سألتكَ عن هذا الفتى الطيّب ، ابن مَنْ هو .

أجاب بروكوب وهو يومىء برأسه إلى الفتى الطويل المتين :

— الفتى ذاك ؟

— نعم .

تحرّكتْ شفتا العجوز ولفظتا كلمات لم أستطع فهمها .

— سألتُك ابن مَنْ هو .

تغضّن وجهُ بروكوب أكثر من ذي قبل ، وأخذت وجنتاه ترتعشان. وهمس وهو يشيح بوجهه عني ويخبّئه بين يديه :

— هذا ابني .

وعلى الفور ، أخذ ينتحب مثل طفل . حينئذٍ فقط أدركتُ كل ما في كلمته « هذا ابني » من فجيعة .

وفي اللحظة نفسها ، استولى على كياني كله رُعبٌ عند التفكير فيما جرى أثناء هذه الصبيحة الضبابية.جميعُ الانطباعات المشتّتة ، المستعصية

على الفهم ، الغريبة ، تجمعّت الآن في كلّ واحد ، ينيره الواقعُ المرعب . وتملّكني خجلٌ مفاجىء من أنني اعتبرتُ ذلك مشهداً مشوّقاً. توقّفتُ . وعدتُ إلى بيتي بشعور مَنْ قام بعمل سيء.

ولنتصوّرْ أن ذلك يُرتكب على مئات آلاف الرجال عَبْر روسيا كلها ! وأن مثل هذه الأفعال تمّ وستتمّ زمناً طويلاً أيضاً على حساب هذا الشعب المسكين ، البالغ الطيب والوداعة والحكمة . . . والمخدوع على نحوٍ بالغ القسوة !

* * *

نزل سورات(١)

كان في المدينة الهندية « سورات » مقهى . وكان يتوقّف فيه مسافرون من جميع البلدان ويتحادثون .

في ذات يوم ، جاء إليه عالمٌ لاهوتي فارسي قضى حياته يدرس جوهر الألوهية ، وكتب كتباً عن الله ، بحيث أن كل شيء اختلط في رأسه ، وأفضى بهالأمر إلى عدم الايمان بالله . ولما علم ذلك ملكُ الفرس نفاه .

لقد قضى هذا اللاهوتي البائس حياته هكذا يتفكّر في العلة الأولى فتشوّش ، وبدلاً من أن يُدرك أنه فقد عقله ، أخذ يعتقد أن العقل الأسمى الذي يُدير العالم لم يكن موجوداً .

كان لهذا اللاهوتي عبدٌ افريقي يتبعه أينما ذهب .

عندما دخل اللاهوتي المقهى ، ظلّ الافريقي في الخارج وجلس أمام الباب على حجر ، في الشمس اللطيفة . ظلّ كذلك يطرد الذبابَ عنه .

أما اللاهوتي فتمدّد على أريكة المقهى وطلب فنجاناً من الأفيون . وعندما شربه وأخذ الأفيون يهيج دماغه ، قال لعبده :

— قلْ لي ، أيها العبد الحقير ، ما رأيكَ ، هل الله موجودٌ أم لا ؟

أجاب العبد :

---

(١) هذه الأقصوصة مقتبسة من حكاية لبرناردان دي سان بيير (١٧٣٧ – ١٨١٤).

— هو موجود ، بكل تأكيد .

وسحب من زناره وثناً من الخشب ، وقال :

— هذا هو الله الذي يحميني منذ أن وُجدتُ على الأرض . وهذا الإله مصنوعٌ من عقدةٍ من تلك الشجرة المقدّسة التي يعبدها الناسُ في بلادي .

سمع الذين كانوا في المقهى هذا الحديث بين العبد واللاهوتي ودهشوا منه .

أدهشهم سؤال السيّد ، لكن جواب العبد أدهشهم أكثر بكثير. التفتَ إلى العبد براهمانيٌّ سمع ، وقال له :

— أيها المجنون الشقي ! كيف يمكن الاعتقادُ بأن الله يختبىء في زنّار إنسان ؟ الله واحدٌ ، وهو « براهما» . وبراهما أعظم من كل الكون ، لأنه هو الذي خلق الكون . براهما هو الله الوحيد الأكبر : هو الله الذي من أجله بُنيتْ المعابدُ على ضفاف الغانج ، هو الاله الذي يخدمُه كهانّه الوحيدون ، البراهمانيون . الكهنة وحدهم يعرفون الله الحقيقي . عشرون ألف سنة انقضت ، وبالرغم من انقلابات الكون ، يظل الكهنة هم أنفسهم ، كما كانوا دائماً ، لأن براهما، الإله الوحيد الحقيقي يحميهم .

هكذا تكلم البراهماني ظاناً أنه أقنع جميع الناس . لكن صرّافاً يهودياً كان موجوداً أجابه قائلاً:

— كلاً ، إن معبد الله الحقيقي ليس في الهند ! . . . والله لا يحمي طبقة البراهمانيين ! الإله الحقيقي ليس إله البراهمانيين بل إله ابراهيم

واسحق ويعقوب ، و الاله الحقيقي يحمي فقط شعبنا . ومنذ أن كان العالم عالماً لم يكفّ الله عن حب شعبنا وحده . وإذا كان شعبنا مشتتاً في جميع أنحاء الأرض ، فما هذا الا امتحان له ، وقد وعد الله بأنه سيجمع شعبه من جديد لكي يعيد اعجوبة العصور القديمة ، المعبد ، وليضع شعبنا فوق جميع الشعوب .

هكذا تكلم اليهودي ، وأخذ يبكي . أراد أن يتم حديثه ، لكن إيطالياً كان هنا قاطعه قائلاً له :

— ما قلتَه خطأٌ . إنك تَنْسب إلى الله الظلمَ ولا يمكن أن يحب الله شعباً أكثر من بقية الشعوب . على العكس ، فحتى لو كان قد حماكم ، ها قد مرّ ألف وثمانمئة عام بعد أن غضب الله على شعبكم ، وقد شتّته في الأرض علامةً على غضبه عليه . ولذلك فان هذه العقيدة لا تنتشر ، ليس هذا فحسب بل إنها لا تكاد توجد . إن الله لا يفضل أي شعب ، لكنه يدعو جميع الذين يريدون خلاصهم إلى قلب الكنيسة الوحيدة الكاثوليكية التي لا يوجد خلاص خارجها .

هكذا تكلّم الإيطالي ، لكن بروتستانتياً كان هنا أجاب ، وهو ممتقعٌ ، الإرساليّ الكاثوليكي ،

— كيف أمكنك القولُ ان الخلاص لا يوجد إلا في طائفتك ؟ اعلم أن الذين سيُخلّصون هـم وحدهم الذين يخدمـون الله بحسب الروح والحقيقة وقانون يسوع .

في هذه اللحظة نشب النقاش بين جميع الحاضرين في المقهى الذين يمثلون مختلف الأديان والطوائف . كانوا جميعاً يناقشون جوهر الله والطريقة التي يجب أن نعبده بها . كان كلّ واحد يؤكد أن الله الحقيقي

لا يُعرَف إلا في بلده ، وفيه كان الناس يعلمون كيف ينبغي أن يُعبَد. احتدّ الجميعُ وأخذوا يصيحون ، إلا صينيّاً من تلامذة كونفوشيوس لزم الهدوءَ في ركن من المقهى ، ولم يشارك في النقاش . كان يتناول الشاي ويصغي ، لكنه لا يقول شيئاً .

التفت إليه التركي في وسط النقاش وقال له :

— هلا ساعدتني ، أنت صامتٌ ويمكنك مع ذلك أن تقول شيئاً في مصلحتي . قلْ لنا ما رأيك بالله الحقيقي وبنبيك .

قال الآخرون :

— نعم ، نعم ، قلْ لنا ما رأيك .

أغمض الصينيُّ ، تلميذ كونفوشيوس ، عينيه ، وفكّر لحظةً ؛ ثم فتح عينيه ، وأخرج يديه من كميّ ثوبه العريضين ، وصالب بينهما على صدره وقال بصوت هادىء :

— يا سادتي ، يبدو لي أن حبّ الناس لذواتهم يمنعهم أكثر من أي شيء آخر ، أن يتّفقوا حول الدين . ولو أنكم تفضّلتم واستمعتم إليّ فلسوف أشرح لكم ذلك بمثلٍ .

سافرت من الصين إلى « سورات » على سفينة انكليزية دارت حول العالم . وفي الطريق ، توقّفنا على الشاطىء الشرقي من جزيرة « صوماترا» لنتزوّد بالماء . وعند الظهر ، نزلنا إلى الأرض ، وجلسنا على شاطىء البحر ، في ظل أشجار الجوز الهندي ، غير بعيد عن القرية . كنا كثيرين ومن بلادٍ شتى .

بينما نحن جالسون اقترب منا أعمى . وقد أصبح هذا الرجلُ أعمى ،

كما علمنا فيما بعد ، لأنه أراد أن يفهم ما الشمس ، فأخذ يطيل النظر إليها بعنادٍ مفرط . أراد أن يعلم ذلك لكي يَسْرق منها نورها .

لجأ إلى مختلف الوسائل ، واستخدم جميع العلوم ليلتقط على الأقل بضعة أشعة ويحتفظ بها في زجاجة .

أنفق جهوده هكذا زمناً طويلاً ، ناظراً إلى الشمس أبداً دون أن يتمكن من النجاح . ولم ينجح إلا في أن يُوجع عينيه وأن يصبح أعمى.

حينئذٍ قال في نفسه : نورالشمس ليس سائلاً ، لأنه لو كان سائلاً لأمكن صبه من إناء إلى آخر ، ولكان كالماء الذي يحرّكه الهواء .ونور الشمس ليس روحاً أيضاً لأننا نراه ، وليس جسماً ، لأننا لا نستطيع أن نلمسه. ونور الشمس ليس ناراً لأنه لو كان ناراً لانطفأت بالماء. وبما أن نور الشمس ليس سائلاً ولا ناراً ولا روحاً ولا جسماً ، فهو لا شيء . »

هكذا قرّر لأنه كان ينظر إلى الشمس دائماً بمقدار ما كان يفكّر فيها ، ففقد بصره وعقله .

وبعد أن عمي كليّاً اقتنع اقتناعاً كاملاً أن الشمس لم تكن موجودة.

في الوقت نفسه الذي اقترب فيه الأعمى منا ، اقترب عبدُه أيضاً. فأجلس سيّده في ظل شجرة جوز الهند ، والتقط جوزة منها وأخذ يصنع منها سراجاً ، وعمل فتيلة بمُشاقة الجوزة ، واعتصر زبدةَ الجوزة في القشرة ووضع الفتيلة فيها .

بينما كان العبدُ يصنع سراجه ، قال له الأعمى متنهداً :

— ألم يكن ما قلتُه لك صحيحاً ! الشمس غير موجودة . أرأيت هذه العتمة . ثم يقولون إن الشمس . . . فما هذه الشمس ؟

قال العبد :

— لا أدري ما الشمس ، ولا أهمية لذلك ؛ لكني أعرف النور حقّ المعرفة . وهكذا صنعتُ قبل قليل سراجاً يضيئني ، وبفضله أستطيع أن أخدمك وأجد كل شيء في الكوخ .

وأخذ العبد جوزة الهند في يده ، وقال :

— ها هي ذي شمسي .

وكان هناك أيضاً أعرج ومعه عكاز سمع هذه الكلمات فأخذ يضحك ، وقال :

— لعلك أعمى خِلْقَةً ، بما أنك لا تعرف الشمس . سأقول لك ما هي . الشمسُ كرةٌ من النار تخرج من البحر كلّ يوم وتغيب كلّ مساءٍ في الجبال ؛ ونحن نراها جيداً ، ولو كان لك عينان لرأيتها .

سمعَ صيادٌ كان هناك كلامَ الأعرج فقال له :

— من الواضح أنك لم تخرج قط من جزيرتك . ولو لم تكن أعرج وسافرت في البحر لعلمتَ أن الشمس لا تغيب في جبال هذه الجزيرة ، فكما أنها تشرق من البحر فكذلك تغرب فيه من جديد في المساء . أقول لك ذلك عن ثقة لأنني أرى ذلك بعيني كل يوم .

سمع هنديٌّ هذا الكلام فقال :

— إنه ليُدهشني أن يقول رجلٌ عاقلٌ مثل هذه الحماقات . أمن الممكن أن تغوص كتلة نارية في البحر ولا تنطفىء ؛ إنها الإلهة التي تسمى « ديفا » . وهي تدور على عربة ، عبر السماء ، حول جبل « سبيروف » الذهبي .

« وقد يقع أن الحيتين الشريرتين « راغو » و « كيتو » تنقضّان على « ديفا » وتبتلعانها . لكن رهباننا يصلّون لكي تتخلص الالهةُ ، وحينئذٍ تتخلص . الجهلةُ من أمثالكم ، ممّن لم يروا شيئاً ، يمكنهم الاعتقادُ بأن الشمس وُجدتْ هنا لتنير جزيرتهم .

حينئذٍ جاء دورُ صاحب السفينة المصرية ، فقال :

— لا ، هذا ليس صحيحاً أيضاً . ليست الشمس الهة ، وهي لا . تدور فقط حول الهند وجبلها الذهبي . لقد سافرتُ كثيراً ، في البحر الأحمر وعلى شواطىء الجزيرة العربية . سافرت إلى مدغسقر وإلى جزر الفليبين . الشمس تضيء في كل مكان . وهي لا تتحرك فقط في الهند وحول جبلٍ واحد ، إنها تشرق من جزر اليابان ولذلك يسمّونها «جابن» ، ومعنى ذلك ، في لغتهم ، مولد الشمس ، وهي تغرب بعيداً ، بعيداً جداً في الغرب ، خلف جزر انكلترا . وأنا أعلم ذلك جيداً ، لأنني رأيتُ أشياء كثيرة بنفسي ، وتعلمتُ كثيراً من جدّي الذي سافر في البحار البعيدة .

أراد أن يستمرّ في كلامه ، لكن بحاراً انكليزياً من سفينتنا قاطعه قائلاً :

— ليس هناك أرض سوى انكلترا يعلم الناس فيها خيراً من غيرهم كيف تسير الشمس . الشمس ، كما نعلم جميعاً في انكلترا ، لاتشرق من أي مكان ولا تغرب في أي مكان . وهي تدور دائماً حول الأرض. نعلم ذلك جيداً لأننا نحن أنفسنا درنا حول الأرض ولم نصطدم بها في أيّ مكان . وهي في كل مكان ، تظهر صباحاً وتختفي مساءً .

وتناول الانكليزي قضيباً ورسم دائرةً على الرمل وشرح مسيرةَ الشمس في السماء حول الأرض . لكنه لم يحسن الشرح ، وأشار إلى ملاّح سفينته وقال :

— إنه أعلمُ مني وهو يستطيع أن يُفهمكم ذلكخيراً مني .

كان الملاّح رجلاً عاقلاً ؛ كان يصغي إلى الحديث ويَسْكت ما لم يُسأل . لكن عندما التفت الجميع إليه ، شرع في الكلام :

— أنتم تخطّئون بعضُكم بعضاً ، وأنت نفسك مخطىءُ ؛ فالشمس لا تدور حول الأرض ، بل الأرض هي التي تدور حول الشمس . ثم إنها تدور ، فوق ذلك ، على نفسها في أربع وعشرين ساعة ، عارضةً على الشمس اليابانَ ، وجزرَ الفيليبين ، وصوماترا التي نحن عليها ، وافريقيا ، وأوروبا ، وآسيا ، وبلداناً أخرى أيضاً .

والشمس لا تسطع فقط من أجل جبل أو جزيرة أو بحر ، بل ولا من أجل الأرض كلها ، بل من أجل كواكب أخرى أيضاً . وكل واحد منكم كان بوسعه أن يفهم ذلك لو نظر إلى الأعلى ، إلى السماء ، لا إلى موضع قدميه ، ولو لم يفكر أن الشمس لا تسطع إلا من أجله أو من أجل بلده .

هذا ما قاله الملاح الذي سافر كثيراً ونظر كثيراً إلى الأعلى ، إلى السماء.

وأضاف الصينيّ تلميذ كونفوشيوس :

— نعم إن أخطاء الديانات وانقساماتها بين الناس تأتي من كبريائهم. وما جرى بالنسبة إلى الشمس جرى بالنسبة إلى الله . كلُّ إنسان يريد أن يكون له إلهه الخاص ، أو على الأقل إله بلده . كل شعب يريد أن يحوي في معبده مَنْ لا يستطيع أن يحتويه الكونُ أجمع .

ومثل هذا المعبد هل يمكن أن يُقارن بالذي أراد الله أن يشيّده ليجمع الناس جميعاً في عقيدة واحدة ؟

جميع المعابد البشرية عُملت بناءً على نموذج هذا المعبد الذي هو كونُ الله . في جميع المعابد مسابح وقباب ومصابيح وصور وكتابات وألواح الشريعة ومذابح للنذور وكهنة . ففي أي معبد مسبحٌ كالمحيط ، وقبّةٌ كقبة السماء ، ومصابيح كالشمس والقمر والنجوم ، وصورٌ مثل البشر الأحياء الذين يحبون ويتعاونون ؟ وأين نجد كتابات عن عظمة الله مفهومة بسهولة مثل النِعَم التي يُغدقها في كل مكان من أجل سعادة البشر ؟ أين ألواح الشريعة التي تتّضح لكل أحد كما تتّضح تلك المكتوبة في قلب الإنسان ؟ وما الذبائح إذا قورنت بالتضحيات التي يقدّمها الخيّرون إلى أمثالهم من البشر ؟ وأين المعبد الذي يساوي قلبَ الإنسان الخيّر الذي يتقبّل الله منه التضحية ؟

« كلما ارتفع فهمُ الإنسان لله ازداد فهمُه له . وكلما ازداد فهماً له ازداد اقتراباً منه ، وازداد اقتداءً بصلاحه ورحمته وحبّه للبشر .

ولذلك ، لا ينبغي لمن يرى نور الشمس الذي يملأ الكون أن يدين أو يحتقر الإنسان المؤمن بالخرافة الذي لا يرى في وثنه سوى شعاع من النور نفسه ، ولا أن يحتقر غير المؤمن الذي غدا أعمى لا يرى شيئاً من النور .

هكذا قال الصيني ، تلميذ كونفوشيوس ، وجميع الذين كانوا في المقهى سكتوا وكفّوا عن النقاش لمعرفة أيّ الديانات أفضل .

بـوذا

في بداية القرن الخامس قبل الميلاد ، على مسيرة بضعة أيام شمالي «بيناريس » عند سفوح جبال هملايا ، كان الملكُ « سودودانا» ملكاً على قبيلة « ساكياس » .

كان للملك زوجتان أختان ظلّتا زمناً طويلاً دون أن تنجبا له أولاداً . ولكن عندما دنت كبرى الأختين ، « مايا » ، من الشيخوخة، عندئذ كان فرح الملك عظيماً إذ أنجبت له ولداً سمّاه « سيد هارتا».

عندما بلغ « سيد هارتا » تسعة عشر عاماً ، زوجه أبوه بابنة عمٍّ له ، الحسناء « يا سودارا » ، وأسكن العروسين في قصر بديع مشيّد وسط الحدائق والغابات الساحرة . كان كل ما يمكن أن يملأ الحياة سحراً مجتمعاً فيه .

ورغبةً منه في أن يجعل ابنه سعيداً وفرحاً أبداً ، منعَ بقسوةٍ خدّام سيد هارتا وجميع الذين يحيطون به أن يعاكسوه في أي شيء ، ولا أن يثيروا لديه حتى أدنى فكرة يمكن أن تحزنه

لم يترك الوارثُ الشاب أملاكه ومنزله قط ، ولم يكن يطيق أن يرى شيئاً دنساً ، ذابلاً ، هرماً . وكان خدّامه معنيين دائماً بابعاد كل ما يمكن أن يؤذي النظر ، كل شيء ذابل ، محطّم ، وحتى أوراق الأشجار

الذابلة . وكانوا كذلك يستبدلون بالحيوانات الهرمة والمريضة حيوانات فتيّة وقوية ، دَعْكَ من الناس الذين كانوا جميعاً شبّاناً وجميلين .
لم يكن « سيد هارتا » إذن ، يرى حوله سوى العافية والفرح ، كان لديه مشهدٌ دائم من فيض الحياة الذي كان يحسه هو نفسه في جسده الجميل والقوي ، ابن العشرين .

عاش « سيد هارتا » هكذا في جهل للحياة الحقيقية أكثر من سنة . لكن الملل بدأ يلمّ به ، مع أن كل ما يحيط به كان بالغ الجمال . والكمال ، ثم تمنّى أن يعرف حياة الناس الآخرين .

وذات يوم ، آمر خادمَه « تشان » أن يعدّ المركبة ، وذهب مبكّراً إلى المدينة . كان المشهد الذي عَرَض لعينيه : المنازل ، وحركة الجماهير ، والرجال والنساء الذين يلبسون بطرق شتّى ، الحوانيت ، والبضائع ، كان هذا المشهد جديداً بالنسبة إليه ، وكان يسلّيه في كل لحظة .

في أحد الشوارع الرئيسية ، جذب انتباهَه كائنٌ بشري بدا له في حالة غريبة . هذا الكائن ذو الوجه الأحمر ، والفم الفاغر الذي يتنفس بصعوبة ، كان منكمشاً على نفسه قرب جدار ، يطلق تأوهاتٍ شاكية

سأل « سيدهارتا» خادمه :

— ماذا أصاب هذا الرجل ؟

أجاب « تشان » :

— إنه مريض .

— ما معنى أن يكون الإنسان مريضاً ؟

— معنى ذلك أن جسمه سقمَ وأنه يتألم من ذلك .

— إني أرى جيداً أنه يتألم ، لكن كيف وقع له ذلك ؟ لماذا لا يقع ذلك عندنا ؟

— هذا يقع في كل مكان ولجميع الناس .

— إذن هذا يمكن أن يقع لي أيضاً ؟

لم يجبه الخادمُ وكفّ « سيدهارتا » عن السؤال .

في الشارع نفسه، اقترب شيخٌ من العربة وسأل صدقةً .

كان الشيخ منهكاً ، محنيّ الظهر ، أحمر العينين . دامعهما ، لا يكاد يقدر على جرّ ساقيه الحافتين ، المرتجفتين ، وكان يهمهم بكلمات غير مفهومة .

سأل « سيدهارتا » :

— وهذا ، أهو مريضٌ أيضاً ؟

أجاب تشان :

— لا ، هذا شيخٌ.

— وما الشيخ ؟

— الشيخ رجل عاش زمناً طويلاً .

— ولمَ أصبح شيخاً ؟

— كل الناس يشيخون.

— لنعدْ إلى البيت .

ساط « تشان » الجياد . لكنهم أُوقفوا عند أبواب المدينة ، أوقفهم أناسٌ يحملون على محمل شيئاً يشبه الجسم البشري .

سأل الأمير :

— ما هذا ؟

أجاب « تشان » :

— هذا ميتٌ . إنهم يحملون جسده ليحرقوه .

— وما الميت ؟

— الموت ، عندما تنتهي الحياة .

— كيف ، تنتهي ؟ أيمكن للحياة أن تنتهي ؟

— نعم ، كل حياة لها نهايتها .

نزل « سيدهارتا» من العربةِ واقترب من الناس الذين يحملون الميت .

كان هذا زجاجيّ العينين ، كاشفاً عن أسنانه جميعاً ، متصلّب الأعضاء ، لا حراك فيه ، كما يكون الموتى وحدهم .

— وكيف جرى أن هذا الرجل قد مات ؟

— هذا يقع لجميع الناس ، جميع الناس يموتون .

كرّر ـ سيدهارتا» :

— جميع الناس يموتون . . .

فصعد مركبته ، وعاد دون أن يرفع رأسه أثناء هذه الرحلة .

ظلّ منعزلاً ، طوال النهار ، في ركنٍ ناءٍ من حديقته ، مفكّراً فيما رآه .

جميعُ الناس عرضةٌ للأمراض ؛ جميع الناس يشيخون ، جميع الناس يموتون . لكن كيف يستطيعون أن يعيشوا وهم يعلمون أنهم يمكن أن يمرضوا في كل ثانية ، وأنهم يقتربون في كل دقيقة تمرّ من الشيخوخة ، وهم يذبلون ويضعفون تدريجياً ، ولا سيّما أنهم يمكن أن يموتوا في كل لحظة ، وأنهم سيموتون عاجلاً أم آجلاً ؟ كيف يمكن بعد ذلك

الابتهاج بشيءٍ أيّاً كان ، والانشغال بأي شيء ، كيف نعيش ونحن نعلم ذلك ؟

قال في نفسه :

« لا ينبغي أن تكون الأمورُ هكذا . يجب أن نجد شيئاً يخلّصنا من هذا الوضع المروّع . وسوف أعثر على ذلك الشيء ، وسوف أنقله إلى سائر البشر ! » .

بعد أن اتّخذ هذا القرار ، استدعى خادمه « تشان » ، عند حلول الظلام ، وأمره أن يُسرج الجواد وأن يفتح أبواب القصر . وفي لحظة الرحيل دخل الغرفة التي تنام فيها زوجته ، وتأمّلها برهة ، ثم خرج برفق خروجاً لا عودة منه .

بعد أن مضى بعيداً إلى أقصى ما يمكن أن يحمله إليه جوادُه ، ترجّل عنه وتركه . وما لبث ، بعد ذلك ، أن بادل بثيابه ثياب راهب لقيه ، وقصّ شعره وطوّف في العالم بحثاً عن الوسيلة التي يخلّص بها الناس

قصد رأساً الحكماء البراهمانيين ليتعلم مذهبهم . كان جوهر هذا المذهب تقمّص الأرواح ، والتطهّر من الدعارة بكل أنواع الحرمانات . ولم يكن ذلك المذهب يجيب البتّة عن الأسئلة التي طرحها « سيدهارتا » على نفسه ، فترك البراهمانيين غير راض ليعتكف في الغابات العذراء .

قضى فيها ستة أعوام في الصوم والتوبة ، ظاناً أنه سيجد الخلاص في إماتة الجسد .

لكن هذه الحياة لم تكشف له أكثر من غيرها عن الحلّ الذي يبحث عنه .

أضعفته هذه الحياةُ المتقشّفة ، إلى الحد الذي لم يعد يستطيع فيه أن يقوم بأية حركة ، دون أن يتمكن مع ذلك من العثور على الخلاص ، فقرر أن يبحث عن الخلاص في التفكير والتوبة .

حينئذٍ انتشر مجدُه بصفته رسولاً جديداً ، وصار له تلاميذ ، وأخذ الناس يُجلّونه.

هذه العبادة أدخلته في التجربة : لقد أسف على الحياة السعيدة التي هجرها وأراد أن يعود إلى أبيه وزوجته. لكن سرعان ما تمالك نفسه . وإذ وعى خسوفَه الأخلاقي ، رُوِّع من ذلك . ولكي يسترد سكينته ، ترك تلاميذه والمعجبين به ليعتكف في أمكنة لا يعرفها أحدٌ

إن المعركة التي نَشبتْ في نفسه آلمتْه زمناً طويلاً . وذات يوم كان يتأمل فيه تحت شجرة ، انفتح له أخيراً طريقُ السلام فجأة أمامه .

كل ما هو جسدي زائلٌ ويجب أن يختفي . ومادام الإنسانُ عبداً لحاجات جسده ، فهو عرضة للآلام والذبول والموت . فكيف الإفلاتُ من ذلك ؟ ما دامت النفسُ الإنسانية تكوّن كلاً واحداً مع الجسد ، فهي تَبْغي الحياةَ . والحياة بحاجاتها ، ورغباتها التي لا تشبع ، والخوف من الموت ، كل ذلك مصدرٌ للآلام . ولذلك يجب إلغاء غرائز الجسد الرديئة .

ومنذئذٍ تجسدت عقيدته في ضميره ، في هذه الحقائق الأربع :

١ — جميعُ الناس معرّضون للآلام.

٢ — الأهواءُ سبب الآلام

٤ — هذا الإلغاء يتمّ عندما نَعْبُرُ درجات الخلاص الأربع.

الدرجةُ الأولى يقظة القلب . الدرجة الثانية هي التخلي عن الأفكار الدنسة وعن روح الانتقام . الدرجة الثالثة هي انعتاقُنا من الشك وسوء النية وسرعة الغضب . والدرجةُ الرابعة هي الرحمة والمحبة ، لا للقريب فحسب ، بل لكل كائن حي .

لا طائل من إماته الجسد . يجب أن ينصبّ جهدنا ، قبل كل شيء، على تطهير النفس ، على التحرر من الأفكار الدنسة .

الحكمة الحقيقية ، التحرر الحقيقي في المحبة . وكلُّ مَنْ يفلح في استبدال الحب برغبات الجسد يُحطّم قيود الجهل والأهواء ، ويُلغي الألم والموت .

أما قواعد مراعاة هذه العقيدة فهي موضّحة في الوصايا العشر التالية:

١ — لا تقتلْ أبداً ، لكن احترمْ كلّ حياة .

٢ — لا تسرقْ ، لا تنهبْ ، لكن ساعدْ كل واحد على أن يتمتع بثمرة عمله .

٣ — امتنعْ عن كل عملٍ دنس وعشْ حياةً عفيفةً .

٤ — لا تكذبْ ؛ قلْ الحقيقة عندما يكون ذلك ضرورياً ، دون خوف ، لكن برفقٍ .

٥ — لا تُشع عن قريبك أنباءً خبيثة .

٦ — لا تحلف .

٧ — لا تهدر وقتك في ثرثرة غير مفيدة ؛ تكلّم عندما يجب الكلام ، أو اسكتْ .

٨ — لا تكن جشعاً ولا حسوداً ، لكن ابتهج برفاهية قريبك.

٩ — طهّر قلبك من العواطف الشريرة ولا تغذّي في نفسك كرهَ أعدائك ، لكن انظرْ برفق إلى جميع الكائنات الحية .

١٠ — تجنّبْ الإيمانَ الفاسد وابذلْ وسعك لتفهم الحقيقة .

تلك هي العقيدة التي علّمها « سيدهارتا بوذا » .

في البدء تخلّى عنه تلاميذه . لكنهم تجمّعوا من جديد حوله ، شيئاً فشيئاً . وبالرغم من الاضطهادات التي تعرّض لها من جانب البراهمانيين ، إلا أنّ تعاليمه انتشرت انتشاراً متزايداً .

بشّر بوذا بعقيدته ، وهو يطوّف من مكان إلى مكان ، طوال ستين سنة . وقد فاجأه الموتُ وهو في طريقه . وكان عُمره حينئذ ثمانين عاماً . وبالرغم من ضعفه ظلّ يسافر ويبشّر .

أثناء توقّفٍ له ، أحسّ بالألم فقال :

— أنا عطشان .

سقاه التلاميذ ، فشرب بضع جرعات ، واستراح بضع لحظات ، وتابع طريقه . لكنه عندما بلغ نهر « هارا — نيا — فاتا» ، اضطُرَّ إلى التوقّف من جديد ، وجلس تحت شجرة وقال لتلاميذه :

— أحسّ بدنوّ الموت . لا تنسوا عندما أفارقكم ، كلَّ ما علمتكم إياه .

ابتعد « آناندا » تلميذُه المفضّل ، ليُخفي دموعه . ناداه « سيدهارتا» وقال له لكي يعزّيه :

ـــ لا تبكِ ، يا « آناندا » . فعاجلاً أو آجلاً لا بدّ لنا من مفارقة كل ما هو عزيزٌ علينا . وهل من شيء خالدٍ على هذه الأرض ؟ . . .

ثم أضاف وهو يخاطب تلاميذه الآخرين :

ـــ يا أصدقائي ، عيشوا كما علّمتكم . حاولوا أن تتحرّروا من شبكة الأهواء التي تلفّكم . سيروا في الطريق التي رسمتُها لكم . تذكّروا دائماً أن التلاشي نصيبُ كل ما هو مادةٌ ، أما الحقيقةُ فهي باقيةٌ خالدة . وفيها يجب أن تبحثوا عن خلاصكم .

كانت هذه الكلمات آخر كلماته . انغلقتْ شفتاه وفارق هذه الحياة بهدوء .

* * *

كـارمـا(١)

— ١ —

قَصَدَ « باندو » وهو صائغٌ من الطبقة البراهمانية ، « بيناريس » ، يصحبه خادمُه .

لقي في الطريق راهباً جليل المظهر يسير في الوجهة نفسها ، فرجاه أن يجلس بجنبه .

قال الراهب :

— أشكرُ لك كرمك ، لأنني متعبٌ جداً . بيد أني لما كنتُ لا أملك شيئاً ، ولا أستطيع أن أدفع لك شيئاً بالمقابل ، فسوف أقدّم لك بعض الكنوز الروحية التي حصلتُ عليها باتباعي عقيدة « ساكيا موني » ، صاحب الغبطة « بوذا » ، معلم الإنسانية الأكبر !

سارا إذن معاً ، وكان « باندو » يصغي بسرور إلى كلمات « نارادا» الحكيمة .

---

(١) هذه القصة مقتبسة من حكاية بوذية ظهرت في صحيفة امريكية . وقد نقحها تولستوي بغية انتشارها شعبياً . وكان يقول : أعجبتني هذه الحكاية بسذاجتها وعمقها . ان الحقيقة — التي أظلمت في هذه الأزمنة — في أن الشر يمكن تجنبه وأن الخير يمكن تحقيقه بالجهد الشخصي فقط ، وأنه ليس من وسيلة أخرى لبلوغ هذا الهدف ، إن تلك الحقيقة تبدو هنا بوضوح كامل .

بعد ساعة ، وصلا إلى موضع كان الطريق فيه مغموراً بالماء ، فشاهدا عربة فلاحٍ كُسرت عجلتُها ، جاثمةً على جنبها تسدّ الطرق.

كان « ديغالا » صاحب العربة ، ذاهباً إلى « بيناريس » ليبيع فيها الرزّ ، وقد عجّل ليصلها قبل الفجر . ذلك أنه إن يتأخّرْ يوماً فقد يتزوّد الشُرّاء بالرز وينصرفون .

رأى الصائغُ أنه لا يستطيع متابعةُ طريقه إذا لم يُرفَع العائقُ ، فغضب وأمر خادمه « ماداغوتا » أن يُزيح العربة . فعارضه الفلاح لأن عربته كانت قريبة جداً من الحفرة بحيث تَهْوي فيها إن لمسها أحدٌ . لكن البراهماني لم يشأ أن يستمع إليه ، وأمر « ماداغوتا » أن ينفّذ أوامره. وكان هذا ذا قوة جبّارة ، يجد لذة في تعنيف الضعفاء ، فرمى العربة في الحفرة قبل أن يتسنّى للراهب التدخّل . وعندما أراد « باندو » أن يُتابع طريقه ، نزل الراهب من مركبته بعجلة ، وقال له :

— سامحْني ، يا سيدي ، إن تركتُك ؛ وأشكرك على طيبك إذ أتحتَ لي أن أسافر ساعةً في مركبتك . كنتُ متعباً جداً ، لكني الآن استرحتُ بفضل لطفك . ومن جهة أخرى ، بما أني اكتشفت أن أحد أجدادك تجسّد في هذا الفلاح ، فلست أجدُ سبيلاً إلى مكافأتك على طيبك خيراً من مساعدته في مصيبته .

نظر البراهماني بدهشة إلى الراهب :

— تقولُ إن هذا الفلاح تجسّدٌ لأحد أجدادي ؟ هذا غير ممكن !

قال الراهب .

— أنت تجهل الروابط الكثيرة التي تجمعنا بمصير هذا الفلاح . ولسنا نستطيع أن نطالب ، في الحقيقة ، إلى الأعمى أن يرى . ولذلك فأنا

أرثي لك ، على الأقل ، لأنك تضرُّ نفسك ، وسأسعى إلى حمايتك من الجراح التي تريد أن تجرح بها نفسك .

بالرغم من الطيب العظيم الذي كان الراهب يتكلّم به ، فان التاجر الغنّي تأثر باللوم ، وبما أنه لم يتعوّده ، فقد أمر حوذيه بمتابعة السير دون توقّف .

اقترب الراهبُ من « ديفالا » وحيّاه ، وشرع في مساعدته على إصلاح العربة والتقاط الرز .

سار العمل بسرعة كبيرة حتى إن « ديفالا » لم يستطع أن يمتنع عن التفكير : « لابدّ أن يكون هذا الراهب قدّيساً ، فكأن الأرواح الخفيّة تعاونه . لو سألتُه لماذا عاملني البراهماني المتكبر بهذه الطريقة الخشنة ؟ » فقال :

— يا سيدي الكريم ، ألا تستطيع أن تخبرني لماذا تعرّضتُ لمثل هذا الظلم من قبل إنسان لم أسيء إليه قط .

أجاب الراهب :

— يا صاحبي العزيز ، إنك لم تتعرض لأي ظلم ؛ بل لقد رُدَّ إليك فقط ، في حياتك الراهنة ، ما ارتكبته بحقّ هذا البراهماني ، في الحياة الماضية . ولستُ أُخطيء إن قلتُ إنك لو كنتَ مكان هذا البراهماني ، ولو كان لك عبدٌ قوي كعبده ، لفعلتَ به مثل ما فعل بك .

سُرعان ما التُقِط الرزُّ ، ووُضع في العربة . ومضى الراهب والفلاح إلى « بيناريس » .

لم يكونا بعيدين عن المدينة عندما ارتمى الحصان جانباً ، على حين غرّة . صاح الفلاح :

ــ حيّة ! حيّة !

نظر الراهبُ بإمعان إلى ما أخاف الحصان ، ونزل من العربة ، والتقط صرّة مملوءة ذهباً . وفكّر :

« هذه الصرة لا يمكن أن تكون قد ضاعت إلا من الصائغ الغني » .

وسلّم الفلاح الصرّة قائلاً :

ــ خذْ هذه الصرة ، وعندما تصل بيناريس اذهبْ إلى الفندق الذي سأدلّك عليه ، واسألْ عن البراهماني « باندو » وأعدْ إليه ماله . وسوف يعتذر عن العمل الفظ الذي ارتكبه بحقك ، لكن قلْ له إنك غفرت له ، وأنك تتمنى له التوفيق في جميع مشاريعه ، وصدّقني أنه كلما كانت نجاحاته أكبر كان ذلك أفضل لك . إن مصيرك مرتبطٌ ، من عدّة وجوه ، بمصيره .

في هذه الأثناء ، كان « باندو » قد وصل إلى « بيناريس » ، وقابل المصرفيَّ الغنيَّ « ماليك » الذي كانت له به علاقة عمل .

قال له « ماليك » :

ــ سوف أُفلس إذا لم أشتر اليوم عربةً من أفضل الرز للمطبخ الملكي . ففي « بيناريس » مصرفيّ هو عدوي اللدود ، وقد علم أنني تعاملتُ مع كبير الخدم الملكي لأسلّمه في هذا الصباح بالذات عربة رزّ ، فاشترى كل ما عثر عليه من رز . ولن يعفيني كبير الخدم من التزامي ، وسأفلس إن لم يُرسل إليّ « كريشنا » ملاكاً لمعونتي .

بينما كان « مالبك » يروي مصيبته ، لاحظ « باندو » أنه أضاع صرّته . وبعد أن بحث كثيراً في العربة ولم يعثر على شيء ، ظن أن عبده « ماداغوتا » قد أخذها . فاستدعى الشرطة وقال لهم إن عبده سرقه .

ثم قُيِّد « ماداغوتا » وعُذِّب ، بناءً على أوامره ، لانتزاع اعترافه بالسرقة .

كان العبد المسكين يصرخ :

— لستُ مذنباً ، دعوني ، لا أستطيع تحمّل هذا التعذيب ! أنا بريء وأتألم بسبب جرائم الآخرين ! أود ليتني أستطيع أن أحصل على صفح الفلاح الذي أسأتُ إليه إكراماً لمعلمي ! هذا حقاً جزاء قسوتي .

استمرّ رجالُ الشرطة في ضرب العبد ، عندما اقترب « ديغالا » من الفندق ، ولشدّ ما دُهش الجميعُ ، عندما مدّ إلى « باندو » صرّته .

مالبث العبدُ أن تخلّص من أيدي الجلادين ، لكنه غضب من معلّمه ، فهرب إلى الجبال ، وانضمّ إلى عصابة من قاطعي الطرق .

علم « ماليك » بدوره أن الفلاح يمكن أن يبيعه الرز ، ومن أفضل الرز ، فبادر إلى شراء العربة كلها منه ، ودفع له ثلاثة أمثال الثمن ؛ وسُرّ « باندو » من عثوره على ماله ، فأسرع في الذهاب إلى الدير ليسأل الراهب الأيضاحات التي وعده بها .

قال له « نارادا » :

بوسعي أن أعطيك الإيضاح الذي ترغب فيه ؛ لكن لعلمي أنك عاجزٌ عن فهم الحقيقة ، فأنا أفضّل ألا أقول لك شيئاً ، سوى أن أعطيك هذه النصيحة : عاملْ كل إنسان تلقاه كما تعامل نفسك ؛ اخدمْه كما

تريد أن تُخْدَم . وهكذا تبذر بذار الأعمال الصالحة وسيكون الحصاد ذا نفعٍ لك أيضاً .

قال « باندو »

— يا أيها الراهب ! أعطني الإيضاح . وحينئذ سيسهل عليّ اتّباع نصيحتك .

أجاب الراهب :

— حسناً ! اصغِ ! سأعطيك مفتاح السر ؟ أعتقدْ ما سأقوله لكَ ، حتى لو لم تقتنع به . إن اعتبار المرء نفسه كائناً منعزلاً وهمٌ ، والذي يوجّه جميع أفكاره ليتمّم مشيئة هذا الكائن المنعزل يسلك طريقاً ضالّةً تقوده إلى هاوية الخطيئة . وإذا كنا نعتبر أنفسنا كائناتٍ ، منعزلة ، فلأن حجاب « مايا » يُعمي عيوننا ، ولا يسمح لنا أن نرى الروابط التي لا تنفصل مع أقربائنا ، والتي تحول بيننا وبين الاتحاد مع النفوس الأخرى . قليلٌ من الناس يعرفون هذه الحقيقة . لِتكنْ الكلماتُ التالية تعويذةً لك : « مَنْ أضرّ بالآخرين أضرّ بنفسه . من أعان الآخرين أحسن إلى نفسه ؛ كُفَّ عن اعتبار نفسك كائناً منعزلاً ، وسوف تسير على درب الحقيقة » « من كان نظره مُظلماً بحجاب « مايا » ، بدا له العالمُ مقسماً إلى فرديّاتٍ لا حصر لها . ومثل هذا الإنسان لا يستطيع أن يفهم قيمة الحب الشامل لكل كائن حي .

أجاب « باندو » :

— إن لكلماتك معنى عميقاً ، وسوف أتذكرهما . لقد صنعتُ معروفاً ضئيلاً لم يكلّفني شيئاً ، مع راهب مسكين أثناء سفري إلى

بيناريس ، وها هي ذي النتائج السعيدة التي جنيتها منه . أنا مدينٌ لكَ بالكثير ، فلولاك لم أُضع صرّتي فحسب ، بل وأيضاً كان من المستحيل عليّ أن أفاوض ، في « بيناريس » على تلك الصفقات التي زادت ثروتي زيادةً ملحوظةً . وفوق ذلك ، فبفضلك وصلتْ عربةُ الرز في الوقت المناسب لإنقاذ صديقي « ماليك » . ولو أدرك جميعُ الناس حقيقة مبادئك ، فكم سيغدو عالمُنا أفضل ، وكم سيتضاءل الشرُّ ، وتزداد السعادةُ الشاملة ! أودّ أن تفهم الجميعَ حقيقة « بوذا » ؛ ولذلك سأشيّد ديراً في بلدي : « كولشامبي » ، وأرجوك أن تساعدني على تشييد خَلْوةٍ للإخوة ، تلاميذ بوذا .

— ٢ —

مرّت السنون ، وأصبح دير « كولشامبي » الذي شيّده « باندو » مكان اجتماع الحكماء ، ومركز العلم المشهور .

ذات يوم ، سمع ملكُ بلدٍ مجاورٍ بروعة الحلي التي يصنعها « باندو » ، فأرسل أمينَ خزانته ليطلب إليه أن يصنع تاجاً من الذهب المُصْمَت ترصّعه أكرمُ الأحجار في الهند .

عندما أنهى « باندو » هذا العمل ، قصدَ عاصمة هذا الملك ، وتزود بكمية كبيرة من الذهب ، آملاً أن يعقد صفقات جديدة . كانت القافلةُ التي تحمل هذه الثروات محروسةً من قِبَل رجال مسلّحين . بيد أنها عندما بلغت منطقة جبلية ، هاجمتها عصابةٌ من قُطّاع الطرق ، على رأسها « ماراغوتا » الذي غدا رئيسها ، وذبّحت الحرّاس المرافقين ، واستولت على الكنوز . ولم يَنْجُ « باندو » نفسُه إلا بشقّ النفس .

هذه الخسارةُ أحدثت شرخاً عظيماً في ثروة الصائغ . وقد تأثّر بها كثيراً ، لكنه تحمّل مصيبته باذعان .

فكّر : « لقد استحققتُ هذه المحنةَ ، بذنوب ، حياتي الماضية. كنتُ في شبابي قاسياً على الناس ، ولا ينبغي أن أشكو اليوم حين أجني ثمرة أعمالي السيئة . »

وبما أنه غدا أكثر رفقاً بالكائنات ، لم تزد مصائبُه على أن طهّرتْ قلبَه .

وانقضتْ سنون أخرى ، وصادف أن « بانتاكا » وهو راهب شاب تلميذ « نارادا » ، كان مسافراً في جبال « كواشامبي ، فوقع بين أيدي قُطّاع الطرق . وبما أنه لم يكن يملك شيئاً ، أخلى سبيلَه رئيسُ قُطّاع الطرق بعد أن أمر بضربه .

في اليوم التالي ، بينما كان « بانتاكا » يجتاز الغابة سمع ضوضاء قتال . توجّه صوبَ المتقاتلين ، فرأى عدداً كبيراً من قطّاع الطرق يهاجمون ، بضراوةٍ رئيسهم « ماداغوتا» . كان هذا مثل أسدٍ تحيط به الكلاب، صامداً وقد قتل منهم كثيرين . لكنهم كانوا مفرطي الكثرة فغلبوه أخيراً ، وسقط مغطّى بجراحه .

ما ان انصرف قطّاعُ الطرق حتى دنا الراهب الشاب من الجرحى ليساعدهم . لكنهم جميعاً كانوا أمواتاً ، ما عدا « ماداغوتا » الذي بدت عليه دلائل الحياة . حينئذٍ ركض الراهب إلى ساقية غير بعيدة عن المكان. وملأ وعاءً بالماء البارد وحمله إلى الرجل الذي كان يموت .

فتح « ماداغوتا » عينيه . وقال ، وأسنانُه تصرّ :

— أين تلك الكلاب جاحدة النعمة التي طالما قدتُها لتنال حصتها ؟ لولاي لهلكوا مثل ثعالب يطاردها الصيادون .

قال « بانتاكا » :

— لا تفكّر في أصحابك ، شركائك في حياتك المجرمة . الأجدرُ بك أن تفكّر في ساعتك الاخيرة ، في خلاص روحك . اشربْ هذا الماءَ ودعْني أضمّد جراحك . فلعلي أستطيع أن أنقذك من الموت .

أجاب « ماداغوتا » :

— لا فائدة من ذلك ، وأنا هالكٌ . لقد جرحني الأشقياءُ حتى الموت . آه ! الجبناء ! آه ! جاحدو النعمة ! وجّهوا إليّ الضربات التي علّمتهم أنا نفسي إياها .

— أنت تحصدُ ما بذرتَ . لو علّمتَ أصحابك الخيرَ لردّوا لك الخير . علّمتَهم القتل ، فلذلك قُتلتَ على أيديهم .

أجاب رئيس قُطّاع الطرق :

— الحقُّ معك . إني أستحق ما قُدِّر لي . لكن ما أفظع الأمر إن كان علي أن أجني ، في حياتي الآتية ثمار جميع أعمالي السيئة ! علّمني إذن ، أيها الرجلُ القديس ، ما يمكنني فعله لأخفّف من وزن ذنوبي الذي يُثقل صدري كأنه صخرة .

— انزعْ من قلبك الرغبة في الانتقام ؛ اخنقْ أهواءك الشريرة ؛ واملأْ نفسك بمحبة جميع الكائنات .

— اقترفتُ كثيراً من الشر ولم أصنع خيراً . فكيف أستطيع الإفلات من شبكة الآلام التي نسجتُها أنا نفسي بغرائزي الشريرة ؟ ان

« كارما » ستقودني إلى الجحيم ، لأنني لا أستطيع أبداً أن أجد طريق الخلاص .

قال الراهب :

— نعم . إن « كارما » ستجني في تجسّداتك المقبلة ثمر البذار الذي بذرتَه . فالذي ارتكب أعمالاً شريرة لا يمكنه أن يتجنّب النتائج . لكن لا تيأسْ : كلّ إنسان يمكن أن ينجو على شرط أن يضحّي بفرديّته. وسأقص عليك كمثالٍ قصة قاطع طريق مشهور « كانداتا » الذي مات مُصرّاً على ذنوبه والذي وُلد من جديد شيطاناً في الجحيم حيث ذاق هَوْلَ الآلام .

« ظلّ في الجحيم سنين طوالاً ولم يستطع الإفلات من مصيره الشقي ، عندما ظهر بوذا على الأرض . في هذه الحقبة المشهودة ، نفذ شعاع من النور إلى الجحيم . وأشعل الآمال لدى جميع الشياطين . فصاح قاطعُ الطريق « كانداتا» : « يا صاحب الغبطة بوذا ، ارحمْني ! إني أتألم ألماً فظيعاً ، ومع أني اقترفت شراً إلا أنني أحبّ أن أسير الآن في طريق العدل . لكني لا أستطيع أن أتخلص من شبكة الألم التي تضغط علي . ساعدْني ، يا مولاي ، وارحمْني ! » إن قانون « كارما » يقضي أن تقود الأعمالُ الشريرة إلى الهلاك . عندما سمع بوذا دعاء الشيطان المتألم في الجحيم ، أرسل عنكبوتاً وخيطَها . فقالت العنكبوت : تعلّقْ بخيطي واخرج من الجحيم . » وعندما اختفت العنكبوت أمسك « كانداتا » بالخيط وأخذ يتسلّق . وكان الخيط متيناً إلى حد كبير فلم ينقطع واستطاع الشيطان أن يصعد أكثر فأكثر . وفجأة أحس أن الخيط بدأ يرتجف ويهتز . ذلك لأن أشقياء آخرين كانوا يصعدون خلفه . كان يرى كم كان الخيط

واهياً وأنه كان يَهي أكثر من جرّاء الثقل المتزايد الذي تحمّله . بيد أنه لم ينقطع . وحتى الآن لم ينظر « كانداتا» إلاّ فوقه . حينئذ نظر تحته فرأى جمهوراً لا يُحصى من سكان الجحيم يتبعه في صعوده ففكّر : « كيف يستطيع مثل هذا الخيط الرفيع أن يتحمّل ثقلَ هؤلاء الناس جميعاً ؟ » فارتعب وصرخ : « اتركوا خيطي ، إنه لي ! » وعندها انقطع الخيطُ وسقط « كانداتا» مرة أخرى في الجحيم . إن الشعور الضال بالفردية كان ما يزال حيّاً لدى « كانداتا » . لم يكن يعلم أية قوة عجيبة يملكها الاندفاع إلى الأعالي لصعود طريق العدالة . إن هذا الاندفاع خفيفٌ مثل خيط العنكبوت ، لكنه يرفع ملايين الناس ، وكلما كثُرَ الناسُ عليه ، ازداد شعورُ كلّ واحد منهم بالخفّة . لكن ما ان تُولدُ في قلب إنسان هذه الفكرة : وهي أن هذا الخيط له ، وأن حسنة العدالة ملكُه وحده ، وأنه لا يجوز أن يشاركه أحدٌ فيها ، حتى ينقطع الخيط ويسقط الانسانُ من جديد في وضعه القديم من الفردية المنعزلة . العزلةُ لعنةٌ والوحدةُ بركة . ما الجحيمُ ؟ ليس الجحيم سوى حبّ الذات ، بينما « النرفانا» هي الحياة المشتركة . . .

قال « ماداغوتا » الذي كان يموت عندما أنهى الراهب حكايته .

— دعني أمسك بخيط العنكبوت .

لزم « ماداغوتا » الصمت بضع ثوان ، كأنما يريد أن يستجمع أفكاره ، ثم أردف قائلاً :

— اصغ إليّ جيداً ، سأعترف لك بكل شيء . كنتُ عبد الصائغ «باندو » ، في « كولشامبي » . لكن بعد أن عذّبني ظلماً هربتُ وأصبحتُ رئيساً لقطاع الطرق . ومنذ بعض الوقت علمتُ من رجال الاستطلاع

عندي أنه سيمرّ بالجبال . فباغتّه وسابته معظم ثروته . اذهبْ وقلْ له إني أغفر له من كل قلبي الشر الذي اقترفه بحقي ظلماً ، وأني أرجوه المغفرة لأنني نهبته . عندما كنتُ في خدمته ، كان قلبُه قاسياً كالحجر ، ومنه تعلّمتُ ألا أفكّر بغير نفسي . سمعتُ أنه صار أفضل وأنه يُذكر كنموذج للخير والعدل . لا أريد أن أظلّ مديناً له ، ولذلك أرجوك أن تخبره بأني احتفظت في موضعٍ تحت الأرض بالتاج الذهبي الذي صنعه للملك ، وبكنزه كله . قاطعا طريق اثنان فقط يعرفان هذا المخبأ وقد ماتا جميعاً . فلْيأتِ « باندو » وبرفقته رجالٌ مسلّحون ، ليتسلّم الأموال التي سلبتُه إياها.

ومات ماداغوتا بين ذراعي « بانتاكا » بعد أن دلّه على مكان المخبأ.

قصد الراهبُ الشاب ، من فوره ، « كولشامبي » ، وذهب إلى الصائغ وروى له ما جرى في الغابة.

عثر « باندو » على المخبأ ، واسترجع كل ثرواته التي خبّأها رئيسُ قطّاع الطرق .

دُفن « ماداغوتا» وقاطعو الطرق القتلى ، ووقف « بانتاكا» على قبرهم ليفسّر كلمات بوذا فقال :

— الفردية تصنع الشرّ ، وهي التي تقاسيه .

— الفردية تتجنّب الشر ، وهي التي تتطهّر

— الطهارة والدنس يخصّان الفردية ، ولا يستطيع أحدٌ أن يطهّر أحداً .

— على المرء نفسه أن يبذل مجهوداً ؛ وبوذا ليس سوى مربٍّ .

حمل « باندو » إلى كولشامبي ثرواته جميعاً ، واستمتع بثروته التي استعادها باعتدال ، فقضى بقيّة حياته في الطمأنينة والسعادة ، وعندما تقدّم به العمر وأشرف على الموت ، جمع حوله أولاده وأحفاده جميعاً ، وقال لهم :

– يا أبنائي الأعزاء ، لا تتّهموا الآخرين بفشلكم . فتشوا في أنفسكم عن سبب المصائب ، وإذا لم يُعْمِكم الغرورُ وجدتم السببَ وتعلّمتم كيف تتفادون الشرّ . إن علاج مصائبكم فيكم . لا تُظلِمنّ بصيرة ضميركم بحجاب « مايا» . تذكروا الكلمات التي كانت طلّسم حياتي : « من آلم قريبَه أساء إلى نفسه . من ساعد الآخرين ساعد نفسه فليختفِ ضلالُ الفرديّة ، وسوف تسيرون في طريق العدل .

* * *

اربعون عامـاً

اسطورة من روسيا الصغرى(١)

كان يعيش في قرية « مندوكي » في آخر القرن الثامن عشر ، فلاحٌ غني هو « دينيس شباك » . وكان لهذا الرجل ابنةٌ جميلةٌ جداً ، شقراء ، تُدعى « فاسا » . وكان يعمل عند « شباك » فلاحٌ شاب يُدعى « تروخيم إياشنيك » الذي لم يعرف أباه ولا أمه ، وكانت قريبتُه الوحيدة أرملة جندي ، عجوز تعيش من الحسنات . كان إياشنيك يحرس الخنازير ، وهو في الثالثة عشرة ؛ لكنه أصبح ، مع السنّ ، فتى جميلاً جيداً وماهراً ، فلاحظ « شباك » ذلك ووضعه في خدمته . أُغرمتْ « فاسا» « بتروخيم» لكن أباها رفض مثل هذا الزواج : ذلك أن إياشنيك ، المسكين المعدم ، لم يكن كفئاً لابنته . ومع ذلك ، أعلن ، أمام دموع « فاسا » ، أنه سيسرّح « إياشنيك » من عمله ، وأنه سيقبل بالزواج إن عاد هذا الفتى مرتدياً ثياباً جديدة ، وفي عربة خاصة له . وصَرَفَ « تروخيم » .

---

(١) هذه الأسطورة التي كتبها المؤرخ المشهور « كوستوماروف » أعجبت تولستوي كثيراً ، فنقحها واختصرها ، وكتب فصلها الأخير بكامله . ونحن ننشر هنا ملخصا لهذه الاسطورة كمارواها كوستوماروف كما ننشر الفصل الأخير الذي لم ينشر بعد والذي كتبه الكاتب العظيم .

أحسّ تروخيم بعجزه عن الوفاء بالشرط المطلوب ، فعزم على الانتحار غرقاً . لكنه ، في اللحظة التي أراد فيها أن يلقي بنفسه في الماء ، وجد أمامه ، رجلاً غريباً ، قصيراً ، مزنّراً بحزام . كان هذا الرجل هو رئيس بستانيّي إقطاعي القرية ، « بريديبالكا » . فاقتاد « تروخيم » إلى الحانة ، وهناك روى له « تروخيم » متاعبه .

قال البستانيّ لتروخيم

— ليس هذا بالمهم ، ويمكن ترتيبُ الأمر بسهولة . في القرية ، في هذه اللحظة ، تاجرٌ غني جداً ومعه الكثير من البضائع . وسيبقى هنا حتى الليل ، ثم يسافر . وهو مضطرٌ إلى ان يَعْبُر الغابة حيث ينبغي له أن يمرّ أمام وادٍ فيها .

وعندما يصل إلى هذا الموضع ، اخرجْ من مخبئك الذي كمنتَ فيه ، ثم اضربْ التاجر بالدبوس على رأسه ، ثم اضرب الحوذيّ ، وخذ القماش الذي تحتاجه ، وخذ المالَ ، لكن اترك بقية البضاعة بل وشيئاً من المال . اقلبْ أيضاً العربة إلى الوادي ، وان يعرف أحدٌ شيئاً . وسيظن الناسُ أنهما ماتا لسقوطهما في الهوّة ، وإذا سُئلتَ من أين جئتَ بالمال لتشتري ما يلزمك فقلْ إنني أقرضتُكَ إياه .

جرى كلُّ شيء كما خطّطاه .

قَتَلَ « تروخيم » التاجر والحوذي ، وأخذ القماش وثمانية آلاف روبل . أوصى له البستاني على ثياب جميلة واشترى له حصاناً وعربة ، ووجد رجلين وافقا على أن يكونا شاهدين .

لكن الندم أصاب تروخيم ، فعزم أن يروي كلّ شيء لِ « فاسا» .

اضطربت فاسا ، وأشارت عليه أن يذهب إلى مكان الجريمة ، وأكّدت له أن الله سيقول له ، هناك ، في منتصف الليل ، ما العقاب الذي ينتظره . قصد تروخيم المكان ، وفي منتصف الليل ، قال له صوتٌ:

— سأقتصّ منك بعد أربعين سنة .

رجع إلى فاسا ، وروى لها ما سمعه ، ولما كان أمامهما أربعون عاماً، تزوّجا . وبعد زواجهما استقرّا في مدينة كبيرة : عمل « تروخيم » في التجارة ، وكسب ثروة عظيمة ، وسمّى نفسه بالأسماء التالية : تروخيم سيميونوفيتش إياشنيكوف . وكانت امرأته التي نوت أن تحجّ إلى « كييف » لتسأل الله المغفرة لزوجها ، تؤجل هذا الحجّ من يوم إلى آخر ، وماتت أخيراً دون أن تقوم به :

تزوّج « تروخيم » مرة ثانية ، وكانت ثروته تزيد من سنة إلى سنة.

مرّت عشرون سنة . وكان الندم كثيراً ما يعذّب تروخيم . فقرّر أن يعترف لرئيس الأساقفة : وروى له كل شيء . فطمأنه رئيس الأساقفة قائلاً له . إنه ، بالرغم من فداحة الجرم ، قد كفّر عنه خلال عشرين سنة من العمل والاستقامة ، وأنه إن بنى كنيسةً جميلة فسيغفر الله له. فابتنى كنيسة .

كانت أعماله مزدهرة . وكان يملك بيوتاً ومناجم للذهب ، وتزوّجت ابنتُه أميراً ، ونجح ابنه الكسندر نجاحاً باهراً في مهنته الدبلوماسية وكان يبدو أسعد الناس .

لكن السنة الأربعين المشؤومة جاءت : كان ينتظر برعب العقاب الذي سينزل به . ولكي يَتسلو ، ذهب إلى الأصدقاء واعترف لهم ، بل إنه أوشك أن يعترف لابنه بكل شيء . فأبى الابن أن يستمع وأعلن لأبيه

الذي كان يحدّثه عن عقاب الله ، أن الله غير موجود . وأخيراً انقضت السنة الأربعون على الجريمة دون أن يحدث له حادث ، وظنّ الشيخُ أنه قد نجا من العقاب .

أنهى تولستوي هذه الحكاية على النحو التالي :

— ١ —

في هذه الليلة ١٢—١٣ آب ، عندما أوى إلى غرفته ، بعد الحديث بينه وبين ابنه ، بدأ القصاص .

« ليس هناك إلــه ! ليس هناك روح ! ليس هناك عــقاب ! ما أحسن هذا ! وما أَجْلَبَه للطمأنينة ، وما أكثر ما عذّبتُ نفسي ، بلا جدوى ! نحن جميعاً يصارع بعضُنا بعضاً : نحن نتقاتل لنعيش ، كما يقول الكسندر : الصراع من أجل الوجود ، ذلك هو القانون : ولا قانون غيره . لقد سمح اللهُ لي أن أكون المنتصر ! لقد سمح الله لي : . : هذه العادة البلهاء في التضرّع إلى الله ترافقنا دائماً ! ليس هناك إله سمح لي ، أنا الذي استطاع أن يكون المنتصر ؛ تلك هي الحقيقة : كل واحد يجب أن يناضل ، ويستفيد المنتصرُ من نصره : انتصرتُ واستفدتُ من نصري : وهذا يُسعدني كثيراً . : : لكن الندم سمّم حياتي : وأنا أدرك أنّ الآخرين يحسدونني . كل واحد يريد أن يملك : إن أراد أن يملك فليناضلْ . ناضلْ بنفسك ولا تنتظر مساعدة . مثلاً ، الكسندر . : . » وتذكّر أن الكسندر صرّح له اليوم أن العشرين ألف روبل التي يتلقّاها من أبيه

كلّ عام غير كافية وأنه يريد فوقهاعشرة آلاف روبل. « . . . وعندما رفضتُ أبدى استياءه . ولنفرضْ أن الكسندر يحسب حسابه أنه سيحصل على كل شيء عندما أموت . . . » وفجأة قال تروخيم في نفسه أن ابنه لابدّ أن يتمنّى موته.« ناضلْ لتكون المنتصر ، لقد ناضلتُ وقتلتُ التاجر ؛ كان موته ضرورياً لي ، فاستلبتُ حياته . فأي موت سيكون ضرورياً من أجله ، من أجل ابني ؟ » توقّف ونهض من سريره :«أي موت ؟ موتي ! نعم ، إني أسد له طريقه . مهما يكن المبلغ الذي أعطيه إياه فلن يرضى إلا اذا متّ ، وأصبح مالكاً لكل شيء . » وتذكّر « تروخيم » نظرات ابنه وكلماته ونبرات صوته ؛ فرأى أن ابنه يتمنّى موته . « لا يمكن له إلا أن يتمنّى موتي . وإذا تمنّى موتي ، وهو الرجل المثقف الذي ليس له أحكامٌ مسبقة ، فلا بد له حينئذ من أن يقتلني : ولنفرضْ أنه لا يريد أن يعرّض نفسه للهلاك ، لكن هناك السم . . . »

وتذكر فجأة حديثاً جرى بينه وبين أبنه عن السموم القديمة التي تقتل ولا تترك أثراً . « وإذا حصل على مثل هذا السم فلماذا لا يدسّه لي ؟ لابد أن يدسّه لي . لقد سبق أن قال إنني لا أحسن إدارة أعمالي ، وأنه يمكن إدارتها على نحو أفضل بكثير . . . نعم ، فنجانشاي ...وقُضي الأمر.أيرشو الخدم والطاهي ؟ كلهم يرتشون ...» وانتقل بفكره إلى خادم أنيق جداً . « ما عليه إلا أن يعطيه ألف روبل حتى يفعل كلّ شيء : والطاهي أيضاً ...» تأثر تروخيم بهذه الأفكار ، وأراد أن يشرب كأس ماء لتهدأ نفسُه . تناول الكأس الذي كان مملوءاً قرب سريره ، على المنضدة.في قاع الكأس لاحظ شيئاً أبيض . « ماهذا ! كلا : لن يوقعوني في شراكهم » . ونهض ، واغتسل ، واقترب من مغسلته وشرب

من مائها . « نعم صراع الجميع ضد الجميع . وإذن يجب أن نكافح وألاّ نتهاون : سأكون حذراً ، ولن أتناول من الطعام إلا ما تتناوله امرأتي . نعم ، وهي أيضاً ! هي تعلم أنها سترثُ السُبْع ، وأهلها الفقراء يحاصرونها منذ زمن طويل : لابد من تحمّل البلاء : يجب أن أتصرف بحيث لا يفيد أحدٌ شيئاً بعد موتي . يجب أن أحرّر وصيتي التي تحرمهم كلَّ شيء بحيث يكون موتي خسارة لهم : نعم ، سأفعل هذا غداً ، وسأخبرهم به : »

— ٢ —

ودّ لو ينام : لكن أفكاره حالت بينه وبين النوم . فقرّر أن يحرّر وصيته : ارتدى مبذله ومشّايته ، ودنا من الطاولة وشرع يكتب مسوّدة الوصية التي توصي بثروته كلها لأعمال الخير : فلما انتهى منها عاد إلى فراشه . وحينئذ فكّر في خادمه وبوّابه . فانتقل بنفسه إلى نفس الخادم وتساءل : « لو كنت خادماً مسكيناً ، أقبض خمسة عشر روبلاً في الشهر ، ولو كان هاهنا ثريّ نائم تفصله عني خمس غُرفٍ ، ويحيط به المالُ ، ولو كنت أعلم علماً جازماً ، كما أعلم الآن ، أنْ لا إله ، ولا حاكم أعلى ، فماذا كنتُ سأفعل ؟ سأفعلُ ما فعلتُه بالتاجر .: فاستولى عليه الخوفُ . ونهض فبادر إلى قفْل بابه ، لكن القفل لم يقاوم فجرّ مقعداً إلى أمام الباب وربطه بالمزلاج بواسطه المناشف : ووضع على المقعد كرسياً إذا سقطت أحدثت صوتاً . حينئذٍ فقط أطفأ شمعته واضطجع . لم ينم إلا عند الصباح ، وتأخّر كثيراً في نومه حتى إن زوجته

جاءت ، وهي قلقةٌ لتفتح الباب . وقعت الكرسي وأحدثت ضجةً عظيمةً : نهض تروخيم مرتعباً ، شاحباً ، وصاح :

— مَنْ ؟ ماذا ! إلى القاتل !

ظل زمناً طويلاً قبل أن يتمالك نفسه . تصوّر وهو يستيقظ أنهم جاؤوا ليقتلوه . وعندما ثابت إليه نفسُه بيّن أنه سدّ الباب تحذّراً ، لكنه سعى إلى إخفاء خوفه : بيد أن أسرته وخدّامه أخذوا يلاحظون ، بدءاً من هذا اليوم ، وبالرغم من جهده لإخفاء خوفه ، تغيرا كبيراً منه : كان مرحاً من قبل ، وقد يقع له أن يغضب . كان طيّباً ، وكان حزيناً أحياناً ولا سيّما عندما يفكّر بجريمته : لم يكن سابقاً يحب بعض الناس ، لكنه كان يحب آخرين ولاسيما الأولاد ، أحفاده . أما الآن فغدا ذا مزاج لا يتغيّر ، صامتاً أبداً ، سيّء الظنّ أبداً ؛ كان كلُّ شيء عنده مشبوهاً وكان بارداً مع الجميع ، حتى مع أولاده .

— ٣ —

أصبحت الوصيةُ منذ الآن شغله الشاغل . وظلّ زمناً طويلاً دون أن يستطيع تحرير وصية كما يتمنى . ولم يستطع أحدٌ من كتّاب العدل الذين استُدعوا لهذه الغاية أن يُرضيه : كان يكتب ، وينسخ ، وينقّح .

أما بالنسبة إلى الغذاء فقد غدا شديد التطلّب . كان يترك أحياناً أفضل الأصناف التي كان يلتذّ بها قديماً دون أن يمسّها ؛ وكان يرفض غالباً أن يتناول العشاء ، أو يأتي في أواسط الطعام ، فيأخذ صحن ابنه أو ابنته أو زوجته ويأكل قليلاً . وكان يشتري خمره بنفسه ويخبّئه في

خزانة غرفته . وكان يهمل أعمـــاله ، فاذا اهتمّ بها أخفى عن ذويه أرباحه ودخله :

إن الثروة والمال اللذين كانا قديماً يهبانه الفرح ، أصبحا لا يسبّبان له الآن سوى الهم : كان يحاول أن يضع المال بمأمنٍ عن جشع الآخرين ، لكنه كان يحسّ جيداً أنه لا يمكن حمايةَ كنزٍ من أناسٍ لا إله لهم ، كما كان هو نفسه .

أحسّ أنه إذا علم الجميعُ ، مثله ومثل ابنه ، أنْ لا إله ولا حساب ، فليس من احتياط يضمن له أنه لن يُقتل ولن يُسمّم ، ولن تُنْتَزع منه ثروتُه بالحيلة أو بالقوة . ليس هناك سوى خلاص واحد ، وهو ألا يُظهر للناس علمه بأنْ لا إله ولا حساب ، بل أن يوهمهم قدر المستطاع بوجود الله والحساب : ولذلك — وهذا تغيُّرٌ اخر — بدا تروخيم ، بعد ١٢ اب فائق التقى ، أكثر تقى من أية فترة في حياته : لم يكن يُفوّت صوماً من أيام الأربعاء والجمعة ؛ لم يكن يفوّت قدّاساً ؛ كان لا يترك فرصه تمر دون أن يوحي إلى أسرته ومعارفه وخدمه أن هناك الهاً وهناك شريعة لله ، وأن من لا يراعون هذه الشريعة سيهلكون وسيُعاقبون بصرامة في الحياة الآتية . كان يقول هذا حتى لابنه ، متظاهراً بأنه نسي الحديث الذي دار بينهما حول هذا الموضوع ، وبأنه نادمٌ عليه.

منذ ١٢ آب ، منذ أن اقتنع بأن لا أحد ولا شيء يخشاهما ، وأن لا شيء يمنعه الآن من أن يعيش لمسرّاته ؛ لكن بما أن مسرّاته لم تعد موجودة ، فقد تحوّلت جميعها إلى الام .

لم يفارقه خوفُه من القتل والتسمم والخدعة ، ومن أبشع الجرائم التي يمكن أن تُرتكب في أسرته أو من ألآفه : كان يشك في أن جميع الذين كانوا يحيطون به يحملون أفظع المقاصد ؛ كان يخاف ويكره جميع الناس ، وابنته ، جميعهم ؛ حتى احفاده الذين كان يحبهم كثيراً من قبل بدوا له الآن حيوانات صغيرة وحشية . كان يتصوّر أنهم يكرهونه كما يكره الآخرين

ولكي يُهدّىء قلقه ، كان يلجأ ، دون انقطاع إلى شيئين : كان أولاً يختبىء عن الجميع ، ويخدع الجميع ، كان يتّخذ تدابير الحيطة إزاءَ كل واحد ، وإن لم يفكّر أحدٌ في التآمر عليه . وكان همّه الآخر أن يكون منافقاً مع الجميع ، أن يحملهم على الإيمان بالله ، وبالفضيلة ، والحساب الالهي . كان يرى أن خلاصه غير ممكن إلا إذا أقنع الناس بما لا يؤمن به . ولم تعد ثروتُه الآخذة في التزايد لتفرحه ، بل كانت ترعبه . كان أهله أعداءً له . وغدت المسرّاتُ البسيطة كالأكل والشرب والنوم ، غير موجودة بالنسبة إليه . كان يرى نفسه دائماً غرضاً لأرهب المؤامرات .

عاش الشقيّ تروخيم هكذا ، أكثر من عشر سنوات . وقد شهد على شذوذه وغرابة أطواره جميعُ الذين قربوه ، لكن لم يرتبْ أحدٌ في آلامه . وكانت آلاماً عظيمة ، ولاسيما أنه لم يكن ينتظر سكوناً لها حتى ولا في الموت . كان يتعذب ويتألم دون أن يعرف لماذا ، كان يخاف

الموت بالرغم من اعتقاده أنْ ليس بعد الموت شيء ، وأن كل شيء ينتهي بانتهاء الحياة . وهكذا فلم يكن بوسعه أن يعوّض عن هذه الحياة لا في هذه الحياة ولا في حياة أخرى .

عاش تروخيم هذه المعيشة مدة ثلاثة عشر عاماً . وذات يوم ، بعد عودته من القدّاس ، بعد أن تناول طعامه في غرفته وشرب خمراً مخبّأً في خزانته . اضطجع لينام ولم يُفق من نومه .

إن الموت المفاجىء غير المتوقع هو بلا شك الأقل شدّة . حُمل نعشُ تروخيم الثمين إلى مقبرة نيفسكي . وتبع النعش جمهورٌ من العاطلين المثابرين على ولائم الثري الفخمة . وقد ألقى واعظٌ من بطرسبرج يتمتع بشهرة واسعة في الفصاحة ، تأبينه ، واستفاض في فضيله المتوفّى وتقاه وحياته السعيدة .

ولم يعلم أحدٌ غير الله بجريمة تروخيم ، ولا بالعقاب الذي نزل به منذ أن طرد اللهَ من نفسه .

* * *

مفرط الغلاء(١)

على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بين فرنسا وإيطاليا ، بلدٌ صغير جداً هو « موناكو ».وعددُ سكانه أقل من عدد سكان قرية كبيرة : سبعة آلاف . وهذا البلد قليل الاتساع بحيث أن حصة المواطن هناك لا تتجاوز كثيراً الهكتار .

وبالمقابل فان هناك أميراً له قصره وبلاطه ووزراؤه وأساقفته وجنرالاته وجيشه .

عدد الجيش غير كبير : ستون رجلاً ؛ ومع ذلك فهو جيش . . والفوائد قليلة أيضاً : الضرائبُ تُجبى هنا ، كما تُجبى في كل مكان، بانتظام ، على الكحول والنبيذ والتبغ ؛ ومع أن المكلّفين بالضرائب يشربون ويدخّنون بدقه ، إلا أن عددهم قليل ، وما كان المُلَيْكُ بقادر على إطعام حاشيته وموظفيه ونفسه او لم يكن له موردٌ خاص : دار القمار ، الروليت .

والناس يلعبون ، فيخسرون أو يربحون ، لكن مدير الدار رابح أبداً ؛ ولذلك فهو يدفع إتاوةً ضخمةً للمُليك . وهو يستطيع أن يفعل ذلك ، لأن المؤسسة التي يستثمرها وحيدة في اوروبا .

---

(١) هذه الحكاية مقتبسة من أقصوصة لغي دي موباسان .

لقد وُجدت دورٌ منافسةٌ قديماً ، في الإمارات الألمانية . لكنها أُلغيتْ منذ نحو اثنتي عشرة سنة : إذ نجمتْ عنها مصائبُ جمّة . كان اللاعب يصل ، ويتدرّب ، ويخسر كلّ شيء ، ويخسر أحياناً مال الآخرين ، ثم ينتحر . فمنع الألمانُ حينئذ امراءهم الصغار من استغلال دور القمار، بينما لم يكن أحدٌ يستطيع أن يمنع عاهلَ موناكو من ذلك ، ولذلك احتكر هذه المؤسسة .

ولذلك فان جميع هواة اللعب يرتحلون إلى دولته ويتخلّون عن كل ما معهم لمصلحته . يقول المثل الروسي : « العمل الشريف قلّما يُغْني ». ولا شك أن المُليك لا يجهل كما لا نجهل أن المورد الذي يغترف منه موردٌ دنسٌ . لكن ما العمل ؟ ليس العيش باللجوء إلى طرح الضريبة على الكحول والتبغ بأشرف من ذلك . ولا بدّ من وسيلة للعيش . المُليك يحكم إذن بسلام ، ويجمع المال ، ويعيش وسط حفلات البلاط ونظام التشريفات الصارم ، على غرار جميع الملوك الحقيقيين : فهو يكافىء ويعاقب ، ويستعرض جنده ، ويعقد مجلسه ، ويسنّ القوانين ، وييسّر القضاء في المحاكم ، كما هي الحال لدى الملوك الآخرين ، لكن على نحو مصغّر .

ومنذ حوالي خمس سنوات ، حدثت حادثة خطيرة في المملكة : إذ ارتُكبتْ جريمةُ قتل . إن سكان موناكو قومٌ مسالمون ، ولذلك كان الحدث بينهم مذهلاً .

اجتمع القضاةُ وبدأت محاكمتُهم للقاتل ، كماينبغي لها ، فسارت بحسب الأصول : النائب العام والقاضي والمحلفون والمداولات الطويلة

والأمينة . وحُكم على القاتل بالموت كما يقضي القانون . كان كل شيء ممتازاً .

عُرض الحكمُ على الملك الذي صدّقه بعد أن قرأه . ولم يبقَ سوى تنفيذ الحكم .

لكن هناك صعوبةً برزت : وهي أنه لم يكن في البلد مقصلةٌ ولا جلاد .

فكّر المسؤولون طويلاً ، فتقرّر تقديم طلب للحكومة الفرنسية من أجل إقراضهم الجلاد وآلته . وكذلك سئلت الحكومةُ الفرنسية عن نفقات الانتقال . وبعد ثمانية أيام . وصل الجواب : وافقت الحكومةُ الفرنسية على إرسال المقصلة والجلاد ، أما مقدار النفقات فيبلغ ستة عشر ألف فرنك .

رجعوا في الأمر إلى الملك . وقدّر الملكُ أن القاتل لا يساوي هذا الثمن . ستة عشر ألف فرنك من أجل عنق هذا التافه ! آه ، ! كلا. لابدّ لذلك من اقتطاع ضريبة جديدة ، أكثر من فرنكين لكل رأس. يمكن للشعب أن يقاوم

عقد الملكُ جلسةً ، وتقرّر تقديمُ طلب مماثل إلى ملك إيطاليا . ففرنسا جمهورية ، والجمهورية لا تحترم الملوك ، بينما ملك إيطاليا أخٌ : سيكون الثمن أرخص .

لم يتأخر الجواب . أخبرت الحكومةُ الايطالية أنها سترسل بكل سرور الجلاد والجهاز لقاء مبلغ مقداره اثنا عشر ألف فرنك بما في ذلك نفقات الانتقال .

كان ذلك أرخص ، لكنها نفقة جدّ ثقيلة من أجل مثل هذا الشقي. إن ذلك يقضي بفرض ضريبة على السكان .

اجتمع المجلس من جديد . وبحث مطوّلاً عن الوسيلة التي يُنفّذُ بها الحكم بأرخص ثمن . وعرضت فكرةٌ : ألا يمكن قطع رأس هذا النذل بأيد محلية ، على يد جندي مواطن ؟

استُشير الجنرالُ ، إذ يمكنه أن يكلّف أحد محاربيه قطع رأس القاتل لأن هذه هي مهنتهم ؛ وهم في الحرب لا يفعلون شيئاً سوى ذلك. كلّم الجنرال الجنود ، لكنهم رفضوا جميعاً الاضطلاع بهذه المهمة . وقالوا : ليست لنا الممارسة الكافية للسلاح الأبيض . » كيف العمل ؟ فكّروا في ذلك وتشاوروا . جُمعت جمعيةٌ ، ولجنة ، ولجنةٌ فرعية. وعُثِر على الحل : يجب تخفيف حكم الإعدام إلى سجن مؤبدّ . وهكذا يستطيع الأميرُ أن يُظهر رأفته ، ثم إن ذلك يكلّف أقلّ . فوافق الملكُ.

لكن صعوبة جديدة برزت : لم يكن هناك سجن مُعَدٌّ للسجن مدى الحياة . كان هناك مراكز شرطة ، لكن لم يكن هناك سجنٌ حقيقي ، أمين ، متين . كان لابدّ من إقامة سجن ، وعُيِّنَ حارسٌ ؛ وأخيراً حُبس السجين .

ممتاز . السجّان يحرس المجرم وهو مكلّفٌ أيضاً أن يحمل له طعامه من مطبخ القصر .

مرّت ستة أشهر ، ومرت سنة . وعندما أجرى المَليكُ حساباته في آخر العام ، لاحظ أن النفقة المخصّصة للسجين تثقل ميزانيته . الحارس، الطعام ، الخ . والسجين شاب معافى ، ولا شيء يمنع من أن يعيش

خمسين سنة أخرى . واحسبوا أيّ رقم ستصل إليه التفقات ! لا يمكن أن تستمرّ الأمورُ هكذا . وقال لهم :

اتخذوا التدابير لتخفيض نفقات ذلك الشقي ؛ فهو يكلّفنا غالياً.

اجتمع الوزراءُ في جلسة وتداولوا .

قال أحدهم :

— وجدتُ ، يا سادتي . يجب أن نلغي مهمّة السجّان :

فعلّق آخر :

— لكن السجين سيهرب .

— حسناً ! فليذهب إلى الشيطان ، سيكون ذلك أحسن تخلّصٍ.

ورجعوا إلى الأمير ، فوافق الأميرُ أيضاً ، وصُرِف الحارسُ . ممتاز لم يبق سوى انتظار الأحداث .

في ساعة الغداء ، خرج السجين ليبحث عن الحارس ؛ ولما لم يجده قصد المطبخ الملكي ، وأخذ الأطعمة التي أعطوه إياها ، وعاد إلى السجن ، وحبس نفسه فيه بعناية . وفي اليوم التالي ، تكررت اللعبةُ ذاتها : طلب طعامه وأكل بهدوء . أما الفرار فلم يفكّر فيه قط :

كيف العمل ؟ وعادوا إلى التداول . « لنقلْ له بكل بساطه أننا لم نعد بحاجة إليه . فلْيَنْصرفْ !

جيد جداً . استدعى وزير العدل المجرم ، وقال له :

— لماذا لا تنصرف ؟ لم يبق لك حارسٌ يحرسك ، وما من أحدٍ يردُّك ، ومن المؤكد أن الأمير لن يحقد عليك إذ أردت أن تترك أراضيه.

أجاب السجين :

– لن يحقد علي الأميرُ ، فهمت . لكن أين أذهب ؟ وماذا سيحل بي ؟ إن حكمكم ألحق بي العارَ إلى الأبد ، ولن يقبلني أحدٌ ، وليس لي وسيلة للعيش . لم تصرّفتم هذا التصرّف السيّء معي ؟ لقد حكمتم علي بالموت . حسنٌ . كان يجب تنفيذ الحكم بي ، ولم تفعلوا ذلك . فلم أقل شيئاً . ثم حكمتم علي بالسجن المؤبّد وعيّنتم حارساً يحمل إلي الطعام ؛ ثم أخذتم مني حارسي . فلم أقل شيئاً أيضاً . وكنتُ أكلّف نفسي الذهاب لإحضار طعامي . واليوم تأمرونني بالانصراف . آه ! كلاّ : افعلوا ما تشاؤون ، فسوف أبقى ،

ما العمل ؟ اجتمع المجلس من جديد ، وتمّ التداول . فتقرّر أخيراً أن يُمنح المجرم معاشاً . إذ لا يمكن التخلص منه بغير هذه الطريقة . ويُقدَّم التقريرُ للأمير ؛ لم يكن له خيارٌ فوافق . وحُدِّد المعاش بستمئة فرنك ، ويُعْلَمُ المجرم بذلك . فيقول :

– ليكنْ ، سأنصرف . لكنْ ستدفعون لي معاشي بانتظام .

تلقّى صاحبُ المعاش مائتي فرنك مقدّماً ، وودّع الجميع ، وغادر البلاد . وما كان عليه إلا أن يقضي ربع ساعة في القطار .

ويشتري ، على بعد بضع دقائق من الحدود ، قطعة أرض ، ويزرع فيها بعض الخضراوات ، ويذهب في الأيام المحدّدة لقبض معاشه . فاذا تسلّم المال ، دخل الكازينو ، وقامر بفرنكين أو ثلاثة على المائدة الخضراء ، فيخسر أو يربح ، ثم يعود بهدوء إلى بيته .

وهو يعيش هكذا سعيداً عاقلاً .

وكان من حسن حظه أنه ارتكب « إثمه » خارج البلاد التي لا تخشى أية نفقة لتتمكن من قطع رؤوس الناس أو التي تحبس الناس في سجونها مدى الحياة .

حياتي(١)

— ١ —

زُوِّجتُ بالرغم مني . لم أكن قد بلغتَ السابعة عشرة حين أخذ أهلي يفتّشون لي عن خُطّاب . جرى ذلك قبل سنتين من التحرير. كنتُ أعيش عند أهلي . لم يكن ينقصنا شيء. كان بيتنا بيت فلاحين متواضعين لا هو بالغنيّ ولا هو بالفقير . كان الكبار يذهبون إلى السخرة (١) . أما أنا فكنت أحرس الدواجن في المزرعة . كانت الحياةُ حرّة وطيّبة . كنت يافعةً ، جدّ مرحة . وكنت الأولى حيثما يكن الرقص والغناء. وكانت رفيقاتي وأنا نخرج للتسلي ، وكنتُ أقودُ جمعهن. جاؤوني بخطّاب . لكني لم أقبل بهم : كان في رأسي واحدٌ . لكن أهلي لم يقبلوا به لي .

---

(١) هذه الحكاية المؤثرة روتها فلاحة في عام ١٨٩٣ لأخت زوجة الكاتب . وقد كلف تولستوي بحيويتها ، فأعاد كتابتها وحمل إليها كثيراً من التصحيحات والإضافات ويمكننا إذن اعتبارها عملا من أعماله .

(٢) السخرة : قبل ١٩ شباط ١٨٦١ أي قبل إلغاء القنانة ، كان الملاك يترك للفلاحين جزءاً من أرضه الزراعية بمقدار الثلث كاقراض مقابل العمل .

لم يكن فلاحاً . كان ملحقاً بخدمة معلمي يسكن في موضع الخدمة . كان اسمه ميشيل (١) . كنتُ أراه دائماً عندما أكون في السخرة . فشُغِفتُ به . وأنا أيضاً كنتُ أروق له . فاذا رآني جاء وبادلني نتفةً من حديث .

وإذا به يلقاني ذات يوم ويقول لي :

— يا « آنيسيا » العزيزة ، انتظريني سنة : سنصير حرّين (٢) وسأتزوجك .

— كيف أنتظرك ؟ من الممكن أن تتزوج واحدةً أخرى . ثم هل نتحرر بعد سنتين ؟ لا نعلم ذلك بعد .

قال :

— آنيسيا ، إذا لم تنتظريني فسوف تندمين .

كنتُ أتوق إلى الزواج منه . لكن من جهة ثانية ، أنْ أرفض الآخرين وأنتظره أمرٌ غيرُ مأمون .

وأصرّ أهلي حينئذ على تزويجي من « دانيلو » . كان « دانيلو » من بيت فقير ؛ لم يكن الابن بل كان متبنّى . آوته امرأةٌ من قريتنا قبل أن يكون لها أولاد . كبر « دانيلو» وبلغ سن الزواج . وفكّرت أمه في تزويجه لتؤمّن عاملةً نشيطة . واختارتني أمُّ دانيلو لأكون زوجة ابنها

---

(١) هذا الاسم يطلق على الفلاح المعفى من السخرة الذي ألحق بخدمة سيده وعاش بجنبه. وكان هؤلا يؤلفون فئة عالية ذات امتياز بين الريفيين فاذا أعيدوا إلى القرية عادت إليهم السخرة ، وكان ذلك عقاباً لهم

(٢) حرين : وذلك بعد إلغاء القنانة . وحينئذ لن يحتاج إلى موافقة الإقطاعي .

بالتبنّي . في تلك الحقبة ، لم يكن يُسمح بتزويج البنات خارج القرية. وذات مساء ، في الخريف — وكان المحصول قد أُدخل — إذن بكوزليخا تصل — كوزليخا (١) لقب أم دانيلو . كان أبي وأمي في المنزل الخشبي ، وأنا في غرفة المهملات بجانب البيت . أقبلتْ عليّ ، وكنت أعلم لماذا ، لأن أمي أخبرتني :

— مساء الخير ، يا بنت .

أجبتُ ، لكن دون أن أنظر إليها :

— مساء الخير .

قالت :

— لماذا تتجهّمين ؟ إن كنتُ أجيء فبدافعٍ حسن .

— كيف يجب أن تكون هيئتي إذن ؟

قالت :

آنيسيا ، أتقبلين الزواج من دانيلو ؟

قلتُ :

— لن أتزوجه .

— ولماذا ؟ هل هو سيء إلى هذا الحدّ ؟

فكررت :

لن أتزوجه .

ضحكت وقالت :

— هذا ما سنراه ؛ ستتزوجينه ؛ ليس الأمر لك ، في نهاية المطاف.

---

(١) كوزليخا : أي زوجة الخنزير .

دخلتْ المنزل الذي كان فيه أبواي وبعد أن حيّت والدي تحية طويلة ، قالت بابتهاج :

— إيفان سيميونيتش ، أعطني بنتَك لابني .

فضحك والدي وقال :

— ما عليك إلا أن تطلبي ذلك منها .

قالت كوزليخا من جديد :

— ايفان سيميونيتش أعطني بنتك لابني .

فقال أبي باللهجة المازحة التي بدأت بها كوزليخا :

— لقد أعلمتُها بذلك ؛ لكنها كانت تغتاظ عند كلّ كلمة .

قالت كوزليخا حينئذ :

— يكفي أن توافق أنت — لا فائدة من الكلام معها . وسآتي غداً بالخبز والملح . وسنعقد الصفقة ونشرب نخبها ؛ وسأحمل أيضاً هديةً للخطيبة .

ذهبت كوزايخا . دعاني والدي وقال :

— آنيسيا ، مَنْ الذي تفكّرين أن تتزوجيه ؟ لعله « بيير فيدوروفيتش » ، سيّدنا ؟

وتابع مزحه :

— هذا لا يعني أنني لن أزوّجك منه ، بل هو الذي لا يريدك.

— لن يتزوجّني هو وأنا لا أهتمّ به .

— هيّا ، فكّري . جميع البنات لابدّ أن يتزوجن . لسنا نحن الذين أنشؤوا الزواج بل الله . وعند الحاجة سنستغني عن موافقتك .

دخلتُ غرفة المهملات وأخذتُ أبكي . وفكّرتُ على النحو التالي :
« انتظار ميشيل غير ممكن إطلاقاً . و « دانيلو » ليس على ذوقي . لكن ليس لي طالبٌ آخر . ثم كيف أعارض المشيئة الأبوية ؟ » قلبّتُ ذلك كله في رأسي وبكيتُ.

— ٢ —

في الصباح ، ذهبتُ إلى المزرعة لأقوم بعملي . أقبل ميشيل عليّ ، وقال :

— صباح الخير .

قلتُ :

— صباح الخير .

جلسنا على مرتفع صغير ، وها هو ذا يبدأ الكلام كعادته :

— آنيسيا العزيزة ، فكّري جيداً . .

دنا مني ووضع رأسه على ركبتيّ .

قلتُ :

— ميشيل ، ستأتي كوزليخا اليوم ، وسنشرب كأس الخطبة . يجب أن تعلم ، يا ميشا ، أن خطيبي لا يعجبني .

— لماذا إذن تتزوجينه ؟

— لابدّ من الزواج . ولست أنا التي تتزوّج ضد مشيئة والديها .

صمتنا . استأنف كلامه قائلاً :

— يا آنيسيا العزيزة ، ستندمين أبداً على ذلك. لا تريدين أن تنتظريني ، وانظري مع ذلك كم أُحبّك .

ورثيت له .

كنتُ أعبث بشعره وأنا أبكي . وكانت عبراتي تسقط عليه كبيرة كالحمص .

— من المؤكد ، يا ميشا ، أن ذلك لن يتمّ ، يجب أن نتخلّى عن زواجنا .

وكان هذا كل شيء .

رجعت كوزليخا مساءً . فأويتُ ، مثل عشية أمس ، إلى غرفة المهملات . كان شاقاً عليّ أن أرى الناس . بمن سيزوجونني ؟ إنه ليس جميلاً ، وهو فظّ قليلاً ، بينما أنا جميلة ونشيطة . كنتُ أقول في نفسي : هو لا يساويني . كنتُ جالسة هناك ، وإذا بها تدخل وتضع في وزرتي نحو عشرين تفاحة ، وليبرةً من البسكويت ، ورغيفاً صغيراً مدوّراً مخبوزاً بالزبدة .

— خذي ، خطيبك هو الذي أرسل إليك هذا .

لم أقبلْها وقلتُ :

— لا حاجة بي إليها .

رميتُ كلّ شيء على الفراش وعدت إلى موضعي . فقالت كوزليخا :

— لمَ هذا التكبر ؟

ودخلت المنزل ، ورسمت علامة الصليب أمام الايقونة وحيت والديّ وقالت :

— ايفان سيميونيتش ، لماذا تسيء الخطيبة استقبالي ؟

قال أبي :

— لا يهمّ ، ستتزوج مع ذلك .

— هدايانا لا تعجبها ، وهي ترفضها .

— سوف نُدبّر الأمر . اتركي لها وقتاً .

اجتمع جميعُ الأقرباء ، والخاطبة الأمُ « كوزليخا » ، ووالد دانيلو . مدت ماما غطاء الطاولة التي وضعت كوزليخا عليها زجاجةً من الفودكا ومؤناً حملتها معها .

كان ذلك ، في الواقع ، « النظرة الأولى » (١)

أُخرجتُ من غرفة المهملات — وصلّى الجميعُ فصلّيت معهم وأنا أبكي ، بلا حراك . قال لي أبي :

— لمَ تبكين ؟ لست الأولى ولا الأخيرة . لا تربح البنات كلّهن الجائزة الأولى.ستعيشان سعيدين ، إن شاء الله .

رسم الجميعُ علامة الصليب.ملأ والدي كأساً صغيرة من الفودكا وحملها إلى والد الخطيب .

— على صحتك ، يا شريك المستقبل ، ومن أجل أن يعيش الخطيبان في المحبة والوفاق .

رفع أبو الخطيب كأسه وقال :

— لن أهينها .

وقال أبي بدوره :

— لن تطردها أنت ولن أتخلّى عنها أنا.

---

(١) النظرة الأولى : أي أول اتصال ، أول زيارة ، أول « نظرة » للبضاعة ، لأن الزواج كان شراء فيما مضى .

كان كل ذلك لتشجيعي . لكني كنت متشنّجة ، أكاد أختنق . أفرغوا كؤوسهم وأكلوا لقمةً واستأذنوا .

قال والد خطيبي :

— إلى اللقاء بعد خمسة عشر يوماً ، يوم المباركة . وسيطعم الجميع ويشربون .

وافترقنا على ذلك .

— ٣ —

من البديهي ، أن مشيئتي لم يُحْسَب حسابُها ؟ لقد سُلِّمتُ دون موافقتي . وفكرتُ : « شئتِ أم أبيتِ فسوف تتزوّجين . »

سافر أبي إلى المدينة مع أمي ، وباع اثنين وثلاثين ليتراً من الشوفان ، واشترى كلَّ ما يلزم . أدركت أن الزواج كان مقرّراً ، فأخذتُ أحضّر الهدايا وجهازي : فستانين ، وزرتين ، معطف فرو ، قميصين أحدهما بكميّن ، من القماش الرمادي ، تنورتين قصيرتين معمولتين بثلاثة أطوال من النسيج المختلف الألوان ، وشالاً أزهارُه الحمراء على أرضيّة بيضاء . وطرّزتُ منشفة أرسلتها إلى والد الزوج ، مع شال من الصوف الأسود لأم الزوج . ولم أنسَ أحداً .

جاء يومُ المباركة . وأتى أهل « موستوفايا» إلى قريتنا . قدّمتْ « كوزليخا» خمس جرار من الفودكا ، والمجمّدة ، ولحم الخروف ، والخبز الاسمر ، وذهب والدي إلى القرية ليدعو الأقرباء .

أما أنا ، فكنت جالسةً في غرفتي المظلمة ، أجترّ حزني ، مُعيرةً سمعي لكل ما كان يقال ويُفعل في المنزل . وصل الأقرباءُ ، وجلسوا

حول المائدة . قُطّعت الفطائر المحشوّة المجمّدة ، والخيار . قدّم والد الزوج الفودكا للمدعوين وقال :

— ليباركْهما اللهُ ولْيعنْهما على فعل الخير !

وشرب الجميع معه . وأُلقيتْ كلماتٌ أخرى . ثم قال أحدُ الحاضرين :

— أودّ لو أرى بضاعتكم .

— كيف لا ، هذا ممكن .

جاءت اشبينتي وأمي والخاطبة كوزليخا لإتمام زينتي حرصاً منهما على أن تكون مرتّبة . لم أكن أرغب في الظهور . ومع ذلك تقدّمتُ ليروني .

قال الحضور .

— بضاعة حسنة ، ومعجبة إلى أقصى حد .

بيد أني لم أشعر بالسرور لهذا المديح . كنت أقول في نفسي : « البضاعة حسنة ، لكن المشتّري غيرُ مناسب » . سلّمتُ على الحضور. ثم جاءت المباركة . وفعلتُ ما رأيته يُفْعَل في الأعراس الأخرى : ارتميتُ على قدمي أبي وقدمي أمي وبكيتُ . ثم رفعتُ صوتي ونحتُ النواح المعتاد كما سمعتُه وأضفتُ إليه شيئاً من عند نفسي.

— يا أبي ويا أمي ، يا من غذّياني ، شكراً للخبز وشكراً للملح. ها إن أبي يتنازل عني من أجل كأسٍ من ماء الحياة . ومعنى ذلك أني لم أكن خادمة ولا ربة منزل ترضيكما . أسلمتماني للغرباء ، وأنا صغيرة السنّ ، قبل النضج .

بكى والداي . حاول أبو الزوج وأمه تهدئتي . وقالت كوزليخا :

— يا آنيسيا العزيزة ، يا ولدي ، لن نتخلّى عنكِ ، ولن نعاملك معاملة سيئة .

ثم بدأت الأغاني . وهكذا انتهت حفلة المباركة . أما العرس فكان في اليوم التالي .

— ٤ —

تجمّع موكبُ العرس . ثُبّتتْ الجلاجلُ ، وزُيّنت أذنابُ الخيل وأعرافها ، ووصلت العربات إلى قدّام منزلنا . كانت اشبينتي قد ألبستني ، وعندما حضر الجميع ، أدخلتني المنزل وأجلستني إلى المائده التي تحلّقت البناتُ حولها . وظلّ أخي واشبيني واقفين .

وصل قبل الجميع الوصيفُ ومعاونه . كانا يحملان صاعاً من الشوفان . دخلا للمنزل ورسما علامة الصليب ، وسلّما سلاماً ماراً ، وسألا البنات مازحين :

— ماذا يمكنكن أن تفعلن هنا ؟

فأجبْنَ

— نحرسُ المنزل الذي اشتريناه .

— ونحن جئنا لكي نحصل عليه .

فردّت البنناتُ حينئذ :

— لِنَرَ ما الثمن ؟ (١) اشتريناه بمئة روبل ، بل بمئتين .

---

(١) لنرما الثمن : ذكرى حقبة كان الزواج فيها بيعاً وشراء . وفي هذا الفصل عن العرس ، تحل البنات محل أهل العروس ، ويتظاهرن بأنهن سيدات المنزل ولا يوافقن على البيع ، أي على عدم تسليم الخطيبة للخطيب .

ــ حسناً ! نستطيع أن ندفع ثلاثمئة أو أربعمئة .

وأخرجا أربع قطع من ذوات العشرين كوبيكاً ، ووضعاها على زوايا الطاولة الأربع ، وفي الوسط زجاجة فودكا ، ولحم الخروف والخبز . قال الإشبين :

ــ عندنا خطيبة لا تبقى فاتحةً فمها ، بينما زجاجتكم مفتوحة .

فوضعا خمسة عشر كوبيكاً على عنق الزجاجة قائلين :

ــ إذا كانت لا تبقى فاغرةً فمها فنحن نسدّ العنق :

ثم خرج الوصيفان ليُحضرا الخطيب ، ويأتيان به : أما أنا فكان وجهي مغطى (١) ، وظللتُ جالسةً دون أن أراه : شعرتُ فقط أنهما أجلساه بجنبي . وشُرع في الطعام ، في الخدمة على جميع جوانب المائدة ، وتملّكني المرحُ : ثم أخرجوني ليضعوني على مركبة العرس . حاول دانيلو أن يحملني ليضعني في موضعي ، لكنه لم ينجح في ذلك : لم يكن قوياً . رجا آندريه أن يساعده . قال له :

ــ آندريه ، ضعها فوقه .

فأغرق الجميع في الضحك :

ــ أنت تخدعنا متعمّداً ، ستفعل ذلك إن بذلت جهدك كاملاً .

أحسستُ بنفسي خجلةً وحزينةً . كنتُ أحبّ ألاّ أرى أحداً . انتصبت الخاطبةُ على المركبة ورمت بحشيشة الدينار (٢) فوق رؤوس الحاضرين وغنّت :

---

(١) وجهي مغطى : ذكرى الزمن الذي كانت فيه المرأة تظل محجبة أمام الغريب ، وحتى لو تزوجت .

(٢) ورمت بحشيشة الدينار : لم تعرف القرية الروسية خميرة غير حشيشة الدينار . وتخمره ينفخ العجين بسرعة . وحشيشة الدينار هنا رمز للازدهار والسعادة والخصب .

نزل غُبار الثلج
قليلاً جداً قليلاً جداً حتى كأنه ليس شيئاً ؛
وعلى هذا الغبار من الثلج
انتصب رجلٌ .
الصيادون في الصيد :،
وهؤلاء اخوةُ دانيلو :
لقد أخذوا جلد سمور
ليصنعوا منه معطفاً لدانليو
بمناسبة عرسه ،
كما أمر الله بذلك (١) :

دار الوصيفان حول العربات ، وهما يحملان الصورة المقدّسة . التفت الجميعُ إلى الشرق ورسموا علامة الصليب :

بكيتُ . فقالت لي البنات .

— آنيسيا ، كفّي عن تعذيب نفسك . أتظنّين حقاً أنه ليس بين الرجال من هو شرٌّ من زوجك .

تملّكني الاشمئزاز ، فلم أُجب : وقلتُ في نفسي : « من المؤكد أنني لن أعرف السعادة لا في البيت ، ولا في الحقول ، ولا في قلبي المسكين : »

وصلنا إلى الكنيسة . لم نلق الكاهن . كان لابدّ من الانتظار طويلاً . وصل الكاهن : وبدأ المرتّلون القدّاس : وعُقِد زواجُنا : انتهى

---

(١) بذلك : هذه الأغنية متداولة ولا يتغير فيها غير اسم الخطيب .

الاحتفال وكنتُ كالميتة ، وكنت أقول في نفسي « يجب الانتهاء بأقصى سرعة » .

— ٥ —

تمّ الزواج ، فدخلنا بيت الكاهن وسلّمنا عليه ، فقدّم لكل منا كأساً صغيرة ، وهنّأنا . ثم ذهبنا رأساً إلى بيت والديْ زوجي .قلبنا الفراء ، ارتدى كلٌ منهما واحداً ، وفرشا الثالث ليكون كالبساط . دخلنا وحيّينا منحنيين إلى الأرض . فباركانا مرةً أخرى . وقُدِّم لكل منا رغيف خبز أبيض وتفاحتان ، خبّأ دانيلو ذلك تحت قميصه . وأدخلْنا ، وفُسح لنا المكان على المائدة ، وأخذت النسوةُ يغنّين الأغاني المعتادة .

أعطى زوجي كلاً منهن عشرة كوبيكات . تعشّى الجميع في المنزل الحشبي ، ما عدانا نحن العريسين ، فلم نأكل مع بقية الحاضرين واقتادونا إلى غرفة منفصلة عن المنزل الحشبي حيث أُعدّت المائدة وفرش السرير .

أطعمتنا الخاطبة — الأم ومعها وصيف الشرف وسقيانا الخمر الأحمر (١) . شرب زوجي قليلاً منه ، ثم شرب الفودكا . أما أنا فلم أستطع أن أبلع شيئاً . وكان دانيلو يدفعني بمرفقه هامساً في أذني :

هيّا ! آنيسيا ، كلي ، كلي قليلاً .

لم أجبه بشيء .

---

(١) الخمر الأحمر : هو الخمر الأحمر الحلو الذي يستخدم للشركة الروحية .

اكتفيت بتذوق الخمر بأطراف شفتيّ . ورُفع الطعام ؛ لمّت الخاطبة الصحون لتحملها وأخذت تخلع عني ثيابي . ثم ودّعتنا قائلة :

— يجب أن يحب كل منا الآخر ، بين الصبايامين ، ليمنحكما اللهُ إياه !

وتركتنا . أحسستُ بالضيق ، وكدت أسقط . كان زوجي يثير اشمئزازي . في الساعة الخامسة جاءت الخاطبة الأم من أجل نهوضي ، وأخذت تصفّف شعري : تصفّفه على نمط النساء المتزوجات . وأحسستُ بالألم . وضايقني حلُّ جديلتيّ وجَدْلُ اثنتين بدل الواحدة (١) .

وأُخرجنا من الغرفة المنفردة إلى المنزل . كان جميع الأهل موجودين . نشروا على الباب صوفاً ؛ وكانوا يضربون الصوف ولا يَدَعوننا ندخل. كان ينبغي أن نشتري لنا مكاناً على الموقد . قدّمنا لهم الفودكا ففتحوا الباب . وكان هناك مدعوون آخرون خلفهم ، لم يبد عليهم أنهم تحرّكوا. كانوا يَتَبشّرون تبغهم : قدَّم لهم الوصيفُ الفودكا . فتركوه يمرّ :

كان هناك أيضاً عجوزٌ تسرد قفّازاً . كان ينبغي أن تُدفع لها الضريبة أيضاً.

بعد أن دُفع الآن كلُّ شيء ، أصبح المرور حراً . ففسحوا لنا على الموقد ، وقُدِّمت لنا دجاجةٌ بحسب المثل القائل : « لي الصدرُ ولك العجز لكي يحب كلٌّ منا الآخر : » (٢)

ذقتُ الدجاجة وإن لم أشتهها : ثم فسحوا لنا على المائدة . وبدأ الغداء. وُزّعت حلوى العرس والهدايا بين الأهل . دام الاحتفال ثلاثة أيام .

---

(١) وجدل اثنتين : الفتاة تحمل جديلة واحدة ، أما المرأة فتحمل جديلتين .

(٢) يرمز المثل إلى عدم قابلية الزواج للانفساخ .

كان كل شيء يضجرني ؛ لم يكن زوجي على ذوقي : في مساء اليوم الثالث، هربتُ ولجأتُ إلى غرفة المهملات المظلمة . وانفجرتُ باكية . كنتُ جالسة هناك وحدي ، وإذا بدانيلو . . .

قلتُ في نفسي : « يجب أن أتغلّب على نفسي ، إن قدري أن أحيا مع دانيلو ...

قال :

ـ لماذا ذهبتِ ؟

خبّأتُ وجهي بين يدي وتظاهرتُ أنني أصلح شيئاً في زينة شعري.

ـ هل زينة شعري جميلة . يادانيلو ؟

ـ كيف لا ! ليس هناك ما هو أحسن منها ، إنها تناسبك .

كان سعيداً لأنني كلّمتُه . أخذ يديّ ، وداعبهما . وتركته يفعل. ومنذ ذلك الوقت ، ألفتُه .

ـ ٦ ـ

بعد ثلاثة أيام ، عاد كل واحد إلى بيته . وذهب زوجي يشتغل في السخرة . وعندما سافر المدعوون ، قالت لي حماتي :

ـ آنيسيا ، رأسي يؤلمني ، اذهبي وردّي الصحون لمن أعارونا إياها . وأنا سأنام :

قلت :

ـ حسناً ! سأفعل ذلك .

وذهبتُ أعيد الصحون .

ما ان عدتُ إلى البيت ، حتى بدأت من جديد :

— آنيسيا ، هيّا ، اذهبي وأوقدي الموقد ...

كانت تظل مضطجعة : واستمرّ الأمرُ كذلك كلّ يوم . فاذا أردت أن أقوم باصلاح شيء لنفسي أرسلتني لملء الموقد وتهيئة الطعام. وذات يوم قلت لها :

— هيّا ، أيتها الأمّ العزيزة ، اوقدي الموقد .

فقالت :

— لا ، يا ابنتي : رأسي ممزّق . احمي الموقد كما تشائين : ياإلهي ، لقد طالما قمتُ بهذا العمل .

العريسان ، عندنا ، مُعفيان من الأعمال الصعبة طوال السنة الأولى. أما حماتي فأخذت تبعث بي يميناً وشمالاً مكانها . وكانت تقضي وقتها في السرد . كان ذلك ظلماً . ومع ذلك فلم أقل شيئاً لزوجي : ولم أكن أتذمّر من العمل : لكن لا يمكن عمل كلّ شيء . وكان عمل المنزل كله على ظهري ، فأثقل ظهري . زوجٌ لم يكن على ذوقي ، وإرهاق العمل : وليس هذا كل شيء ، بل كان هناك شيء آخر .

عاد أخو « كوزليخا » المجنّد « إيفان » من الخدمة في لحظة زواجي. واستقرّ في المنزل ولم يكن يخرج منه . كان زوجي في السخرة دائماً ، وإيفان في البيت دائماً .

ذات يوم اجتمعنا لحفر حفرة من أجل نَقْع القنّب . كنت أستعد للذهاب ، فقالت لي حماتي :

— آنيسيا العزيزة ، البسي تنورتي وقميصي ، وضعي شالي الجميل.

لماذا أصبحت العجوزُ فجأة لطيفةً معي إلى هذا الحد ؟ فوجئت كثيراً ، تزينتُ وربطتْ هي نفسها شالاً أحمر على رأسي . كنت مدهوشة . لم أدركْ ما الذي أمكن أن يلطّف حماتي . ذهبتُ إلى العمل . وانتهينا من عمل الحفرة . وعندما وصلتُ إلى البيت ، لم يكن الرجال قد عادوا بعد ، وكانت العجوز وحدها . قالت لي :

ـ يا آنيسيا العزيزة ، عندي شيء أحب أن أقوله لك :

ـ وما هو ، يا ترى ؟

ـ هو أنك تعجبين أخي كثيراً : وقد حمّلني هذه الرسالة : إنه مستعدّ لكل شيء من أجلك ، لكن يجب أن تحبّيه :

انتفضتُ كالملسوعة . لم أصدّق أذني : حماتي تحثني على السيئات .

ـ ماذا تقولين ، يا أمي العزيزة :

لكنها أمعنت في حثّي ، فقلت :

ـ كيف هذا ، أيمكن أن ننكث بالعهد ؟

وانفجرتُ باكية

ـ طيّب ، طيّب ، عيشي كما تشائين

خلعتُ على الفور التنورة والشال ورميتهما . فغضبتْ وخرجت من المنزل . لم أقل لأحدٍ شيئاً : في هذا الوقت ، كنت أحتفظ بأسراري. أما هي ، فسَبّبت لي ألف مضايقة ، منذ هذا الوقت ، بسبب رفضي.

ـ ٧ ـ

لم أعرف الراحة بعد ذلك . وصارت « كوزليخا » تنغّص عيشي بكل مناسبة . وكانت تهدّدني بأنها ستثير الخلاف بيني وبين زوجي . وتقول :

— سترين ما سأفعله ؛ سينزع عنك حتى جلدك .

ورويتُ له عني جميع أنواع الفظاعات . لكن دانيلو الذي كان يخافها ولا يحبها ، لم يكن يصدّق ما كانت ترويه له .

مضت ثلاثةُ أسابيع . تظاهرت حماتي من جديد بأنها تكنّ لي المودة ، وصارت تلاطفني . وذات يوم ، أرادت أن تذهب فيه إلى المدينة ، قالت لي :

— أليس عندك ، يا آنيسيا العزيزة جوربان جديدان تلبسينهما في العرس ؟ اعلمي أننا سنحضر عرساً في قرية مجاورة .

قلت :

— لا ، يا أمي .

— هذا حقاً ما خطر ببالي . حسناً ! أنا ذاهبة إلى المدينة : أتريدين أن أشتريهما لك ؟

— ليس معي مال : أستطيع أن أذهب بسرعة إلى والدي وأطلب منه المال :

— حسناً ! اذهبي . لكني لن انتظركِ : ما عليك إلاّ أن تسلمي المال إلى « ماتيو بازيكين » : سيلحقني بسرعة :

كان « بازيكين هذا » جاراً لنا ، فلاحاً عزباً . أسرعتُ إلى والدي ، فأعطاني أربعين كوبيكاً . صادفت « ماتيو » ذاهباً إلى المدينة ، فأعطيته الكوبيكات وقلتُ له :

— سلّم هذا المال لأمي لتشتري لي جوربين . وقد وعدت بأن تشتريهما لي .

– وأين أجد أمّك في المدينة ؟ الأصحّ أن تقولي لي ما الجوارب التي تلزمك ، وأستطيع أنا أن أشتريها لك .

– لعلك تفهم في هذا الشيء !

– أتظنين أنني لا أستطيع اختيارهما ! هيّا ، قولي لي ما يلزمك .

شرحتُ له ما يلزمني ، وذهب إلى المدينة . اشترى الجوربين وسلّمهما إلى حماتي . .

حوالي المساء ، كنتُ قد هيّأت العشاء عندما عادت « كوزليخا » من المدينة . سحبت الجوربين من كيسها وسلمتني إياهما . وقالت :

– ها هما جورباك .

أجبتُ :

– شكراً . أأنتِ اشتريتهما لي ؟

– كيف ، أنا ؟ ومن أين آتي بالمال ؟ ماتيوشكا ، (١) حبيبك اختارهما وأرسلهما لك .

ذهلتُ ولم أستطع أن أنطق بكلمة : كان زوجي وأبوه وآخرون جالسين هنا ، إلى المائدة . انتصرت « كوزليخا » أخذت تعيّرني بسلوكي قائلة :

– ها هي على حقيقتها ، هذه المرأة الشابة الفاضلة . لم تمضِ سنةٌ على زواجها ، وتقبل من عشيقها الجوارب .

قلتُ :

– ماذا تقولين ؟ أنتِ نفسكِ لم تشائي أن تنتظري لتأخذي المال ، وقلتِ لي أن أرسله مع ماتيو .

(١) مايتوشكا : تصغير « ماتيو » للتحبب .

كنت عاجزة عن أن أضيف شيئاً .

قالت :

— كفى كذباً : لم أركِ قبل ذهابي إلى المدينة . مرّ « ماتيوشكا» على النزُل وقال لي : « خذي هذا ، احمليه إلى حبيبتي » ما فائدة التستّر ؟ أنتِ شديدة الوقاحة :

وإذا بوالد زوجي الذي كان يتمنّى لي الخير يرميني بنظرة خاطفة ويقول :

— اوه ! أيتها الكنّة الشابة ؟ ما أسوأ ما تفعلينه !

ظلّ دانيلو جالساً ، خافضاً رأسه كأنه لم يسمع شيئاً . أقسمتُ ، وابتهلت إلى الله ، وصرختُ معانةً براءتي : وقلت :

— في الحقيقة ، أبي هو الذي أعطاني المال ؛ أما روحي فلم ترتكب عملاً سيئاً مع « ماتيو» الشؤم هذا .

خرجتُ ودموعي تنهمر : فلحقَ بي زوجي ، وقال :

— آنيسيا ، أهذا صحيح ؟

قلتُ :

— لا شيء فيما قالته صحيح . فلأَمُتْ إن كان هذا صحيحاً : لا شيء ، حتى بالفكر . لا تصدّقها ، يا دانيلو ، فكل شيء عندها جائزٌ لتضرّني :

قال :

— أأصدقكِ أم أصدّق الأم ، لا أدري ؟

أحسستُ بأني جُرحتُ : وذهبتُ إلى الغرفة المظلمة وانفجرتُ باكية . كانت « كوزليخا » تزيد اضطهادها لي يوماً بعد يوم . كنتُ

أحس ّ جيداً أن لا راحة لي بعد . وكنت ألجأ ، بين وقتٍ وآخر ، إلى أمي العزيزة ، لأنسى ذلك كله : كانت رؤية هذا البيت وحدها ، بالنسبة إليّ ، لا تُطاق :

— ٨ —

وهكذا قضيتُ أربع سنوات : فاسيتُ ألواناً من الشقاء . وزيادة في شقائي ، صرتُ حاملاً . كنت ثقيلةً أجرّ نفسي : كنت شابة ، عديمة التجربة . وكان علي أن أستمر في العمل ، وكان يقع لي أن آكل لقمة أكثر من المعتاد . فتلومني حماتي على كل لقمةٍ أضعها في فمي :

كانت تقول :

— مالكِ ، يا فرساً لا تشبع ! إنها لا تكفّ عن إتخام نفسها إلا إذا خرج الحليبُ من منخريها.

نفذت قواي ونفذ صبري . وكنتُ أكرّر لدانيلو :

— إذا أحببتَ أن تستمر في العيش معي ، فلنسحبْ من هنا ما يخصّنا ؛ فاذا لم تشأ سافرتُ وحدي . أما أن أعيش مثل هذه الحياة زمناً أطول فلا ! سيُفضي بي الأمرُ إلى الانتحار .

لم يشأ دانيلو في البداية أن يسمع شيئاً مما أقول : لكنني صرتُ أردّد له شكواي أكثر فأكثر ، فأخذ يفكر هو نفسه في ذلك كله .

كانت الحياة التي فُرضتْ علينا تسوءُ من ساعة إلى ساعة : لا يمر يومٌ بلا إهانات . وصارت الحياةُ المشتركة مستحيلة :

قلت لدانيلو مرة :

— لن أقبل بعد الآن أن أعيش هكذا. هل ينبغي أن نتعذّب طوال حياتنا ؟ الأفضل أن نذهب ، وكيسُنا على ظهرنا : كلّ شيء أفضل من الحياة مع هذه المرأة .

فيجيبني دانيلو :

— اصبري قليلاً . وأنا أيضاً لي فكرتي : أن نطلب استحقاقنا ونذهب . أتعرفين « بازيل ناوموفيتش » ، إنه يدعونا إلى الإقامة عنده.

أفرحني هذا النبأُ . العيش في أي مكان ، على شرط ألا يكون مع « كوزليخا ». في الصباح ، ذهبتُ إلى زيارة « بازيل ناوموفيتش» . كان فلاحاً عجوزاً ، يعيش وحده مع امرأته ، وليس معهما أولاد . وصلت بيته . كان على علم بكل شيء ، وطاف بي على بيته : كان منزله حسناً ، وكان يملك أربعة عشر خروفاً، وحصانين ، وبقرة وعجلها : كان منزلاً يحتاج إلى من يقوم بخدمته ، وليس فيه من يساعد بازيل :

قال لي بازيل :

— آنيسيا ، تعالا واسكنا هنا . أنا عجوز ، ستحلاّن محلي في السخرة . أمّنا لي الراحة أؤمّن لكما الهدوء : كلُّ شيء ، بفضل الله ، وافر عندنا ، ولا ينقصنا الخبزُ.

عندما عدتُ إلى البيت أخبرتُ دانيلو بكل شيء . ففاجأتني « كوزليخا» وأنا أخبره :

— ليقلعكما الشيطان ! اذهبا حيث شئتما !

حاول العجوز أن يستبقينا . لكنه انتهى هو أيضاً بالرغبة في تصفية الأشياء المشتركة :

بدأت القسمةُ التي لم تمرّ دون الكثير من الآثام : وتدخلت الجمعية(١) وفّقت بيننا بغير وفاق . ولم نتلقَّ تعويضاً عن عمل دانيلو كله سوى عربة بالية ونعجة : وكان ذلك حسناً : كلّ شيء كان حسناً على أن نترك مكان الإثم هذا .

— ٩ —

بدت لنا الحياةُ عند « ناوموقيتش » حسنةً ، في بادىء الأمر .كنا نعمل للعجوزين وكأنهما أبوانا وكان العجوز وامرأته « نوسوكا» (كان هذا لقبها ((١) مسرورين بنا : وعندهما وُلد أول ولد لي : ولم أتعافَ أبداً من هذه الولادة الأولى .

هذا ما حدث : جرى ذلك بعد إلغاء القنانة بيد أننا كنا نذهب للخدمة ، كما كنا من قبل ، لنكسب عيشنا : وفي عشية أمس ، أُمرت النساء بتعشيب الشوفان في اليوم التالي. نهضتُ صباحاً وأنا متعبة ، أوقدتُ الموقد ، ورتّبتُ المنزل . لكن كان لابدّ من الذهاب إلى السخرة. قلتُ في نفسي : إذا لم أذهب فسوف يسألونني عن السبب ، ولا أرغب أن أصرّح بالسبب » : ذهبتُ مع النسوة ، وسبقتهنّ ، كان لم يكن شيء . فمازحْنني :

---

(١) بدأت القسمة : تجري القسمة بين أصحاب العلاقة ولاتتدخل الجمعية القروية إلا في حالة الخلاف .

(١) نوسوكا : الأنف الكبير .

ـــ لماذا تجرين ، يا آنيسيا ، مثل بقرة ذات قرنين ، أمام القطيع. ألا يخامرك الشكُّ في أنك قد تكونين حبلى :

قلتُ :

ـــ قد يكون ذلك مثلما أن البطة ليست رفيقة الدرب المناسبة بالنسبة إلى الخنزير . البطة تطير والخنزير يلزم الأرض :

أدركنا رئيسَ الأعمال ، فأرسل بعضاً من رفيقاتي لتعشيب الشوفان. وقال :

ـــ أما أنتِ ، آنيسيا ، فابقي لتساعدي المرأة التي تجرّ الشيلم إلى المخزن لجمع حبّه :

جررْنا ستة أكداس دفعة واحدة حتى المخزن الذي كان على ستة أمتار . بينما كنتُ أجرّ هذا الحمل أحسست في خاصرتي بوجع حاد : ثم أصبح ذلك مؤلماً جداً : لكني لم أشأ أن أظهر شيئاً . صرَفونَا ساعة الغداء ، فرجعنا إلى البيت : وأصابني ألمٌ شديد في الطريق حتى إني وقفت وجلستُ كي يزول الألم . وأردتُ أن أتابع طريقي ، فعاودني الألم ، وامتدّ من خاصرتي إلى بطني . قلت في نفسي : « تم الأمر ، جاءَ أوان الوضع » . وجدت العجوز وحدها في البيت . نمتُ في الغرفةالمظلمة تحسّنت حالي . اشتهيت أن آكل . ذهبتُ إلى الحديقة فاقتلعتُ بصلةً وقشرتُها.واشتهيت أيضاًشراب التفاح . لكن إحضاره كان شاقاً وفوق طاقتي : اكتفيت بأكل البصلة مع الخبز : فلما انتهى وقت الغداء ،جاءت أختي تبحث عني :

ـــ تعالي معي إلى السخرة :

قلت :

— هيّا ، دورُك الآن في نقل الشيلم وسأذهب أنا إلى تعشيب الشوفان مكانك :

قالت :

— اتفقنا ، هذا أو ذاك سيّان .

وتركتني ، أما أنا فلم أشأ أن أخبر أحداً بحالتي : وقد قيل لي : إنه كلما كثُرَ عددُ الناس الذين يعرفون موضع الآلامك ، وإن كان هذا لا يَعْنيهم ، اشتدت آلامُك . بقيتُ وحدي : ووصلت « تاتيانا »ابنة «نوسوكا» ، وكانت متزوجه ..

قالت لي :

— آنيسيا ، نظفّي لي رأسي ، إن كان لديك وقتٌ

قلتُ :

— لمَ لا :

ذهبنا إلى المنحلة : أخذتُ مشطاً ووسادة صغيرة : جلسنا : شعرت بمغص رهيب.انحنيت انحناء شديداً وجلستُ ، عاجزة عن الحركة .

— آنيسيا ، مالكِ ؟ هل قمتِ بمجهود وجررتِ شيئاً ثقيلاً ؟

أجبت :

— لا أهمية لهذا : الأمرُ عارضٌ :

وأخذت أفلّي لها رأسها : فلم أصل إلى منتصف الرأس حتى سقط المشطُ من يديّ ، وانتابتني آلام مبرّحة حتى لقد تأوهت صارخة :

— آه ! ياإلهي ، يا ربي !

نظرت إلي « تاتيانا » وقالت :

— آنيسيا ، هذا ابنُكِ آتياً ؛ سوف تلدين.
خارت قواي وأُنهكتُ وعمّ الوجع جسمي كله .
قالت :

— اذهبي إلى الاصطبل ؛ لن يراك أحدٌ هناك . وسألحق بك :

ذهبتُ إلى الاصطبل ، جلستُ ، وبقيتُ لحظةً جالسةً ، ثم ظللتُ برهةً مضطجعةً : لم يكن هناك ما أضعه تحت رأسي : نهضتُ ، وفجأةً .. كان كأن روحي أخذت تفارق جسدي . هل أنادي ؟ لا سبيل إلى ذلك . كان أولادٌ يلعبون قريباً من المكان ، ويحدثون ضوضاء ، ويصرخون بكل قواهم . فكّرت : « ما أسعدهم ، في حين أني سأقضي ، أنا . »

وصلتْ تاتيانا :

— حسناً ! آنيسيا ، هل أنت في حالة حسنة ؟

— اوه ! تاتيانا ! هذا هو الموت .

قالت :

— هذا ليس شيئاً ، في الحقيقة : جميعنا نعلم ما هو : وسوف يزول :

كان ذلك مؤلماً جداً : جفّت شفتاي.خلعتْ تاتيانا ملابسي : وذهبتْ لإحضار أمها ،

سمعتها تنادي :

— ماما ! هذه آنيسيا التي ستضع في الاصطبل .

— اوه ! ولمَ لمْ تقل لي شيئاً .

— ذلك لأنك ثرثارة : كنتِ ستروين كلّ شيء ، فلا تدعينها تضع وضعها بسلام : هيا ، يجب أن نساعدها .

جاءت إلى الاصطبل . قالت « نوسوكا» .

— آنيسيا ، كيف حال صحتك ؟

— يا عمتي العزيزة ، أنا أقاسي العذاب ؛ أنا منهكة

— هيّا ، آنيسيا ، اعترفي : إذا كان الله يُعذّبك ولا يخلّصك ، فربما كان ذلك لأنك لم تتوبي عن ذنوبك .

حينئذٍ أخذت أطلب صفحهما :

— يا عمتي العزيزة ، يا أختي العزيزة ، اغفرا لي أخطائي .

— آنيسيا ، الله يغفرُ لك :

وأخذتا تصلّيان :

— عجّلْ ، يا إلهي ، بوضعها ويَسّره ، واغفرْ لها خطاياها.

بالرغم من ذلك ، لم تسكن آلامي : حينئذٍ ، طلبتُ ، في فكري ، مغفرةَ خطاياي من « كوزليخا » ، ومن أمي ومن زوجي ، واعترفت بذنوبي أمام الله . وإذا بالآلام تعود إلي ، فأسقط على ظهري ، وتغيم الدنيا أمام عيني ، وأفقد وعيي ، وتصطك أسناني بعضها ببعض فلا أستطيع فتح فمي . وفجأة سكن ألمي : فقلتُ : « عجباً ، لقد غفر اللهُ لي . فتحتُ عيني . انزلق الولد على الزبل فتلطّخ به : وما سُمع له صوتٌ إلا بعد لأيٍ ، صوتٌ كزقزقة الكتكوت :

كنتُ منذهلةً وفرحةً في الوقت نفسه : كان رأسي مشوّشاً ، ولم أكن أفهم شيئاً : أحسستُ فقط أنهما تحاولان نقلي ولا تستطيعان :

قالت أختي :

— ماما ، ماذا جرى لآنيسيا : إنها شديدةُ الشحوب :

قالت « نوسوكا» :

— يجب أن تُنقل إلى المنزل ، وأن تُستدعى القابلة : مرّت نصفُ ساعة ، فعاد إليّ وعيي : ورأيت أمامي طفلاً محمولاً بين ذراعين .

فقالت لي نوسوكا :

— آنيسيا ، لنعدْ إلى المنزل ، وستلزمين الفراش . سيرحمك الله ، وسنعقد صرّة الوليد كما ينبغي .

غُطّيتُ بقفطان وأُخذتُ إلى المنزل . لكني أنا الذي سندت الولد. كان يستهلّ بهدوء :

ساعدتاني في الوصول إلى المنزل ؛ وأضجعتاني . ظللتُ مستلقية قليلاً ، ولم أعد أحسّ بأي ألم . ولم تُعقد صرّة الطفل : ولم يكن في المنزل مَنْ يفعل ذلك :

— ١٠ —

وهاهو « دانيلو » يصل . وسمعتُه يسأل :

— ماذا وهبنا اللهُ ؟

أجابت « نوسوكا » :

— «سكفورتسوف » صغيرة .

كان سكفورتسوف اسم عائلتنا .

قال :

— آه ! هذا حسن ، لأن الله هو الذي وهبها .

وسمعتُ نوسوكا تضيف :

— أحبّها باعتبارها هبة الله . الولدُ الأول ، إن كان بنتاً أم صبياً سيّان ، ثم أسرع وائتِ بالقابلة :

ذهب « دانيلو » راكضاً .

غابت الشمسُ ، ورجع القطيع ، وأنا ما أزال متمدّدة بلا حراك، والصغيرة بجنبي ، ولم تُربط صرّتُها : جاءت أمي الحقيقية إلي . فبكينا معاً . وإذا بدانيلو يدخل ويقول :

ــ لم أجد قابلةً : قابلةُ قريتنا في الاحتفال ، على سبعة فراسخ من هنا . حينئذٍ ذهبتُ لآتي بقابلة فيكولسكي ؛ فوجدتها مسافرةً إلى المدينة.

قالت أمي :

ــ ماذا نفعل ؟ لم أربط صرّةً في حياتي :

وكذلك أبت تاتيانا أيضاً أن تربط ، وظلّت واقفة بلا حراك :

ــ ماما ! افعلي ذلك أنت ؛ أنتِ أكبرنا سناً .

ظلت « نوسوكا» صامتةً تفكّر . وقالت :

ــ هيّا ! ليمنحني اللهُ الشجاعة ! سأفعل ذلك .

وتناقشت النسوةُ كيف ينبغي أن يفعلن : وتخلّصن من هذه الورطة كما استطعن : وقدّمْن لي أيضاً العناية اللازمة وغسلن الوليد ولففْنه. فلما رتّبْن كل شيء سمحن لدانيلو أن يدخل . اقترب ، ونظر إلى الصغيرة، وما أعظم الفرح الذي نظر به إليها ، يا إلهي ! وبعد أن أمعن النظر فيها ، خرج وعاد بزجاجة فودكا وملأ أقداحاً صغيرة ، لكل واحدة قدحاً . وقدّم القدح الأول لنوسوكا .

ــ أتسمحين لي بأن أهنّئك .

قالت :

ــ نعم ، هنّئنا ، نحن العجوزين ، إذ صار لنا حفيدة ، وصار لك بُنيّة .

ثم انحنى كلٌ أمام الآخر وأفرغا كأسيهما . هنّئوني فأحسستُ أنني أكثر ابتهاجاً : وخرجت النسوة من المنزل ليبحثْن عن شيءٍ ما. وظللنا وحدنا ، دانيلو وأنا . دنا مني ونظر إليّ ، بحنانٍ بالغ ، وسألني :

— آنيسيا ، يا عزيزتي ، هل سكن ألمُك ؟

قلتُ :

— لم يبق الآن بي شيء هام ، حالتي حسنة :

— لكن مَنْ نختار إشبيناً وإشبينة .

— مَنْ تشاء :

— رأيان خيرٌ من رأيٍ واحد .

قلت :

— إن كان الأمر كذلك فلا تؤجل ذلك . اذهبْ في الحال إلى «كوموتوفو» واطلبْ أن تكون « ناستاسيا» إشبينة ؛ أما العراب فليكن « ميشيل » الذي يعمل عند السيد .

كان طلب ميشيل فكرةً من عندي لأنه قال لي ذات يوم :

— لم تشائي أن تتخذيني زوجاً ، لكن لنرتبطْ ، على الأقل ، بطريقةٍ ما . اتخذيني إشبيناً (١) ، في ذات يوم من الأيام .

لم أقل قط لزوجي أن ميشيل أراد أن يتزوجني .

قال دانيلو :

— طيب ، حسنٌ ، أوافق على ذلك ؛ وسنطلب منهما ذلك .

أمسك بيدي ، ولم أسحبها . سرني أن يمسك بيدي

---

(١) اتخذيني اشبينا : هذه الأشبنة تخلق علاقة روحية تلغي الأمل في أن يكون أحدهما للآخر في يوم ما .

تحدثنا ، نظرت إليه ، ومنذ هذه اللحظة أخذتُ أحبّه : كان ذلك كأن نفسي قد تخفّفتْ من شيء كان يضغط عليها .

— ١١ —

في اليوم التالي ، ذهب دانيلو ليُحضر الإشبين والاشبينة والكاهن ، وليدعو الأهل : انشغلت « نوسوكا» وأمي في إعداد كل ما يلزم للعماد والوليمة . وضعوني في المنزل وأخفوني خلف ستار عريض .

وصل الكاهن والشماس وخادم الكنيسة عند الظهر . وضع سطلٌ تحت الايقونات لتغطيس البنت . ثبّت خادمُ الكنيسة ثلاث شموع وأشعلها . واجتمع الأهلُ والإشبين والإشبينة ، وبدأ العماد . كنت أنا مضطجعةً ومتوارية خلف الستار الذي كان يمنعني من أن أسمع كل شي ، وأن أراهم . وكنت أقول في نفسي : « هذا مضحك . فميشيل بدلاً من أن يصبح الزوجَ ، أصبح الإشبين . » عُمّدت البنتُ وأطلق عليها اسم « أغرافينا » . قُدّم الغداء للكاهن وخادميْ الكنيسة . وقُطّع سمكُ الرنكة والسمك المملح ، والخُبز الأسمر والفودكا . أكلوا من ذلك وشكروا وانصرفوا . وكانوا قد أُعطوا أربعين كوبيكاً للعمادة ، وعشرين للشموع .

وبعد أن ذهبوا ، أُعدّت ثلاث موائد للأهل . وقُدّم لهم مرق الملفوف ، ولحم البقر المغلي ، ومرق الشعيرية ، والفودكا . كانوا خمسة وعشرين ، وكانت حماتي بين الحضور . لم أكن أحب أن تكون « كوزليخا » حاضرةً في الاحتفال ، لكن الآخرين قالوا إن ذلك واجب ،

فلم أعترض ، ولذلك دُعيتُ مع الآخرين . جاءت « كوزليخا » ورأتني ، قبل الغداء . وقالت :

— مرحباً ، آنيسيا ! أهنئك بالسلامة ، وبالبنت . عسى أن تكبر وتسعد .

أجبت :

— أشكرك بكل تواضع .

جلست كوزليخا ألى المائدة . قدّمتْ القابلةُ وعاءً مملوءاً بالبرغل ، وغطّته بقماشة بيضاء ، وحطّتْ فوقه ملعقتين . كانت يد الملعقة الأول موجّهة إلى الصورة المقدّسة ، ويد الثانية نحو المائدة . قالت :

— والآن ، يجب التعويض عن ثمن البرغل .

وضع كل واحد قطعة من النقود في الملعقة . وكان المال الذي وُضع في الملعقة المتجهة بيدها إلى الأيقونة من حظّي ، أما الذي في الملعقة الأخرى فكان من حظ القابلة . وكان أبي أول من نقّط ، ثم نقّط الآخرون ، كلٌ بحسب طاقته . قُدِّمت ملعقتي لي ملأى . عدّت أختي النقود : كان فيها ستون كوبيكاً لي . أما القابلة فوجدت ثلاثين . ومالبثت أن أمسكت بوعاء البرغل وحملته . فضجّ الضيوف قائلين :

— آه ! المحتالة ! تعرف كيف تحتال ، باعتْنا برغلها ، لتأكله وحدها !

حملت القابلةُ الوعاءَ حقاً ، لكن لكي تملأ القصعات التي جاءت بها وحطّتها على المائدة .

حينئذ ملأ الإشبين ، ميشيل ، ملعقة بالبرغل ، وملعقة أخرى بالزيت ، وملّحهما ، وأضاف شيئاً من الفودكا ، وخلطهما ثم قدّم

ذلك كله لزوجي . وقال :

ــ خذْ ، ذقْ هذا .

قال زوجي :

ــ كيف ، يجب أن أذوق هذا الشيء الفظيع ؟ إن حنجرتي تأبى

ــ ايه ! هذا واضح ، يا أخي ، أنك ان تحب امرأتك ، لأنك او أحببتها لابتلعتَ هذا دفعةً واحدة :

لم يجب زوجي . حمل البرغل إلى شفتيه ، وأكل ، في البدء ، قليلاً منه . ثم أكل كل شيء ولحس الملعقة . ووضعها على المنضدة ، واتكأ بيده عليها رافعاً ذراعه وقال :

ــ لتكبرْ ابنتي إلى هذا الحدّ !

كنت ما أزال مستلقية . ابتسمتُ. سرّني أن زوجي أظهر لميشيل مدى حبّه لي . قُدّم ماءُ الحياة للجميع . ثم نهضوا عن المائدة ، ورسم كل واحد علامة الصليب . شكر المدعوّون حسنَ الضيافة التي لقوها وعادوا كلٌّ إلى بيته .

لم يبق سوى الأهل والإشبينين . قُدّمت فطائر محلاة بالأباريز والنعنع ، وحلوى جافة وسمك . نحن الذين جئنا بالسمك . وكانت سمكة جميلة . وبدأ الأكل من جديد . وظلّ الحاضرون زمناً طويلاً على المائدة يتحدّثون ويشربون . وأخذ مني النعاس . ولم نفترق إلا في الليل .

نهضتُ في اليوم الثالث . كنت شابة ، ومن المعلوم أن الشباب لا يحب أن يظل نائماً . فذلك يضجره . ثم من الذي سيقوم بأعمال المنزل ؟ لم يكن هناك من يقوم بها . رآني « ناوميتش » وقال لي :

ــ آنبسيا ، كيف حال صحتك ؟

أجبت :

— حسنة .

— إذا كانت الصحة حسنة ، فكلُّ شيء حسنٌ إذن . ساعديني قليلاً : يجب أن نخرج المناحل من الحظيرة .

قلت :

— هيّا .

لم يكن بوسعي أن أقول لا صراحةً . فذهبنا إلى الحظيرة كان يمسك بذراعي ، وعلى ذراعينا المجتمعين حملنا المناحل (١) . نقلنا خمس عشرة منحلة . كان ذلك شاقاً جداً علي : أخذت ذراعاي وساقاي ترتجف. وكنتُ طوال الوقت مشرفة على السقوط ، منهكةً . أما هو فلم يأبهْ لذلك ، ولم يجلْ بخاطره أن المرأة تضعف بعد الوضع . حينئذٍ تَلفْتُ تماماً . ولم يتسنَّ لي أن استردّ عافيتي . كانت العادة ، في زمن القنانة ، ألا تُرسل المرأة إلى السخرة إلاّ بعد ستة أسابيع من الولادة ؛ لكنني كُلِّفتُ بجميع أصناف العمل قبل أن تنقضي أربعة أسابيع . كان الكلأ قد بدأ حشّه ، وبكّر الحبُّ في هذه السنة . واستعجل الناسُ في أعمالهم ؛ وكان لي في كل عمل نصيب . كنتُ آخذ الطفلة معي . وقد عمل لي دانيلو حمّالة ليعلّق السرير بها . كانت الصغيرةُ عاقلةً . وكانت تصرخ كثيراً ، في بعض الأحيان ؛ لكني كنت أعطيها ثديي حينئذ . وأرتّب لها لفافاتها فتنام . كنت أهزّ السرير هزّةً أو هزتين ثم أتركها إلى العمل . وألقي نظرة إلى الخلف ، كانت الريحُ تحلّ محلي وتهدهد الطفلة . كان

---

(١) حملنا المناحل : كانت المنحلة تحفر في قرمة الشجرة ، ولذلك كانت ثقيلة .

ذلك يدفعني إلى الابتسام ، فأقول في نفسي : « لا حاجة إلى خادمة ، في الحقيقة ! »

كانت النساء الأخريات يعملن حتى الإرهاق ؛ فاذا أعياهن التعب جلسن وأخذن يلاعبن غروشكا ، ويعلنّ :

— لطيفة ابنتُك ، يا آنيسيا .

كانت الطفلة ظريفة ، في الواقع . لكن بطني بدأ يؤلمني .

— ١٢ —

لاشك أن الحياة مع ولدٍ لدى ناوميتش أصبحت صعبةً علي . بيد أنه كان من الممكن أن نألفها . لكن « كوزليخا » ، كوزليخا ذاتها. ذاتها دائماً ، أفسدت علاقاتنا مع الرجل وبخاصة مع المرأة. نعم ، كوزليخا هي التي أفسدت كلّ شيء . لم تكن تطيق أن ترانا نعيش سعيدين ؛ كان ذلك يُسقمها . كانت الغيرةُ تنهشها.

وما جرى هو الآتي : بدأنا بقلع الطاطا . التقيتُ كوزليخا العجوز « نوسوكا» . فأخذت توقظ شكوكها قائلة :

— يا اشبينتي ، هل ينبغي أن أقول لك هذا الخبر ؟

— قولي .

— كأنك حين نراك ، يااشبينتي ، لا تلاحظين ، في الحقيقة شيئاً. تجري الأمور تحت عينيك ولا ترين ؟

— لا أرى ؟ لا أرى ماذا ؟

— حسناً ! عجوزُكِ ؟

— ماذا ؟ عجوزي

— ماذا ؟ اعلمي أن المسعورة آنيسيا تحبه ، عجوزكِ ،

— دَعْكِ من هذا ، يا اشبينتي . ولماذا تحبه ، في الحقيقة . ذراعاه متعفنتان ، وفي ساقيه جروح ؛ إنه مريضٌ جداً ، بينّما هي شابةٌ وجميلة .

— السبب ؟ المال . سيترك لها البيت كله .

إذا كانت « كوزليخا » خبيثة ، فقد كانت « نوسوكا» حمقاء . شوّشت « كوزليخا » رأس « نوسوكا» فصدّقتها على كلامها . وعندما كان العجوز يخرج إلى الفناء ليُصلح شيئاً وهي تعلّق القمصان ، كانت العجوز تراقبه بعينها . ولم يسيء الظنّ هو ، فقد بلغ السبعين . أو أنه كان يقول لي أحياناً : «آنيسيا ، لنذهب غداً إلى الغابة كي نحتطب » ، وكان يتعذّر علي أن أقول لا ، إذ كنت سأوصَفُ بالخمول ، وكنتُ أجيب : « حسناً ! فلنذهب . » وكنت أرى وجه « نوسوكا» يتغيرّ لونُه .

— اذهبْ إلى الغابة غداً مع حلوتكَ ؛ لكن اذهب مبكراً ، ولا يرينّاكَ أحدٌ !

فاذا رفضتُ آنذاك ، غضب الرجل .

— لست دابةً للركوب : لن أذهب لأجهد نفسي وحيداً بينما تتفرّجين أنتِ عليّ .

ذات يومٍ اختفى عجلٌ . فطلب إلي الرجلُ العجوز أن أذهب وأبحث عنه . ولم أذهبْ ، فغضب :

— هيّا ! تحركي ! يجب أن نعثر على الحيوان .

فتصرخ « نوسوكا» .

— اذهبْ ، اذهب وابحث معها . إن ذهبتَ وحدك عدت بسرعة !

أعيتني الحيلةُ ، فذهبنا نبحث عن العجل ، أنا في جهةٍ ، وهو في جهة أخرى . وعدت إلى البيت دون العجل . ولم يكن الرجل قد جاء بعد . وإذا به يأتي بعد قليل فتلاقية « نوسوكا » وتقول له :

— أيها العجوز الكريه ! هل وجدتَ ضالّتك ؟

اشمأز من عودته دون العجل ، وثارت ثائرته على امرأته : وظنت أنه أراد أن يخدعها

— آه ! أيها العجوز المسن ، ليس العجلُ ما يشغلكَ ، بل التي اتّخذتها صديقةً لك .

فبصق الرجلُ من الاشمئزاز .

— أف لك ، أيتها العجوز الخبيثة ، لقد فقدتِ صوابك تماماً.

وخرج .

منذ هذا اليوم ، فارق الوفاقُ البيتَ : وكان ذلك بداية لحياةٍ مكدّرة : وكان عليّ أن أقاسي كثيراً من الأشياء ، لكنني لم أكن أشكوَ لدانيلو . وكان يقع لي أن ألجأ إلى البيت عند أمي ، وأن أبكي : وأقول لها :

— ماما ، يا عزيزتي ، نجوتُ من الذئب لأقع بين أرجل الدب .

— ١٣ —

أفسدت « كوزليخا » إذن ما بيننا وبين العجوز « ناوموفيتش » كان لابد من الانفصال عن هؤلاء كما انفصلنا عن الآخرين من قبل ، وكان لابدّ من تصفية الحساب مجدّداً بعد سنة . جُمعت جمعيةُ القرية لتبتّ في حصتنا . وقرّرت أننا يجب أن نتسلّم سبعين روبلاً عن عملنا .

لكن حُسمَ من حسابنا ثمن ما قبضناه أُثناء السنة على شكل ملابس : فرويّة دانيلو ، جزمته ، قميص نوم لي وأشياء أخرى تافهة : ومن السبعين روبلاً لم يبق لنا سوى ثمانية :

تركنا العجوز وزوجته . أقمتُ مع الصغيرة لدى أهلي . واشتغل دانيلو عند السيّد الذي كان يسكن على ثلاثة فراسخ من هنا . .ما كان أتعس حياتنا ! واشتد المصابُ عندما مرضت الصغيرة .. وعبثاً أخذتُها إلى امرأة كانت تعرف النباتات الطبية ، وعبثاً رششتها لأحميها من العين الشريرة ، إذ لم ينجعْ شيء فيها. كانت تظل أياماً كاملة دون شراب أو طعام ، وأخذت تذبل :

ذات يوم ذهبت أمي إلى الحقل لحَزْم الشوفان . بقيتُ وحدي في البيت وقلتُ في نفسي :

— هذا مخجل : أمي العجوز تشتغل وأنا لا أساعدها .

وضعتُ « غروشكا» على السرير ، عند المدخل ؛ أعطيتُها ماءً لتشرب : كانت شفتاها قد جفّتا . وبقيتا مزمومتين . اتجهتُ إلى الباب ، لكن قبل أن أخرج ، ألقيتُ نظرة خاطفة على الطفلة : كانت غروشكا متمدّدة ، مغمضةً عينيها الجميلتين . حزنتُ كثيراً. وانهمرت عبراتي وقلتُ في نفسي : « لن أذهب إلى الحقل ، كيف أتركها ؟ » .

رجعتُ ، وجلستُ قربها : لكن مصادفة مؤسفة كانت كأنما تترصدني. لقد أرسلت أمي مَنْ يطلبني على وجه السرعة ، وهي تطلبُ إلي أن أذهب لمساعدتها . لا حيلة لي . تركتُ للصغيرة ما تشربه ، وذهبتُ . ذهبتُ في طريقي دون أن أرى الدرب : أعمتني الدموع وصلتُ إلى الحقل ، وأخذت مكانَ أمي ، وصرفْتُها إلى البيت ، وأخذتُ أحزم حزم .

الشوفان . انشغلتُ هكذا ساعةً عندما انهمرت سحابة بمطرها علينا. فكّرتُ : « آه ! ليت الله يُرسل علينا شيئاً من المطر ، عند ذاك سأترك الشوفان وأعود إلى جنب غروشكا . » انفجرت السحابةُ الثقيلة ، وهطل مطر غزير : تركتُ عملي كما هو ، وعدتُ الى البيت : أقبلتُ على ابنتي . تركت المسكينةُ رأسها يتدلى من حافة السرير ؛ كانت عيناها بيضاوين ، وشحب وجهُها فغدا كالتراب . أرسلتُ صرخةً :

– ماما ! غروشكا تموت .

هُرعت أمي : وقالت :

– ليكن المسيحُ بعونها : دعيني أعمل .

أخذتها ، ووضعتها في مكانها على ظهرها ، وصببّتُ ماءً في ملعقة قدّمتها لها . لكن الصغيرة لم تفتح شفتيها : فقدت قواها كلها . وضعتُ صورةً مقدّسة عند رأس سريرها وأشعلتُ شمعة عرسي . جلستُ بجنبها وتأملتها : خفتُ أن أبكي خشية ازعاجها ؛ لكن إذا بدموعي تنهمر وحدها ، دموعٌ كالبرد : قلتُ في نفسي : « أود لو كنت مكانها أتألّم بدلا من أن أرى حبيبتي تتعذّب . »

لم يطل ألمُها لأنها ماتت .

رسمتُ علامة الصليب وسجدتُ ثلاث سجداتٍ وباركتُها : ساعدتني أمي على إلباسها وعلى وضع الجسد فوق مقعد تحت الصور المقدّسة وذهبت إلى النجار وطلبتُ نعشاً . ولما انتهيتُ من ذلك ، ذهبتُ كي أحضر دانيلو من القرية التي يعمل فيها : وجدته في فناء السيد يقطّع الخشب .

— دانيلو ، ألم تعرف شيئاً ؟
قال :
— لا ، ماذا جرى ؟
— ابنتنا الصغيرة الغالية راحت إلى السماء وتركتْنا .
ألقى فأسه وضمّ يديه . وقال :
— متى كان ذلك ؟
قلت :
— اليوم ، هذا الصباح .
وانهمرت دموعي . قال دانيلو :
— لذلك كنتُ مغتماً كل هذه الصبيحة وفكّرتُ في العودة إلى البيت

سألني إن كانت قد تألمت كثيراً وكيف مرضتْ : رويتُ له كلّ ما جرى : قال :
— آنيسيا ، لم نوفّق في شيء : لن يكون لنا أبداً مثل هذا الولد .
وانفجر منتحباً بحرارة ، هو أيضاً .
طلب دانيلو من رئيس العمل الإذنَ بالعودة إلى البيت . ورجعنا معاً لدفن غروشكا .

— ١٤ —

قضيتُ الصيف عند أهلي . وأخذنا ، دانيلو وأنا ، نخطّط : كيف تفعل ليكون لنا بيتنا
في الخريف ، قبض ما استحقّه عن عمله . وافترض مالاً ، وبدأنا تأسيس بيتنا . اشترينا في « كريلتسوف » ، على سبعة فراسخ من

قريتنا ، منزلاً خشبياً قديماً ، ونقلناه إلى القرية . وسوّرناه بسور ، وحصلنا على جواد هزيل: والخلاصة أننا شرعنا في إنشاء منزل فلاّحي.

كان ذلك صعباً : الكثير من الحاجات والقليل من الموارد . فكيف نحصل على تلك الحاجات؟ كنا وحدنا . ولا سبيل إلى الخلاص مما نحن فيه . كان لابد من السهر على المنزل ، ودفع الضرائب ، ثم جاء الأولاد: فقد وُلد لنا ، غير غروشكا ، ثلاثة أولاد ، بنتٌ وصبيّان . ثم إننا آوينا عجوزاً ، دخلت بيتنا لتحرس الأطفال . وفي مقابل ذلك كنّا نطعمها. كبر الأولاد وازداد مصروفُ الخبز . وكان يقع ألا نجد شيئاً في بيتنا: كان دانيلو يعود من العمل :

— هيّا ، حضّري العشاء .

— لم يبق عندنا خبزٌ ، ولم أشعل ناراً ، ولم أطبخ شيئاً .

— لمَ لمْ تقترضي خبزاً ؟

— لأننا اقترضنا قبل الآن من عند الجارة ؛ ويجب أن نردّ ما أخذناه وبأي شيء نردّه ؟

كان دانيلو يغضب :

— أنت لا تستطيعين أن تتدبّري أمرك . أنتِ هنا ، تسمنين ، ويعوزنا الخبزُ . أودّ لو أراك هناك : تحرثين وبطنك خاوٍ !

— وأنا أيضاً ، لم آكل طوال النهار . وما اقترضتُه كان للأولاد :

لم يكن دانيلو يجيب وكان يذهب لينام دون طعام .

لم يكن وضعنا سهلاً ، ولم يكن دانيلو قوي الجسم : وعبثاً أنهك نفسه في العمل ، لقد كان البؤس آخذاً في التزايد . وكان يقع لي أن أطوف القرى ، وكيسي على كتفي ، مادّة يدي بالسؤال .

عشت هكذا عشر سنوات . كانت السنة الحادية عشرة سنة المصيبة. طبعاً كان الله يتفقّدني بسبب ذنوبي . كلّ ما جرى سببُه بؤسنا . فلا نكاد ينتهي الشتاء حتى نستهلك كلّ حنطتنا ، وفي الربيع ، يزداد الوضع الصعب سوءاً ، كالعادة . ولم ينجح شيء ممّا شرعنا فيه . وكان يقع لي أن أسافر سائلة الصدقة . لكن الناس أخذوا يُنقصون ما يتصدّقون به : كان القمح نادراً في كل مكان . تحت وطأة هذا البؤس ، على الأرجح ، خامرتْ دانيلو فكرةٌ وهي أنه يستطيع ، بالوسائل الشريرة ، أن يخلصنا من ورطتنا . فعاشر الفلاحين اللصوص وأخذ يشرب . وكانت قريتنا ملأى بالفتيان الأشرار . ففي زمن السخرة ، كان الخوف من الملاّكين يكبح الناس . لكن عندما أُلغيت القنانةُ ، ساء سلوكُ الكثير من الفلاحين ، ولاحظت أن دانيلو كان من هذه العصابة .

توقعتُ أن يكون في رأسه عمليّة سيئة . وكان ثلاثة ، فلاحين ، أفتّاك لصوص المنطقة ، يأتون ليروه ، باستمرار . وذات مساء كنتُ نائمةً فيه على الموقد ، سمعتُ البابَ يُفتَح . دخلوا وأخذوا يناقشون دانيلو . كان الأولادُ نائمين ، أما أنا فكنتُ مضطجعةً ، لكنني لم أكن نائمةً وسمعتُ كل شيء .

قال أحدهم ويُدعى « آندريه » ، وهو ربّ أسرة ، ولصٌ فاتك ، تجاوز الشباب ، لأن أولاده كانوا متزوّجين :

— سنذهب ، هذا مؤكّد .

أضاف صديقُه « ميشيه » :

ـ ما علينا إلا أن نخلع القفل وندخل .

قال دانيلو :

ـ كيف نأتي بها ؟ مع البقرات ، لا نعرف كيف نتصرّف .

ـ ماذا يؤخّرك ؟ سنقودها إلى « كوموتوفو » ونضعها في حَوْش « فيليب » ، اشبيني .

أضاف فيليب .

ـ في ذهني تاجرٌ مرموق يدفع نقداً ، على الفور .

قال دانيلو الذي استولى عليه الخوف :

ـ هذا غير أكيد ، يا إخوتي .

ـ خفتَ قبل أن ترى شيئاً . ماذا أصابك ، تتردّد ؟

خفتُ على دانيلو فقلت في نفسي : « ماذا سيحدث إن اقتنع بما يقولون ؟ »

نهضتُ وقلتُ :

ـ أيها الوقحون ، أيها اللؤماء ، كيف تجرؤون أن تنصحوا الناس الأشراف بمثل هذه النصائح ! وهل نسيتم الصليب الذي تحملونه على صدوركم ؟

حينئذٍ أخذوا يقنعونني بدوري .

ـ لابدّ مع ذلك من أن نطعم أولادنا ونسقيهم ؟ ومن أين نأتي بالطعام والشراب ؟ لسنا الوحيدين في اقتراف الشر . لسنا الأوائل ولا الأواخر . ثم إن الصفقة مربحة : بقرات بغير حراسة .

قلتُ :

ــ أفضلُ لكم أن تقضوا حياتكم متسوّلين ، تمدّون أيديكم وتحملون أكياسكم على ظهوركم ،من أن تتورطّوا في مثل هذه القصص . هيّا ، دانيلو ! دعْ ذلك ! لا تذهب معهم ! ستجرّ على نفسك المصائب التي لا نهاية لها .

سافر الفلاحون . وكلّمتُ دانيلو مرة أخرى . هل أقنعتُه ؟ أم أنه تظاهر بذلك ؟ وعدني ألا يشارك في هذه العملية . وقال :

ــ لن أذهب .

صدّقته ولم أعدْ أفكّر في الموضوع . ظننتُ أنه عَدلَ عن ذلك. لكنه هو ظلّ على فكرته وأخفاها عني .

ــ ١٦ ــ

كان ذلك في اليوم الثالث أو الرابع من اسبوع الفصح . كنا ، هذا الصباح ، في البيت . دخل آندريه ؛ رسم علامة الصليب أمام الأيقونة، وحيّانا وقال :

ــ هيّا إلى الغابة لقطع المكانس . ذهب الفلاحون إليها . تعال ، يا دانيلو .

ــ طيّب ، لم لا ؟

نهض دانيلو وذهبا معاً .

مر هذا اليوم بسرعة . رتّبتُ البيت كله . وجاء الليل ، ونام الأولاد ؛ ولم يعد دانيلو.قلتُ في نفسي : « ماذا يفعل طوال هذا الوقت في الغابة ؟ لعله في مكان آخر ؟ كان لابد له أن يرجع .

انتظرتُ . وانتظرت ، لكنه لم يعد وكان الليل شديد الظلمة .
وأخيراً عاد .

سألتُه :

— لمَ تأخرتَ إلى هذا الحدّ ؟ هل حضّرتَ كثيراً من المكانس؟

— مكانس ، إن شئنا ، لكنها مكانس تمشي على أربع قوائم.

كان هذا كلّ جوابه . جلس على المقعد ، ولم يخلع قفطانه .
رأيتُ ، من أول نظرة ، أنه لم يكن على حاله . قلتُ في نفسي :

« انتهى الأمرُ ، لقد قام اندريه ودانيلو بالعملية الشريرة معاً ، ولا أدري ما هي » آه ! ما أشدّ الغضب الذي تملّكني !

سألتُه ، فاعترف لي بكل شيء : لقد سرقوا البقرات.

قلت :

— أيها الشقيّ ! ماذا فعلتَ ؟ أتظن أن حياتك ستصبح الآن أسهل؟
إنك تضيع أولادكَ أيضاً .

ولم أتركه قبل أن يسمع من فمي جميع صنوف اللوم .

— اسكتي ، يا بلهاء ! أنت لا تفهمين شيئاً .

أوينا إلى الفراش . لم أستطع النوم.أحسست أني مريضة . لم أستطع أن أفكر إلا في شيء واحد : سيأتون للقبض عليه

— ١٧ —

قضينا هكذا يومين . وفي مساء اليوم الثالث ، كنتُ جالسةً وحدي في البيت . كان المصباح مضيئاً ، وأنا أنتظر دانيلو الذي ذهب إلى «كوموتوفو» حيثُ خبِّئت البقراتُ عند فلاحٍ يعرف دانيلو . كنتُ

متضايقةً إلى الحدّ الذي شعرتُ معه بأنني فقدتُ قواي ؛ كنت أنتظره ، هنا ، عاجزةً عن النوم ، كارهةً للطعام . وقد صاح الديكُ . وفجأة سمعتُ خطاً سريعةً ، فتعرّفتُ خطاه .

فُتِح الباب بغتة وبعنفٍ كاد يخلع المفصّلات . دخل « دانيلو». تدحرج بتثاقل في الغرفة . لم تكن ثيابه الخارجية عليه ، وكان حافي القدمين . وكان وجهه أبيض ، شاحباً ؛ بعض الموتى أقل شحوباً منه :

قلتُ :

— هل ساءت العاقبة ؟

— ساءت .

ظل جالساً على المقعد ، لا ينطق بحرف قلتُ في نفسي : سأسأله عما جرى :

— دانيلو ، ماذا جرى لك ؟

— الذي جرى ؟ فشلت العملية .

لقد دخل حوش الإشبين فيليب حيث البقرات . « ميشيه» وحده جاء في الموعد . وانتظرا آندريه . لكن آندريه لم يأت وأخلف وعده ، وأرسل مكانه رجلاً أصغر سناً منه . وبعد أن انتظروا طويلاً ، أخذوا البقرات من الحوش الخلفي ليسوقوها إلى الغابة . وما كادوا يخرجون من القرية حتى وقع عليهم فلاحو « كوموتوفو » ، بلا تحذير — ، وبدأت الملاحقة.

قُبِض على فيليب رأساً . وقُبِض على « ميشيه » أيضاً ، بالرغم من وثبته الجانبية . وقُبِض على زوجي من ثيابه ، فتخلّص بأن ترك ثيابه ،

وتمكّن من الفِرار . وانطلق الفلاحون في أثره . لكنه سبقهم ، نزع حذاءه وأفلت منهم .

أخذتُ أتأوّه :

— آه ! يا لي من بائسة ! المصيبة على رأسي المسكين ، وعلى الأولاد ، ولا سبيل إلى تفاديها .

وددتُ لو أستمر في النواح المعهود ، لكن « دانيلو » أمرني ، وهو هائج ، بأن أكفّ عن النواح . ظننتُ أنه سيضربني . فسكت . ذهبنا إلى النوم ، ولا نومَ . كنا نَصيخ السمع متسائلين : أليسوا هم الذين جاؤوا ، أليست الشرطة ؟

— ١٨ —

مضى الليلُ ، دون أن نستطيع النوم دقيقةً واحدة . وفي الصباح المبكّر من اليوم التالي ، ذاع خبرٌ مفاده أن فيليب وميشا أفشيا كلَّ شيء ، كيف كسرا القفل ، ومن أين جاءا بالآلة ، وكيف أن هذه الآلة كانت ملويّةً . في الصباح فقط رأينا مفوّض الشرطة يتّجه رأساً إلى منزل آندريه ، ويوقف حصانه أمام الباب ، ويهبط من عربته . وكانت كنّةُ آندرية هنا .

— إيه ! يا شابة ! اعطني مقصاً لأصلح العربة .

حملت إليه المقص . كان ملويّاً . وعلم المفوّض أن المقص من عند آندريه وأنهملويّ . لقد كشف له « ميشيه » كلّ شيء .

قال للمرأة :

— هل هذا المقص لكِ ؟

قالت :

— هو لنا ، هذا مقص الأب .

— وأين الأب ؟

— ذهب إلى المخزن .

— ناديه !

وكانت لا تعرف شيئاً ، فذهبت تناديه . وصل آندريه . سأله المفوّض بدوره :

— آندريه ، لمن هذه الآلة ؟

تظاهر آندريه بالإنكار . لكن المفوض لم يصغ إليه . وأمره بالصعود إلى العربة .

وهاهم يتجهون مباشرة إلينا . وأسمعُ العربةَ تقف في مواجهة المنزل . وييمّمون شطر المنزل الخشبي . ويدخل المفوّض وأراه : كان ثوب دانيلو على ذراعه . ويقول لي :

— ألا تعلمين لمن هذا الثوب .

قلتُ :

— لا أدري .

وأخرج من جيبه سكيناً وغليوناً .

— وهذا ؟ ألا تعرفين أيضاً ؟

قلتُ :

— لا أعلم لِمَنْ هذا ، وهو ليس لنا .

لكن « فانكا » ابني البكر كان واقفاً بجنبي . سأل المفوض بدوره :

— هذا السكّين أليس لبابا ؟

قال :

— هو لبابا ، وقد أُصلح بشريط حديدي .

هزّ المفوّض رأسه وسأل أين دانيلو .

قلت :

— في الحوش . ستلد الفرس مهراً . وهو مع الفرس .

كان ذلك صحيحاً . ذلك أن الفرس أزمعت أن تعطينا مهراً .

قال

— ناديه .

ناديتُ دانيلو . وجاء .

قال المفوضُ :

— هيا ، اجلسْ بجنبي ولنذهبْ .

خاف دانيلو ، لكن كان لابدّ من الانصياع . وصعد المركبة . يا إلهي ! ما هذا المشهد ! أطلقتُ صرخاتي ، ونُحْتُ . تعلّق « فانكا» بأبيه . وأخذ يصرخ :

— بابا العزيز ، بابا العزيز ، لا تذهب ! ماما ، إلى أين يقودونه ، أخذوه فأين سيضعونه ؟

ووثب الولدان الأصغران إلى الخارج وأخذا يزعقان ويتأوهان مثل ذئاب صغيرة ، وعيونهم محدّقةٌ فينا . أيّهم أُهدّىء ؟ لم أستطع أن أختار . ثم إنني أنا أيضاً كانت المرارة في فمي ، والخجل في وجنتي بسبب الآخرين : لقد تجمّع الجيرانُ قبالة البيت .

ذهب مفوّضُ الشرطة مع دانيلو . ركض « فانكا» خلفهما .وأحسّ الغالي المسكين على الفور أنه لن يدركهما ، فعاد أدراجه وهو يبكي ؛

وقد مزّق نحيبُه قلبي . وركضتُ لألوذ بالفناء حتّى لا يراني الجيران . كانت الفرس ترتعد ، إذ لم تستطع أن تضع مهرها . يا إلهي ! يا ربي! مصيبةٌ أخرى ! وما من مُعينٍ ، والأولاد الذين لم يستطيعوا أن يهدؤوا.

كانوا ما يزالون على الطريق . ذهبتُ لآتي بهم وأواسيهم . هدّأتُ الصغيرتين ، لكن « فانكا » ظلّ يبكي وهو يردّد :

— أخذوا بابا فأين سيضعونه ؟ إلى أين يقودونه ؟

فبماذا أُجيبه ؟

جاء المساءُ أخيراً ، يجب تحضيرُ العشاء . تحضيرُه ؟ لمن ؟ الوالد غائبٌ . وأنا لا يخطر لي أن آكل : كان قلبي يتقلّب . أعطيتُ الأولاد شيئاً من الخبز ، وذهبوا ليستلقوا . أما أنا فبقيتُ واقفةً طوال الليل ولم يغمض لي جفنٌ .

— ١٩ —

أُدخِل دانيلو السجنَ . بقيت وحدي مع أولادي . كان دانيلو همّي الأكبر وإن كانت حياتنا شاقة جداً . كنتُ أحبّه ، سواء أكان لصاً أم لا ، وأرثي له ، ولا أريد أن أعرف شيئاً آخر . وكنت لا أجد في الحياة ، أثناء غيابه سوى الاشمئزاز ، وكنتُ بحاجة إلى رؤيته .

والذلك ، مضيتُ إلى المدينة مع ابني الأصغر . كنتُ أقول في نفسي : أنا ذاهبةٌ لأُبهجه . حملتُ إليه قسصاناً وفطائر حلوى حضّرتها . وصلتُ المدينة في يوم أربعاء . قيلَ لي : « الجمعة هو يوم المقابلة . ولا يمكن أن يكون اليوم » . استأجرتُ غرفةً ، لكن لم يكن معي ما أدفع به الأجرة . حينئذٍ ، طفتُ المدينة ، في نهار الخميس ، مادّةً يدي .

أعطاني الناس كسراً تؤكل ، وقطعاً صغيرة من النقود ، سبعة وتسعين كوبيكاً . اشتريتُ خبزاً أبيض لزوجي . في اليوم التالي ، تقدّمتُ إلى باب السجن . وكان هناك غيري ، من الأقارب الذين ينتظرون . لم يطل الانتظار ، وسمحوا لنا بالدخول . خرج السجناءُ تفرّستُ في وجوههم : كان دانيلو بينهم. لم أتعرفه على الفور ، وهو في ثياب السجن : لقد غدا شاحباً ، هزيلاً ، مثل خرقة زريّة . فازددتُ شفقةً عليه .

أبصرني وفرح . كنا واقفين أحدنا بجنب الآخر . وتحدثنا . كان يظنّ أنه لن ينجو من النفي إلى سيبيريا .

قلتُ :

— من يَدْري ؟ الله رحيمٌ ؛ سيرأف بنا .

قال :

— لا ، هذا ما يُقال . لكن الحكم ليس قريباً . لا تنسيني حتى ذلك التاريخ .

تحدّثنا هكذا برهة غير طويلة . وسلّمتُه القمصان والفطائر والخبز الأبيض . لم يكن ممكناً تسليمُه الأشياء مباشرة ؛ الجندي هو الذي أخذها. ودّعتُه وودّعني وعدتُ إلى البيت .

قضى زوجي سنة كاملة في السجن ، بانتظار الحكم . وكنت أذهب لرؤيته كل خمسة عشر يوماً . وكنت آخذ معي له شيئاً ما . وفي البيت كنت أعيش وأعيل أولاد من إحسان الناس .

بعد سنة ، علمتُ أن دانيلو حُكم بالنفي (١) إلى سيبيريا .

---

(١) حكم بالنفي : كان القانون يحمي الاقتصاد الزراعي للفلاح ، ولذلك كانت سرقة الخيول والماشية مستحقة للعقوبات الصارمة .

وكانت هيئة التحكيم التي أسست عام ١٨٦٤ ، والتي كانت تحتوي الفلاحين ، في الريف – كانوا الأكثرية أحياناً – تبدو على العموم ، عديمة الرحمة ، في هذه الحالات .

ذهبتُ لأراه .

— تقرّر مصيرُنا : سيرسلوننا إلى سيبيريا . لا تتركيني ، يا آنيسيا العزيزة . اذهبي معي ، يا عزيزتي . يُقال إن العيش ممكن هناك .

بكيتُ معه ، لكني لم أقل شيئاً وعدتُ إلى بيتي وأخذتُ أفكّر : « « ماذا أقرّر ؟ أأذهب معه ؟ أم أبقى ؟

وأتردّد . فعندما أفكّر فيه ، أقول لنفسي :« يجب أن تذهبي معه » . لكن عندما كنتُ أقول في البيت إني سأتبع دانيلو ، كانوا يخوّفونني ويحاولون أن يثنوني عن الذهاب

— السفر مع الأولاد ، ألا تفكرين في ذلك . سيكون في ذلك خسارتهم ، وستكونين عقبةً بالنسبة إليه .

وكانت أمي لا تشجّعني . . وكأنْ لم يكن عندي ما يكفيني من الهم ، إذا بالله يعطيني بنتاً . وظللتُ شهراً دون أن أرى دانيلو . كنتُ مريضةً . لكن ما ان أبْللتُ حتى قلتُ في نفسي : « سأذهب الآن لأراه » . وأذهب إلى السجن من جديد ؛ كان ذلك بعد الفصح . وها هو دانيلو يُقبل عليّ ، وقد بدا عليه وهنُ العزيمة . قال لي :

— صدر الأمرُ ؛ سيكون السفر في نيسان . ماذا قرّرتِ يا آنيسيا؟ هل تذهبين معي أم تتخلّين عني .

— سأذهب معك .

منذ هذا اليوم ، كففتُ عن استشارة هذا أو ذاك . لقد اتّخذت قراري : سأسافر معه وسآخذ الأولاد . وقرّرنا كلّ شيء بالنسبة إلى البيت ، دون أن ننسى شيئاً . وعندما رجعتُ ، بعتُ كلّ شيء ، المنزل والأرض ونعجتين . فجمعت ستين روبلاً . وتقدّمت بتوسّلٍ ، حسبما

نصحني بعض الناس الطيبين ، وأعربتُ فيه عن رغبتي في مصاحبة زوجي . وكانت امرأتان من قريتنا ذاهبتين أيضاً مع زوجيهما . ولم ننتظر طويلاً ، فقد تمت الموافقة على طلبنا قبل عيد الثالوث بأسبوع. جاء الحارس يبحث عنا وأخذنا نحن الثلاثة مع أولادنا إلى المدينة .

اقتادونا إلى الشرطة . فأخذوا قياسنا وأوصافنا . وأرادوا أن يضعونا في السجن ، في اليوم نفسه . لكننا طلبنا مهلة أربع وعشرين ساعة لنذهب إلى بيوتنا مرة أخرى : فأنا لم أقبض كل ثمن المنزل الخشبي ، وكانت المرأتان تريدان أن تصفّيان بعض أعمالهما. قضينا هذه الساعات الأربع والعشرين في القرية . وفي الصباح أعطونا عربة قادتنا إلى السجن رأساً . وعندما وصلنا السجن لم ننتظر طويلاً . إذ خرج المشرفُ وعيّن لنا أماكننا : النساء والبنات في قسم النساء ، والأولاد في قسم الرجال .

بدا كل شيء لنا شاقاً بعد الحياة في الهواء الطلق ، بحرية : الروائح الكريهة ، ونقص الهواء ، ثم إن الأولاد كانوا يضجرون كثيراً . لكن هكذا لم يدم طويلاً . فبعد عشرة أيام تقريباً ، اقتادونا إلى مخزن السجن حيث سُلّم كل واحد ثياب السجن . سُلِّم كل رجل — شكراً لله على فضله — زوجين من السراويل الداخلية ، قطعتين من القماش للف قدميه ، ودثاراً فضفاضاً على ظهره آس أصفر ، وحذاءً . وكذلك النساء. لكل واحدة دثارٌ فضفاض . وخمار آمن القماش للرأس . وأعطي الصبية والبنات الأشياء نفسها التي أعطيها الرجال والنساء .

وضعتُ كل ما تسلّمتُه في كيس : وكان « فانكا » معي . فقال له الجندي :

— هيّا ، يا صبي ، خذْ الحذاء الذي تشاء . فأخذ الحذاء وقفطانًا وسراويل داخلية أيضاً . سُرَّ وقال :

— لم يأتني بابا بمثل هذا قط :

ولم يلاحظ آس الديناري على الظهر : فضحك الجنود وقالوا له :

— لم تَقْضِ سوى خمسة عشر يوماً في السجن ، وانظرْ كم جمّعتَ :

حملنا أغراضنا : ولم يرق لنا أن نلبس لباس السجن : لكن كيف نستغني عنها . هيّا ! لنلبس ! ولابد لنا من التنكّر . وكان بكاءٌ وكان ضحكٌ أيضاً :

— عمّة آرينا ، لو أن أهل القرية رأونا في هذا اللباس الغريب ، فكم سيُدهشون ، ما رأيُكِ .

— ٢٠ (١) —

تهيّأْنا للسفر . في الساعة الثانية ذهبنا إلى المحطة . أردتُ أن أشتري سريراً للصغرى . لكن الجند المرافقين شاهدوني وأمروني بتركه : لم يكن ذلك مسموحاً ، على حدّ قولهم . كان لابدّ من الطاعة . اضطربت الصغيرةُ بين ذراعي طوال الطريق : كنا محشورين في عربة القطار . لكن موسكو لم تكن بعيدة ، فوصلنا ها في صباح اليوم

(١) حذفت الرقابة قسماً تاماً من هذا الفصل .

التالي . واقتادونا مشياً على الأقدام وحشّونا على السرعة من المحطة إلى سجن المنفّيين .

كان السجن بيتاً ضخماً في صدر فناء . وكان مملوءاً بالسجناء ؛ أكثر من ألف ما عدا فصيلتنا التي كانت كثيرة العدد.امتلأ بالناس ، فكأنهم قطيعٌ مطارَد . وصريخٌ وضوضاء . كل واحد يترصّد أرْوَحَ مكان ليجلس فيه . وتدافعٌ وخصام ! دخلت النساءُ الفناء مع الأولاد: ظللنا واقفاتٍ ريثما تُعيّن لنا أماكنُنا . اقترب الجنود . اقتادوني أنا وأولادي إلى غرفة . وعندما دخلتُ ، عبثاً فتّشتُ عن مكان خالٍ ؛ فلم أجد . وكانت الألواحُ الخشبية التي تُستعمل كأسرّة ، مثلها مثل الأرض ، ملأى بالناس المضطجعين . وصرخاتٌ : « أما يزال الناس يفدون ! نحن نمشي بعضُنا على بعض ! » . وفي قاعة أخرى ، المشهد نفسه . قلبونا ، حشرونا من جميع الجهات : وأخيرا عادوا بنا إلى الفناء . وفيه قضينا الليل .

كان الليل حاراً لحسن الحظ ، فأستلقينا على الأرض .

بقينا هكذا خمسة أسابيع ، في الخارج : وفي كل يوم ، كان الجنوديدفعون إلى السجن بفصائل أخرى من السجناء جاؤوا بهم من كل صوب . وغصّت الغرفُ بهم . وهكذا عشنا في الفناء .وأحيانا كنا نلوذ بالممر عندما يسوء الطقس . لكن كان فيه ستة أحواض للقمامة . وكانت النتانة تقطع النفس . ثم إنا كنا محشورين ، فلم نتمكن من التمدّد ، وكان علينا أن نظلّ جالسين . أما الأولاد فقد استقرّوا ، كيفما اتّفق فوق الصُرر ، ومع ذلك فلم يكونوا يتمكنون ، وهم

مطويّون ، أن يناموا . كان الناس ، طـوال الليل ، يمرّون فوقهم ، ويدفعونهم جانبا ، بل ويقسون عليهم : أسوأ ما في السجن كان بالنسبة إلى الأولاد . وقد رُوي لنا أن قلّةً من النساء لم يفقدن ، في هذا السجن ولداً أو اثنين : وكان يمرض ، كل يوم خمسة أو ستة ، فينُقلون إلى المشفى .

لم يوفّرني المرضُ أكثر من غيري.لم كنتُ أندم على مجيئي ، لم يكن من وسيلة للتراجع . بدأ المرض بولدين لامرأتي قريتنا ، ثم مرضت « داشكا » الحبيبة ، هي أيضاً . ألهبتها الحمّى ، وأنهكتها . لم أشأ أن أنقلها إلى المشفى . إذ لا يخرج منه المرضى إلا نادراً ، هذا معروف . لكن الطبيب مرّ وسأل :

— الأولاد ليس بهم مرض ؟

أجبنا : « لا » وعندما كان يدخل كنا نجهد في إضحاك الأولاد .

— ما معنى هذا ؟ أهكذا تُخفون عن الطبيب أن أولادكم مرضى ؟ إن كنتن لا ترغبْن فلن ندخلهم المشفى ؛ سأفحصهم فقط ، وسأعطيهم أدوية ، وسيتحسّنون :

ذات يوم ، وثقت به امرأةٌ من جماعتنا وقالت :

— ابني موجوع حقاً .

فحصه الطبيبُ ثم أقبل عليّ ، وقال :

وابنكِ أيضاً ؟

فاعترفتُ بدوري أن هذا صحيح . فحص الطبيبُ أولادنا ، ووصف شيئاً وخرج .

ظننّا أنه سيرسل أدويةً أو إسعافاتٍ أخرى ؛ وصلت عربةٌ كبيرة . نُودي إعلى الأسماء وأمرنا بالصعود إلى العربة فكدّسوا عشرة أشخاص في الداخل وفوق ذلك الأولاد ، وبهذه الحيلة ، اقتادونا إلى المشفى :

وماذا نعمل بالأولاد الباقين ؟ أردتُ أن آخذ أولادي معي فمنعوني من ذلك :

— سنأمر زوجك أن يهتمّ بهم .

قلتُ في نفسي : كيف سيتدبرّ الأمر مع الصغار ؟ آه لماذا صرّحتُ بهذا المرض !

لمتُ نفسي . لكن ما العمل ؟ لا شيء : ساقونا إلى المشفى ، وبقيت فيه مع « داشكا » . كان فيه كثيرٌ من النساء ، كلهن مع أولادٍ مرضى . في البدء ، عشتُ مع رفيقات القرية . كان ذلك ابهج ، على كل حال : لكنهما فقدا ولديهما بعد قليل ، وبقيت وحدي .

— ٢١ —

بعد خمسة عشر يوماً ، ماتت ابنتي « داشكا » . صرختْ طوال اسبوعين ، وأعرضتْ عن الطّعام ، ولم تعد تحتمل شيئاً . انهارت ، وذات يوم ، هدأتْ فجأةً . ففرحتُ وفكرّت : « اقد خفتّت آلامها . » أردتُ أن أضحكها فقلتُ لها :

— داشكا ، لنلعبْ لعبة العقعق (١) .

---

(١) لعبة العقعق : لعبة صبيانية . تقول الأم لابنها : « العقعق هذا السارق ، حضر البرغل . وأطعم أولاده . أطعم هذا (تمسك يد الطفل ، كل اصبع بعد الآخر بدءاً من الخنصر) ، وهذا . . . وهذا . . . لكنه لم يطعم هذا . . . الخ . (وتترك الإبهام لتنتقل اليد من الذراع إلى الرأس فتدغدغه .)

وما كان ألطفها في هذه المرة الأخيرة ! لعبت اللعبة وصفقت بيديها ، بإيقاع . ففرحتُ كثيراً . وفكرّت : « الحمدُ لله » . وفجأة ماذا رأيتُ ؟ كانت تموت ، وقد بدأ فُواقُها . اوه ! كم حزنتُ وأنا أراها هكذا .

وصلت الممرضة . وبعد أن ألقت نظرة خاطفة ، قالت :

ـــ انتهى الأمر . يجب أن تلبسيها :

مزّقت القميص وأرادت ان تحمل داشكا . وشهقت حبيبتي ثلاث شهقات : وسالت دموعها أيضاً :

ـــ يا الهي ! إنها حيّة ! انتظري لأغسل جسدها :

فقالت :

انتهى الأمر ، انتهى ، الآن :

حملت ابنتي وأرادت أن تضعها في القبو : لكني استمهلتُها حتى أضمّ يديها الصغيرتين وأغمض عينيها الحلوتين :

وما كدتُ أطلق نحيبي حتى صرخ بي الحارس بخشونة :

ـــ هذا غير مسموح ، هنا .

وأخذتْ حبيبتي ، وحملتها إلى الأسفل . فركضتُ في أثرها :

ـــ ايتها الممرضة ، دعيني أدخل إلى الكنيسة ، حين يتلون صلاة الموتي .

قالت :

ـــ سنخبرك بذلك :

قمتُ بالإجراءات الشكلية للخروج من المشفى : وبعد يومين ، سألتُ الممرضة :

— متى أستطيع أن أذهب إلى الكنيسة . يمكنني التعرف على ابنتي بين بقية الأجسام .

قالت :

— آه ! سؤالُك في وقته : لقد نُقلتْ ودفنتْ في اليوم نفسه الذي كلّمتني فيه .

قلتُ حينئذٍ :

— ولِمَ هذه الخدع ؟

فقالت :

— إن لم نخدعك ؟ لم نستطع تحاشي دموعك .

— ٢٢ —

كانت الحياة في موسكو قاسية : كان النظام : مرق الملفوف والخبز والبرغل ، مرتين في اليوم : ولكل ولد ليبرة من الخبز الأبيض ووعاء من الحليب . لكن بعضه كان يظل كما هو : فمرق الملفوف لم يكن صالحاً للأكل ؛ والخبز في الغالب لم يكن مخبوزاً : لم يكن سوى عجين . أما الحليب فكان يؤذي الأولاد . كان مخلوطاً بالماء ، فاقداً قوامه : وكثيرون كان معهم بعض المال ، فكانوا يفضلون أن يأكلوا على حسابهم . كانوا يشربون الشاي . يستطيع المرء أن يحصل على كل شيء بالمال ، في السجن . حتى الفودكا ، كان البعضُ يحصلون عليها . ثم كانت هناك هباتُ المحسنين ، إرساليّات التجار

المحسنين : الخبز الأبيض ، ولحم البقر ، والقفّازات الدافئة . لكن لم يكن كل شيء يصل إلى السجن . اللحم مثلاً ، كنا نسمع به ولا نراه. ولندع الطعام فهو مقبولٌ عند غيره . أشقّ الأشياء كان تحمّل الزحمة والروائح . فأينما نظرت في قسم الرجال رأيت أحواصاً ملأى ، بالقاذورات التي لا يمكن تنفّسها . ولم يخلُ أحد من جائحة القمل ، قمل كبير ، لم أر مثله قط . وجاءت الحرارةُ فأصبح العيشُ في الفناء شاقاً . كانت الجدران شديدة الحرارة حتى لتحرق اليد وهناك الغبار والهواء الثقيل ؛ أما الماءُ فكان مقنّناً علينا :

اخترنا امرأة لتكون رئيسة علينا . كانت مكلّفة بالماء . وكان الماء يُعوزنا للغسيل أو لغسل الثياب الداخلية . وزادت نسبة وفيات الأطفال : كانوا يموتون من الحرّ . فتشكّينا من ذلك . فأصدرت الإدارة أوامرها لرش الفناء بمضخات الإطفاء . وكان رجال الإطفاء يأتون من وقت إلى آخر ويصوّبون خراطيمهم : وكنا نضع الأولاد عمداً تحت الماء لتبريدهم ، وأشقى الكل كان الرجال المقيّدين بأرجلهم ، في مراقدهم . كانت الحياةُ قاسية عليهم .

— ٢٣ —

بعد أن انقضى عيدُ الثالوث ، فرغ السجنُ شيئاً فشيئاً . إذ توالت أرتالُ السجناء : كانوا يُقتادون إلى « نيجني — نوفغورود(١)

(١) « نيجني — نوفغورود » : وهي اليوم مدينة غوركي ، على الفولغا .

جاء اليوم المحدّد لسفر فصيلتنا : ولسوء الحظ أحسستُ بوجع في بطني . لا مجال للتخلّف ؛ فسافرتُ مع أني مريضة . هذه المرّة أيضاً ، اقتادونا إلى المحطة سيراً على الأقدام، ولأننا فقدنا عادة المشي ، وصلنا بعد لأيٍ . ثلاثة رجالٍ منا خارت قواهم فأرسلوا إلى المشفى كالأموات . وضعنا في عرباتٍ مسيّجةٍ بقضبان الحديد . وقادنا القطار إلى « نيجني — نوفغورود » في أربع وعشرين ساعة . أخرجونا من القطار رأساً إلى السجن ! كان السجن أسوأ من سجن موسكو . كانت القاعات ضيّقة ومنخفضة : ولكن كانت فرحتنا عظيمة لأنهم تركوا الرجال مع نسائهم . وأُحلّت في كل غرفة ثلاث أسر : في اليوم الثالث ، دفعونا إلى حافة النهر ، وملؤوا بجماعتنا زورقاً ...

كان ضخماً هذا الزورق . وكان مشدوداً بالسلاسل إلى سفينة بخارية ولا يمكن أن يصل إلى الرصيف . ولذلك نُقلنا إليه بالقوارب . وكان لابدّ من تسلّق الزورق . أُنزل منه سلمٌ حديدي ثُبّت في سطحه . لكن السطح كان عالياً والقارب منخفضاً . ولم يكن للسلم مَسْنَدٌ . بل كان في السطح وتدٌ مثبتٌ يمكن التشبّث به .

صعد الأولاد السلم ، لكن أيديهم القصيرة لم تطل الوتد ؛ كان يؤلمنا أن نرى ذلك . وكذلك كان الجنود المكلّفون بسَوْق المنفيين يمسكون بهم ويرمونهم على السطح كأنهم كلاب صغيرة :قلتُ في نفسي : لقد سلموا : الربُّ هو الذي حملهم بين يديه ! الحمد لك يا الهي !

كان في داخل الزورق غرفةٌ واسعة فيها مقاعد للنوم مرتّبة على دائرهـــا . وفي أرض الزورق الخشبية ، حُفـــرَ ثقبان تحيط بهما ،

تحرّساً ، شبكةٌ من القضبان الحديدية . وكان السقف والجدران مطليّةً بالقار : يا الهي ! كم حُشرنا في الليل ! كنا تسعمئة ، في النهار على سطح الزورق ، أما ليلاً ففي الأسفل . ثم إن الطعام كان سيئاً .

ما كنا نعيش إلا بما كنا نستطيع أن نحصل عليه بالمال عند التوقف : وكانت السفينة تتوقّف في الغالب عندما يكون هناك رصيفٌ عائم ، وكانوا يُعلموننا أن التزوّد بالمؤن مسموح . كنا نشتري من كل شيء ببعض الفلوس : السمك الخبز الأبيض ، البطيخ . كان دانيلو يشتري من حين إلى آخر بطيخة للأولاد بغية تسليتهم . أما أنا فلم أكن استطيع تحمّل شيء ، إذ لم أزل مريضة : لكن عندما دنونا من « بيرم » ، أحسست بالانتعاش . لكن الأولاد أصيبوا بشيء ما : مرض اثنان ، وأخذت سيقان فانيا وماشا تؤلمهما .

— ٢٣ —

وصلنا إلى بيرم فأنزلونا وسيرّونا هرولةً إلى الموضع المعيّن للوقوف : سرتُ في المقدّمة ، وتبعني الصغار ، على قدر استطاعتهم . وهم يبكون . وددتُ لو أُعلن أنهم مرضى . لكنني خفتُ إدخالهم المشفى . فعلتُ كلّ ما أمكنني فعله ، حملتُهم تارة وشجّعتهم تارةً أخرى . لكني لم أفلح في الإفلات من الأطباء : لقد لاحظوا حالتهم ، عند تفقّد الأولاد . واستُدعي طبيب ، فأدخل أولادي المشفى وأنا معهم .

اقتادونا إليه في عربة. أدخلنا المشرفُ . كانت فيه غجرية نائمة ، مشعثة الشعر جاحظة العينين . كانت ترسل صرخات غير مفهومة :

سأل المشرفُ :

— أين يوجد سريرٌ فارغ ؟ يلزمنا سرير .

— لا يوجد سرير . يا صاحبَ النبل ، كلها شُغلتْ .

— يجب أن تُخلوا أحدها .

— ربما كان إذن ذلك السرير : فيمكن استعماله . فالمرأة التي كانت عليه ماتت قبل قليل : وصار السرير شاغراً .

ودلّوا المشرفَ بالإصبع على سرير حقيرٍ تمدّدت عليه جثّةُ امرأة .

قال المشرفُ :

— هيا ، بسرعة أكبر ، ارفعوها .

وعلى الفور ، جُرّ الجسمُ إلى البهو .

كانت امرأةً مسنّة ، دبّ الشيبُ في شعرها. أُسندَ رأسُها إلى آجرّة . وقيل لي :

— هيا ، هذا سرير . ضعي أولادك عليه .

تجمّدتُ في مكاني ، بلا حراك ، أفكر بحسرة : إن الغطاء والوسادة لامسا جثةً . فكيف استعملهما للأولاد .

قلت :

— يا صاحب النبل ، نحن ثلاثة : والسرير لا يتّسع إلا لواحد ، دعنا نذهب . اسمح لنا بالعودة . وستندمل جراح سيقانهم من ذاتها .

قال المشرف :

— غير ممكن ، غير ممكن ، على الإطلاق . ستقضون أسبوعاً هنا وسيشفى الأولاد .

خرج . فسالت دموعي . قالت لي ماشا :

— ماما ، لم تحزنين هكذا .

كانت تبكي أيضاً وهي تتكلم ، وكانت دموعها تنهمر ثقيلةً متواصلةً مثل حبّات البرَد .

— يا ولدي الحبيب ، لو توقّعتُ ما ستلقونه من ألم لما تركتُ البيتَ . لكن أشفقتُ على أبيكم .

أخذت الغجريةُ تصرخ ، مما زاد من خوف الأولاد . رضت فانيا نفسها إليّ من الرعب ، وكان وجعها يستدر عبراتها . أرقدتُ أولادي على السرير ، لكني رميتُ الغطاء . وقلت : يجب أن يوضع في الهواء . وطلبتُ طعاماً .

حملت إليّ المرأةُ المكلّفة بالخدمة شيئاً بالغ الرداءة حتى اني لم استطع ابتلاعه . ولم يأكل الأولادُ شيئاً .

قضينا تسعة أيام في المشفى ، دون أن نعلم متى سيصرفوننا . وفي اليوم العاشر ، رحمنا اللهُ . التمستُ أن يسمحوا لنا بالذهاب ، وقلت :

— تحسّنت حالةُ الأولادُ .

سمحوا لنا بالذهاب والأولادُ ما يزالون على حالهم . كانوا يسيرون بمشقة .

قلت لهم بصوتٍ خفيضٍ ، لأني خفتُ أن يعيدوهم إلى المشفى :

— هيّا ! يا أحبائي ، افعلوا كل ما تستطيعون لتسيروا بسرعة أكبر .

بعد أن قطعنا مسافة ، جلسنا لنستريح . ثم استأنفنا سيرنا ووصلنا أخيراً . وفرح الجميع برؤيتنا . قال لي دانيلو :

— الحياة التي عيّشوني إياها صارت متعبةً . لم يكن « فاسكا » يدعني أستريح . كان لا ينِي يبكي ويقول : « وماما ، متى تعود ؟ » .

— ٢٥ —

أتيحت لنا بعد ذلك فترةٌ سعيدة ، أسبوعٌ تقريباً : بدا لنا ، بعد المشفى ، حتى سجن « بيرم » مسكناً مريحاً . وعند انقضاء الأيام الثمانية ، سافرنا ، من « بيرم » إلى « توبولسك » بالعربة : فكم من المصائب لقينا ! أكثر مما لقينا في حياتنا كلها .

كانت ساعةُ السفر ، فجمعونا كلّنا ، وأجروا التفقّد . كانت اثنتا عشرة عربة جاهزة : وصعد إلى كل عربة ستة منفيين ، وجنديان ، والحوذي ، بطبيعة الحال : كان السجناء الستة مقيّدين بسلسلة واحدة . أما نحن والأولاد فكنا أحراراً بحركاتنا .

جلسنا ، وانطلقنا . بدا لنا كل شيء ، في بادىء الأمر ، حسناً . وكان الصغارُ مبتهجين ! كانت العربات جميلةً مع أجراس وجلاجل ، وكأنه موكب عرس . كانت نزهة رائعة في البداية ، لكن عندما حثّ الحوذيون عرباتهم من غير مراعاة للرجّات ، تغيّرت النغمةُ . أسوأ

ما في الأمر كان سرعتها دون توقّف لأي سبب . أكانت هناك حاجةٌ طبيعية يجب تلبيتها ، لا فائدة من الإصرار ! إنهم لا يريدون أن يسمعوا ، وهم يزدادون حثّاً لجيادهم . وحينئذٍ ، كيف يفعل الأولاد ؟

عبثاً كنا نمسكهم بأيدٍ ثابتة على حافة العربة ، في هذا الوقت الضروري اقضاء حاجاتهم ، كان لابد من أن نفتح عيوننا في كل لحظة ، وكانوا يتعرضّون لخطر السقوط : كان شيئاً يقطّع الأنفاس عندما يكون الطريق مكوّناً من الحدبات والأخاديد :

ولم يكن الحوذيون يبالون بذلك كله . فكنا نسير مئة فرسخ في اليوم :

في كل خمسة وعشرين فرسخاً ، يجري البدل . كانت هناك عربات أخرى تنتظر وهي مستعدة للسفر . عند ذاك تُنقل الأكياس والمتاع . ونستقر ونمضي من جديد : في الموقف الثاني أو الثالث ، اقتربتُ من دانيلو ، وسألته ، كيف تسير الأمور ، قال :

— إنه لعذابٌ حقيقي أن يكون المرءُ في عربة : فكم هُزِزْنا ! السلاسل تؤلم ألما فظيعاً : كنا نشدّ بعضنا بعضاً :

كنتُ ما أزال أتحدّث ، عندما شاهدتُ ، فجأةً ، أننا على وشك الانطلاق . وقد أخذتْ مكاني في العربة امرأةٌ لا ولد معها . دنوتُ وصعدتُ . دنا رئيس المرحلة ، وعدّنا . فقال :

— هناك شخصٌ زائد .

وأخذ « فانيا » ونقله إلى عربة أخرى . فقلتُ له :

— أيها العم العزيز ، دعْه لي .

لكنه لم يلتفت إلي وأخذ الصبيّ ، فأجلسه في عربة أخرى : كنّا محشورين في هذه العربة كما كنا في العربات الأخرى :

صرختُ فلم يُصغ أحدٌ . وانطلقوا . رأيتُ حبيبي فانيا محشوراً ، على حافة العربة ، يتشبّث بيديه الصغريتن . سوف يسقط ، هذا أكيد . والواقع ، أنه ما إن غدا الطريق هزّازاً حتى سقط ، فذُهلتُ ، وصرختُ :

— يا أعمامي العزيزين ، سقط فانيا !

لم يوقف الحوذي العربة ، لكنه سار الهوينا : وثبَ جندي ، وأمسك بفانيا كما اتّفق له ورماه في العربة :

استولى علي اليأس . وانفجرتُ باكيةً . وحاول رفاقي مواساتي . .

— لماذا تضطربين ؟ كفاكِ . فهو لم يمت .

ركضتُ إليه منذ إن صرنا في المرحلة التالية :

— يا بني الحبيب ، كيف حالك ؟ هل تألمت كثيراً ؟

— لم يصبني شيء ، يا ماما ، لكني ارتعبتُ .

— ٢٦ —

سبّب لنا المطرُ الكثير من المتاعب : كان المطرُ ينهمر يوماً بعد يوم ، ولا يتوقف . وعند كل موقف كنا نواجه الشيء نفسه : تبتلّ ثيابُنا وتمتلىء بالماء كأنها خارجة من الغسيل .

وكان لابدّ ، قبل كل شيء ، من الردّ على التفقّد . وبينما كانوا يتحققون من حضورنا جميعاً ، كان علينا أن نظل معرّضين للمطر المدرار . ولأسباب أخرى أيضاً . كان الأولادُ يرتعدون . كانوا يفتّشون في كل شيء ويفكون حزم المتاع ليروا إن كان معنا مقصّات أو مسامير أو خرائط ، فإذا وجدوا شيئاً من ذلك صادروه .

كان الصغار الذين جمّدهم البرد ، يرتجفون في ثيابهم . كنتُ أمسك بهذا تارة ، وبذاك تارة أخرى ، وأضمهم إليّ ، وهم على ركبتيّ . حتى لا تبتلّ أرجلهم بالماء . يا للشقاء !

فإذا انتهى التفقّد دخلْنا الصالة : وما من محل واحد فيها . كانت الألواحُ الخشبية محجوزةً . وكان العزّاب الذين هم أقل ارتباكاً منا ، يحتاونها قبل غيرهم . ما العمل ؟ لابدّ من النوم على الأرض : كنتُ أمدّ ثيابَ الأولاد المبلّلة لكي أصنع لهم ما يشبه السرير . وكنتُ أغطيّهم بالثياب المبلّلة أيضاً ، فيقضون الليل كله وهم يرتجفون . لم يكونوا ليتمكنوا من أن يَدْفؤوا . كانوا ، على الأقل ، يستطيعون أن يتمدّدوا .

لم يكن الليلُ ليلاً بالنسبة إلى الناس جميعاً . لم يكن ليلاً بالنسبة إلي على كل حال . كنت أقضي الليل في لفلفتهم ، في تغطيتهم ، في الغسيل ، وبكلمة واحدة ، في التفرغ للعمل كله : ويأتي النهار بسفرٍ جديد فيعوزني الوقت لأفعل كل ما كان ينبغي فعله .

سافرنا هكذا أسبوعاً كاملاً . كنا على تخوم « تيومين (١) »

---

(١) تيومين : مدينة صغيرة في سيبيريا الغربية.

عندما أصابتْ دانيلو المصيبة : كان حوذي العربة التي فيها زوجيل سكران . وفي أحد المنعطفات أطلق العنان لجياده فخرجت عن الدرب وصدمت تلعةً ، وأُلقي الجميعُ أرضاً :

ولما كانوا جميعاً مقيّدين ، وجدوا مشقّةً في تخليص أنفسهم ، فجُرح هذا في ساقه ، وذاك في ذراعه : أما دانيلو فأصيب رأسُه . وكانت الإصابةُ شديدة : لم أرهم يسقطون . وأظن أني لو رأيتهم لتحطمّ قلبي :

عندما بلغنا « تيومين » حدّثني دانيلو بكل شيء . كان يشكو من رأسه . لكنه لم يُبلغ السلطات بشيء : هو أيضاً لم يكن يريد أن يدخل المشفى .

مرّ يومان ولم تتحسّن حاله : كانت وقعته خطرة : وكان رفاقه يكررون له :

ـــ لماذا ، يا دانيلو ، تدع نفسك تتألم هكذا؟لماذا تتلوّى على الأرض ؟ اذهب إلى المشفى ! هناك ستجد ، على الأقل ، سريراً تتمدّد عليه .

وكنتُ أضيف :

ـــ فانيا مريضٌ أيضاً . فإذا كان المشفى حسناً أخذتَ الصغير معك .

في صباح اليوم التالي ، عند نهوضنا ، كان « دانيلو » مريضاً جداً : كان رأسُه يؤلمه كثيراً :

كلّم المشرفَ على السجن ، فأمَر بنقله . قال لي دانيلو :

– آنيسيا ، خذيني إلى المشفى ؛ وغداً صباحاً تأتينني بفانيا .
وصلنا . جلسنا على مقعد في ممرٍ صغير . دخل جنديّ الحرس .
– ماذا تفضّل ؟ سريراً أو النوم على الأرض ؟
معنى ذلك أن نعطي المشرفَ الغرفةَ .

قال دانيلو :

– ما معنى هذا ؟ كلّ الناس يجدون سريراً ولا أجد غير الأرض .
– هيّا ، كفى ، سرْ !

نُزِع قيدُه . وأُعطي قميصاً ، وعُيِّن له سرير : اضطجع دانيلو ، وتبيّن طولَ سريره ، وقال :

– لابأس بذلك . سأقضي هكذا دون تعب أربعاً وعشرين ساعة . آينسيا ، تعالي صباحاً لرؤيتي . وإذا سار كل شيء على مايرام فأحضري فانيا أيضاً .

وعدتُ بالمجيء وانصرفت

عدتُ في الساعة العاشرة . لكن المشرف منعني من الدخول ، وقال لي :

– ارجعي في الساعة الرابعة .

رجعتُ في الساعة الرابعة . دخلتُ . كان دانيلو على ظهره ، وغطاء السرير يُغطّي وجهه .

– دانيلو ! إيه ! دانيلو !

لم تندّ عنه حركه . هززْتُه . لم ينبس بكلمة .

– هيا ، دعْكَ من الهزل . ألا تستطيع أن تتخلّى عن مزاحك الثقيل . موافقة ، أنت تحتضر . لكن ها هي ساقك تتحرك !

هكذا كنتُ أمازحه .

سحبتُ الغطاءَ . فماذا رأيت ؟ كانت شفتاه شاحبتين ، ويداه صفراوين ، وأظافره زرقاء . صرختُ :

— يا إلهي ! إنه يموت !

قال لي الجندي الحارس :

— كان يهذي طوال الليل ، ويزحف تحت الأسرة والطاولة . كان يبحث طوال الوقت عن طفل صغير يُدعى « فانيا » . كان يناديه من كل جانب . كان شيئاً لا يُطاق . ومن « فانيا » هذا ؟

أجيبُ

— هذا ابنُنا الصغير .

تزعزع قلبي . قلتُ للجندي :

— سيموت عمّا قريب . دعْني أقضي الليل بجنبه .

فقال :

— كنت أودّ ذلك . لكن هذا غير ممكن . هذا ممنوع .

أعياني الأمرُ فرجعتُ . أردت أن أعدّ له قميصاً لدفنه . قلتُ للأولاد :

— يا أولاد ، سيموت أبوكم اليوم . هذا أكيد .

بكينا معاً ، ثم نام الصغار .

ظللت جالسةً عند النافذة . لم أستطع النوم . كنت كأن شيئاً ما يدفعني نحوه . قلت في نفسي بحرارة : « كيف أدعُه يموت وحده ؟ لو كنت هناك ، لاستطاع ، على الأقل ، أن يزوّدني بتوصياته » .

ظللتُ في النافذة زمناً طويلاً . سمعت تبديل الحراس . وأخذ النهار يطلع . ماذا رأيتُ ؟ مَنْ ذا يمرّ أمامي في الفناء ؟ نقالتان غُطّيتا بقماشة .

— أيكون « دانيلو » ؟ أمن الممكن أن يكون قد مات ؟ .

كانت النقالتان على مستوى نافذتي — نظرت : على إحدى النقالتين ، كان هو بعينه ، ممدّداً ، ميتاً .

— ٢٨ —

لويتُ يديّ : « ياإلهي ! إنهم يحملون زوجي » .
وارتميت على الباب . فأوقفني الحراس .
سألوني
— إلى أين تذهبين ؟
— يا أصحابي ، دعوني أمرّ : زوجي ميت ؛ دعوني أمرّ . لقد حملوه .
— هذا ممنوع . انصرفي .
رجعت . غدوت عاجزة عن الحركة ، عاجزة عن البكاء . تحطمّ قلبي . أيقظتُ ماشا . قلت لها :
— ماشا ، يا ولدي .
فتحت عينيها وسألتني كأنها تخرج من حلمٍ :
— ماذا جرى ، ماما ؟
— ماشا ، أبوك مات .

وبينما كنتُ أقول لها هذه الكلمات ، منحني الله الدموع . أمسكتْ بيدي ونظرتْ من النافذة . ظنّت أنها ربما رأت والدها ،

وأنهم ينقلونه مرة أخرى . ما كان ينبغي لي أن أوقظها بسبب صغر سنها . لكنني كنت وحيدة ، وكانت تدرك ذلك جيداً ! تقاسمْنا أحزاننا ! وبكينا معاً .

أُجري التفقّدُ ، هذا الصباح .

سأل المشرفُ :

— مَنْ هي زوجة « سكفورتسوف » ؟

قلت :

— أنا .

— العمرُ الطويلُ لك ، من جهة « سكفورتسوف » .

انفجرتُ منتحبةً . جذبتُ الأولاد إلي ، وأرسلت الأنين . وماذا يهمني إن كان ذلك ممنوعاً . كنتُ أقول :

— يا صديقي ، يا حبيبي ، يا صاحبي الأمين ، جررْتني إلى أرضٍ غريبة ، وتركتني فيها . وها أنا ذا وحيدةٌ مع أولادي ، مع أولادي الصغار . لو كنتُ أعلم ، لو كنت أستطيع أن أعلم لبقيتُ في القرية .

أخذ الأولادُ يصرخون ، والناسُ من حولي يبكون . وأنا أردّد نواحي :

— خربتُ عشي قشةً قشة ، فلم أعودُ اليوم إلى الوطن ؟ أين أوسّد رأسي ؟ أين أسند ذراعيّ ؟ لم يبق لديّ شيء .

دخلت زوجةُ المشرف على المشفى . حيّيتُها :

— اسمحي لي ، أيتها العمة العزيزة ، أن أذهب إلى الكنيسة مع الأولاد ، لأرى جسد زوجي .

قالت لي :

— انتظري . سينادرنك لتذهبي إلى الكنيسة ، عندما يبلغ عدد النعوش عشرة .

انتظرت . مضى يوم ، ويومان . وفي اليوم الثالث جدّدت رجائي . وكان الرد شبيها بردّهم من أجل « داشكا » .

— فات الأوان لتريه في الكنيسة . لقد دُفن منذ زمن .

قلتُ :

— كيف ، ووعدُكِ ؟

— وإن يكنْ !

ومرة أخرى سمعتهم يقولون :

— او تركناك تذهبين لما تفادينا دموعك .

قلت :

— ربما لم يُتْلَ قُدّاسُ الموتى ؟

— بل تُلي . قمنا نحن بالقدّاس . لا يمكن أن نفعل غير ذلك .

— ٢٩ —

كنت وحيدةً على أرض غريبة ، ومعي أولادٌ صغار . عبثاً أجلْتُ الفكر ؛ فما كنتُ أعلم ما يجب أن أفعل . قال لي بعض الفاضلين :

— تستطعين الآن ، إن شئتِ ، أن تطلبي العودة إلى وطنك .

وشرحوا لي ما الذي يجب أن أفعله . فكّرتُ :

« لماذا أعيش هنا ؟ الحياة عندنا هناك أفضل مع ذلك . » مرّ المشرفُ من هنا ، فكلّمتُه :

— يا صاحب النبل ، أما من وسيلة لإعادتي إلى وطني .

قال :

— ولم لا ؟ هذا ممكن .

وأعطي الأمر لاسترداد الثياب التي قدمتها الدولةُ ، في صباح اليوم التالي ، وإعادة ثيابنا إلينا . ألبستُ الأولاد ، وارتديتُ ثيابي القديمة . قيل لي .

— أترين هذا الجندي . اذهبي معه إلى الشرطة . وسيسلّمونك الإذنَ هناك .

كانت الشرطة على بعد ثلاثين فرسخاً . وكانت سيقان الأولاد ما تزال تؤلمهم . « كيف أقطع هذه المسافة » . وصررُنا ؟ لقد أمرنا بأخذها .

كان لابدّ من الإذعان . ذهبنا . لم يستطع الأولادُ السير . كانوا يبكون ، كانت سيقانُهم تأبى أن تستجيب لهم .

كم أرهقوني بهذه السَفْرة ! حملتُ واحداً بين ذراعيّ . حملتُه فرسخين . وأمسكتُ بالآخر ، فحملتُه بدوره . وكنت أتركهم جالسين وأعود أدراجي لحمل الأكياس . ظلّ الأمر كذلك طوال الطريق . وكانت « ماشا » وهي وحدها المعافاةً ، تساعدني ، فتحمل الصرر التي تستطيع حملها .

كان الجندي يسوقنا أمامه :

— إيه ! أسرعي ، يا عمة ! وإلاّ فمتى نصل ؟

وكنتُ أقول :

— يا صاحبي الطيّب ، كيف أُسرع ومعي هؤلاء الأولاد ؟ وهم مرضى ، كما ترى . وأنا نفسي مُرهقة :

أجاب الجندي

— أخطأتِ بطلب العودة ، مع أولادك هؤلاء :

سألتُ :

لماذا ؟

— سيمرّ وقتٌ طويل قبل أن تعودي إلى وطنك : فا لإجراءات طويلة :

فكّرتُ في نفسي : « آه ! ليكنْ ما يكون » : وأخيراً وصلنا إلى الشرطة : وسُجّلتْ أسماؤنا : وقيل لي :

— والآن ، انصرفوا .

— وأين نذهب ؟ ظننتُ أنني سأُعاد إلى البيت ؟

— إيه ! ليس الأمر بهذه السرعة ، لابدّ من وقت طويل .

— أسألك مرة ثانية ، أين أذهب ؟

— أين تذهبين ؟ اذهبي حيثُ شئتِ :

انهمرت دموعي . إلى أين ألجأ . أأعود إلى السجن ؟ ما من وسيلةٍ أخرى . وأقبل الليل : قلت في نفسي : « لن أصل أبداً . » واستعلمتُ : فدلوني . استأجرتُ عربةً لنقلنا إلى السجن . وصلنا : طرقتُ باب السجن . خرج الحارس :

— ماذا يلزمكِ ؟

— دعْني أدخل مع أولادي . وإلاّ فأين أذهب ؟

خرج المشرفُ أيضاً ، وقال :

— غير ممكن ، أنتِ مسجّلةٌ بين الذين أُطلق سراحُهم :

وهكذا كان السجن مغلقاً في وجهي :

— دعْني أقضي الليل ، ليلة واحدة : ليس لنا ملاذٌ أنا والأولاد

— مستحيل ، استأجري غرفةً :

انتحبتُ . وجلستُ على الأكياس . وأخذ الأولاد يبكون من حولي :

— ياإلهي ! كم من الآلام تحمّلتُ ! أين أذهب بالصغار ؟

كنتُ منهكةً من الألم . قال المشرفُ حينئذٍ :

— حسناً ! إذا كان الأمرُ كذلك ، فاذهبي إلى بيتي ، ونادي ربّة المنزل « ناتالي سيرغيفنا » ، وقولي لها : إن إيفان آندرتيش أَمر بإيوائنا .

ارتميتُ على قدميه وذهبت .

— ٣٠ —

ومرةً أخرى على الطريق ، ومرة أخرى التعب نفسه :

طرقنا النافذة :

— مَنْ الطارق ؟

أجبتُ :

— جئنا من طرف ربّ المنزل

— وما اسمه ؟

— ايفان اندرتيش ، المشرف .

عند ذلك ، أدخلتْنا . كانت المرأةُ ما تزال شابة ، امرأةً من عندنا ، روسية ، منفيّة : نظرتْ إلى الأولاد وقالت :

— كم بردوا ، إنهم يرتجفون !

وقادتهم على الفور إلى غرفة حسنة ، وخلعت ثيابهم المبلّلة — لم يسقط عليهم هذه المرة سوى مطرٍ ضئيل — ووضعتْ على ماشا شالها . وحضّرت السماور وقدّمت الشاي . وذهبتُ أنا لآتي بالأكياس كان علي أن أقوم بالسفر مرّتين ؛ وأخذ نقلُ الأكياس مني وقتاً طويلاً :

عندما انتهى المشرفُ من خدمته ، عاد إلى بيته ، طرح عليّ هو وزوجته جميع صنوف الأسئلة . رويتُ لهم كلّ شيء : قال لي الرجلُ :

— حسناً ! ابقي عندنا . ولن نطلب منك شيئاً بالمقابل .

وأضافت المرأة .

— لكنك ستساعديننا في أمور المنزل : عندنا بقرتان ، وثلاثة جياد ؛ برهني على حسن نيّتك ، ولن ندعك في الشدّة :

وهكذا عشنا عندهم هادئين سعداء : لم يكن عندهم أولاد ، فأخذت تلاطف أولادي وتظهر لهم الود ، فإذا خبزت خبزاً أبيض ، أعطت كلاً منهم رغيفاً مع قطعة سكر وفنجان شاي . وكانت أحياناً تطعمهم على المائدة ، وأحياناً تقدّم لهم الطعام على حدة . ولم تضايقهم البتة .

كنا نأكل على حسابنا . وكنتُ أبذل وسعي في خدمتهما . ولم يطل بهما الأمر حتى صرفا الطاهية . كنتُ أسقي الجياد ، وأنقل الماء ، كان النهر على بعد نصف فرسخ . وكنتُ أقوم بشؤون المطبخ ، وانظّف الأرضية الخشبية ؛ وكنتُ أُحضر السماور .

فضلاً عن هذه الأعمال ، كنتُ أغزل عند المساء مع الصغيرة لهذا أو لذاك ، كنت أكسب عشرين كوبيكاً في اليوم . وكانت المؤونة رخيصة في هذه البلاد . كان ثمن « بود » الطحين خمسة عشر كوبيكاً ؛ وثلاثين كوبيكا أفضل الأنواع ، طحين الحنطة .

لم نكن نشتري لحماً كلّ يوم ، لكن بين وقت وآخر . وكانت الليبرة بكوبيك ونصف .

لم يكن ينقصنا شيء . غير أننا اشتقنا إلى الوطن . وكنا نتوق إلى العودة. وقد قام المشرف بجميع المساعي ليؤمّن لنا الأوراق الضرورية.

— ٣١ —

عرف الناسُ حولنا أننا سنعود إلى الوطن . فعرض علي تجارٌ أغنياء لا أولاد لهم أن أتخلىّ عن أحد أولادي . حاولوا إقناعي بقولهم :

— أعطينا ابنك وسنعامله كابننا . سوف نعوله ، ونعلمه ، ونورثه كل ما نملك .

ينبغي القول أنه لم يكن ، في هذا المكان ، أولاد روس . وكان الجميع يقدّرون ذلك . وكانوا يعرفون أولادي ويعاملونهم بالحسنى .

كنت أصغي إلى هذه العروض وأقول في نفسي : فليكنْ ، سأعطي أحد أولادي . لكن أيهم . لم أكن أعلم .

أأعطي « فانكا » ؟ سيزعجني ذلك . أم « فاسكا » ؟ كذلك الأمر .
أما « فاشكا » فهي البنتُ الوحيدة التي بقيت لي .

لم أخبرْ الأولاد بشيء من ذلك . وكان يقع لي أن أضطجع دون أن أنام ، لأنني كنتُ دائمة التفكير : « يجب أن أختار بين فانيا وفاسكا . سيصبح أحدهما رجلاً متعلّماً ، غنياً . وماذا بوسعي أن أفعل لهم أنا المسكينة التي لا ملجأ لها ؟ وكنت أقول في نفسي : « فاسكا هو الذي سأعطيه ، وسآخذه غداً . سيبكي قليلاً ثم ينسانا ! » ويطلع النهار ، وأنوي أن آخذه ، أن أصحبه ... فلا أستطيع ، وتأخذني الشفقة ، ويصدّني الشك أكثر فأكثر . وهكذا بقيت مترددة ، عاجزة عن اتخاذ قرار .

وصلت ورقة رسمية . وكانت أمراً بالرجوع إلى السجن : فمن السجن يجب أن تكون العودة . وظلّت المسألة نفسها تشغل بالي : « أأعطي أحد الصبيّين أم لا ؟ » . وصليت لله واستشرت مضيفتي . ومرة أخرى ، قرّرتُ أن أعطي « فاسكا » .

في اليوم التالي ، وقفت زلاجةً كبيرةً أمام درج المدخل . جاؤوا لأخذنا . جهّزنا عدة السفر . وإذا بمبعوث التاجر يَحْضر مرةً أخرى . جاء بالعرض نفسه . رأيتُ نفسي مسافرة دون « فاسكا » ، تاركةً إياه بين أيدٍ أجنبية .

انقبض قلبي ، وتبدّد الشكّ . أخذت اولادي ، كلّ أولادي معي في الزلاّجة .

قضينا يومين في السجن . وفي اليوم الثالث ، بعد عيد عمادة سيّدنا ، سافرنا . عندما استأذنا « ناتالي سيرغيفنا » بكينا ، وشكرنا هذه الأم الكريمة . وقد صنعت مختلف صنوف الأطعمة من أجل سفر الأولاد .

سافرنا بالزلاجة ، وفي « اوكاتسك » توقفنا . رمدت عينا فاسكا . فذهبنا إلى المشفى . كان المشفى حسناً وواسعاً . وكانوا يعطوننا عشرة كوبيكات للواحد من أجل الطعام . ومجموع ذلك ثلاثون كوبيكاً . وكان المرضى يأكلون على نفقة الدولة . ولم نكن ننفق مالنا كله . كنا نشتري ، عادة ، خبزاً أسمر بخمسة كوبيكات ، وسمكاً ، وضلعة لحم وبطاطا ، بكوبيكين ؛ وما بقي من الثلاثين كوبيكاً كنت أوفرّه . قضينا ثلاثة أشهر في المشفى ، وكنتُ سعيدة جداً . لأن الفصل كان شتاء ، وكنت سألاقي كثيراً من العناء ، مع الأولاد ، في الطريق .

دام ذلك حتى الفصح ، فأذِن لنا بالسفر . وذهبنا بالزلاجة حتى « بيرم » بسرعة كبيرة . لكن قبل أن نصل بيرم ، وقعت لنا مصيبة .

كنا قد توقفنا أثناء الليل . أخذت أكياسي . قلت في نفسي وأنا أحملها إلى الغرفة : « يبدو لي أنها شديدة الخفّة . لا شك أنني أصح جسماً ، وأن قواي تزداد .. » .

في الغرفة التي دخلناها ، كان حراسٌ يلعبون بالورق .
قالوا :

— هل الجو بارد هنا ؟

— باردٌ جداً .

— سننقلكم إلى قسم الرجال ، فهو أدفأ .

وهذا ما فعلوه . كان الوقت أبكر من أن ننام فيه . قلت لماشا :

— سنخيط الوزْرات .

قالت :

— لمَ لا ؟

كان معي كيسان . في أحدهما التنانير والقفطانات ؛ وفي الآخر ، الفساتين والقماش والابر وبكرات الخيوط .

تناولتُ هذا الكيس لأخرج منه القماش .وأدخلت يدي ، وبحثتُ . فوجدتُ تنانير الكيس الآخر مسفّطة ، لكني لم أجد لا الفساتين ولا القماش . فأخذت انتحبُ :

— لقد سرقونا . لن نحمل معنا شيئاً إلى المنزل . ما أشقاني ! لن أسعد في حياتي .

في الصباح ، مرّ المشرف . كنتُ جالسةً أبكي .

— ما بك ؟ لمَ هذا اليأس ؟

— سرقونا ، يا صاحب النبل .

— كيف ذلك ؟ أين قضيتِ الليل ؟

— في قسم الرجال .

— لاادرى .

أمر المشرف بدعوة الحراس . فعنّفهم بشدّة حتى امتقعوا من الرعب . فأشفقت عليهم . وقلتُ في نفسي : « قد يؤدي ذلك إلى

خرابهم ، ولن يردّ لي ذلك أغراضي المسروقة . ثم لعلهم ليسوا هم السارقين . » فقلت :

— يا صاحب النبل ، نحن الذين طلبنا تغيير غرفتنا . كان الجوّ بارداً في الأخرى . أما الأغراض فلا شك أننا فقدناها ، في « اوكانسلك » بخطأ ، منا .

أفاض المشرف في مشهد الملامة ، لكن دون عقوبات .

— ٣٣ —

ثم وصلنا النهر . صعدنا سفينةً . وكان بين المسافرين ، كثيرٌ من أرامل المحكومين بالأشغال الشاقة ، عائدات إلى وطنهن ، ومن السجناء القدامى الذين أنهوا مدة سجنهم فعادوا إلى بيوتهم ، وكثير من الناس الذين لم يكونوا خارجين من السجون . كنا ننظر إلى الجنود وهم يمرّون بجنبنا ، وكنا نقول :

— هؤلاء هم خطّابنا يمرّون ! آكولينا ، انظري إلى ذاك .

كنا نتقاسم أحزاننا ونبكي معاً . وكان يقع لنا أن نضحك .

قادتنا السفينةُ إلى نيجني ، ثم القطار إلى موسكو . وهناك ، ظننتُ ، في اللحظة الأولى أنني في المرفأ ، لكني ما لبثت أن أدركتُ خطئي : « والآن ، أين نذهب ؟ لقد أكل الأولاد حتى الآن فشبعوا ، وشربوا فارتووا : كلّ شيء رخيص في سيبيريا . أما الآن فماذا نأكل . » . قالت فانيا :

— سوف نتسوّل ونتغذى بقطعة بسكويتٍ نتقاسمها مع الجدّة .

وأخيراً وصلنا «تولا» . قضينا فيها الليل . وفي اليوم التالي أرْسلنا إلى دائرة المنفيين ، ومنها إلى الشرطة . كان مفوض الشرطة غائباً ،

فانتظرناه يومين . كان بيتنا قريباً جداً ، ومع ذلك حجزونا ! قضتنا اليومين كيفما أتفق لنا . كانت هناك امرأةٌ من معارفنا سقتنا شاياً . وأخيراً عاد المفوّض . فوجّهنا إلى دار البلدية . كنا سنبقى وحدنا فيها . لكن ذلك لم يكن مسموحاً . وُضِعْنا في عربات ، ووصلنا قرية ، ومنها ذهبنا إلى قرية أخرى تقودنا جيادٌ نشيطة . وإذا لم تتوافر الجياد كنا ننتظر حتى تتوافر . وعندما كنا نمر بقرية فيها دارٌ للبلدية كان الناسُ يحيطون بنا : « من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ . » . كانوا ينظرون إلينا بدهشة كأننا وثنيّون .

لم تكن لي رغبةٌ في الكلام . وما كنتُ أريده هو المنزل ، المنزل بأقصى سرعة . كان الانتظار يثير اشمئزازي .

في اليوم الثالث بعد « تولا » أعطونا ، في دار بلديتنا ، الإذن بالانصراف . استأجرنا عربةً وقصدنا قريتنا ، فوصلناها ظهراً . كان الناس في الحقول ، مشغولين بزراعة البطاطا . ذهبت إليهم . كانت ابنة إشبينتي معهم . تقدّمتُ نحوها ، دون أن أقول شيئاً . رفعت عينيها :

– آينسيا ، أهذا أنتِ حقاً ؟

عرفتنا . تعانقنا وبكينا ، وبكى الأولاد . وفرحنا . هذا هو البيت .

صاح الناسُ بأمي :

– عمّة آرينا ، هذه هي ابنتك !

خرجت أمي من المنزل على عجل :

– يا ولدي العزيز ، من أين جئتِ ؟

سقطتُ عند قدميها .

– يا أمي ، أنتِ التي غذّيتني ، استقبلي في بيتكِ البائسة وصغارها.

صرختُ ، وبكيت ، ونحت . وأمي أيضاً .

– يا ولدي الحبيب ، اتعبتُ ساقيّ ، وأبليْتُ عيني ، في انتظار ابنتي .

أنهضتْني وقادتني إلى المنزل ، كانت أختها تعيش معها . أما الأب فقد مات أثناء غيابي .

استرحتُ في الأيام الأولى . ثم كان لابد لي أن أتساءل كيف يمكنني أن أتخلص من ورطتي ، وأحصل على منزل صغير ، وأؤمّن مصير أولادي . عشتُ أول الأمر مع أمي التي كانت تطعمني بما يعادل عملي .

حياة الأرملة حياة جديرة بالرثاء ، سيئة ، ويصعب التخلّص منها دون إثمٍ . تلك الحياة ، أراها من بعيد ، في الضباب . ولستُ أذكر بوضوح إلا الحياة في السجن مع دانيلو ، وفي الذكرى تتحوّل آلامنا إلى أفراح . أما الباقي فكأنه لم يوجد .

كبر الأولادُ ، وأخذوا يشتغلون ، واشترينا منزلاً خشبياً . ألحقتُ فاسكا بإسكافيٍ . أما « فانيا » الحبيب المسكين فقد مات على أثر فتْقٍ ، بسبب الجهد الذي بذله هناك ، في تلك البلاد الأجنبيّة . وبقيتُ وحدي . أصبحت الحياة عابسةً ؛ اختنقتُ بين الجدران الأربعة . وأخذ طلاّبُ الزواج القدامى الذين صاروا أرامل والذين كثر أولادُهم يتحرّونني للزواج . لكني لم أكن أريد أن أتزوّج . خفتُ إنْ تزوّجتُ أن يأخذوا « فاسكا » إلى الجيش : إذ لن يبقى يتيماً ابن أرملة . بيد أني تزوّجت فيما بعد ، عندما صرتُ عجوزاً .

وقد وقع ذلك على الشكل الآتي . ذات يوم جاءتني صديقةٌ :

— أترغبين ، يا آينسيا ، في خطيب لطيف ؟ عندي واحدٌ لكِ :

— ومَنْ هو ؟

— إيفان ميكيتيش ، قوّاس الكنيسة . ليس لديه أولاد . وهو رجلٌ شهم .

— آرينا ، ها أناذا أرملةٌ منذ ثماني سنوات . ألا تبدو مضحكةً فكرةُ الزواج ثانية .

— تبدو لكِ مضحكة الآن وأنت معافاة ، لكنك ستصبحين عجوزاً ، فمن ذا الذي سيطعمك . حينذاك تودّين أن تتزوجي فلا تجدين مَنْ يقبل بكِ . ثم إنه بحاجة هو أيضاً إلى من يُدبرّ له منزله ، تلزمه امرأة .

في اليوم التالي ، ذهبتُ لدراسة قمح كاهننا . وعندما رآني إيفان ميكيتيش من نافذته أرسل كنّته يطلبني .

— عمّة آينسيا ، الأبُ يرجوك أن تدخلي .

— لماذا ؟

— هو بحاجة إليك ، ما أدراني ؟ أنا .

— دخلتُ ، حيّيتُه . كان الشاي على المائدة . قلتُ :

— هنيئاً .

— أهلاً بكِ . كيف صحتكِ ، عمّة آينسيا ؟ اشربي شاياً معنا .

قلتُ :

– لم أخرج لأشرب الشاي بل لأدرس القمح .

– لماذا لا تجلسين لحظة ، بما أنك هنا وصلتِ في الوقت المناسب .

جلست ، أفرغتُ فنجاني وقلبتهُ (١) على الصحن .

– أتريدين فنجاناً ثانياً ، آينسيا ايفانوفنا ؟ تعرفين المثل القائل : من اكتفى بفنجان واحد فسوف يجرّ ساقه .

قلتُ :

– حسناً ! لا يهمّ إن صرتُ عرجاء . فأنا لا أركض خلف الزوج .

– كفى ! ! أنا أريد أن أغازلك ، وأنت تقولين لي إنك لا تريدين أن تتزوجي .

– أهذا وقتُ التفكير في الزواج ؟ لقد سقطت أسناني .

ان كان هذا ما يمنعك ، فسوف ننجح مع ذلك في ان نمضغ لقمتنا .

– نهضتُ لأذهب . تبعتني أختُ إيفان إلى المدخل . وقالت :

– بلا مزح ، أتريدين أن تتزوجي أخي ؟

– لا أدري بمَ أجيبك ، عمة « مرثا » ، الناس يحثّونني على ذلك . ولم أستطع أن أتآلف مع هذه الفكرة . وما زال عندي ولدٌ يحتاج إلى تربية .

قالت :

– ايه ! نحن نعتني بالولد وهو صغير السن ، وقد يقع أن يكون هو الذي يعتني بكِ عندما تكبرين .

تردّدتُ طويلاً . كان الناس يسوّغون لي الزواج ، ومع ذلك ترددتُ . وأخيراً أفلحوا في إقناعي .

---

(١) قلبته : قلب الفنجان يعني أنها اكتفت بما شربت .

وباركتْ أمي قبولي ، لكني فكّرتُ بأن ليس لدي صك ٌ يثبت أني أرملة . قابلتُ الكاهن وشرحتُ له القضية . قال لي :

— من المستحيل عقدُ زواج في مثل هذه الشروط .لابد من بذل مساعٍ .

بذلت المساعي ودام ذلك زمناً طويلاً . تقدّمتُ بطلبات ، وقمتُ بزيارات للأسقف . فلم أوفّق .

كانوا يجيبون :

— مستحيل ، كيف يمكننا أن نعلم إن كان زوجك حيّاً أم ميتاً ؟

— وكيف يكون حيّاً ؟ لقد أرسلوني من هناك لأنني صرت ارملة .

— وما الدليل ؟ يجب أن تقدّمي وثيقة تثبت ذلك .

التمسنا ذلك في كل مكان ، حتى تعبت أرجلنا . وكنا على شفا اليأس ، عندما وقعنا على الرجل الذي يمكنه أن يدبّر كلّ شيء . أمّن الوثيقة وزوجونا .

إني انهي حياتي إذن مع العجوز إيفان ميكيتيش . وهو يترك الأولاد وشأنهم ، كما أنه لطيفٌ معي ، وإن كان غضوباً . ويكفي أن أداري ميوله وأتكهن بنزواته — حتى يسير كل شيء على ما يرام .

لكن لن يحلّ عندي محل دانيلو .وعندما أفكر في الزمن الذي قضيته في سيبيريا وأنا أتألم معه أحسّ بقلبي يخفق. ذلك أني كنتُ أحبه : لقد كان قلباً بسيطاً .

* * *

الفهرس

* * *

٣٠١٠٠ ط١ / ١٩٩٥/٣/



ليون تولستوي

الأعمال الأدبية الكاملة

هذا هو المجلد السابع عشر من مؤلفات تولستوي الأدبية الكاملة نقلها عن طبعة RENCONTRES في لوزان (سويسرا) الأستاذ صياح الجهيم بأسلوب مشرق يجمع بين الدقة العلمية ومتانة العبارة العربية.

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

سعر النسخة داخل القطر: ... ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل: ٤٠٠ ل.س